الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أكلي محند أولحاج
- البويرة -
كلية الآداب واللغات

Ministère de l'Enseignement Supérieur
et de la Recherche Scientifique
Université Akli Mohand Oulhadj - Bouira -
ⵜⴰⵙⴷⴰⵡⵉⵜ ⴰⴽⵍⵉ ⵎⵓⵃⵏⴷ ⵓⵍⵃⴰⴵ - ⵜⵓⴱⵉⵔⵜ -
Faculté des Lettres et des Langues

القسم: اللغة والأدب العربي
الميدان: لغة وأدب عربي
الشّعبة: دراسات لغويّة
التّخصّص: علوم اللّغة وتحليل الخطاب

# الأبعاد التّداولية في صبح الأعشى في كتابة الإنشا للقلقشندي

## أطروحة مقدّمة لنيل شهادة الدكتوراه ل م د

**إعداد الطّالب:**
**موسى طهراوي**

**إشراف الأستاذة:**
**د: رشيدة بودالية**

**لجنة المناقشة:**

| الرقم | الاسم واللقب | الرتبة العلمية | المؤسسة الأصلية | الصفة |
|---|---|---|---|---|
| 1 | أ.د/ مصطفى ولد يوسف | أستاذ التعليم العالي | جامعة آكلي محند أولحاج- البويرة | رئيسا |
| 2 | د/ رشيدة بودالية | أستاذة محاضرة" أ" | جامعة آكلي محند أولحاج- البويرة | مشرفا ومقرّرا |
| 3 | د/ نوال زلالي | أستاذة محاضرة" أ" | جامعة آكلي محند أولحاج- البويرة | ممتحنا |
| 4 | د/ البشير عزوزي | أستاذ محاضر" أ" | جامعة محمد البشير الإبراهيمي- برج بوعريريج | ممتحنا |
| 5 | د/ عزوز ختيم | أستاذ محاضر" أ" | جامعة محمد بوضياف- المسيلة | ممتحنا |

**تاريخ المناقشة: 22 فيفري 2024.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيد الخلق" محمد" صلى الله عليه وسلم القائل:« من لم يشكر الناس لم يشكر الله»( رواه الترميذي).

وعملا بهذا الحديث، وبعد أن منَّ الله عليَّ بإتمام هذا العمل، فإنِّي أتقدم بالشكر الجزيل إلى الأستاذة الفاضلة" دة: رشيدة بودالية" التي لم تبخل عليَّ بالمساعدة والعون، ولم تزل تزودني بالنصح والتوجيه، فلها منّي فائق التّقدير والاحترام، وجزاها الله عنّا جزيل الأجر والثواب.

كما نشكر جميع أساتذة قسم اللّغة العربيّة وآدابها بجامعة البويرة الذين أشرفوا عليَّ وكونوني.

والشكر موصول إلى من مدَّ لي يد العون من قريب أو من بعيد وخاصة: ح. أحمد، ل. الطيب.

(موسى)

# الإهداء

إلى الوالدين الكريمين حفظهما الله.

إلى إخوتي وأخواتي.

إلى زوجتي الكريمة، لصبرها وتفانيها.

إلى ولدي" حسن" وابنتي" فاطمة".

إلى من يقف الإنسان أمام كرمه ممتنا خجلا، أساتذتي وأستاذاتي، إلى كلّ من علّمني حرفا... إلى كلّ من مدّ لي يد العون... إلى كلّ ذي فضل ومن له حقٌّ عليّ

إلى كلّ هؤلاء... أهدي هذا العمل المتواضع.

# مقدمـــــــــة

## مقدّمـــــــــة:

تُعتبر النّصوص التّراثية أرضية خصبة للتّناول التّداولي، وذلك لما تحتوي عليه من وحدات قولية وبُنى خطابية تخدم النّظرية النّقدية التي تتّصل اتصالا مباشرا بالأسلوب باعتباره مجموعة من التّراكيب التي تحمل شحنة دلالية معينة؛ تتغيّر تبعا لتغير هذه التّراكيب. وبالنّظر في هذه النّصوص التّراثية التي يزخر بها أدبنا العربي يمكن القول بأنّها جميعا أو جلّها تتمتّع بهذه الميزة الخطابية التي تخاطب العقل والوجدان معا.

وإنّنا نعمد في دراستنا هذه إلى واحدة من المدوّنات العربية التّراثية التي تتمتّع بهذه الحيويّة في أسلوبها ولغتها وتراكيبها، ونقصد بذلك كتاب" صبح الأعشى في كتابة الإنشا" لأبي العبّاس أحمد القلقشندي، والذي قام بتحقيقه وتصحيحه محمّد عبد الرّسول إبراهيم، والمطبوع على نفقة دار الكتب المصرية بقسمها الأدبي بالمطبعة الأميرية بين سنوات: 1913- 1922.

والنّاظر في هذا الكتاب يتولّد لديه انطباع أوليٌّ عنه، هو أنّه عبارة عن موسوعة ثقافية جمعت بين التّاريخ والدّين والفكر والفلسفة. وهذا ما جعل أبوابه وفصوله تُحقّق إنجازات قوليّة وخطابيّة تصبو في مجملها إلى التّوجيه والإرشاد والتّعليم، وبهذا الصّدد يمكن اعتبار مدوّنة" صبح الأعشى" كتابا تعليميّا لأنّه يتعلّق بالأساس بالإنشاء وضوابطه التي أرسى دعائمها كَتَبَةُ الدّواوين الإنشائيّة، والقلقشندي واحدٌ منهم؛ إنْ لم نقل أبرزهم.

ويُلحظ ههنا أنّ مدونة" صبح الأعشى" تستمدّ مادّتها العلمية من أصول قديمة، ونعني بذلك أنّها كُتبت في عصرٍ متأخّر هو" عصر الضّعف" غير أنّ محتوياتها تنتمي إلى عصورٍ سابقة: كالعصر الجاهلي وما قبله، والعصر الإسلامي والأموي والعبّاسي، وذلك لِما تضمنته من رسائل وخطب تنتمي إلى تلك الحقب والعصور.

ومن أجل هذا المنحى، فإننا عَمدنا إلى التّداولية باعتبارها نظرية حديثة تتطلّع إلى التّركيز على فاعلية تلك النّصوص التّراثية، وفاعلية تلك الأصول القديمة والنّظر في قدرتها على المحاورة والتّخاطب. فهي تُعملُ النّظر في بعض معالم العلاقة الرّابطة بين المتكلّمين. كما أنّها تُعنى برصد أكثر الاختلافات الدّقيقة القائمة بين المصطلحات والكلمات؛ ومنه تتمايز الألفاظ والأقوال تداوليّا عن طريق مستعمليها ومقامات الاستعمال، والموضوعات التي تتناقلها، وبأنماط الخطابات، وفي هذا تجاوز لمناهج لسانية أخرى كالبنيوية التي تنظر إلى المعنى على أنّه لا يخرج إلى معان خارج البناء المعجمي له، وينظر إلى النص من خلال بنائه بداية من الجزء إلى الكل( التحليل الشكلي)، والتوليدية التحويلية التي تقوم على

دراسة النماذج والأشكال ضمن بنية اللغة، بالإضافة إلى الاهتمام بالمتكلم الذي تتغير معه الدلالة كيفما يوجه ملفوظه، والسيميائية والوظيفية وغيرها من المدارس، إلا أنّ التداولية تتجاوز مثل هذه الدراسات إلى دراسة الخطاب والنص، وجعلت على رأس أولوياتها الاهتمام بالبعدين الاستعمالي والتّواصلي.

والجدير بالذكر؛ أنّ هناك ترابطا بين مفاهيم التّداولية وتلك الدّراسات الأدبية المتعلّقة بالخطابات على اعتبار أنّ تلك النّصوص خطابات تمّ إنتاجها في سياق تواصلي محدد وظروف وملابسات معينة لأداء أغراض ومقاصد ما. كما أنّ هذه المفاهيم والإجراءات- التّداولية- تحاول تحديد تموضع لتلك النّصوص من جملة الخطاب، مركزة على مختلف الأبعاد التّداولية التي يُميز عن طريقها بين مختلف الخطابات وأنواعها تراثية كانت أم حديثة.

هذا وقد أردنا لهذه الدراسة أنْ تحمل عنوان:" **الأبعاد التّداولية في صبح الأعشى في كتابة الإنشا للقلقشندي**".

ويرجع سبب اختيارنا لهذا الموضوع إلى قلة الاهتمام به رغم عراقته، هذا إن لم نقل أنّ تراثنا العربي عموما لا يزال بحاجة ماسّةٍ إلى البحث والتنقيب من مختلف النواحي والجوانب، وذلك بجعله مدار البحث كونه من جهة غني بالعلوم والمعارف ومن جهة أخرى يمثل ملاذ الذّات العربية وإثباتا لهويتها في خضم هذا الزخم المعرفي الوافد إلينا من الغرب. فأردنا إعادة قراءة مدونة" صبح الأعشى" قراءة جديدة لمعرفة مدى تنبه علمائنا القدامى لمثل هذه الدراسات والمناهج النقدية الحديثة.

وعليه جاءت الدراسة لتعالج إشكالية مفادها: **إلى أيّ مدى تجلت ملامح التفكير التداولي عند القلقشندي في كتاب" صبح الأعشى"؟**

ويتفرع عن هذه الإشكالية:

- كيف أسهمت الآليات التداولية( أفعال كلام، استلزام حواري، حجاج...) في فهم أبرز المعاني والمقاصد التي تضمّنتها خطابات القلقشندي؟

- وما أثر هذه الآليات في تحقيق التّأثير والإقناع لدى المتلقّي؟

للإجابة عن هذا؛ أردنا أنْ نركّز على المقام التّداولي/ التّواصلي في دراستنا لخطاب القلقشندي واستراتيجياته وتحديد آلياته ومكوناته أثناء ظروف إنتاجه وكشف ملابساته للبحث عن مختلف مقاصده. كما تقتضي الدّراسة أيضا الاهتمام بما يحدثه النّص اللّغوي بين المتخاطبين أثناء عمليّة التلفّظ والسّياق والمقاصد وكيفيات تمظهرها؛ معتمدين في ذلك على دراسات تداولية ونصّية عربية وغربية: نذكر منها:

دراسات كل من: طه عبد الرّحمن في كتابه:" تجديد المنهج في تقويم التّراث"، وعبد الهادي بن ظافر الشهري في كتابه:" استراتيجيات الخطاب"، وكذا المعجم المتخصّص في تحليل الخطاب لمجموعة من الأساتذة المتخصصين، وجهود أوستين في كتابه:" نظرية أفعال الكلام العامة"، وكتاب:" العقل واللّغة والمجتمع" لجون سيرل في حقل الأفعال الكلامية.

وبناءً على الإشكاليّة المطروحة؛ فقد اقتضت منّا طبيعة الموضوع تقسيم البحث إلى ثلاثة فصول مصدّرة بمقدّمة، ثم مدخل يتوقّف عند ماهية التّداولية وشيء يسير من تاريخها وأعلامها، وأهمّ الآليات التي تستصحبها كأفعال الكلام والحجاج والتّأويل والاستلزام الحواري...، إضافة إلى لمحة عن علاقة التّداولية بالبلاغة والخطاب التّراثي على غرار" صبح الأعشى".

أمّا الفصول فقد جاءت ملخّصة كالتّالي:

**الفصل الأوّل:** وُسِم بإشكالية آلات الصّناعة الرّوحانية وأثرها على التّواصل اللّساني، ويتضمّن ثلاثة مباحث. المبحث الأول: تطرّقنا فيه إلى معارف القلقشندي ومكوناتها الثّقافية وتأثيرات العصر على الصناعة الإنشائية. بينما المبحث الثّاني: قمنا فيه بدراسة منهجية وبنية كتاب" صبح الأعشى في كتابة الإنشا"، لنبرز من خلالها قدرة القلقشندي على بناء موسوعته بطريقة مميّزة وممنهجة في طريقة عرضه للمادّة، وكيفية حديثه عن ماهية الصّناعة الإنشائية والتّقنيات والآليات التي استعملها من أجل ذلك. أمّا المبحث الثّالث: وخُصّص للمداعبة اللّغوية في صناعة الإنشاوخصائصها الفنية وآليات التّواصل في" صبح الأعشى"، فالقلقشندي حاول من خلالها- اللّغة- التّعبير عن أغراضه ومقاصده التي تهدف إلى تصوير مواقفه الشّخصية والاجتماعية...، والعمل على التّأثير في مخاطبيه عن طريقها باعتبارها وسيلة لا تنحصر وظيفتها في التّواصل فحسب، بل تعمل على تغيير الواقع والتّأثير في العالم.

**الفصل الثّاني:** عُنوِن بالالتزام التّداولي وعقبات المعرفة والتّخاطب في" صبح الأعشى"، وبه ثلاثة مباحث. المبحث الأول: خُصّص للفعل الكلامي وأبعاده التّداولية وذلك من خلال الولوج إلى مدوّنة" صبح الأعشى" التي تستبطن بداخلها عوالم ووجودات ضمنية وأخرى فعلية وبينهما تتمّ الحركة والتّداول وتتعاقب الأصوات والخطابات وتتوزع على عوالمه- القلقشندي- الافتراضية والمجازية وقدرته على تحقيق التّداول والتّحاور بين الشّخوص التي استحضرها. ليليه المبحث الثاني: وتناولنا فيه إستراتيجية التّلميح واستلزام التّخاطب، فقداستعمل القلقشندي عدة استراتيجيات خطابية من أجل توصيل مقاصده وأهدافه، كاعتماده على الإستراتيجية التّلميحية، وكيفية الانتقال عبرها من القوّة الحرفية إلى القوّة المستلزمة وفق ما ينصّ

عليه مبدأ التّعاون الغرايسي، وكذا الآليات البلاغية[ كناية، مجاز، استعارة...] التي يتم من خلالها الخرق الدّلالي( الاستلزام الحواري)، وما لها من وظائف تجعل المتلقّي يذعن ويسلّم بما يطرح عليه من دعاوى في صبح الأعشى. أمّا المبحث الثّالث: وتمّ الحديث فيه عن الإشاريات الخطابية وفاعليتها التّواصلية من خلال مدوّنة" صبح الأعشى".

**الفصل الثّالث:** اشتغلنا فيه على الاستدراج التّداولي والبعد اللّغوي في" صبح الأعشى"، وينضوي هو الآخر على ثلاثة مباحث أيضا. المبحث الأول: تطرّقنا فيه إلى الحجاج البلاغي، وما يصطحبه من آليات حجاجية وبلاغية استعملها القلقشندي بغية الإمتاع والإقناع في خطاباته. أمّا المبحث الثّاني: فكان حول الحجاج اللّغوي بالتّقنيات الاتّصالية والانفصالية وغيرها. بينما المبحث الثّالث: فيعرض للرّوابط والعوامل الحجاجية ودورها في توجيه الخطاب.

لنخلص في الختام إلى أهمّ النّتائج المتوصّل إليها من خلال الدّراسة تضمّنتها خاتمة البحث.

وقد اعتمدنا في دراستنا على المنهج التداولي وذلك لمتطلبات الموضوع وقدرته على التماشي مع مثل هذه النصوص التراثية، بالإضافة إلى مناهج أخرى كالمنهج الوصفي التحليلي الذي يقوم على التسلسل المنطقي للأفكار والذي يتيح عملية الاستنباط والاستنتاج من المقدمات والفرضيات، والمنهج التاريخي وذلك عند تقصي الأصول الفلسفية للفكر التداولي.

وأشير هنا إلى مسألة تتعلّق بصعوبة التلقّي والتّفاعل مع نصٍ قديم ويتعلّق الأمر بمدوّنة" صبح الأعشى" خصوصا في عملية اختيار العيّنة، بسبب اتّساع المدوّنة وانفتاحها على علوم كثيرة، إضافة إلى ذلك التّداخل الذي شهدته الدّراسات اللّغوية واختلافها في تحديد مصطلحاتها وترجماتها من لغتها الأصلية إلى العربية، وكذا اختلاف مجالاتها ومبادئها وتشعّب مناهجها. وصعوبات تتعلّق بنقص الدّراسات التّداولية التي تهتم بالكشف عن مختلف الأبعاد التّداولية للخطابات، والتي تساعد في تبيين آليات التّواصل والتّخاطب.

وتظل هذه الدراسة مجرد مدخل للولوج إلى عوالم مدونة" صبح الأعشى" فهي تستحق بطبيعة الحال المزيد من الدراسات. وعلى إثر هذا فإن بحثنا يتوخى مجموعة من الأهداف أبرزها:

– الاستعانة بالمناهج الغربية وعلى رأسها التداولية لما تحمله من إجراءات تسهل في الفهم والكشف عن قيم النصوص وخصوصا التراثية منها.

– معرفة مدى قدرة تراثنا العربي على استيعاب الدرس التداولي بكل مناحيه.

– استحضار التراث لتأسيس المستقبل من خلال توجيه مختلف الدراسات العربية اللسانية إلى تلك النصوص التراثية؛ وعدم إحداث القطيعة بين القديم والحديث وذلك لتأسيس درس تداولي عربي محض يستوعب تلك النصوص التراثية.

وفي الأخير، أتوجّه بالشّكر الجزيل وعظيم الامتنان إلى الدّكتورة المشرفة: "رشيدة بودالية" التي رافقتني منذ ميلاد هذه الفكرة إلى غاية نضجها واستوائها في شكل مذكرة تخرجٍ. والتي لم تبخل عليّ من موفورها العلمي في تصويبي وتوجيهي، وإمدادي بالمراجع، وأشكر لها جميل صبرها عليَّ ونصحها إيايَّ، فلها منّي أسمى عبارات التّقدير والاحترام.

كما أتقدّم بجميل الشّكر والعرفان إلى أعضاء لجنة المناقشة كلٌّ باسمه وكلٌّ مقامه، الذين تكرّموا بقراءة هذا البحث، ومناقشته وتصويبه، فلهم مني وافر الشّكر وكل التّقدير والاحترام على كل ما بذلوه من جهد وعناء، فجزاهم الله خيرا، ووفقهم لما يحبه ويرضاه.

جويلية 2023

# مدخل

أوّلًا– التّداولية: الأسس النّظرية والمعرفية.

ثانيًا– التّداولية وتحليل الخطاب.

ثالثًا– ملامح التّداولية في الفكر العربي القديم.

**أوّلًا- التّداولية: الأسس النّظرية والمعرفية**

إنّ قيمة الدّرس التّداولي تتّضح جليّا في تلك الممارسة اللّغوية التي تتمّ عبر الكلام، حيث يسعى المتخاطبون إلى تحقيق التّواصل فيما بينهم قصد تحقيق أغراضهم الحياتيّة. وقصد إفهام السّامع مرادهم، ودفع التوهم الذي قد يحصل أثناء التّخاطب من جراء اللبس الذي يلحق الملفوظات التي لم يقصد إليها المتكلم، ولكنه أثناء دورة الكلام وقع التلفّظ بها من غير أنْ يقصد إليها؛ والمعنى أننا قد نريد شيئا ونعبر عنه بغير الملفوظات التي تناسب إرادتنا لذلك الشيء المراد. وفي هذا الإطار يشتغل علماء التّداولية على إبراز قيمة التلفّظ، وإبراز دور السامع لأنه متلقٍ للخطاب، وهو من يحل شفرته ويشرح عبارته، ويفهم مراد المرسل عبر آلية التّحليل والتّعليل، وعبر عملية التّأويل التي هي دعامة فهم الخطاب.

ومن شأن هذه الملفوظات أنّها تنتمي إلى حقول معرفية معينة؛ فمنها ما هو علميّ مباشر يتّسم بصفة الإخبار، ومنها ما هو أدبي خالص تغلب عليه البلاغة والفن فنجده ينزع إلى الأساليب غير المباشرة التي من شأنها أنها تستبطن الكثير من المعاني الكامنة خلف ظلال البلاغة ووراء المجاز.

واللّافت للّنظر في مدونة" صبح الأعشى" أنّها تنتمي إلى الأدب الخالص وإنْ غلب عليها الطّابع العلمي والتّعليمي، ولكن ينبغي النّفاذ إلى تلك المعاني الأدبية الكامنة فيها والمستعارة من أزمنة سحيقة. كما أنّه ينبغي القبض على تلك الحقائق والمسلمات التي يعمل القلقشندي على بثها في أبناء عصره، ويتعلق الأمر:" بالكتابة والإنشاء" وهي من الأمور الواضحات التي لا تحتاج إلى بيِّنات ولا إلى جدل.

لم يكتف القلقشندي بمشاهدة الحقائق من الخارج، وإنّما اتّصل بها واتّحد معها وذاقها وعاناها، ومن أجل هذا السّبب كان القلقشندي فنانا بكل ما تحمل هذه الكلمة من معانٍ. وهكذا فإنّ فضيلته تمثّلت في الإحساس بعصره وأشياء عصره وإنسان عصره والدّخول في حالة تلبّس وتوغّل في الذّات والوجود.

في مدونة" صبح الأعشى" تتبدى الحقيقة المستورة وراء الحقيقة المبذولة المتداولة: **أليس وراء الإلحاح على فكرة الإنشاء والكتابة مضمرات قولية؟!**

يخضع القلقشندي هذا الإلحاح لمنطقه، وفهمه وليقين اللّحظة النّفسية التي تملك عليه وجدانه وعقله. والمسكوت عنه في هذا التّساؤل هو:

- إنّ أبناء زمانه لا يكترثون لفنّ الكتابة والإنشاء!.
- إنّ هؤلاء الذين يتعاطون الكتابة ليسوا بأهلها؟!
- إنّ هذا الذي يحصل في دواوين الكتابة يتطلّب مراجعة.

وبغية تحقيق مراده، كتب القلقشندي" صبح الأعشى" والملاحظ أنّ التّسمية بحدّ ذاتها تحمل همَّ المؤلّف، وهذا ما يعكس إقباله على هذا الفنّ وحرصه اللّافت على القيام به على نحو كامل، والتصدّي للإسهام فيه بروح المسؤول الذي يدرك طبيعة الأشياء على حقيقتها ويضفي عليها لمسته بوصفه فنانا مُجيدا في مختلف الفنون التي طرق بابها.

في مدونة" صبح الأعشى" سؤال عن جدوى" الكتابة" وهل هي طريق" المعرفة"؟، وهل بإمكان" الكتابة" أنْ تكون" ذاكرة" مادية تحفظ التاريخ والفقه والأصول؟

يمكن الجزم بأنّ الكثير من الحقائق التّاريخية قد توارت مع أصحابها لحظة مفارقتهم الحياة وذلك يوم كانت الرّواية الشّفوية هي السّجل المتوارث بين الأجداد والأحفاد، وكثير مما تداولته الألسن بالعنعنة قد طمس وتلاشى، حتى جاءت" الكتابة" كبديل عن المشافهة. وقد اعتنى الدّرس اللّساني المعاصر لهذه المسألة، ومن بعده نظرية القراءة والتأويل والمقاصد، وجاءت التّداولية لتعتني بالملفوظات والكلام واللّغة والإشارة والرّمز.

إنّ المكوّن الرّئيسي لظهور النّظريات والمدارس والآراء النّقدية يعود إلى عملية الإبداع بشكل مباشر وصريح؛ فلو لم يكتب الشّعراء والأدباء نصوصهم وقصائدهم لما أثيرت قضية اللّفظ والمعنى، ولَمَا جاءت إلى الوجود نظرية النظم للجرجاني، ومسألة السرقات الأدبية، وأسبقية الشعر على النثر...، هذا في تراثنا النّقدي العربي، ويقال الأمر نفسه بخصوص النّظريات الغربية كاللّسانيات اللّغوية والوظيفية والبنيوية ونظرية القراءة ونظرية النص، والتّأويل والقصد والتداولية.

ونحن في هذا التّمهيد بصدد الحديث عمّا يمكن أنْ تقوله التداولية في أثر أدبي يتمثّل في موسوعة صبح الأعشى، وقد سبق التقديم لها قريبا في الصفحات السابقة بشيء من الإيجاز. وقبل أنْ نباشر عملية التّحليل والتّعليل في نصوص وخطابات" صبح الأعشى" من وجهة نظر الدّرس التّداولي؛ والذي سيكون في الفصول التّالية من هذه الدّراسة، أردنا أنْ نعرج في هذا المدخل بشيء من اليسر إلى ماهية التداولية وأدواتها الإجرائية وسياقها التّاريخي والمفاهيمي والرّوافد والأصول والمنطلقات التي انبثقت منها.

## 1- التّداولية من الفلسفة إلى الأدب:

### 1-1- الإطار الفلسفي:

قبل الخوض في دراسة التّداولية لابد أن نشير إلى أنّها تعود في أصل نشأتها إلى أصول فلسفية مهدت لظهورها؛ منذ عهد سقراط ثم تلاه أرسطو والرواقيون بعد ذلك، إلا أنّها لم تظهر إلى الوجود

كنظرية في الفلسفة إلا بمجيء"باركلي" الذي كشف عنها بطريقة لم يسبقه أحدٌ من الفلاسفة فيها[1]، وتشير المصادر إلى أن كلمة تداولية يقابلها مصطلح pragmaticus باليونانية، التي تعني عند فلاسفة اليونان الغرض العلمي.

ولا بد من الإشارة إلى أنّ ظهور البراجماتية اللسانية في الغرب يعود إلى عاملين رئيسيين هما:

**أ) السّيمياء البراجماتية:** التي أرساها الفيلسوف الأمريكي تشارلز ساندرس بيرس Ch. S. Peirce وطورها تلميذه موريس Ch. morris، ظهرت في أعمال بيرس الفلسفية والسيميائية.

**ب) ظهور تيار الفلسفة التّحليلية:** بزعامة جوتلوب فريجه G. Frege الذي نشأ في كنف هذه الفلسفة التي تبنتها حلقة فيينا "Cercle de Vienne" التي عالجت الوضع المنطقي في اللسان. ثم جاء الفيلسوف النمساوي لودفيغ فيتغنشتاين L. Wttgenstein (1889–1951) ليتتبع آثار فريجه فانتقد الفلسفة الوضعانية وأسس اتجاها فلسفيا جديدا سماه" فلسفة اللغة العادية"التي تبحث عن طبيعة كل من: اللغة والمعنى في الكلام العادي.

وبعد أنْ عرفنا أنّ أصول هذه النظرية ترتد إلى أصول فلسفية، وهذا ما يساعد في تحديد ماهيتها.

### 1-2- مصطلح البراجماتية اللسانية:

#### 1-2-1- في الماهية والمفهوم:

المصطلح العلمي لهذه النظرية هو" Linguistic Pragmatics" وقد شاع بين الباحثين بالبراجماتيك. وأصله من اللفظ اليوناني القديم Pragma ويعني العمل. وقد استخدم هذا اللفظ في الفلسفة الواقعية. والثابت أنّ" بيرس" مؤسس علم العلامات قد ذكر هذا المصطلح في مراجعاته الفلسفية، ومن بعده جاء تلميذه" تشارلز موريس" فجعله علما عاما، واستخدمه بمفهومه الاصطلاحي الخاص في الدراسات اللسانية في حديثه عن علاقة العلامات بمؤوليها في كتابه:" أسس نظرية العلامات" الذي نشر عام 1938م[2].

ويرجع انتقال هذا المصطلح إلى الدرس اللساني العربي إلى صدر الستينيات من القرن العشرين، ونقلوه تارة باسم النفعية وتارة باسم الذرائعية ومرة باسم الغائية... واستخدم الأصل معربا: البراجماتية أو البراغماتية أو البراغماطيقا، ولعل أشهر استعمال لهذا العلم هو التداولية.

---

[1]– ينظر: نعمان بوقرة، المدارس اللسانية المعاصرة، دط، مكتبة الآداب، القاهرة، 2003، ص167.

[2]– ينظر: محمود عكاشة، النظرية البراجمتية اللسانية، ط1، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر،2013، ص13 وما بعدها.

وأرى أنّ استخدامه بلفظه الدخيل" البراجماتية" أدق تعبير عن مفهومه؛ لأنه يحمل دلالته في ثقافته الأصلية، ولا مقابل عربيا له يحمل دلالته الفلسفية الغربية التي تعني تحصيل كل وجوه المنافع.. وهي دلالة دخيلة على الثقافة العربية، وأرى أنّ أقرب الترجمات العربية إليه بمفهومه الغربي الذي يقوم على الغرض من الخطاب والمصلحة( النفعية) أو( علم الغاية) وهو أقرب إلى تحصيل الغرض الحسي بمفهومه الفلسفي.

والراجح أنّ لفظ" التداولية" ظهر في صدر السبعينيات، وترجع هذه الترجمة على المشهور إلى الدكتور طه عبد الرحمن( 1970) حيث ذكر الدكتور ذلك في كتابه" في أصول الحوار وتجديد علم الكلام".

لقد أدى ظهور اللسانيات التداولية إلى إحداث نقلة نوعية على صعيد البحث اللغوي، حيث أصبحت محل اهتمام الكثير من الباحثين واللغويين، مما جعلها تتخذ لنفسها موقعا بين مختلف الأبحاث اللسانية بعدما كانت سلة لمهملة اللسانيات، فقد غطت الكثير من الجوانب التي غفلت عنها النظريات اللسانية غير التداولية، واهتمت بدراسة اللغة أثناء الاستعمال وذلك بمراعاة المقامات المختلفة( كلام، سياق الحال، ملابسات الخطاب...).

وبما أنّ التداولية مُشكّلة من علوم معرفية متنوعة وعديدة تدفقت إليها مصادرها من شتى النواحي العلمية، فإنّ هذا التدفق المعرفي يجعل تحديد مفهوم دقيق لها غاية في الصعوبة، وهو ما يجعلنا أيضا نتساءل عن المعيار الذي نتخذه من أجل تقديم تعريف شامل لها؟ وهل يُحدد بناء على: معيار البنية اللغوية الذي يجعلها مساوية للسانيات البنيوية؟ أم أنّه يحدد على: معيار الاستعمال اللغوي وحده وفصله عن البنية اللغوية وهذا مخالف لما توصلت إليه التداولية من نتائج؟ أم نحدده على: مبدأ التعالق بينهما( البنية والاستعمال)؟[1].

وقبل الخوض في تعريفها لابد أن نميز بين مختلف الاختصاصات التي تعالج اللغة والتي ميزها الفيلسوف الأمريكي تشارلز موريس Ch. morris في مقالٍ كتبه في موسوعة علمية بيَّن من خلاله أنّ[2]:

---

[1]– ينظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ط1، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 2005، ص16–17. وينظر: خليفة بوجادي، اللسانيات التداولية محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ط1، بيت الحكمة، الجزائر، 2009، ص63 – 62.

[2]– آن روبول، جاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، تر: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، ط1، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 2003، ص29.

- **علم التركيب:** ويقصد به النحو(دراسةالعلاقات بين العلامات).
- **علم الدلالة:** وهو تعيين المعنى الحقيقي بين العلامات وما تدل عليه.
- **التداولية:** تُعنى بالعلاقات بين العلامات ومستخدميها.

وبهذا يُعلم أنّ التداولية ارتبطت بالبعد الاستعمالي والتواصلي للغة، فهي بمثابة المنهج المعرفي الذي نتوصل من خلاله إلى التقنيات أو القواعد المعرفية المشتركة بين أطراف العملية التواصلية والقائمة على مجموعة من التساؤلات( من يتكلم؟ وإلى من يتكلم؟ ما الذي نقوله حين نتكلم؟ ما القيود المتحكمة في العملية التواصلية...)[1]، فمثل هذه التساؤلات تسعى التداولية للإجابة عنها.

وقد لخص جورج يول G. Yule ميدان درس التداولية في مجالات أربع[2]:

- التداولية: هي دراسة المعنى الذي يقصده المتكلم.
- التداولية: هي دراسة المعنى السياقي.
- التداولية: هي دراسة كيفية إيصال أكثر مما يقال.
- التداولية: هي دراسة التعبير عن التباعد النسبي.

والذي يعنينا من أمر التداولية هو أنّها انطلقت من الفلسفة كمفهوم لتصير في الأدب نظرية تطبق تنظيراتها على الإبداع الأدبي مهما تنوعت أجناسه وتعددت خطاباته وملفوظاته، فهي تُعنى بأحوال المتكلمين ومقاصد خطاباتهم اليومية ومحاوراتهم.

والدرس التداولي يحاول أن يربط اللغة بالواقع حيث إنه يرصد تلك الوحدات الصغيرة الدالة في الخطاب اللساني، والتي من شأنها أن تحمل مضمونا ورسالة للسامع فيستقبلها هذا الأخير ويحصل التداول بينهما وفق معايير يقتضيها السياق والمقام.

**2- التداولية وعلاقتها بالحقول المعرفية الأخرى:**

تتجاوز التداولية النظرة التقليدية التي كانت تنظر إليها بأنها مجرد علم لغوي يكتفي بوصف البنية اللغوية وتفسيرها ويتوقف عند حدود وأشكال الظاهرة اللغوية، بل هي علم للتواصل يهتم بدراسة مختلف الظواهر اللغوية في مجال استعمالها، وهذا ما يجعلها تدمج الكثير من المشاريع المعرفية في دراسة ظاهرة

[1]- ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، 2004، ص23.

[2]- ينظر: كاهنة دحمون، تداولية الخطاب السردي بين القديم والحديث، أطروحة دكتوراه، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر، 2014، ص09.

التواصل اللغوي. فالتداولية قائمة على مجموعة من العلاقات التي تربطها مع العلوم المختلفة؛ كالبني اللغوية وقواعد التخاطب، والعلاقة القائمة بين هذه البنى اللغوية وظروف الاستعمال، فلو أخذنا مثلا علم الدلالة فإنّه يشترك مع التداولية في دراسة المعنى، أمّا علم اللغة الاجتماعي فهو يشاركها في تبيين ما تحدثه العلاقات الاجتماعية من أثر بين المشاركين في العملية التخاطبية...، وبهذا التداخل تكون التداولية بمثابة حلقة الوصل بين هذه العلوم المتنوعة المشـــارب على غرار: الفلسفة التحليلية ممثلة في[ فلسفة اللغة العـادية]، وعلم النفس المعـرفي ممثلا في[ نظرية المـــلاءمة][1]، إضافة إلى علوم التواصل واللسانيات.

إن الوسيلة الأقرب لتحقيق المعرفة- حسب رأي أغلب فلاسفة المنهج التحليلي- هي اللغة فلا مناص عنها لأنّها الرابط بين جميع شعوب العالم على اختلاف آرائهم وتعدد لهجاتهم وبها يحصل الفهم بينهم، فجميع« الحالات الموضوعية لشؤوننا وجميع العلاقات الذاتية المشتركة مع الأفراد، ومع المجتمع، ومع تاريخ الجنس قائم على أساس لغوي، إنْ أراد أن يكون له معنى فالطابع اللغوي مرتبط دائما بالفهم ما دام المعنى الذي تنقله اللغة لا يصير ملموسا إلا على هذا النحو»[2]، وبهذا يكون فن التأويل بوصفه نظرية فلسفية قائمة عن الفهم هو الفلسفة الأولى.

إن ما جاء به الفيلسوف فريجه G. Frege[3] من تجديدات فلسفية قد أثرت في الكثير من الفلاسفة من أمثال: هوسرل Husserl وكارناب Carnap وفيتغنشتاين Wittgenstien، وأوستين Austin، وسيرل Searle وغيرهم، إلا أن الرابط الجامع بين هؤلاء هو مسلمة عامة مشتركة، مفادها أن فهم الإنسان لذاته ولعالمه يرتكز بالدرجة الأولى على **اللغة**[4].

---

[1]- ينظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، مرجع سابق، ص15.

[2]- روديجر بوبنر، الفلسفة الألمانية الحديثة، تر: فؤاد كامل، دط، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، د ت، ص81.

[3]- أبرز القضايا التي تناولها فريجه: قضيتي اسم العلم والاسم المحمول، فهما أساس القضية الحملية، إضافة إلى رفضه( فريجه) الخلط بين القضايا الجزئية والكلية. ينظر: محمود زيدان، في فلسفة اللغة، دار النهضة، بيروت، لبنان، 1985، ص12.

- Voir : Gotlib Frege, Ecrits logiques et philosophiques, Paris, Seuil, 1971, P136.
-Voir: Translation from the philosophical Works of Frege, by P. Geach and M. Black, Oxford, 1960, P43.

[4]- ينظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، مرجع سابق، ص21.

ومن المهم الإشارة إلى أنّ الفلسفة الظاهراتية التي جاء بها هوسرل قد تعمقت في البحث عن مختلف الأطر الأعم من الكينونة اللغوية وذلك بالبحث عن مختلف العلاقات والتصورات السابقة عن اللغة وهي في غاية التجريد، وهذا ما جعلها تقصي عدّة جوانب في اللغة كالاستعمال اللغوي وظروف استخدام اللغة، وأحوال المخاطبين، وملابسات التواصل وأغراض المتكلمين. وبما أنّها أسقطت البعد الاستعمالي للغة من اهتماماتها فقد أخرجها هذا من التيار التداولي.

أمّا عن مبدأ القصدية Intentionnalité الذي جاءت به الفلسفة الظاهراتية فإنّه يعتبر من أهم مرتكزاتها وهو الحال بالنسبة إلى التداولية حيث قام باستثماره كل من: الفيلسوف أوستين في دراسته لظاهرة الأفعال الكلامية، وتلميذه سيرل حين اتخذها معيارا أساسيا اعتمد عليه في تصنيفه للقوى المتضمنة في القول[1].

**ثانيا: التداولية وعلاقتها بتحليل الخطاب**

تتعامل التداولية مع النصوص الأدبية باعتبارها خطابات وملفوظات لغوية ذات صبغة كلية عضوية، يتم ربط ملفوظاتها بالوظيفة والسياق المقامي والأداء الإنجازي، إضافة إلى دراسة كل ما يتعلق بها– النصوص– من مكونات تلفظية أو سياقية: من روابط حجاجية منطقية وغير منطقية، وربطها أيضا بالحوارية والمقصدية والتفاعل والإحالة والتخاطب التداولي[2]. وبهذا تكون قدتجاوزت دراسة الجملة إلى مجال أوسع وهو الخطاب والنص*.

فتحليل الخطاب بهذه المجاوزة قد عُرِّفَ بأنّه:« التحليل اللغوي للخطاب سواء أكان محكيا أو مكتوبا ويهدف إلى دراسة البنية اللغوية على مستوى يتعدى الجملة إلى مستويات أكبر مثل الحوار أو النص مهما كان حجمه، ويهتم هذا الميدان أيضا بدراسة اللغة في سياقها»[3]. وبهذا تبدو العلاقة بين التداولية وتحليل الخطاب وثيقة، فكلاهما يأخذ على عاتقه النصوص ويقوم بتحليلها من خلال ما يمتلك من آليات تتمثل أساسا في المرسل والمرسل إليه والرسالة ومقاصدها القائمة على اللغة التي وظيفتها الأساسية هي

---

[1] – ينظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، مرجع سابق، ص22–23.

[2]– ينظر: جميل حمداوي، التداوليات وتحليل الخطاب، ط1، شبكة الألوكة، المغرب، 2015، ص9–10.

[3]– نخبة من المؤلفين، مقدمة في اللغويات المعاصرة، ط3، دار وائل للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2006، ص200.

*– النص/ الخطاب: هما مصطلحان يؤديان نفس المعنى عند البعض ( تودوروف، جيرار جينيت، جوليا كريستيفا، غريماص). وهناك من يرى بأنّ النص أعم من الخطاب، وآخرون يرون أنّ كل خطاب يتضمن نصا بداخله وبالتالي فهو أشمل منه. ومن أمثال المخالفين للفريق الأول: فان ديك، بول ريكور، شارودو...

التواصل ضمن بنية وموقف تواصلي معينين؛ يرميان إلى إيصال أهداف إلى المتلقي؛ والعمل على التأثير فيه، عن طريق الخطابات وكيفية استخدامها اللغة للوصول إلى الدلالات وما تؤديه ضمن سياقاتها المختلفة. فاللغة إذن، تؤدي وظائف مختلفة راجعة بالدرجة الأولى إلى المعنى والمخطط التالي يوضح ذلك[1]:

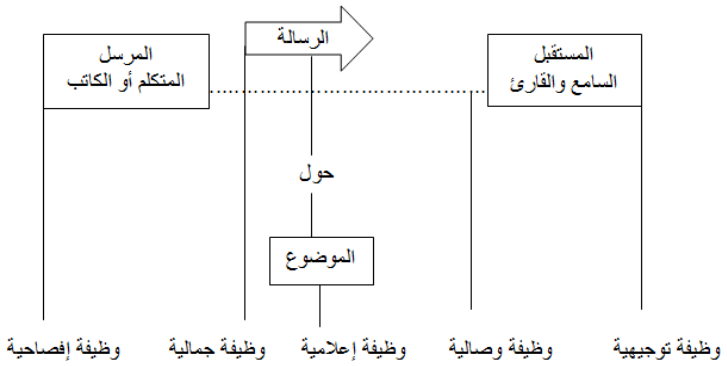


ويعني هذا أنّ الخطاب مشكّل من علاقات متشابكة متناسقة مع بعضها البعض؛ تهدف إلى تحقيق أكبر قدر من المعاني والدّلالات التي جمعت بين طرفي الخطاب الذي يشتركان فيه؛ والذي يبعث على تأويلات مختلفة يمكن فهمها والوصول إليها من خلال النص أو الخطاب. فهذه التأويلات التي أتاحتها اللغة لا يمكن الوصول إليها فقط خارج نطاق الاستعمال أو اعتمادا على عناصرها الذاتية المكونة لها، بل يتم الاعتماد على مكان استعمالها من أجل تحقيق وظائف ما ضمن نطاقها الاجتماعي. ومن هذا فقد اتخذ المعنى وظيفة في السياق.

أي أنّ المعنى يحدده السياق، مع التركيز على عناصر العملية التبليغية( المرسل/ المرسل إليه)، باعتبارهما طرفي الخطاب، أمّا الرسالة فهي الخطاب الذي يرسله المرسل( المخاطِب)/ المرسل إليه( المخاطَب) مع مراعاة المقام ومقتضى الحال حتى يتحقق التواصل ويحدث التأثير في كل الأطراف المشاركة في العملية التواصلية ككل[2]. ومِثلُ هذه العملية التشاركية أولاها علماء البلاغة اهتماما كبيرا.

[1]– ينظر: تمام حسان، الأصول: دراسة إبستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب( النحو– فقه اللغة– البلاغة)، دط، عالم الكتب، القاهرة، 2000، ص347.

[2]– ينظر: يوسف تغزاوي، نماذج تداولية، دط، مكتبة ووراقة العمران، الناظور، 2017/2016، ص13.

فالتداولية إذن، تساعد في توضيح المقاصد وتحديدها ضمن سياق محدد ومناسب، ولهذا وُجدت مفاهيم كالفعل والسياق والإنجاز[1]:

– **مفهوم الفعل:** لا تقوم اللغة فقط بتمثيل العالم، بل تنجز أفعالا.

– **مفهوم السياق:** ونقصد به الوضعية الملموسة التي توضع وتنطق من خلالها مقاصد تتعلق بالزمكان وهوية المتكلمين.

– **مفهوم الإنجاز:** وهو إنجاز الفعل ضمن السياق، بمحايثة لقدرات المتكلمين، ومدى معرفتهم وإلمامهم بالقواعد.

يتضمن كل خطاب رسالة، وهذه الأخيرة تحتوي على وظائف معرفية/ تواصلية وشكلية، والتي تتحدد حسب النوايا والمقاصد في سياقها التواصلي، وهي[2]:

أ– **وظائف معرفية ومرجعية:** تهتم بكل ما يحيط بمحتوى الخطاب( الإخبار، الإحالة على الواقع المشترك).

**ب– وظائف صورية:** تهتم بالرسالة وشكلها، وفعالية القناة، ومدى صلاحية الشفرة.

**ج– وظائف تداولية:** تهتم بكل من المرسل والمرسل إليه وخصائص الاسترجاع.

ومما تجدر الإشارة إليه، هو الدور الهام الذي يلعبه المقام في تحديد المعنى بكل ما يملكه من معطيات ثقافية ونفسية وأخرى نذكر منها:

– المشاركون في عملية التبليغ.

– المقاصد.

– ترقبات المتكلم والسامع.

– مساهمة المشاركين.

– مكان التفاعل.

– معارفهم اللغوية.

– صفات الأقوال( اللغوية، شبه اللغوية، وغير اللغوية).

---

[1]– ينظر: فرنسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، مرجع سابق، ص05.

– وينظر: كاهنة دحمون، تداولية الخطاب السردي بين القديم والحديث، مرجع سابق، ص11.

[2]– ينظر: المرجع نفسه، ص11–12.

– المعايير الاجتماعية.

– الشخصيات المشاركة وأدوارهم.

إنّ عملية تحليل الخطاب تأخذ من السياق طرفا ولا تتم إلا وفقه، باعتباره فعّالا في تحديد آلياته وأهدافه، لأنّ بعض الحدود اللغوية تتطلب معلومات سياقية أثناء التأويل، مثل:( الآن، هنا، هناك...)، فتأويلها يتطلب أطرافا أولها المخاطِب وثانيها المخاطَب، إضافة إلى زمان ومكان إنتاج الخطاب[1]، وهنا تتحدد أهمية السياق ودوره في فهم الخطاب و**تأويله**.

فالسياق إذن، هو عنصر مرافق للنص داخليا أو خارجيا، وهو ما يجعل هذا النص نصا، كأن يكون هذا النص ذا سياقٍ سياسي أو تاريخي أو ثقافي...، بل نجد مفهوم السياق يتحدد أكثر ضمن تصور **هانسون** Hansson( 1974) لدرجات التداولية الثلاث وفقا لتعقد درجة السياق من جزء إلى آخر، وتتلخص هذه الدرجات في[2]:

أ– **تداولية الدرجة الأولى:** تهتم بدراسة الرموز الإشارية وإحالتها وفق سياق استعمالها، وتعكسها أعمال دارسي الإشارة والرمز مثل: بيرس Ch. Peirce، قيومين J. Vuillemin، كودمان N. Goodman، رايشتباخ H. Reichenbach...، وبعض إشارات الفرنسي إيميل بنفنست I. Benveniste في البعد الإشاري للزمن.

**ب– تداولية الدرجة الثانية:** وهي دراسة مدى ارتباط الموضوع المعبر عنه بالجملة المتلفظ بها أي أنه يدرس حجم ما يبلغه المتكلم من دلالات في الملفوظ الذي يؤدي ذلك، ومدى نجاحه أو إخفاقه. وسياقها يكون في هذه الحال أوسع من السابق، حيث يمتد من الموجودات إلى نفسية المتخاطبين وحدسهم، والاعتقادات الموجودة بينهم، أي أنّه يتعدى عناصر الزمان والمكان.

**جـ– تداولية الدرجة الثالثة:** وهي نظرية الأفعال الكلامية، فالفعل الكلامي لا يتحدد إلا من خلال السياق الذي يهتم بتحديد نوعية التلفظ أنهي هو، أم استفهام، أم أمر، أم غيرها.

فبرنامج **هانسون** اعتمد بالدرجة الأولى على السياق لأنه إذا أردنا تحليل أي إنتاج لغوي تداوليا فلا بد من التركيز على السياق Contexte الذي يضم مختلف الظروف والملابسات الثقافية والاجتماعية

---

[1]– ينظر: كاهنة دحمون، تداولية الخطاب السردي، مرجع سابق، ص14.

[2]– ينظر: فرنسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، مرجع سابق، ص41 وما بعدها. وينظر: خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ط1، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص78–79.

والنفسية التي تحيط بالفعل الكلامي وفي ذلك يقول( Jean Dubois):« السياق هو مجمل الشروط الاجتماعية المتفق عليها التي تأخذ بعين الاعتبار لدراسة العلاقات الموجودة بين السلوك الاجتماعي واستعمال اللغة... وهي المعطيات المشتركة بين المرسل والمرسل إليه والوضعية الثقافية والنفسية والتجارب الشائعة بينهما»[1]، وبهذا المقتضى كان السياق عنصرا فعالا في الكشف عن المعاني والمقاصد التي يُراد الوصول إليها لِكِلا الطرفين( مرسل/ مرسل إليه).

وبناء على ما سبق يمكن الوقوف على تحديد أبرز المفاهيم والآليات الإجرائية التي تقوم عليها التداولية والتي نذكر منها:

**1- الفعل الكلامي:**

يعد الفعل الكلامي Acte de parole أحد أبرز مباحث الدرس التداولي ومرتكزاته، والذي يحدد وظيفة التواصل بين المتكلمين من خلال جملة الملفوظات التي تتم خلال دورة التخاطب. ويرى رواد هذه النظرية أنّ وظيفة اللغة الأساسية ليست مجرد إيصال معلومات ومعارف أو التعبير عن الأفكار، وإنّما هي مؤسسة تتكفل بالأقوال ضمن سياقاتها، وتقوم بتحويلها إلى أفعال ذات طابع اجتماعي[2].

هذا وقد أولى الباحثون في حقل اللغويات التواصلية الفعل الإنجازي أولوية بالغة حتى سميت نظرية أفعال الكلام بـ"النظرية الإنجازية" لأنّ المتكلم عندما يرسل القول فما على السامع إلا إبراز مجهوداته في سبيل ترجمة ما يقصده المتكلم، فهذه النقطة تعد الركيزة الأساسية في عمل أوستين.

فالأفعال الكلامية في عمومها، تتناسب مع المواقف التي تستعمل فيها أثناء عملية التواصل، التي يراد تحقيقها عن طريق اللغة بشروط وقواعد مشتركة بين المخاطب والمخاطب، والتي تكون ملائمة للموقف والسياق. فالفعل الكلامي هو« نشاط تواصلي محدد بمرجعية مقصد المتكلم أثناء كلامه والآثار الناجمة عنه على السامعين»[3]، أي أنّه-الفعل الكلامي- عملية تشاركية بين الطرفين( متكلم/ سامع) تتوافق مع المقام والسياقيتم من خلالها الفهم ويتحقق القصديحدث التأثير.

---

[1] -Jean Dubois, Dictionnaire de linguistique et des siences du langage, Larousse 2eme Edition,1999, p116.

[2]- ينظر: عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2003، ص155.

[3]- محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة العربية المعاصرة، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2008، ص182.

وبهذا تكون القصدية دعامة أساسية في الفعل الكلامي[1]، فهيتُعنى بالربط بين العبارات اللغوية وغرض المتكلم أو قصده من الفعل الكلامي، بحيث يجب أن ينظرإلى« الإنجاز بوصفه جانبا قصديا لفعل كلامي في سياق الموقف الكلي البراجماتي التواصلي( السياق البراجماتي- التواصلي)»[2]. أي أنّ كل فعل كلامي يقوم على قصد ما، له تأثيره ودوره في القوة الإنجازية التي تراد. كما ترتبط القصدية بمعطيات الحال التي يتشكل فيها فعل الكلام وعن طريقه يتحدد القصد من وراء المنطوق اللفظي الذي أُرسل وقوته الإنجازية.

**2- الاستلزام الحواري:**

من أهم مقولات التداولية القائمة على القصد أيضا الاستلزام الحواري L'implication conversationnelle الذي جاء به الفيلسوف والعالم اللغوي" بول غرايس P. Grice"[3]، إذ يتم من خلاله- الاستلزام الحواري- الانتقال بالسامع من المعنى الظاهري الصريح( الدلالة الطبيعية)إلى المعنى الخفي غير المباشر المستلزم( الدلالة غير الطبيعية).

إنّ ما تقتضيه العملية التخاطبية بين طرفي الخطاب، وما ينتجه السياق من خروق، وما يقتضيه المقام من تواصل جعل غرايس يفكر ويبحث للإجابة عن سؤاله:« كيف يكون ممكنا أن يقول المتكلم شيئا ويعني شيئا آخر؟ ثم كيف يكون ممكنا أيضا أن يسمع المخاطَب شيئا ويفهم شيئا آخر؟. ولهذا السبب أوجد غرايس حلا لهذا الإشكال فيما أسماه مبدأ التعاون بين المتكلم والمخاطب»[4]، أي أنّ الجماعة اللغوية حسب غرايس قائمةعلى ثلاث حالات أثناء إنتاجها للعملية التخاطبية الحوارية، فَهُمْ:

- قد يقولون ما يقصدون.
- قد يقصدون أكثر مما يقولون.
- قد يقصدون عكس ما يقولون.

---

[1]- ينظر: مسعود صحراوي، الأفعال المتضمنة في القول بين الفكر المعاصر والتراث العربي، أطروحة دكتوراه، جامعة باتنة، الجزائر، 2003، ص69.

[2]- زتسيسلاف وأورزنياك، مدخل إلى علم لغة النص مشكلات بناء النص، تر: سعيد حسن بحيري، ط1، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، 2003، ص21- 22.

[3] -Voir : H. P. Grice, " Logique et conversation", in: L' information grammaticale, Traduit par:

[4]- محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، مرجع سابق، ص 33 وما بعدها.

إذن؛ فنجاح العملية الحوارية بين المتكلم والمخاطَب مرهون برأي غرايس بقواعد( مسلمات Maximes)[1] تجعل كل الأطراف يشتركون من أجل الوصول إلى الهدف من الحوار، فأيُّ خرق لأحد هذه المبادئ والمسلمات يدخل المخاطَب في عملية **تأويلية** يبحث من خلالها عن المقاصد التي يرمي إليها المتكلم مستعملا في ذلك كل ما يملكه من كفاءات تداولية.

**3- الحجاج والتأويل:**

إن استناد بيرلمان وتيتيكاه( Ch. Perelman et O. Tyteca) على البلاغة القديمة خاصة بلاغة أرسطو جعلت من حجاجهما يتقارب مع الجدل، فالاستدلال في **الحجاج** كما في الجدل، إلا أنهما حاولا الاقتراب من الخطابة الأرسطية حيث يقولان أنّ:« الغاية من تقريبنا بين الحجاج والخطابة أن نلح على أنه لا حجاج بدون وجود جمهور يرمي الخطاب إلى جعله يقتنع ويسلم ويصادق على ما يعرض عليه»[2]، أي أنهما أوليا اهتماما كبيرا للمستمع وقدرته على الاقتناع.

وكذلك هو الحال لنظرية الحجاج عندهما التي أولت اهتماما كبيرا لمباحث علم النفس التي تحكم السلوك الاجتماعي والسلوك الفردي ومدى تفاعلهما مع مختلف الخطابات، وذلك بالنظر لتأثير الخطاب في السلوك فيقولان:« فليس الحجاج في النهاية سوى دراسة لطبيعة العقول، ثم اختيار أحسن السبل لمحاورتها والإصغاء إليها ومحاولة لحيازة انسجامها الإيجابي والتحامها مع الطرح المقدم، فإذا لم توضع هذه الأمور النفسية والاجتماعية في الحسبان فإن الحجاج يكون بلاغية وبلا تأثير»[3] في المخاطب.

وتجدر الإشارة إلى أن البلاغة الجديدة عند بيرلمان وزميله« ليست معنية بشكل الخطاب من أجل الزخرفة أو القيمة الجمالية، بل من جهة كون ذلك وسيلة للإقناع، وخاصة وسيلة للإبداع أي الحضور وذلك عبر تقنيات التمثل»[4]، فهي تحاول إقامة علم عام يدرس مختلف الخطابات على أشكالها المتعددة، التي هدفها وصف الخصائص الإقناعية للنصوص وموضوعها يتمثل في:« دراسة التقنيات الخطابية التي

---

[1] - Voir: Paul Grice, Studies in the way of words, Harvard University Press, 1 st Ed, 1991, p267.

[2]–Ch. Perelman et Olbrechts Tyteca: la nouvelle rhétorique-traité de l’argumentation-T1, Paris, P.U.F, 1958, p48.

[3]– Ch. Perelman..., traité de l’argumentation..., op. Cit, p18

– وينظر: عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، ط1، منشورات ضفاف، بيروت، لبنان، 2013، ص 87.

[4]– صابر الحباشة، التداولية والحجاج (مداخل ونصوص)، ط1، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، سورية، 2008، ص 16.

تمكن من إثارة وتعزيز انخراط الأذهان في الأطروحات المقدمة»[1]، ومن هذا نجد" بيرلمان" يعرف الحجاج بجعله:« جملة من الأساليب تضطلع في الخطاب بوظيفة هي حمل الملتقي على الاقتناع بما نفرضهعليه أو الزيادة في حجم هذا الاقتناع»[2]، معتبرا أن غاية الحجاج الأساسية هي:« الفعل في الملتقي على نحو يدفعه إلى العمل أو يهيئه للقيام بالعمل»[3]، والبحث عن الدلالة والمعنى، ولا يتهيأ للمتلقي الوصول لهذا إلا عن طريق مجموعة من العمليات التأويلية.وهنا نتساءل عن أهم المسوغات التي تجمع بين **التأويل** L'interprétation و**الحجاج** L'argumentation في إطار هذه البلاغة المعاصرة؟.

يعد التأويل علما« يهتم بثلاثية الفهم والتفسير والتطبيق وما يتصل بها من بحث عن الدلالة والمعنى»[4]، وهذا ما أدى إلى الاعتناء بالقارئ في ملء ما يتركه النص من فراغات تركها المبدع عن قصد أو عن غير قصد بهدف تحفيز المتلقين على عمليتي التأويل و التفسير حتى يتحقق التواصل بين النصوص( نصوص المبدع، نصوص روافد القراء)[5].

أمّا عن البلاغة الحجاجية وموقفها من هذا التصور فيكمن في أنّ البلاغة تعنى بالخطابة والإلقاء، وما يتطلبانه من أساليب حجاجية، وهي تعنى كذلك ببلاغة المكتوب وما يتضمنه من حوار ضمني مؤسس على التأويل والفهم والتفسير قبل كل شيء، إضافة إلى التعدد الدلالي.

فمرسل الخطاب لا بد أنْ يتسلح بعديد الآليات الحجاجية التي يتأسس النص عليها، ليشكل بؤرا دلالية جاذبة للقراء؛ قصد توليد معانٍ جديدةٍ. وبهذا يكون التأويل قد عمل على تحويل القارئ الكفء في ختام العملية التواصلية إلى مؤلِّف جديد، مثلما كان المؤلِّف قارئا، وهذا ما يجعل التأويل سوى حوارٍ حجاجي.

---

[1]- Ch. Perelman..., traité de l’argumentation..., op. Cit, p 5.

– وينظر: عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع، السابق، ص85.

[2]– سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، بنياته وأساليبه، ط1، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2001، ص21.

[33]– المرجع والصفحة نفسهما.

[4]– محمد ولد سالم الأمين، حجاجية التأويل في البلاغة المعاصرة، ط1، المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، طرابلس، الجماهيرية العظمى، 2004، ص23.

[5]– ينظر: المرجع نفسه، ص23 وما بعدها.

إنّ مثل هذه الطروحات التي تتناول الفهم والإفهام والحجة والدليل وعلاقة اللفظ بالمعنى والقدرة على التأويل والتفسير وتوليد المعاني من الخطابات المختلفة في سياقات ورودها واستعمالاتها؛ قد تناولها علماؤنا العرب القدماء، في الكثير من مصنفاتهم النحوية والبلاغية والفلسفية، وعند علماء الأصول الذين تفوقوا بأشواط في مجال الدلالة والتداول وذلك حين اهتموا بأطراف العملية التواصلية وأبعاد الكلام خدمة لمقاصدهم، وكان اهتمامهم منصبا حول: الحاكم، الحكم، المحكوم فيه، والمحكوم عليه. فكل هذه الأعمال كانت تنضوي على إشارات وملامح تداولية وفكرية تؤسس لهذا المنهج الغربي، وثورته على المناهج النقدية التي سبقته.

**ثالثًا: ملامح التّداولية في الفكر العربي**

لقد اهتمت الدّراسات اللّغوية العربية في تراثنا القديم بجوانب ومبادئ تعد اليوم ركيزة أساسية فيتأسيس النظرية التداولية، حيث اهتم علماؤها بدراسة النص بعدّه خطابا متكاملا، وفي هذا تجاوز لوصف البنية والشكل النّحوي وكل ما يتعلق بالعملية التواصليّة اللّغوية. إضافة إلى اهتمامهم بمعيار الصدق والكذب ومطابقة الكلام للواقع من عدمه، مع مراعاة المقام ومطابقته لمقتضى الحال[1].

فهذه المبادئ تبدو جلية في أعمال العلماء العرب القدماء على غرار الجاحظ في كتابه" البيان والتبين"، وفي كتاب" الخصائص" لابن جني، وفي" دلائل الإعجاز" للجرجاني، وفي" مفتاح العلوم" للسكاكي، وفي" التفسير الكبير" لفخر الدين الرازي، إضافة إلى بعض الأعمال الحداثية من قبيل ما كتبه طه عبد الرحمن في كتابه" تجديد المنهج في تقويم التراث"، وأحمد المتوكل في كتابه" الوظائف التداولية في اللغة العربية"[2] وغيرها من الأعمال الأخرى.

إنّ الأعمال التي قدمها العلماء العرب عالجت عدة قضايا تداولية من بينها:

- المقام والتأويل.
- مقتضى الحال.
- قواعد الاستعمال اللغوي عند المتكلم ودوره في عملية الإبلاغ والإفهام.

---

[1]- ينظر: يوسف تغزاوي، نماذج تداولية، د ط، مكتبة ووراقة العمران، جامعة محمد الأول، الناظور، 2017/2016، ص15.

[2]- نفسه.

وهذا ما أعطاهم عصا السبق في المجال التداولي؛ يقول" محمد سويتي" أنّ:« النحاة والفلاسفة المسلمين والبلاغيين والمفكرين مارسوا المنهج التداولي قبل أن يذيع صيته بصفته فلسفة وعلما، رؤية واتجاها أمريكيا وأوربيا، فقد وُظف المنهج التداولي بوعي في تحليل الظواهر والعلاقات المتنوعة»[1]، وقد تجلّت هذه الممارسات في تراثنا العربي في أعمال الكثير من البلاغيين والنحويين والأصوليين وغيرهم، خصوصا إذا تعلق الأمر بقضايا الاستعمال وكل ما يحيط بالعملية التواصلية.

ومن صور عناية الدارسين في مجال الدراسات اللغوية العربية بالخطاب والمشاركين في العملية التخاطبية( المتكلم/ السامع) ودورهما في الفهم والإفهام، ومقابله عند الجاحظ هو البيان الذي يَعني به القدرة على الكشف والإبانة عمّا يجول في النفس، والإفصاح عنها باللسان والألفاظ حتى يتحقق الفهم والإفهام المرتبط بالمتكلم وفاعليته في توضيح المضمر لمخاطَبه حتّى يحصل لديه الإقناع ومنه التأثير.

أمّا عن تجلي ملامح الدرس التداولي في أعمال" السكاكي" فيظهر ذلك في اهتمامه بالعناصر المكونة للعملية التخاطبية/ التواصلية وربطها بالمتكلم ودوره في التبليغ، وكذا مراعاة حال السامع وكيفية تلقيه للخطاب وبمقتضى الحال. فالسكاكي يولي أهمية لطرفي الخطاب( متكلم/ سامع) في تحديد القصد وتبليغه وفهمه، فالمتلقي قد يكون« خالي الذهن تماما أو مترددا في الحكم، أو منكرا له، وقد يخرج الكلام على مقتضى الظاهر، فيجعل غير السائل- وهو خالي الذهن- كالسائل وقد يجعل غير المنكر كالمنكر، وقد يجعل المنكر كغير المنكر»[2]، مع مراعاة المقام وعلاقته بالمتلقي وكذا أغراض الخطاب.

ومن المصادر المهمة في التفكير التداولي اللغوي عند علماء العرب: علم البلاغة، علم النحو، النقد والخطابة، زِدْ على ذلك اجتهادات علماء الأصول التي تربط بين الخصائص الصورية للموضوع وخصائصه التداولية. هذا ويؤول الإنتاج اللغوي العربي القديم( نحو، بلاغة، أصول، وتفسير) إلى مبادئ وظيفية؛ ومن ملامح ذلك[3]:

- اهتمام العلوم السابقة بدراسة القرآن الكريم، فالوصف اللغوي لم ينصب على الجملة المجردة في مقام إنجازها، بل نظر إلى النص بعدِّه خطابا متكاملا.

---

[1]- سويتي محمد، اللغة ودلالاتها: تقريب تداولي للمصطلح البلاغي، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مج: 28، ع: 03، 2000، ص 30.

[2]- يوسف تغزاوي، نماذج تداولية، م. س، ص17.

[3]- ينظر: أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية ( مدخل نظري)، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، 1987، ص39-40.

– ربط الوصف اللغوي حسب الموضوع المتناول بين المقام والمقال، وبين خصائص الجمل الصورية وخصائصها التداولية.

– ميزت الدراسات القديمة بين قسمين: قسم يعتني بقوانين الخطاب وقسم يهتم بشروط إنتاج الخطاب.

– اهتمام علماء النحو والبلاغة بدراسة الأساليب وأغراضها، وخروج دلالاتها عن المعنى الحقيقي إلى معنى آخر مستلزم يقتضيه المقام.

أمّا طه عبد الرحمن فإنه يولي أهمية كبيرة للمنهج التداولي في تقويم الدراسات التراثية لما يميزه من قواعد ومقومات وشرائط مخصوصة وآليات صورية محددة؛ وفي هذا يقول:« لا سبيل إلى معرفة الممارسة التراثية بغير الوقوف على التقريب التداولي الذي يتميز عن غيره من طرق معالجة المنقول، باستناده إلى شرائط مخصوصة يفضي عدم استيفائها إلى الإضرار بوظائف المجال التداولي، فضلا عن استناده إلى آليات صورية محددة»[1]. وفي هذا الخطاب دعوة من طه عبد الرحمن إلى جعل الدرس التداولي منهجا لإعادة قراءة التراث العربي القديم لما له من آليات تساعد في معالجة المنقول.

كما تجدر الإشارة إلى أنّ البلاغة تعد« أحسن ما يتناول إبراز العلاقات التداولية في اللغة»[2]؛ وذلك أنّ البلاغة تبحث في كيفية استخدام اللغة بطريقة سليمة تضمن وصول قصد المتكلم تجاه مخاطبه والتأثير فيه من خلال توظيف ما يناسب من أدوات اللغة وتراكيبها ومراعاة حاله أثناء الكلام بما يضمن نجاعة الخطاب في النهاية. ومن هنا فبلاغة الكلام هي:« مطابقة لمقتضى الحال مع فصاحته»[3]. أي أنّ الدّرس اللّغوي العربي القديم يقوم على دراسة اللّغة أثناء الاستعمال ووفقا لمقتضيات الحال، وهذا ما يشي بالقيمة التي أولاها العرب للاستعمال في تحديد ما يتداولونه من مفاهيم في لغتهم وفي تحديد أساليبها وطرق أدائها بين المتكلمين بها.

---

[1]– طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، دط، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب/ بيروت، لبنان، 1993، ص16.

[2]– خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ط1، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص154.

[3]– الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة( المعاني والبيان والبديع)، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2003، ص 20.

وعلى هذا الأساس فالبلاغة تتقاطع مع التداولية في كونهما يهتمان بدراسة اللغة بوصفها أداة للتبليغ والتأثير والتواصل بين المتكلمين. ومن هذا يمكن القول أنّ:

– التداولية: هي دراسة مناحي الكلام.

– البلاغة: هي المعرفة باللغة أثناء الاستعمال.

– العلاقة الرابطة بين البلاغة والتداولية هي التركيز على عناصر العملية التخاطبية التواصلية( متكلم، متلقي، رسالة، ظروف وملابسات محيطة بالعملية التواصلية...).

وبالرجوع إلى مقترح طه عبد الرحمن في إطار حديثه عن أهمية المنهج التداولي في تقويم الدراسات التراثية، فإننا نتخذ منه منهجا للولوج إلى عوالم القلقشندي من خلال مدونة" صبح الأعشى" بغية معرفة ما يرمي إليه من مقاصد ومعاني وأغراض، على اعتبار أنّ مدونة" صبح الأعشى" تنتمي إلى الموروث العربي القديم.

**1- علاقة التداولية بالخطاب التراثي**

بما أنّ التّراث هو:« مجموعة من المفاهيم والدلالات و الرموز والإشكالات والعلاقات والأنظمة العلامية التي يحملها النص، هذا الأخير تعرض لعملية تغيير أو لعملية تحويل متراكمة ليصبح التراث– النص التراثي– مؤولا من خلال قراءة تراثية وقراءة حداثية، وكلا القراءتين توظيف النص من منطلق وعي عربي بفعالية التراث»[1]. وهذا ما جعل الخطاب التراثي يتأرجح بين الإشكالات التي أدخلت بدورها النص التراثي في كثير من القراءات والتأويلات والتحليلات التي تعمل على تفكيك الخطاب المكتوب أو المنطوق أو المرئي إلى جزئياته المكونة له قصد معرفة أسسه ومرجعياته وذلك حسب كل قارئ وطريقة تناوله وفهم لمعاني ومقاصد ذلك النص أو الخطاب ضمن مقامها وهذا ما ترمي إليه التداولية.

فالتداولية إذاً؛ أدخلت في صلب اهتماماتها دراسة النصوص والخطابات ضمن مقامها أو سياق استعمالها مراعية كل عناصر العملية التواصلية ومدى تفاعلية اللغة. وهو الحال مع تلك النصوص التراثية التي اشتملت على الكثير من الملفوظات الإنجازية التي حققت البعد التداولي من خلال تفاعل القراء مع خطب ورسائل الكتاب في العصور الأولى للحضارة الإسلامية. وهنا نسجل توافر النصوص التراثية على بعض الملامح التداولية من قبيل الحجاج والإقناع والتأويل والمقاصد خصوصا في تلك

[1]- نعيمة سبتي، "النص التراثي بين المفهوم والقراءة"، مجلة قراءات، مج:03، ع:01، جامعة بسكرة، الجزائر، 2011، ص61.

المدوّنات المتعلقة بالتفسير القرآني وشروح الحديث الشريف. وقد ألمح علماء اللغة عند شرحهم لمفردات الشعر العربي القديم إلى تلك العلاقة القائمة بين المرسل والمتلقي وذلك عند تخير الألفاظ المناسبة للمقام والقصد من طرف مؤلفي تلك النصوص الشعرية. وما يقال عن النصوص التراثية وعلاقتها بالدرس التداولي وأبعاده، هو ما يقال حرفيا عن مدونة" صبح الأعشى" باعتبارها نصا تراثيا يختزن هوية أمة، ولسان شعب. وهو نص غني بالإشارات التداولية يستبطن بداخله مجموعة من الأصوات التي تُحدث التفاعل والتواصل بينها من خلال العملية التخاطبية الحاصلة في متنها.

**2- " صبح الأعشى": خطاب تراثي**

يسعى الدرس التداولي إلى تناول الخطاب التراثي على أساس أنّه نِتاجٌ إبداعي لمخيِّلة فكرية وشعرية صقلتها الظروف البيئية والسياسية والاجتماعية في ظل ثقافة عربية إسلامية عريقة توارت عبر حقب تاريخية، مستمدة من الخطاب السماوي المطلق والخالد ما يميّزها عن غيرها من الأمم، ونقصد: الوحي المنزل وخصوصا القرآن الكريم الذي لا يزال يؤثر في متلقيه بخطاباته التي تتميز بأنّها معجزة وموجزة وجامعة وممتنعة؛ فالإتيان بمثله أو النسج على منواله هو ضرب من الخرافة. غير أنّ الاقتباس منه وسوق الشاهد والحجة وتوظيفها في صالح خطابات أخرى هو من الممكن والمباح.

ولعل جميع المدونات العربية في كل الفنون قد استعان أصحابها بالخطاب القرآني الذي لامس قلوب الناس وجوارحهم، ورغم سماويته فقد برهن أنّه يصف الواقع الملموس لقريش وغير قريش، بل إنّه يُخاطب كل العوالم ويتفاعل مع جميع الحيوات.

لقد أولى القلقشندي" الكتابة" عناية فائقة، وبوأها المكانة" العلية" و" الشريفة"، وهي وإنْ كانت لغة صامتة غير أنّها فاعلة ودالّة من حيث إنّها وسيلة للتواصل بطريقة ما. والمتمعن في نصوص" صبح الأعشى" يُدرك البعد التراثي من خلال لغتها، فهي ليست لغة دهماء العامة، ولكنّها على الخصوص لغة شخص ينتمي إلى المجتمع اللغوي العام، فلغة القلقشندي توحي بأنّها لغة عربية أصيلة تدل ثقافة صاحبها، فقد نزع فيها القلقشندي نزعتين: نزعة الإبداع الفطري ونزعة الصنعة، وكلاهما انعكاس لمحصلته الثقافية التي اكتسبها من بيئته العربية.

فالمتمعن لمدونة" صبح الأعشى" يجد أنّها تنتمي إلى اللغة الأم، وهي ليست نصًّا عربيًّا بالتبني، ولكنّها عربية بالأصالة، إنّها أشبه بالهوية التي تحتوي عرقا ودينا وشعبا وأمة. وكان لحنكة القلقشندي الأدبية الفضل في خلود هذا الأثر الأدبي ليعمِّرَ لقرون بما أضفى عليه من لمسته العبقرية؛ فهو فنان

ونابغ في حقل العلوم اللغوية والبلاغية، فقد استطاع أن يقول عصره برؤية الفنان وأن يتجاوز تلك الصورة النمطية للحياة وقدّم لنا الصورة التي ينبغي أنْ يكون عليها المجتمع، فالإبداعات الفنية والأدبية عالم قائم بذاته، وهي ليست مُكلفة بتقديم نسخة أو صورة مكررة للحياة بصفتها الأصل أو مضطرة للاقتباس منها لأنّها تابعة لها... فالفن إذن ينبغي له أن يكون كيانا مستقلا ومكتفيا بذاته، إذا أراد أنْ يكون فنًّا[1]، بالإضافة إلى ضرورة أنْ يقوم بما خُوِّل له من وظائف نابعة من طبيعته.

**3- " صبح الأعشى": الأصول والمميزات**

وبهذا المقتضى فإنّ مدونة" صبح الأعشى" تعد واحدة من الخطابات التراثية التي تفاعلت مع النص القرآني؛ فالقرآن كان من مصادر القلقشندي الرئيسية التي وظّفها في تقنيات الكتابة وفي مواضع عديدة وموضوعات متنوعة: كتلك المتعلقة بالحوار والجدل والمناظرة أو تلك المتعلقة بالأمم البائدة( القصص القرآني) أو تلك التي تَنْجرُّ عنها أحكام فقهية أو حدود ومعاملات... إلخ.

والمصدر الثاني الذي اعتنى القلقشندي أنْ يغني به مدونته هو" الحديث الشريف". وكان من نظرات القلقشندي الصائبة أنّه اعتمد النص الشعري التراثي كمصدرٍ ثالثٍ ثم أقوال وخطب الأدباء، ورسائلهم.. وهكذا اِغتنت هذه المدونة بالأصول التراثية والتي تميزت بما يأتي:

- خلوها من اللفظ الغريب المستنكر أو الوحشي المستكره.
- ملاءمة المعاني البلاغية لأبنية المشتقات.
- ملاءمة الخطاب للمقام.
- استغلالها الجرس الموسيقي للكلمة وما تحويه من ظلال للمعاني.
- تلاؤم نسيجها الصوتي.
- حضور التاريخ والبلاغة.
- شيوع الثقافة الدينية خصوصا( الأدلة الشرعية- الفقه- التفسير- الإسرائيليات...).
- حضور الثقافة الموسوعية والإيديولوجيا وذلك راجع لطبيعة المجتمع الذي نشأ فيه القلقشندي( مصر- الشام).

[1]- ينظر: نبيل راغب، موسوعة النظريات الأدبية، ط1، الشركة المصرية العالمية للنشر، مصر، 2003، ص391.

وبهذا تكون مدونة" صبح الأعشى" وعاءً زمنيا ولغويا يختزن بداخله ذاكرة الأمة وتاريخها، كما أنّها تستوعب حركية المجتمع في نماذجه الاجتماعية والنفسية المتنوعة، يفرض الجانب الثقافي فيها نفسه بأنْ يقدم لنا النماذج النخبوية التي تعلو أصواتُها على أصوات العامة.

هناك شيء من **المركزية** في" صبح الأعشى" وذلك حين يتعلق الأمر بالحديث عن رصد المكونات الرئيسية فيها من قبيل" الجوهري" و" الثابت" و" الكوني" ومثال ذلك الحديث عن:" الوحي" وعن" النبوة" وعن" اللسان" وعن" الكتابة".. كما أنّها لم تُهمل الأصوات الخافتة( **الهامش)** وذلك عند سرد الوقائع والسلوك العام لعامة أفراد المجتمع.

وإذن، فإن مدونة" صبح الأعشى" تتميز بأنها نصٌّ أصيل وليس بنص دخيل لأنّه يغتني بمكونات أصيلة وكثيفة، وعندما نقول الكثافة نقصد بها: الكم المعرفي والزاد الثقافي الهائل الموجود في فصولها وأبوابها، والذي تحقق من خلاله مفهوم **التواصل والتخاطب**.

**4- التواصل والتخاطب في" صبح الأعشى":**

إذا رجعنا إلى التراث العربي في مفهومه لعملية التواصل، وجدناه يركز على عاملين اثنين هما: **القول/ المقال**. وينشأ عن هذه الثنائية تصورات فرعيةمن قبيل:

- التركيز على القائل؟
- التركيز على القول أو فحوى القول؟
- كيف قال؟
- لماذا قال؟ وما قال؟

بالإضافة إلى مراعاة دوافع القول؟ والنظر في المواقف التي أفرزها القول.. فالعملية التواصلية إذن تتطلب نوعا من القول أو لنقل نمطا من التعبير اللغوي يتمتع بخصوصية تراعي أطراف التخاطب..

والحاصل في مدونة" صبح الأعشى" أنّها كُتبت بلغة تراثية- كما أشرنا سابقا- قائمة على البلاغة والبيان، ومن أجل هذا فقد تحقق التواصل بين متنها القديم وبين قراء اليوم من خلال اللغة التي يصفها ابن جني بأنها« أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»[1]، فهذا التشارك في اللغة بين أبناء اللسان الواحد هو ما يمنحها الخاصية الجماعية التي في إمكانها تحقيق التواصل بينهم والتخاطب.

[1]- ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، تح: محمد علي النجار، ج1، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1952، ص33.

وفي هذا الصدد يمكننا أنْ نتساءل عن طبيعة نصوص" صبح الأعشى" فهي في كثير من الأحيان ما تفتقر إلى الخاصية الانفعالية، بمعنى أنّها نظرا لطبيعتها العلمية الغالبة، تكاد تدخل في باب الإخباريات والتقريريات التي قد لا تحقق هذا المبدأ" التواصل".

غير أنّ" باختين M. Bakhtine" يؤكد حقيقة عن العمل الأدبي مهما كانت طبيعته، بأنّه قائم على علاقة تشاركية بين المُنتج ومتلقيه أو بين النص وقارئه، وهو يراعي هذه الفكرة ويوليها أوليّة وأهمية خاصة، فما من عملٍ إلا وفيه من التلاقي والاتفاق بين أطرافه ما يجعله ساحة تتفاعل فيها الأصوات عن طريق تلك الملفوظات والخطابات التي تصنع التداول بينهم:« فالعمل الأدبي إطارٌ تتفاعل فيه مجموعة من الأصوات أو الخطابات المتعددة إذ تتحاور متأثرة بمختلف القوى الاجتماعية عن طبقات ومصالح فئوية وغيرها. كما أنّ كل تغير نحوي أو دلالي فيما يعبر عنه، سواء في الحياة اليومية أو في الأدب، يعود إلى العلاقة بين المتحدث ومستمعيه... فعند باختين تلعب الإرادة الفردية في إطار الحياة الاجتماعية دورها الحاسم في إنتاج الخطاب الأدبي وغير الأدبي على حدٍّ سواء..»[1]، فأيُّ إنتاج أدبي قائم على عملية تشاركية بين طرفي التواصل، تفاعلية بين من مختلف الخطابات المتحاورة والمتأثرة بما يحيط بها من مواقف وظروف اجتماعية، وأنّ أيّ تغير يمس التركيب النحوي أو الدلالي له تأثيراته في الحياة كما في الأدب، ويعود بالأساس إلى تلك العلاقة القائمة بين المتكلم ومستمعيه، أي أنّ الإرادة الفردية في إطار الحياة الاجتماعية حسب باختين لها دور مهم في إنتاج الخطابات الأدبية وغير الأدبية.

ومن هذا المنطلق الباختيني يمكن رصد عملية التواصل في تقريريات القلقشندي حتى وإنْ بدا أنّها رسائل مكتفية بذاتها، غير أنّ في صميمها نداء الآخر( المتلقي) وإشراكه في فحوى الرسالة أو مضمون الخطبة والمقامة.

وعند الرجوع إلى علماء البلاغة في التراث العربي نجدهم يولون أهمية لطرفي الخطاب وخصوصا المتكلم بوصفه الفاعل والمؤثر في المستمعين، فهو من ينبغي أنْ يكون صاحب الجدارة اللغوية والإمكانات المعرفية التي تؤهله لخوض غمار الخطاب بغية الإقناع وإلزام الحجة؛ وبهذا نجدهم قد ركزوا على الجانب الاتصالي بشقيه: الإفهام والإمتاع.

---

[1]– ميجان الرويلي، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، ط3، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب/ بيروت، لبنان، 2002، ص318.

وأحيانا يكون التأثير في السامع بتجاهله أو السكوت بغية شدِّه أكثر وإثارته وإغاظته وجعله ينخرط في عملية الاتصال من غير جهدٍ كلامي وبلاغي أو إفهامي، فالبلاغة كما يقول ابن المقفع:« اسم لمعانٍ تجري في وجوه كثيرة منها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون شعرا، ومنها ما يكون نثرا، ومنها ما يكون خطبا وربما رسائل..»[1]، فمرد كل هذه الاستعمالات البلاغية يرجع بالأساس إلى جعل المتلقي ينخرط ويتأثر بما يلقى إليه من دعاوى وأطروحات.

يورد القلقشندي في أحد توجيهاته الإنشائية أو الكتابية إلى صيغ عديدة تخص:" المكاتبة"، ففي" الضرب السادس" وهو يخص[ المكاتبة إلى النساء] وقد رأوا كراهة ذلك أيّ كراهة أنْ يكتب الكاتب إلى المرؤوسة من النساء مثل قوله:«.. وكرامتَكِ.. ولا أتمَّ نعمته عليك.. ولا سعادتَكِ ولا فعلتِ ولا أنْ تفعلي، ولكن يقال: إنْ رأيتِ أنْ تُمنِّي بذلك منَنْتِ به وما أشبه ذلك..»[2].

فقصْدَ التواصل، راعى القلقشندي أطراف الكتابة ومنزلة كل طرف، فعندما تعلق الأمر بالنساء ناسب أن يكون الليّنُ ألطف الطرق إلى الخطاب والتواصل، وعندما يتعلق الأمر بالرئيس والمرؤوس يختلف الخطاب حسب المكانة والفحوى التي يتضمنها الخطاب: فعندما يتعلق الأمر بالأولاد يخرجون الخطاب مباشرا ودون كلفة:" أدامك وأبقاك.." أي بكاف الخطاب وكذلك الحال في النظير، وفي القضاة، أما حين يتعلق الأمر بالرتبة العالية والسيادة وما في معناها فيفضلون لفظ الجمع، كسيدنا ومولانا على لفظ الإفراد كسيدي ومولاي، وينعتون المكتوب إليه بالجليل أو الحاجب الجليل ويجعلون الإفراد دون ذلك في الرتبة فيقولون: سيدي أو مولاي الأمير الجليل[3].

لم يتمظهر الخطاب عند القلقشندي في صورة واحدة نمطية وإنما تشكَّل وفق أطراف الخطاب، كلٌّ بحسب منزلته، وهذا ما شكّل وتيرة حيوية وتفاعلا تداوليا مع مراعاة لحال المتكلم والسامع معًا وقصود كلٌّ منهما:

---

[1]– العسكري أبو هلال الحسن، كتاب الصناعتين، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، لبنان، 1952، ص10.

[2]– أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى، ج8، دط، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1915، ص132.

[3]– ينظر: م. ن، ج133/8.

| الكاتب | الخطاب | المكتوب إليه |
|---|---|---|
| الرئيس<br>الخليفة<br>الأب | يخرج الخطاب دائما في صيغ الدعاء بالبقاء والعز بـ[ كاف الخطاب]. | المرؤوس<br>الأمير – الوزير – الأبناء<br>الفتيان |
| " عبد الله بن سليمان"<br>وزير المعتضد | "أطال الله يا أخي بقاك إلى آخر الصدر.."[1] | أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون<br>صهر المعتضد |

ففي إقحام هاتين الوحدتين اللغويتين[ يا أخي] اللتين لا يراد منهما النداء الحقيقي ولكن يراد منهما رفع الكلفة وإبداء الهشاشة والتحبب لخير دليل على عملية التواصل والتفاعل التداولي بين أطراف الخطاب، وإن كانت الوسيلة التواصلية هنا هي" الكتابة" لا التخاطب مشافهةً.

فالكاتب والمكتوب إليه في هذه الرسالة يحملان الاستعداد والقصد والإنجاز وذلك ما تقوله فحوى الرسالة، فقد بيّنت هذه الزيادة في قوله:[ يا أخي] ذلك الصفاء وتلك المودة التي بينهما والتي سببها بلا شكٍّ: علاقة المصاهرة.

وفي ختام هذا التمهيد نقول:

إنّ النّظر في خطابات النص الأدبي وأسْيقته اللّغوية من أوجب ما يجب على الناقد الذي اتخذ هذه المفاتيح الإجرائية من الدرس التداولي ليجعلها سبيله إلى ولوج عوالم هذا النص، ولأنّها مفتاحه وزمام ما فيه من دقيق المعاني وخفي الإشارات.

وهذا ما نلمسه في مدونة" صبح الأعشى" فهي طافحة بهذه الأسيقة اللغوية والخطابات التي تخفي وراءها معاني ورموزا من شأنها أنْ تحقق التواصل وتصنع الدهشة لدى المتلقى.

لقد حظي كتاب" صبح الأعشى" بقيمة كبيرة في تراثنا الإنشائي والتعليمي، وليس ينبغي النظر إليه على أنّه محصورٌ في فن واحدٍ هو" الكتابة"، بل على القارئ أنْ يتجاوز تلك النزعة المعيارية الصرفة الصارمة التي تكاد تكون الصورة النمطية في جميع المدونات القديمة في الخزانة العربية. والذي يجب الإشارة إليه أنّ مدونة" صبح الأعشى" حُبلى بالفن، ففي أثنائها توجد ملامح الرواية والقصة وأسباب السرد.

[1]– ينظر: صبح الأعشى، ج130/8.

## الفصل الأول

## إشكالية آلات الصناعة الروحانية وأثرها على التواصل اللساني

- **تمهيد**

**المبحث الأول: المعارف وأثرها على صناعة الإنشا**

1- ترجمة القلقشندي.

2- المكونات المعرفية والإرث الثقافي.

3- العصر وتأثيره في صناعة الإنشا.

4- القلقشندي، المواقف الشخصية والأشكال التعبيرية.

**المبحث الثاني: منهجية وبنية صبح الأعشى في كتابة الإنشا.**

1- منهج وبنية الكتاب.

2- طريقة عرض المادة ومحتويات الكتاب وروافده.

3- ماهية صناعة الإنشا ( الكتابة) لدى القلقشندي.

4- تقنيات صناعة الإنشاء عند القلقشندي.

**المبحث الثالث: المداعبة اللغوية وآليات التواصل في" صبح الأعشى"**

**أولا: المداعبة اللغوية في صناعة الإنشا**

1- الخصائص الفنية في صناعة الإنشا.

2- اللغة من الوصفية إلى المقصدية.

3- القلقشندي وتعدد الفهومات.

4- " صبح الأعشى": نسق تداولي بين منتجه ومتلقيه.

**ثانيا: آليات التخاطب والتواصل في" صبح الأعشى"**

1- إستراتيجية الحوار وفعل الاتصال.

2- القصد في مدونة" صبح الأعشى"

3- الملاءمة المقامية.

4- الإمتاع والتأثير في خطاب القلقشندي.

**تمهيـــــــد:**

تعتبر مدونة" صبح الأعشى" انعكاسا على عصر بعينه، ونقصد" العهد المملوكي" الذي عُرف بتآليفه الطويلة ومتونه الألفية ذات الطابع الجامع، والتي يُراد منها حفظ ما ضاع من العلم جراء الغزو المغولي على البلاد الإسلامية. وقد كانت الكتابة هي البديل الأمثل لحفظ مدونات أمة الإسلام، وكما هو معلوم؛ فإنّ الكتابة هي التّمثل المادي لجملة الأصوات المنطوقة، فالهمزة مثلا حرف حلقي يأتي من أقصى الحلق، وضع لها الكُتّابُ ما يشاكلها في عالم الحس وهو عبارة عن هذا الشكل الذي يشابه حرف العين، ولكنها أصغر منها بكثير وهي تُكتبُ كما هو معلوم على هذه الهيئة: "ء" وتُتَّخَذُ لها كراسي معلومة كالألف والنبرة والواو.

هذا وإنّ لنا من ثراء المادة اللغوية في التراث ما يسعفنا بتحديد الخصائص التداولية في الخطاب التراثي. وقد اعتنى علماء البلاغة قديما بالمتلقي وأولوه قيمة كبيرة حيث أكدوا من خلال نظرهم الثاقب واستقرائهم الدقيق في السّجل الشعري القديم على أنّ الشاعر العربي الأول كان يستهدف السَّامعَ بقوله بالدرجة الأولى؛ وإلاّ لِمَ كان يَحرصُ الشاعرُ على تنقيح نصه قبل إخراجه للناس واسماعهم إياه؟؟ فمثلا بالنسبة لابن طباطبا: المطلوب من الشعر هو تغيير سلوك المتلقي نحو الأفضل:« من هذه الزاوية يمكن للشعر أنْ يكون أنفذ من نفث السّحر فَيَسُلَّ السّخائم، ويحلل العقد ويسخي الشحيح ويشجِّع الجبان ويكون كالخمر في لطف دبيبه وإلهائه وهزه وإثارته»[1]. فمن خلال هذه التصور النقدي لمكانة المتلقي مهما كانت وظيفته؛ فإنه يمكن القول بأنّ القدماء قد أشادوا بدور القارئ في عملية التلقي وعملية التواصل؛ وكذلك الحال بالنسبة لنصوص"صبح الأعشى"، فإنّ فيها من التداول الكلامي والقولي ما ينم عن أهمية المتكلم باعتباره فاعلا وصانعا ومنتجا للخطاب. وقبل أنْ نلج إلى عوالم القلقشندي من خلال المدونة، فلا بد أن نتوقف عند القلقشندي ومدى براعته في بناء موسوعته من حيث البنية والمنهج، وطريقة عرض المادة، وتصنيفه للكتاب الذي جمع الكثير من العلوم والمعارف، والبقاع والبلدان، والعصور والحقب، والدين والسياسة، والفلسفة والجغرافيا..، ولنبيِّن مدى ثقافة الرجل وموسوعيته في عصر وُصف بالضعف في ميادين شتى، من خلال لغته الواصفة التي قال بها عصره وأبان من خلالها على إرثه الثقافي.

---

[1]– جابر عصفور، مفهوم الشعر( دراسة في التراث النقدي)، ط5، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 1995 ص52.

## المبحث الأول

## المعارف وأثرها على صناعة الإنشا

### 1- ترجمة القلقشندي:

هو أحمد بن علي بن أحمد[1] بن عبد الله القلقشندي الشافعي نزيل القاهرة. ولد بقلقشندة عام( 756هـ/1355م)، تعاطى الكتب وكتب في الإنشاء وناب في الحكم، وكان يستحضر الحاوي، وكتب شيئا على جامع المختصرات. وهو عند البغدادي أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي، شهاب الدين أبو العباس المصري الشافعي[2].

كان القلقشندي علما من أعلام اللغة والبيان، وإماما في طليعة المختصين بأحوال عصره وزمانه، هذا إلى ما عرف عنه من الحرص الشديد على التحقيق والنظر في مسائل الكتابة والإنشاء. كما أنّه قد اتسم بسمة الموسوعية وكثرة البحث والتنقيب والسؤال قصد التحصيل والإفادة، وكان يضرب في كل فن وعلم بسهم، فتارة هو المؤرخ وتارة هو المفسر، والفقيه تارة أخرى، ينتقل بين الفنون والعلوم في سهولة عجيبة وفي عزيمة ثابتة.

ومن الميادين التي برع فيها القلقشندي علم الحجاج والمناظرة والجدال، وقد أبان هذا الرجل عن أصالة في أخذه للعلوم الشرعية والفقه والعقائد بالإضافة إلى رصيده الأدبي واللغوي ووعيه بشؤون حاضره السياسية والاجتماعية مما يجعلنا نضفي عليه سمة" الخطيب المحاجج" والمتكلم البارع.

تعكس مدونة" صبح الأعشى" مقدرة المؤلف على تناول المواضيع بطريقة علمية تنم عن عقل تحليلي، ذلك أنّ القلقشندي متسلح بعلوم عصره، وقد كان يحس أنّ بداخله كائنا محاورا؛ إذ اقتحم حلقات التفسير والبلاغة والفقه وأمور القضاء والفصل في الخلافات القائمة وقتئذ في دواوين الدولة على نحو جعل الأنظار تلتفت إليه وتنوه بنبوغه وفطنته وذكائه. وقد طالت صحبته لحلق العلم والتفسير حتى أكسبته دربة على القول وعلى فنون الرد المفحمة التي تلجم خصومه وتسكت شانئيه.

ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أنّ عصر القلقشندي كان مشحونا بالمكائد، ومحموما بتياراته المتضاربة في الاعتقادات المذهبية والصراعات الحربية بين المسلمين والروم والتتار، ورُغم أنّه كان مفوّها

---

[1]- ينظر: ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأنباء العمر، تحقيق وتعليق: حسن حبشي، ج3، دط، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية( لجنة إحياء التراث الإسلامي)، جمهورية مصر العربية، 1392هـ/ 1972م، ص178.

[2]- ينظر: إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم الباباني البغدادي، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج1، دط، طبع وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية، إستنبول، 1951، ص122.

من الطراز الرفيع إلا أن الحياة السياسية كانت يومئذ تفرض على كل عاقل وعالم أن يتصف بالتحفظ إزاء بعض الأمور المصيرية التي من شأنها أن تورد المرء المهالك، فكان لسانه وقلمه يصدان عن سلطان العقل والحجة.

اعتمد القلقشندي على التورية واتخذها ستارا وحجابا يحفظ به حياته. فالتورية فن شاع في عصره وصار عنوانا على التميز، فمثل هذا الفن يجعل للقول الواحد ظلالا ومجازات تبعث علىالبحث والتأويـــل والتضمين.

**1-1- وفاته:**

يورد السخاوي خبرا عن وفاة القلقشندي:« أمّا عن تاريخ وفاته، فكان بالقاهرة ليلة السبت العاشر من جمادى الآخرة سنة( 821هـ/1418م) عن عمر ناهز خمسة وستين سنة»[1].

تقلد القلقشندي وظائف عدة في عهد المماليك نذكر منها: الإفتاء والتدريس، كما عمل نائبا في الحكم سنين كما ذكر ذلك العسقلاني[2]، وناب في القضاء مرات عديدة.

**1-2- مؤلفاته:**

أسهم القلقشندي في ميادين علمية كثيرة منها:

- الإفتاء.
- القضاء.
- الحكم.
- الأدب.
- التاريخ.

وقد باشر بعض الأعمال بنفسه، وأثرى المكتبة العربية بمؤلفات غزيرة منها:

- مآثر الإنافة في معالم الخلافة[ فرغ من تأليفه سنة(819هـ/1416م)].
- نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب.
- الكواكب الدرية في المناقب البدرية[ وهي مقامة وضعها سنة( 791هـ) طبعت ضمن كتاب صبح الأعشى].

---

[1]- شمس الدين محمد بن عبد الرحمان السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج2، د ط، دار الجيل، بيروت، لبنان، دس، ص08.

[2]- ينظر: العسقلاني، إنباء الغمر بأنباء العمر، مرجع سابق، ج178/3.

– صبح الأعشى في كتابة الإنشا[ شرع في تأليفه منذ استقراره في العمل بديوان الإنشاء سنة( 791هـ/1388م) وكان الفراغ من تأليفه سنة( 814هـ/1411م) حسبما ذكره القلقشندي في آخر الكتاب[1]].

**2- المكونات المعرفية والإرث الثقافي:**

**2-1- المكون المعرفي:**

أ- **الدين:** كان القلقشندي يصدر عن عقيدة دينية محضة، فهو السُنِّي الذي كانت مشاربه صافية بحيث تتلمذ على حفظه للقرآن وحيازته لمتون الحديث والفقه، واطلاعه الواسع على التفسير وقضايا الفتيا والحكم والقضاء وغيرها.

**ب- التاريخ:** كان القلقشندي من دون شكٍّ موسوعة تاريخية تستوعب محصِّلة حقبٍ عديدة، منذ عهد النبوة وحتى فترة حياته.

**ج- اللغة:** وبها كان يحفظ ويفكِّر ويتذكر ويحاور ويؤلف...

**د- المجتمع:** مصر والشام كانتا حاضرتين في مدونة" صبح الأعشى" بشكل لافتٍ، وكانتا تسكنانه، فهو كثير الحديث عنهما وكثير المحبة لهما.

يمكن أنْ نقول أنّ هذه المكونات الأساسية هي التي صنعت ذهنية القلقشندي وصاغتها وربّتها وخلقت فيها هذا المزاج، بالإضافة إلى ولوعه بالأدب الذي كان يراه الكفاية في تهذيب النفس والسمو بها إلى آفاق الفضيلة.

وإذا نحن تمثلنا بيئة القلقشندي( مصر) وجدنا أنّ هذا الجو الثقافي يسمح له بالولوج إلى عوالم الإبداع والكتابة ليكون القلقشندي أحدُ العارفين بطبائع الخلق وأخلاق المخلوقات التي كانت تملأ تلك البيئة بوجودها الهوياتي المنتمي للدين والأعراف والمعتقدات من جهة، وإلى المجتمع ومعطياته من جهة أخرى بحيث:« إذا نظرنا إلى المجتمع أدركنا هوية القيم التي ينتمي إليها، وإذا نظرنا إلى القيم أدركنا هوية المجتمع التي يتمثُّلها؛ ولقد رصد الشهرستاني هذه العلاقة في المجتمع العربي الإسلامي قديما فقال: إنّ الله عز وجل أسّ دينه على مثال خلقه ليُستدَل بخلقه على دينه، وبدينه على خلقه...»[2]، فمعرفة

---

[1]- ينظر: صبح الأعشى، ج404/14.

* هو عبد الله بن مروان أرسله لقتال الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي.

[2]- منذر عياشي، الكتابة الثانية وفاتحة المتعة، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب/ بيروت، لبنان، 1998، ص08.

طبيعة الأشياء مردها إلى البيئة التي نشأت فيها، كما هو الحال مع المجتمعات الإسلامية وغير الإسلامية التي تحدد هويتها من خلال قيمها الحضارية والثقافية التي تنتمي إليها.

**2-2- الإرث الثّقافي والصّراع الفكري:**

لقد فتح القلقشندي حواره في كتابه مع إرث ثقافي كبير، حيث اعتمد الإخبار وسيلة للتعليم والتوجيه والتبويب، كما أنّه لم يشأ أنْ يكون كتابه" صبح الأعشى" كتابا متخصصا في علم بعينه، بل إنّه يتعدد بتعدد الفصول والأبواب، غير أنّ كتـــب تأريخ الأدب تأخذه بشيء من الاختصار فتنعته على أنّه:« موسوعة ضخمة تحتوي مقدمة وعشر مقالات، أما المقدمة ففي فضل الكتابة، وصفات الكتاب والتعريف بديوان الإنشاء وقوانينه...»[1]، فما هذا إلا وصف خارجي ومختصر لا يفي حق المؤلِّف ولا مُؤَلَّفه.

ثم يعدد مؤرخو الأدب تلك المقالات دون الخوض في مضامينها ولا لغتها، وهذا صاحب كشف الظنون يقول فيه:« هو على سبعة أجزاء كل منها مجلد كبير في صناعة الإنشاء لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا ذكرها، وجعل بابا من أبوابه مخصوصا بعلم الخط وأدواته، فرغ من تأليفه سنة 814هـ»[2]. وهذا ما يجعلنا نتساءل عن حقيقة" صبح الأعشى"؟.

والثابت لدينا أنَّ" صبح الأعشى" مدونة مليئة بالنصوص التراثية المستعارة من غير زمان المؤلف، ففيها خطب الخلفاء، وفيها رجالات الفكر والثقافة والسياسة لعصر بني أمية وكذلك فيها حضارة العباسيين بمجموع خلفائهم الثمانية والثلاثين وغيرهم. ولسنا بصدد فهرست الكتاب هنا، ولكنّنا أردنا فقط أنْ نُبِين عن حقيقته؛ إنّه ثمرة مجهود سنين من الكتابة. فلا غرابة إذن أنْ يكون بهذه الضخامة، ولا غرابة أيضا أنْ تتعدد فيه الأصوات والأجناس والثقافات المختلفة والمتنوعة.

وإذا نظرنا إلى حقيقة هذا الكتاب من هذه الزاوية، استطعنا أنْ نتصور مقياسا معقولا للمستوى الثقافي والحضاري الذي تحظى به هذه المدونة، فنقول إنّ الثقافات تتعاون بحسب ما تقدمه للإنسان من التفاعل والتعايش والانخراط والتفاهم والمحبة.

لا يمكن الرجوع إلى نقطة توافقٍ في تراثنا العربي خصوصا عندما يتعلق الأمر بالعصر المملوكي، فالتدهور السياسي الذي شهدته الأمة في تسيير شؤون الدولة والحكم؛ منوط بالفشل الذريع الذي لحق الدولة المسلمة من جراء الحملات التي كانت تُشن عليها من قبل الطامعين من الإفرنج ومن سواهم في مقدّرات هذه الأمة العربية.

---

[1]- حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي: الأدب القديم، د ط، دار الجيل، بيروت، لبنان، ص1033.

[2]- نفسه.

وهذا ما أضاع مركز القرار لهذه الأمة في هذا العصر، ولم يبق إلا أنْ نَصِفه في شقه الثاني بأنّه" عصر التدوين والجمع" فكأنّ هذه الأمة قد فقدت ثقافتها وهويتها ودينها، وهي الآن تلم الشتات. لذلك إذا نحن بحثنا عن المتكآت الحقيقية لصبح الأعشى، والبواعث الرئيسية لكتابة هذا السِفر، وجدناه:" العامل السياسي" الذي أرهق كيان الدولة والأمة.

لقد فقدت الأمة" **المركز**" فسيطرت الثقافات والإيديولوجيات الدخيلة على الأمة في عصر القلقشندي، فجاء كتابه مليئا بالتاريخ والجمع خوفا وحرصا على هذه المادة من أنْ ينالها الشتات والضياع. فقد ركز القلقشندي في كتابه" صبح الأعشى" على إدراج الثقافة داخل المنظومة الاجتماعية، وذلك عندما نادى بتعليم أبناء العصر" الإنشاء أو الكتابة" لأنّها جزء لا يتجزأ من كيان العربي ووجوده:« على أنّ معرفة المصطلح هي اللازم المحتّم، والمهم المقدّم لعموم الحاجة إليه، واقتصار القاصر عليه...»[1]، فتعلم الكتابة الإنشائية أصبح من الحتميات لا من الضروريات لحاجة الناس إليها على اختلاف أجناسهم.

والمعروف تاريخيا، أنّ الأمم التي خرجت لتوّها من الحروب تكون قد ناءت بِحمْلٍ من الفقر وبحمل من الجهل، وعلى رأس هذه الآفات، تكون الأمية بادية على أبناء العصر جرّاء الحروب، ولعله من أجل هذا السبب كانت مدونة" صبح الأعشى" كتابا توجيهيا تعليميا حتى وإنْ تعددت خطاباته وتلونت بأنواع من الثقافات. فهذا التوجيه والإرشاد يأتي من خلال هذه البوابة الأولى أو البنية الدلالية في مستهل كتاب القلقشندي والتي نقصد بها:" العنوان"، فهذه الجمل الإرشادية والمرجعية تخلق رد فعل فوري إيحائي من قبل المتلقي عند استقبالها، منطلقة من انفعالية شعورية اعتمادا على الإحالة إلى الواقع، وهذه الترميزة الإيحائية في" العنونة" تخلق نوعا من الترابط والتواصل تجعل المتلقي يُشكل صورا ذهنية تلقائية ذات دلالات قيمية قبل الدخول إلى عالم المتن.

إنّ مدونة" صبح الأعشى" تعكس ذلك الصراع الفكري الذي دام لسنوات عديدة وتعاقب للدويلات التي نشأت في مصر كالدولة الطولونية والإخشيدية والفاطمية والأيوبية... وإنّ آثار هذه الدويلات تقبع داخل نصوص" صبح الأعشى"[2] باعتبارها صوت" الآخر" الغائب الذي استحضره القلقشندي وسدَّ به تلك الفجوات التي لحقت بالمؤسسات الثقافية لعصره، أي الجهات المعنية بنشر الوعي والفكر والثقافة في زمن المؤلِّف.

---

[1]– صبح الأعشى، ج07/1.

[2]– ينظر: الأجزاء: السادس، السابع من صبح الأعشى.

فهذه الأنساق الثقافية المستعارة من أزمنة تلك الدويلات هي التي تواجهنا في" صبح الأعشى"، وهي التي تدعونا إلى عملية الحوار والتواصل مع هذا الموروث الثقافي الذي استحضره القلقشندي ووضعه بين يدي القراء والنقاد ليقولوا فيه ما شاؤوا.

وليس علينا نحن كقراء أنْ نتجاوزه بحكم ما فيه من مادة إخبارية قد تبعث على الملل عند البعض، بل علينا أن نتلمس الطاقة الإبداعية المستكنة فيه، ولا ينبغي تجاوزه وتخطيه، يقول أدونيس:« إنّ تجاوز الماضي لا يعني تجاوزه على الإطلاق، وإنّما يعني تجاوز أشكاله ومواقعه ومفاهيمه وقيمه التي نشأت كتعبير تاريخي عن الحالات والأوضاع الروحية والثقافية والإنسانية الماضية التي يتوجب اليوم أنْ يزول فعلها لزوال الظروف التي كانت سببا في نشوئها. فلم يعد الشاعر العربي ينظر إلى الماضي كنموذج للكمال والقدسية مطلقة. صار الماضي يهمه بقدر ما يدعوه إلى الحوار معه»[1]، وذلك من أجل استلهام ما به من عادات وثقافات حضارية تدعو إلى التحاور والتواصل معها كونها من مقومات الأمة وموروثاتها التي نشأت على إثرها.

إنّ مدونة" صبح الأعشى" تختزن بداخلها تلك الأصوات التراثية وذلك الألق الذي ينبعث من الماضي البعيد لأسلافنا الذين لم يبق من كائناتهم غير ملفوظاتهم التي تتعايش وتتواصل معنا من خلال هذه العملية الحوارية عبر ثراء المادة اللغوية والبنى الصرفية والمفردات والتراكيب والخطابات التي نطالعها في" صبح الأعشى".

**3- العصر وتأثيره في صناعة الإنشا:**

تتبدى ملامح البيئة في مدونة" صبح الأعشى"، حيث جنت عليه التسمية فزيفت حقيقته الثقافية وعطاءه الحضاري. إنّ هذه التسمية الجائرة" عصر الضعف" حرمت الأمة الإسلامية من أنْ يكون لها إسهامٌ في العطاء، وذلك بطريق الخطأ أو العمد فالغالب أنّ هذه تسمية سياسية بالأساس.

فعندما يكون الضعف مرده إلى الحكم، يتداعى إلى جميع أطراف الدولة فيمسّها ويصمها بالوهن وليس الأمر كذلك، فإنّ هذا العصر الذي عاشه القلقشندي خليق بأنْ يسمى:" عصر العلم" لما عرفه من إنتاج غزير في المطولات والمتون والشروح والحواشي والمغازي والسير والتاريخ...

لقد ورث القلقشندي هذا الزاد العلمي، وصار عَلمًا مشهورا بعلمه وفقهه وحواراته الشيقة، وكيف لا يكون كذلك وهو الذي كان يأخذ من القرآن ويُجادل به ويحاور ويفتي ويحل المعضلات من خلاله، وكما

[1]- أدونيس، زمن الشّعر، ط3، دار العودة، بيروت، لبنان، 1983، ص 122.

هو معلوم فالقرآن كله كتاب حوار مع أهل الكتاب والمشركين والمنافقين ومختلف أهل الملل والنحل، وإنّ الحوار امتد فيه إلى الملائكة المكرمين، بل إنّه طال حتى إبليس الذي ملأ قلبه الكِبر والحقد والغرور... ومن أجل هذا فقد كان القلقشندي يمثلُ صورة صادقة عن بيئته وعن الانسجام الحضاري الذي كان يملأ الآفاق الإسلامية لولا تكالب الأمم الغاشمة عليهم وقتئذ.

وعلى هذا فقد كان يشهد العصر برمَّته على ثقافة الرجل، إذ نجده يصبغ خطبه ومواعظه بأسلوبه الاحتفائي الذي يمثل صورة صادقة عن وعيه بمجتمعه، ويمثل شخصية القلقشندي الماثلة في أذهان أبناء عصره، وكان الكلام الذي يُلقى إلى الناس في الجوامع أو الدواوين يكتسي قيمة شعورية وقوة فاعلة في متلقيه لأنّه نافذٌ من هذا الشخص دون سواه، وعليه أصبح من اللازم اختيار الاسم الذي سيتبنى الكلام، والذي سيحدد موقف المتلقي اتجاهه[1].

لقد تصرف القلقشندي في مضامين" صبح الأعشى"، وأخرجها كما رآها بعين المؤرخ وبعين الفنان الأديب، وبعين الراوي، فجاءت الأحداث شاهدة على التاريخ تارة وعلى العصر تارة أخرى وعلى السياسة تاراتٍ، فقدّم وأخَّر، ولخص وحذف، وتخيَّر من تلك الأحداث والتواريخ ما كان يشبع حاجته وحاجة عصره، فمنها ما كان يمثل انعطافا، ومنها ما كان مسكوتا عنه، ومنها ما كان نقطة خارقة في تاريخ الأمة كغزو التتار مثلا للعراق.

كانت لغة القلقشندي وليدة العصر المملوكي الذي يعتبر حاضنة لمجموعة من العرقيات والأجناس المختلفة، غير أنّها كانت كلّها تتكلم العربية لغة القرآن؛ ولكن بشيء من التدريج الذي حلّ باللسان نظرا لهذا التنوع الإثني وفي هذا الصدد:« تعد اللغة في هذا العلم* كائنا اجتماعيا يتأثر بحركة المجتمع وتفاعلاته... وظهرت" الكفاءة التداولية" تأثرًا بعلم اللغة الاجتماعي، وهي القدرة على إنتاج الفعل التواصلي وفهمه..»[2]، ويعني هذا أنّ اللغة تتأثر تبعا لمتغيرات المجتمع وكل ما يشهده من تفاعلات، وهو الحاصل في زمن القلقشندي، الذي طغى عليه الامتزاج الحضاري والتنوع الاجتماعي وكثرة الاختلاط بين الأجناس والشعوب وهذا ما جعل اللغة تساير المجتمع وفقا لمتطلباته التواصلية، وهي– اللغة– في حالة تأثر دائم وفق هذه الايديولوجيات التي يفرضها الواقع الاجتماعي.

---

[1]– ينظر: عبد الفتّاح كيليطو، الكتابة والتناسخ: مفهوم المؤلف في الثقافة العربية، ترجمة: عبد السلام بنعبد العالي، ط1، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان/ الدار البيضاء، المغرب، 1985، ص74.

*– أي علم اللّغة الاجتماعي.

[2]– محمود عكاشة، النّظرية البراجماتية اللسانية، ط1، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، 2013، ص71.

ومما لا شك فيه أنّ تلك الشخوص التي كانت تتكلم داخل نص" صبح الأعشى" كانت تعيش التداول اليومي للكلام مهما كانت أجناسها وتغيرت ألوانها؛ فالبدوي والحضري يعبر عن حاجته وفقا لهذه اللغة الاجتماعية التي تواضعت عليها المجموعة الإنسانية وحققت عبرها التفاعل والتواصل.

**4- القلقشندي: المواقف الشّخصية والأشكال التّعبيرية**

إنّ ارتباط اللغة بالإنسان بوأها مكانة عالية، فكانت جديرة بالدرس والتحليل، واللغة من شأنها أنْ تكشف عن خبايا النفس من خلال جملة الملفوظات التي يتلفظ بها قائلها، ولكن من الضروري القول إنّ اللغة قد تخادع وتراوغ فتؤول إلى شيفرة أو رمز وسمة وأحبولة يحتاج متلقيها إلى أن يكشف عن المعنى المراد من خلال عملية تأويلية عميقة. هذا المعنى المراد يقبع بين نظامين لغويين:

أ- المدلولات الصريحة.

ب- المدلولات الضمنية.

وقد أولى الدارسون اهتماما بالغا لما يقوله المتكلم وما يقصده؛ وصرحوا أنّ اللغة لعبة خطيرة وفخٌّ مبهم ومظلم، ومن هؤلاء رولان بارت وبيير جيرو وغريماس وكورتيس، ومحمد عزام ورشيد بن مالك...، فبارت- مثلا- يرى أنّ« النص الأدبي ليس نتاجا، بل هو إشارة إلى شيء يقع وراءه، لتصبح مهمة الناقد هي تفسير هذه الإشارة، واستكشاف حدودها وتأويلها وبخاصة الحد الخفي أو المعنى العميق»[1]،ويعني هذا أنّ الغاية من النصوص ليس الإنتاج فقط بل لغايات وإشارات أخرى تقبع وراءها، فما على القارئ عموما أو الناقد خصوصا توظيف كل ما يملك من كفاءات تداولية وغير تداولية من أجل تأويلها والوقوف على حدودها للوصول إلى مضامينها ومقاصدها العميقة.

فالمواقف الشخصية للقلقشندي إزاء القضايا الكبرى كانت بعيدة عمّا يمكن أنْ نسميّهُ بلغة الفقه:" التقية"، ولكنه كان شخصية حذرة نظرا لما انطوى عليه زمانه من الفساد وتسلط السلاطين، وآية ذلك أنّك وأنت تقلب صفحات" صبح الأعشى" تجده قد عقد فصلا أو بابا سماه بـ:" المداعبة" وهو باب يشي بالحذر الذي ينطوي عليه الكاتب، فليس كل ما يعرف يُقال.

ويقول في ذلك:« ومعاني المداعبات التي يستعملها الإخوان غير متناهية، والأغراض التي ينتظمها المِزاح وتُعدُّ من طلاقة النفس لا تقف عند قاصيه: لأنّها مستملاة من أحوال متباينة، ومأخوذة من أمور غير معينة، وحصرها في رسوم جامعةٍ يستحيلُ، وتمثيلها غير مفيد: لأنّه لا تعلُّق لبعضها ببعض، ولا

[1]- رولان بارت، مبادئ علم الدّلالة، ترجمة: محمّد البكري، د ط، دار الحوار، اللاذقية، سورية، 1990، ص66.

نسبة بين الواحد والآخر»[1]، إلى أنْ يقول:«.. لا فرق بين جرح اللسان وجرح اليد، وقد نطق بهذا المثل.. والأمن من الجواب الذي ربّما قدح في النفس وأثّر، وأحمى الصدر وأوغر ونقل عن التوادد إلى التضادد، وعن التداني إلى التباعد وقد أشار إلى ذلك أمير المؤمنين عليّ كرّم الله وجهه بقوله من أبياته المنسوبة إليه:

فرُبَّ كلامٍ يَمِضُّ الحشا وفيه من الضَّحْك ما يُستطابُ

مع مراعاة السلامة من المداخلة المنطوية على الغِّل، والمرآة المبنية على المكر.. وغير ذلك مما لا تُؤْمَنُ عاقبته وتُحْسُنُ عائدته»[2].

هذه المقولة تنضوي تحتهاالكناية والتورية والتلميح والرمز بنظر القلقشندي وهي جزء من أنظمة التواصل مثلها مثل الإخبار والتحاور غير أنها دلالات غير صريحة بل هي من مضمرات القول التي تحتاج إلى تأويل وإبانة، وهو ما نلمسه في الكثير من الخطابات والنصوص التي تعاقبت في" صبح الأعشى".

فتعاقب هذه النصوص في المدونة وكثرتها وتنوعها وتعدد أشكالها وأغراضها يوحي بموسوعية القلقشندي وتعدد معارفه، ومن أجل هذا السبب فاقت غيرها في حجمها وموسوعيتها لأنّها تستوعب داخلها أصوات التاريخ كأكثر فن صاغه القلقشندي فيها، لأنّه كان شاهدا لعصره وراويا لأحداث سبقت عصره، وهذا التناص الذي منحها هذه الضخامة هو ظاهرة حتمية. يقول الغذامي:« منذ الجاهلية، والشاعر العربي يصدح بشكواه من مداخلاته مع سواه، وما اشتكى من ذاك إلا لوقوعه فيه قسرا وعن غير وعي، وفيه قال زهير بن أبي سلمى: ما أرانا نقول إلا معارا أو معادا من لفظنا مكرورا وعنترة يقول:" هل غادر الشعراء من متردم" . وأشد من ذلك وأبلغ قول الأخطل عن نفسه وغيره من الشعراء:" نحن الشعراء أسرق من الصاغة"... ولعل هذا ما تسمع لخمسة شعراء عرب بأنْ يتغزلوا جميعهم بليلى العامرية...»[3]، فالشعراء عندما يصورون ما يحيط بهم من هموم أو أحزان وغيرها، فإنّ أغلب ما يقولونه إمّا أنْ يكون من كلام مَنْ سبقهم، أو أنّهم يكررون ما سبق أنْ قالوه سواءٌ كان منظوما أو منثورا، فالكلام إذن بعضه من

[1]– صبح الأعشى، ج225/9.

[2]– م. ن، ج226/9.

[3]– عبد الله محمد الغذامي، الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية: قراءة نقدية لنموذج معاصر، ط4، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998، ص322/ 323.

بعض وما ترك الأول للآخرِ شيئا، إلا أنّ المعنى الذي أخذ منه الآخر من الأول يكون أكثر حسنا ووضوحا، وبهذا كان أولى به.

ففي مدونة" صبح الأعشى" تلتقي الأزمنة، وتلتقي الشخصيات الفانية لتمنحها اللغة وجودا ثانيا في عصرٍ غير عصرها، وفي بيئة غير بيئتها. وفي هذا الفضاء الذي تتيحه مدونة" صبح الأعشى" تلتقي الحيوات وتقتات من بعضها لتفرز لنا هذا الجو الثقافي الذي كان يسود إنسان تلك الفترة الذي كان يمتح من علوم العصور المتقدمة في طرائق عيشه ومناهج تعلمه.

كانت مدونة" صبح الأعشى" مشروعا علميا في ذهن كاتبها، ولأجل هذا السبب فقد طعّمها القلقشندي بكل ثقافته ومعارفه فبدت نصوصها ذات نسيج متنوع وثري، وفيها يلتقي القارئ بالجاحظ وصلاح الدين... ويجد فيها نصوصا مهاجرة من أزمانها وتستوطن زمان القلقشندي وبيئته( مصر) مثل رسائل الخلفاء وكتابات الجاحظ، وقوانين السلطنة ورسائل الفقه، وعهود الأمان التي كانت تعقد لأهل مختلف الملل وحتى قوانين البريد وتربية الحمام الزاجل في مصر والشام... فالنص في مدونة" صبح الأعشى" هو نسق من الجذور المتباعدة وليس هو وليد مؤلِف واحدٍ كما يقول دريدا J. Drida :« النص" نسيج لقيمات" أي تداخلات لعبة منفتحة ومنغلقة في وقتٍ واحدٍ، مما يجعل من المستحيل لديه القيام بـ" جينيلوجيا" بسيطة لنص ما توضح مولده، فالنص عنده لا يملك أبا واحدا، وليس له جذر واحد، بل هو نسق من الجذور، وهو ما يؤدي في نهاية الأمر إلى محو مفهومي النسق والجذر على حدٍ سواء»[1]، فالنص حسب" دريدا" مُطعَّمٌ بمجموعة من النصوص حتى وإنْ كانت من أزمنة غير زمان المؤَّلف وغير مكان المؤَّلف، إلا أنها تمثل لُحمة ونسيجا متماسكا يؤدي في النهاية مقصدٍ معين مستهدف من مبدعه.

وبهذا المقتضى فالقلقشندي يرمي من خلال" صبح الأعشى" إلى مقصدية تعليمية بالأساس لأنّه كان مولعا بالإنشاء، وكان يرادُ لهذا الكتاب أنْ يحمل السِّمة المدرسية والنهج التعليمي الصِرف. وكان مشروع حياته– كما قلنا– غير أنّه تخطى هذه البغية إلى غايات أخرى بنظر الدرس التداولي المعاصر الذي يشرك القارئ أو المستعمل للكتاب في إعادة بناء عناصره وفق رؤية القارئ.

فالحمولة الثقافية والدلالية ومرجعياتها التاريخية والدينية تكسر أفق التوقع لدى القارئ وتشوش مقصديته نظرا لما يحمله النص من مقصديات لا حصر لها:«.. فعمل القارئ لا يقتصر فقط على تنشيط النص وإنّما بإعادة استحضار موروثه الثقافي الذي يشكل المرجع، من كون النص هنا رسالة شكّلها

[1]– حصة عبد الله سعيد الباري، التناص في الشعر العربي الحديث: البرغوثي نموذجا، ط1، دار كنوز المعرفة العلمية للتوزيع والنشر، عمان، 2009، ص14.

أطراف مختلفة، وهنا يكون دور القارئ والقراءة متمثلا في استحضار أو استدعاء هذا المتصور الذهني الغائب..»[1]، وهنا تبرز فاعلية ودور القارئ في استحضار مكتسباته القبلية وموروثه الثقافي باعتباره مرجعا من أجل استكمال النص.

فالحاضر في مدونة" صبح الأعشى" هو التراث الذي هو تجربة إنسانية وثقافة ومعارف لها القدرة على الديمومة والامتداد في الزمان، وهو الغائب الذي تستدعيه الذاكرة عبر مقولة اللغة والكلام. هذا التراث تختزنه اللغة بكل حمولته الثقافية والإيديولوجية ويتلقاه القارئ بجهازه التحليلي والتفسيري والتأويلي واالرُؤْيَوي ليفك شفرته ويتلمس جوانبه الإيحائية والبلاغية والجمالية، ويكتنه العواطف التي تسكن نصوصه، ويفسر أو يحاور إنسانه فيكشف عن قلقه وحربه وآلامه وآماله من خلال تلك الدوال المتتالية التي تركتها لنا اللغة في صورة إشارات ورموز... فالتراث الذي تقوله مدونة" صبح الأعشى" هو عبارة عن رسائل مشحونة بالمضامين التي تحملها تلك الملفوظات الشعرية والنثرية على السواء، سواء كانت هذه الملفوظات أو هذه الحمولة تتسم بالتفاهة أو القيمية فإنها دائما– كما يرى بارت– تنتمي للأدب كون«.. العمل الأدبي ينطوي على شيء من الحشو...»[2]، فالأدب بهذه الصفة هو مجموعة من الكيانات والهويات التي تعيش على مرِّ الزمن خلال ثنائية اللغة والكلام أو المنطوق والمكتوب. والمتاح في" صبح الأعشى" هو تلاقي هذه الكيانات والهويات في جوٍّ إنساني تسوده الثقافة.

و" صبح الأعشى" لم يرصد الحالات الشعورية والذهنية للسلاطين وأصحاب الإنشاء فقط، بل إنّه يحمل كمًّا كبيرا من الدلالات التي ترمز إلى عالم الأشياء والأعيان كالحديث عن العملة مثلا، وبهذا تكون هذه المدونة قد اتسمت بالتنوع لاحتوائها على الهامش والمركز معا.

تتعاقب مدونة" صبح الأعشى" مع نصوص أخرى مورفولوجيا وعضويا حتى تحقق أدبيّتها وشعريّتها من خلال مبدأ" الإقتراض" الذي نلمسه في سائر الأجناس الأدبية؛ ولغة القلقشندي ومؤلَّفه هذا تعضُده البلاغة ويعضُده الفنّ خصوصا عندما نعلم أنّ" صبح الأعشى" لم تكن بمنأى عن التحولات الحادثة في عصر القلقشندي.

إنّ زاوية النظر التداولية تفرض علينا الإجراء التواصلي الذي تحققه اللغة أو الكلام من خلال الملفوظات والخطابات التي داخل النص، والمعنى أنّه من اللائق أنْ نتجاوز أو نتنازل شيئا قليلا عن تقديس اللغة، وتقديس البلاغة، وأنْ ننظر إلى ما يتيحه النص من تفاعل وحيوية بين المتخاطبين وهكذا

[1]– اليامين بن تومي، مرجعيات القراءة والتأويل عند نصر حامد أبو زيد، د ط، دار أمان، الرباط، 2012، ص25.

[2]– اللّغة والخطاب الأدبي، مرجع سابق، ص57.

فإنّ:« اللغة التي كانت قديما، تجسيدا لا يُجادلُ، ووحيدا للمعنى والحقيقة قد صارت أحد افتراضات المعنى الممكنة»[1]. وبهذا فاللغة قد تخطت ذلك التلاحم القائم بين اللفظ والمعنى والنظر في حدودهما إلى أوسع من ذلك وهو النص بغض النظر عن نوعيته( رواية، أسطورة...)، وما يتيحه من معاني ومضمرات وانفعالات حاصلة بين عناصر العملية التواصلية.

والواقع أنّه من المُجحف أنْ نصادر فنيّة" صبح الأعشى" بحكم أنّها تنطوي على لغة تراثية بلاغية تُؤثر البعد الجمالي والعمق الدلالي دون أنْ تحقق التفاعل التداولي والتواصل، بل إنّ البلاغة العربية القديمة راعت هذا الأمر( التواصل) في سياق ما يعرف بـ:" المقام" وإنْ كان" النظم" هو أحد مقومـات الفن العربي القديم.

لقد كان العربي يحسبُ لهذا الأمر حسابه حين كان يُنادي ليُسمع، ويخطُبُ ليُؤثر، ويختلف خطابه لجليسه عن خطابه لنفسه وعن خطابه لدابّته وليس يخفى ذلك البعد الاجتماعي الذي تتحلى به العربية مثلها مثل سائر الألسن، وإنْ كانت العربية قد عُرفت بأنّها ابنة البادية أو ابنة الصحراء. غير أنّ هذا لم يَنْفِ عنها صفة الاجتماعية، ومنه يُعلم أنّ" صبح الأعشى" تعجُّ بالأصوات المتفاوتة المستوى: من السلطان إلى بائع الكواميخ، ومن الفقيه إلى الخادم إلى سائس الدّواب؛ إنّها طبقات اجتماعية عرفتها البيئة المصرية والشامية وقتئذٍ، وقد تحقق وسط هذا التفاوت الطبقي، تفاوتٌ خطابي ولغوي فرضته التراتبية الاجتماعية التي حدثت فيهم فأحدثت لديهم اختلافا في الأنساق الخطابية، كما أحدثت فيهم فعاليات يتفاوت التعبير عنها بحسب الحاجة وبحسب المقام، فالكلام:« فعالية إنسانية تختلف بلا حدود من طائفة اجتماعية إلى طائفة اجتماعية أخرى، لأنّه الموروث التاريخي للطائفة، ونتاج الاستعمال الاجتماعي الطويل المدى، إنّه يختلف مثل كلّ جهد إبداعي آخر، اختلافا قد لا يكون شعوريا، لكنّه على أيّة حال اختلاف حقيقي، مثلما تختلف أديان الشعوب المتباينة ومعتقداتها وفنونها»[2]، أي أنّ الكلام فعالية اجتماعية وموروث تاريخي يختلف من طائفة إلى أخرى تبعا لما يطرأ على المجتمع من متغيرات ومعتقدات ثقافية لا شعوريا، بل أصبح وجودها حقيقي فرضه الواقع.

---

[1]– ميخائيل باختين، الخطاب الرّوائي، ترجمة: محمد برادة، ط1، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة– باريس، 1987، ص20.

[2]– اللّغة والخطاب الأدبي، مرجع سابق، ص08.

بعد إجلاء بُعد الحدث الكلامي للذوات القاطنة داخل المتن، يحق لنا أنْ نتساءل: هل كان القلقشندي يفترض قارئا معيّنًا في ذهنه؟ وهل أنّ المتلقي لخطابات" صبح الأعشى" هو محاورٌ لنصوصها أمْ محاورٌ للمؤلِّف ذاته؟.

ليس من السهل الحكم أو الإجابة بصياغات قطعية حول هذا التساؤل، ولكنْ من الضروري لفت الانتباه إلى طبيعة مدونة" صبح الأعشى" وحتى إلى تسميتها بهذا الاسم؛ فكأنّ القلقشندي كتبها ليزيح الغشاوة عن قارئ معيّن، أي أنّه يفترض هذا الأمر مُسبقا في ذهنه. أو أنّه ربّما لقي سائلا سأله عن الإنشاء والكتابة فأخرج مؤلفه.

أمّا عن فاعلية القراءة، وتفاعل المتلقي، فنحن ندرك ونعي جيدا أنّ القراء يتفاوتون في الفهم، والتفسير والتعليل والتأويل، ولكنّ الذي يكاد يكون واحدا عند القرّاء هو شعورهم بالتواصل:« وعلى الرغم في أننا لا نجيب الكاتب فإننا نشعر أنّه يخاطبنا...»[1]. نعم؛ إنّنا نشعر بمتعة الفهم وبالتواصل وإنْ لم نلتقِ الكاتب. إنّه رأي- من باختين- على قدرٍ كبيرٍ من المسؤولية والشعور بجدوى التلقي وفاعلية التواصل، فنحن نحشد كلّ طاقاتنا المعرفية والثقافية لندخل في عملية حوارية مع النصوص: التاريخ، الأسطورة، الخرافة وغيرها.

كما يمكن أنْ يؤدي النص مراد المؤلف، وقد يقول النص ما لم يُرده الكاتب، ويفهم القارئ شيئاوقصودات خارج نطاق مقاصد اللغة ومقاصد المؤلف، ولكنّ« المرجح أنّ اللغة أداة موضوعة أصلا لاستعمالات أدنى من المستوى التصوري»[2]. وبهذا يكون علينا أنْ نتبنى وجهة نظر عامة وهي أنّ الأدب عموما مجالٌ مفتوحٌ على التأويل والتوقع، وأنّ اللغة والكلام أداتين يحكمهما السياق وتحكمهما الظروف والمقامات التي بين المتخاطبين الذين يدخلون في عملية تشاركية من أجل إنجاح العملية التخاطبية/ التواصلية للوصول الغايات والمقاصد.

[1]- ولاس مارتن، نظريات السرد الحديثة، ترجمة: حياة جاسم محمد، د ط، المجلس الأعلى للثقافة، الإسكندرية، مصر، 1998، ص202.

[2]- اللّغة والخطاب الأدبي، مرجع سابق، ص20.

## المبحث الثاني

## منهجية وبنية صبح الأعشى في كتابة الإنشا

### 1- منهج وبنية الكتاب:

اتسمت موسوعة" صبح الأعشى"- كما قلنا- بالتنوع والتعدد، ومن أجل هذا السبب جاءت كبيرة الحجم، كثيرة المضامين، وهذا ما جعل الأصوات بداخلها تتمايز وتتنوع حسب المكانة الاجتماعية لكل طبقة، وقد انسحب عن هذا التنوع الطبقي تنوع ثقافي وتنوع في الخطاب وتنوع في الاستجابة والفكر بين المتحاورين والمتكلمين.

عمد القلقشندي إلى أنْ يجمعَ مادة كتابه من مصادر متعددة:

- التاريخ والأدب.
- الفقه والسياسة.
- الكلام والجدل.
- العقائد والملل والنحل.

وقد اعتمد القلقشندي على صوت الآخر؛ ونقصد بالآخر كل الذوات التي كانت تَعْمر المساجد وأماكن التعلم(الكُتّاب- المدارس) وكذلك تلك الأصوات الهامشية[ أصوات الباعة في الأسواق والخدم والعبيد...].

فهذه المدونة- صبح الأعشى- مبنية بالأساس على الجمع والتقميش من التراث الذي سبق زمن القلقشندي، ومن المعطى الجاهز الذي عاصره وعايشه، وبالتالي فإنّ المتصفح أو القارئ لهذا الكتاب سيجد نفسه أمام أصوات عديدة لا صوت واحد: فالقائل فيها هو مجموعة" ذوات" ونقصد الشعراء والخطباء والحكام والكُتّاب والمؤرخين والفقهاء وأهل التفسير والنحو والأصول والباعة والجند والمتسولين والمحتالين، وبجملة واحدة، سيجد القارئ نفسه بين ثنائية متناقضة: الهامش/ المركز، وعليه بات من اللازم عليه التسليم بأنه أمام جمع غفير من منتجي" الخطاب".

تهدف موسوعة القلقشندي" صبح الأعشى" إلى تقديم كتاب آخر يخدم بدوره كتاب دواوين الإنشاء يُلخص فيه معارف وعلوم كثيرة يحتاجها الكاتب، والمتلقي على حد سواء، منطلقا من القلم والمداد وقطع الورق والخطوط وأنواعها، وصولا إلى ما يتعلق بالجغرافيا والتاريخ، والمعارف اللغوية وأنواع المكاتبات والرسائل ورادة وصادرة من الدواوين السلطانية في مصر، ومن بين الأسباب التي جعلت القلقشندي يولي أهمية لمثل هذه الموضوعات بالذات نذكر منها:

– الحاجة الماسة لأدباء عصره عموما، وكتاب الإنشاء خصوصا لمثل هذا النوع من الكتابات، كونها تفي بعض ما يحتاجه أصحاب هذا الاتجاه، وليكون بديلا لكتاب" التعريف بالمصطلح الشريف" لابن فضل الله العمري، وكتاب" تثقيف التعريف" لابن ناظر الجيش، اللذين أهملا أمورا لا غنى للكتاب عنها[1]، وهذا ما أشار إليه القلقشندي حينما قال:« فشرعت في ذلك... مستوعبا من المصطلح ما اشتمل عليه" التعريف" و" التثقيف" موضحا لما أبهماه.. متبرعا بأمور زائدة عن المصطلح الشريف الذي لا يسع الكاتب جهلها»[2].

– صعوبة إلمام الكاتب بكل العلوم والمعارف بسبب الكثرة في التأليف من جهة، ومن جهة أخرى صعوبة الحصول عليها، وفي هذا المجال يقول:« أما المتممات التي يكمل بها الكاتب... تكاد تخرج عن الحصر والإحصاء... إذ هذا الكتاب إنما يذكر فيه ما يشق طلبه من كتب متفرقة، وتصانيف متعددة... ولا يجتمع من المطلوب إلا من كشف الكثير من المصنفات المتفرقة في الفنون المختلفة»[3]، وذلك بـ:

– بيان قيمة الكتاب العلمية والتاريخية والسياسية.

– التنويه بفضل الكتابة وشرفها.

– نقل صورة صادقة عن بيئة وعصر الكاتب.

أمّا منهجية" صبح الأعشى" التي انتهجها القلقشندي في تأليفه فقد جاءت مبنية على المنهج العام الذي يعتمد الجمع والرواية والاستشهاد والسرد المباشر بأسلوب تقريري. يقول القلقشندي:« وليعذر الواقف عليه، فنتائج الأفكار على اختلاف القرائح لا تتناهى... وقد رتبته على:

– مقدمة

– عشر مقالات

– خاتمة»[4].

وقد اعتمد القلقشندي على الرواية كثيرا، فمرة نسمعه يقول:« وحكى العباس بن أسد... ومرة يقول: قال صاحب العقد... وتارة يقول: قال في مواد البيان...»[1]. وهذه الأصوات داخل متن" صبح الأعشى"

---

[1]– ينظر: ظيماء محمد عباس السامرائي، المنهج التأريخي عند القلقشندي– دراسة تحليلية– ط1، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، 2001، ص 41.

[2]– صبح الأعشى، ج10/1 بتصرف.

[3]– م. ن، ج328/2 بتصرف.

[4]– م. ن، ج10/1.

هي بمثابة المُحاور الذي يتداول الكلام ويتشاركه مع المؤلف ومع القارئ، وهي نفسها صدى طبقات المجتمع الذي عاش فيه القلقشندي والتي تتوزع بين العامة والخاصة. وهي مَعين أفكاره، ومصدر إلهامه وشواهده التي تَحقق من خلالها التواصل بأبعاده المختلفة.

وقد جعل القلقشندي" **المقدمة**" من المبادئ الأساسية التي يجب معرفتها قبل الخوض في كتابة الإنشاء، وهي تحتوي على خمسة أبواب، ثم تلتها عشر مقالات ثم قسم المقالات إلى أبواب. وجعل كل باب في فصول وقام بتقسيم الفصول إلى وحدات أسماها الطرف- الضرب- الصنف- النوع- الحال- المذهب- المقصد- المسلك- المهيع وغيرها.

أما المقالات ففصلها على النحو التالي:

**أ- المقالة الأولى:** وتستوعب الجزء الأول والثاني وبداية الجزء الثالث؛ وعرض فيها ما يحتاجه الكاتب من الأمور العلمية كالخط وتوابعه.

**ب- المقالة الثانية:** في المسالك والممالك، وذكر الأرض وشكلها وبحارها. والحديث عن الديار المصرية وبيان فضلها ومحاسنها وخواصها وطبقات ملوكها قبل الطوفان إلى عصره[2].

**جـ- المقالة الثالثة:** جعلها في أنواع المكاتبات والولايات والألقاب والنعوت.

**د- المقالة الرابعة:** تضمنت الأصول التي يعتمد عليها الكاتب في المكاتبات كالافتتاحيات، وما يناسب المكتوب إليه من ألقاب ومقادير وغيرها.

**هـ- المقالة الخامسة:** تضمنت طبقات الولايات، الخلافة، السلطنة، ولايات أرباب السيوف والأقلام، ولايات زعماء أهل الذمة.

**و- المقالة السادسة:** تتعلق بالمسامحات والإطلاقات السلطانية والتذاكر الطرخانيات ورسوم العفو.

**ز- المقالة السابعة:** في الإقطاعات والقطائع.

**حـ- المقالة الثامنة:** في الأيمان.

**ط- المقالة التاسعة:** في عقود الصلح والفسوخ والأمانات.

**س- المقالة العاشرة:** في فنون الكتابة يتداولها الكتاب[3].

---

[1]- صبح الأعشى، ج1/40-42.

[2]- م. ن، ج3/254.

[3]- م. ن، ج14/110-360.

أمّا **الخاتمة** فتتعلق هي الأخرى بديوان الإنشاء.

**2- طريقة عرض المادة ومحتويات الكتاب وروافده:**

المتفحص لمدونة" صبح الأعشى" يجد أنّها اتسمت بالالتزام والتسلسل المنطقي في عرضه للمادة وفي محافظته على وحدة الموضوع، وكذا الدقة والأمانة في النقل، فهو كثيرا ما يذكر المصادر التي استقى منها العلوم والمعارف في معظم النصوص التي نقلها مهما كان حجم النص المنقول. فاستعمال القلقشندي لهذا الكم الكثير من المصادر جعل بعضها غير معروف لدينا، أو أن هذه الكتب ضاعت ولم يصلنا غير أسمائها. إلا أنّه حقق عن طريقها تناسقا ووحدة موضوعية من ناحية اللفظ والمفهوم أدت به للوصول إلى عرض مادته بشكل أفضل، حتى أننا لا نشعر بهذا الانتقال من مصدر إلى آخر بدون تعارض ولا تنافر في أسلوبه ولا تناقض في مجمل انتقالاته، بل يكاد« عرضه للمادة يقترب من شكلها الأمثل، وهذا يجعلنا نعتقد بأنه ربما تصرف في النص لاسيما نصوص المصادر التي لم تصل إلينا مخطوطاتها دون إخلال بمعناها العام بهدف الاختصار ومنعا للتطويل أو لخدمة الفكرة التي يهدف إلى توضيحها مباشرة»[1]، وذلك مثل قوله:« أن المقر الشهابي بن فضل الله قد ذكر في التعريف عدة وصايا ليست مما يكتب الآن، فأضربنا عن ذكر مقاصدها لنوردها في الكلام على ما يكتب في متن التقاليد والتواقيع ونحوها مع النسخ التي تورد هناك»[2]. أما في بعض المواضع من المدونة فنجد القلقشندي يقوم بدمج أكثر من مصدر لنا في نص واحد يخدم الفكرة التي يتناولها ويبحث فيها؛ومثل هذا نجده في قوله:« والجامع بين كلاميهما أنّه في زمن صاحب" التعريف"...»[3]، إضافة التصرف في بعض التراجم والسير[4]، وهذا دليل على المقدرة والطاقة الاستيعابية التي يمتلكها القلقشندي فيما يقوم بنقله وطريقة عرضه للفكرة على أبهى صورة، فقد استخدم لعرض أفكاره المنقولة كلمة" قال" التي عادة ما يُورِدُ بعدها صاحب المؤلف أو اسم المصدر، كما كثُر استعماله لكلمة" قلت"[5] للدلالة على نهاية النص المنقول وبداية تعليقه الخاص

---

[1]- ظيماء السامرائي، المنهج التأريخي عند القلقشندي، مرجع سابق، ص51.

[2]- صبح الأعشى، ج101/11.

[3]- م. ن، ج114/11.

[4]- يقارن بين: ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، ج7، د ط، دار صادر، بيروت، ص43-44. وصبح الأعشى، ج77/2 ( السمندل).

[5]- صبح الأعشى، ج185/1، 200، 203، 318، ج72/4، 176، ج133/11، 235...

على ذلك النص، كما هو معروف عند الكثير من المعـــاصرين لزمـن القلقشـندي أمثـــال ابن حجر العسقلاني[1] وغيره.

كما تجدر الإشارة إلى أن القلقشندي كان يخصص في نهاية كل فصل أو موضوع يقف من خلاله على خلاصة للموضوع* المدروس وموضحا لأهم المواضيع الرئيسية وتطورها، مثل ما قدمه فيما يتعلق بأنواع الوظائف التي تصدر عن الخليفة بين وزراة تفويض وإمارة استكفاء وتطورها. إضافة إلى هذا نلمس من خلال هذا الكتاب تلك الفراغات الموجودة في مواضع متفرقة من الكتاب، فربما يرجع هذا إلى الإسراع في التأليف أو إلى ضياع ما عنده من نصوص من بين يديه، أو عدم تواجد معلومات كافية لديه أثناء الكتابة، أو غير ذلك فهو يقول في هذا المجال:« أن قلمي التأليف والنسخ يتسابقان في ميدان الطرس إلى اكتتابه»[2].

أما فيما يخص محتويات الكتاب وروافد تأليفه فقد التزم القلقشندي بالإطار العام الذي من أجله وضع مؤلفاته وموضوعاته، إضافة إلى تحري الدقة والتنظيم فيما عرضه من مادة. وقد تنوعت روافده ومصادره، ولا بأس أن نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

أولا: القرآن الكريم.

ثانيا: الحديث الشريف.

ثالثا: تفاسير القرآن وتفاسير الأحاديث.

رابعا: الفقه وحواشيه.

خامسا: مدونة الشعر العربي حسب العصور:

- العصر الجاهلي.
- العصر الإسلامي والأموي.
- العباسي والمملوكي.

سادسا: التاريخ والأخبار والمغازي.

سابعا: الجغرافية وأحكام الأقاليم والأمصار.

---

[1]- ينظر: فرانز روزنتال، مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي، ترجمة: أنيس فريحة، د ط، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1961، ص 108.

*- لتكون بمثابة فاتحة لموضوع جديد أو مهيع جديد. وقد كان هذا دأبه في سائر كتابه.

[2]- صبح الأعشى، ج403/14.

ثامنا: التاريخ والسياسة والأحكام السلطانية.

وهذه المدونة قد جمعت في أحشائها أُمَمًا وشعوبا وثقافات يمكن الإشارة إليها بالإجمال دون الخوض في تفاصيل شؤونها وطرائق عيشها ومستويات خطابها وحدود أقاليمها وأمصارها، وتنوع ألسنتها واختلاف ألوانها وطول وقصر قاماتها وتقاليدها وأعرافها ومنهم:

- أمة اليونان.
- أمة الهند.
- أمة فارس.
- أمة الروم.
- دولة الزنج والأحباش.

أمّا عن محتويات هذه المدونة فهي تتحدث بشكل عام عن فنون الكتابة والخطابة، ولكن نظرا لما اتسمت به من طولٍ، فإنّه من المفيد القول أنّها احتوت من اللغة والفكر أشتاتا، ومن السياسة والتاريخ أطوارا، ومن الواقع والحياة أحداثا. وإذا أردنا أن نرصد محتوياتها فينبغي علينا أن نسوق الفهرس بأكمله وهذا قد يأخذ منّا مجلّدا كاملا حتى نأتي على جميع محتوياته.

ينتقل القلقشندي بين أبواب الكتاب انتقالا عفويا فيتحدث مثلا عن الكتابة وعن فضلها ومكانتها ثم ينتقل ليتحدث عن الملوك والأمصار ثم عن السياسة والعقود( عقود الزواج والطلاق...) وهكذا الشأن في جميع الكِتاب إلى أن يستوعب جميع الأبواب.

**3- ماهية صناعة الإنشا( الكتابة) لدى القلقشندي:**

الكتابة عند القلقشندي حرفة وصناعة أو صنعة تُنبئ عن القريحة والوجدان، وقد شاعت هذه الحرفة وانتشرت في زمن الكاتب وامتهنها مَنْ ليس من أهلها حتى صارت إلى الابتذال وتسفّلت بعدما كانت رمزا للوقار والهيبة ودليلا على المكانة والسؤدد والشرف. يقول القلقشندي:« الكتابة هي الصناعة التي لا يليق بطالب العلم من المكاسب سواها، ولا يجوز له العدول عنها إلى ما عداها... وجَنحْت إلى تفضيل كتابة الإنشاء وترجيحها وتقديمها على كتابة الأموال وترشيحها»[1]. فمن خلال هذا القول الصريح يتبين أنّ الكتابة لها متعلقات بالملك والأحكام السلطانية وعقود الصلح والفسوخ وعقود الذمة والأمانات...

[1]- صبح الأعشى، ج09/1.

ومع هذا يشير القلقشندي إلى أنّ" الكتابة" أشرف وأرفع من أنْ تُحصر في الدواوين باعتبارها" لسان اليد" والمعنى أنّها بمنزلة اللسان لليد؛ أي أنّ الكتابة تقول ما يقوله اللسان ولكنْ بطريقة التمثيل الصامت الذي تؤديه الحروف. إنّها: لسان وبيان من شأنه أنْ يخلُق نوعا من التفاعل" L'interaction" والتشارك بين أفراد المجتمع.

والكتابة– عنده– هي الذاكرة والخزان الذي يشهد على مآثره، وهي الأثر الخالد للإنسان بعد فنائه ومن أجل ذلك كانت لها المكانة العليا في نفس القلقشندي. وهذا ما تعكسه" صبح الأعشى" التي تمثل هذه المكانة المرموقة لهذا الفعل الحضاري.

**3-1- التمثل الجثماني للمعنى الروحاني:**

إن الكتابة صناعة روحانية لها صورتها المادية المتمثلة في منظومة الأبجديات اللسانية، وبهذه الوحدات المعجمية واللسانية ينشأ الكلام والتواصل والتعبير، فتتراوح الكتابة بين قطبين اثنين: روحاني وجثماني؛ وضمن هذين القطبين تتمايزالمقاصد والنيات والأفعال والأحداث وفق منظومة التواصل اللساني.

وعند الالتفات إلى تراثنا العربي الذي وصل إلينا عن طريق الكتابة نجده تراثا بوّاحا فيه شيء من الغموض الذي لا يشكل حاجزا أمام الدارسين، بل إنّه بغموضه يُشكل استفزازا للمتلقي وكذلك الأمر بالنسبة لمدونة" صبح الأعشى في كتابة الإنشا" للقلقشندي التي هي موضوع دراستنا، والتي تمثل حمولة ثقافية لعصر بعينه هو" عصر الضعف". ولا شك في أنّ أمورا كثيرة رافقت هذه الحيوية لدى القلقشندي حتى يُخرج للناس هذا المؤلَّف الذي يسع أربعة عشر مجلدا، والذي يصدُق فيه اسم:" الموسوعة" نظرا لتنوع موضوعاته واتساع مضامينه.

ف" صبح الأعشى في كتابة الإنشا" تركيب لغوي يتسم بالاسمية والإضافة، وهذا العنوان هو من إفرازات القلقشندي نفسه، كما أنّه صدى لعصر بعينه( عصر الضعف). وتجيء هذه العنونة لتبرز الدّوافع والأسباب التي كانت وراء كتابة هذا الكتاب، والتي نذكر منه على سبيل المثال لا الحصر:

- الحفاظ على الموروث الثقافي للعصور السابقة عن طريق التدوين.
- بيان شأن "الكتابة" في عهد المؤلف.
- البعد اللغوي والبلاغي والفقهي والتاريخي الذي ميّز الكتاب.
- الوضع السياسي المتردّي لهذه الحقبة.
- مكانة المؤلف في ديوان الإنشاء ومرتبته الوظيفيّة في ديوان السلطان والدولة.

بالإضافة إلى عوامل أخرى وأحداث جسيمة عرفها عصر المؤلف، وعلى الخصوص تلك التي تتعلّق بالحكم وسياسة شؤون البلاد والعباد، فكان ديوان الإنشاء هو الملاذ من هذه الأهوال التي تعصف بالدولة. والجدير بالذكر أنّ مدونة" صبح الأعشى" باتت الأثر الأدبي الشاهد على العصر بكل أبعاده الاجتماعية والثقافية والسياسية والتاريخيّة والدينيّة، وهي المترجم الحقيقي لسلوك وسيرة إنسان تلك الحقبة المليئة بالدسائس والتربص الحاصل من أمم متوحشة على غرار المغول ومَنْ وَالاهُمْ من الشعوب والجماعات الهدامة الحاقدة على الإسلام وأهله.

أما فيما يتعلّق بالبعد الفني والأدبي والجمالي لصبح الأعشى فتعكسه تلك النصوص والشواهد الشعرية المفعمة بالبلاغة وفنون القول والتي سنختار منها عيّنات تكونُ المثال والشاهد على نظرية أفعال الكلام، وعلى الحجاج والاستلزام الحواري باعتبار هذه الثلاثة أهم مقولات الدرس التداولي الذي جاء به بيرس وأوستين وسيرل وغيرهم من علماء البراجماتية، كما يتجلى البعد الفني كذلك في تلك الصنعة اللفظية التي باتت عنوانا على العصر برمته؛ ويتعلّق الأمر بالبديع الذي أُولِع به الأدباء والشعراء والخطباء وأهل التراسل والكُتّاب في الدواوين والمقارئ والمَشْيَخَات.

ولقد أضحى" صبح الأعشى" عنوانا بارزا في المكتبة العربية، وحظي بالدراسات الأدبية والنقدية باعتباره من المصادر التي تؤرخ للكتابة والإنشاء، وباعتباره خزينة لغوية وبلاغية وأسلوبية تصلحُ أنْ تكون حقلا خصبا للدراسات النقدية الوافدة كالنظريات البنيوية والتفكيكية والتداولية التي تُعنى بالخطاب والتخاطب، والجمل والنصوص، والتعاقب والاقتباس والتعاضد والتناص، والقراءة والتأويل والتفسير، وكل ما من شأنه أنْ يقيم علاقة حميمية أو غير حميمية بين النص والمتلقي، وبين النص ومنتجه.

ومما لا شك فيه أنّ بين القلقشندي والكتابة والقارئ علائق ذهنية وقلبية وحسية يبوح بها المتن ومتعلقاته الخطابية والسياقية. ومن أجل هذا السبب نجد مدونة" صبح الأعشى" تتراوح بين الإمتاع والإخبار، ولعلّ المثال السابق الذي تدور فيه المحاورة بشأن موضوع الرياسة والوزارة خير دليل على هذا الإمتاع والتداول في عملية التخاطب بين المتحاورين، ويمضي القلقشندي في هذه العملية السّردية لكل محتويات الكتاب ومضامينه حتى يوفّي كل باب غرضه الأدبي أو السياسي أو الديني في لغة فصيحة تراثية تراعي حاجة المتكلمين داخل المتن( المضامين) وخارجه( المتلقي)، بحيث أنّ القارئ يندمج في عملية التواصل مع شخصيات المتن من خلال التساؤلات التي تتولد لديه عند اطلاعه على كل مضمون من كتاب صبح الأعشى.

وبالعودة إلى حياة القلقشندي نجده مارسَ الكتابة وامتهنها في الدواوين ودرّسها في الجوامع والمساجد وتحدّث عن ماهيتها وأدخلها ضمن الصناعات التي تفرزها جوارح الإنسان[ القلب] فهي صناعة روحانية بآلة جثمانية؛ والمعنى أنّها واسطة بين الروح( القلب) والجسد( اليد).

فالكتابة بهذا التوصيف بنظر القلقشندي هي الترجمان الأمين عمّا يبوح به القلب( الوجدان) عن طريق" اليد" التي هي آلة الكتابة.

وقد انطوى العنوان على إيقاع صوتي ذي رنين وجرس أجش تمثل في حرف الشين المتعاقب خلال الوحدتين الصوتيتين:

[ الأعشى/ الإنشا]

وهذه البنية السجعية بحد ذاتها تعدُّ من الشواهد الدّالة على عصر بعينه هو[ عصر الضعف] الذي اشتهر بشيوع هذا اللون من البديع.

ينطوي العنوان على" رسالة Message" تقتضي طرفين في عملية التداول الكلامي أو الأداء اللغوي[ مرسل/ مرسل إليه] أي كاتب[ مؤلف] وقارئ[ متلق]. وقد استطاع القلقشندي أن يستفز قارئه من خلال هذه العتبة الأولى[ العنونة] حتى يتوق لمعرفة ما ينطوي عليه المتن من مضامين ورسائل، فهذا العنوان مُستفز إلى درجة الالتذاذ بما ضمّنه القلقشندي من علاقات تجمع بين: التنافر والتضاد والتناقض:

الأعشى ⟵ الكتابة ⟵ القراءة

فهذه حالة روحية بين المتعة والألم؛ إذ كيف للأعشى أنْ يجد طريقه إلى الكتابة؟ كيف له أنْ يتَّحد بهذا المستحيل عليه؟ كيف له أن يقيم علاقة ودية حميمية مع الكتابة وهو يفتقد إلى حالة الإبصار التي هي الطريق الأوحد لرؤية الحرف والأبجدية عموما؟!

وبهذه الفاتحة المستفزّة والحاملة على التساؤل، يجد القارئ نفسه وجها لوجه مع سياق لغوي تنضوي تحته جملة من التناقضات المعنوية تختزنها بنية العنوان؛ فالصبح يحيل إلى الضياء والنور، و" الأعشى" اسم مقصور مصدر يحيل إلى دلالة تناقض الضياء لأنها تباين حالة الإبصار والرؤية، ومنه ينتج لدينا خطاب يحمل دلالات متناقضة:

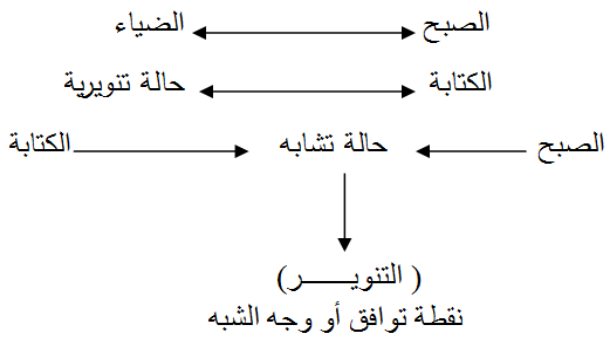


والحالة الأخرى التي تحيل إلى التضاد والتنافر، هي حالة الضرير الذي لا يكاد يبصر الشيء الذي بين يديه إلا بمشقة وجهد بالغين:

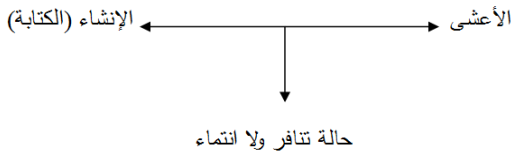


يأخذنا العنوان إلى عملية تأويلية، والقول بمفهوم المخالفة، فإذا كان واحدٌ من الناس لا يبصر فمن غير المنطقي أنْ ننعته بالقارئ اللهم إلا إذا كانت هذه القراءة: ترديد بالشفاه من غير تتبع بالجارحة الباصرة في الرق المكتوب، ومن هنا ينتج عندنا مفهوم القارئ الذي يباشر عملية القراءة من الكتاب، وهذا الأخير هو المحاور بالآلة الجثمانية التي هي الكتابة، وهنا يتعيّن بالضرورة أنْ يكونَ القارئ من المبصرين لأنّ العين هي آلة القراءة، وهنا نسجل استلزاما منطقيا ؛ أي أنّ الكتابة تستلزم بالحتمية قارئا يجيد القراءة لا ناطقا يجيد الكلام لأنه قد يكون الناطق أعمى ولا يجيد القراءة ولكنه يجيد ترديد الأصوات.

**4- تقنيات صناعة الإنشاء عند القلقشندي:**

لقد تميزت كتابات" صبح الأعشى" بوضوح الفكرة، وجمال الأسلوب ورصانته، وحسن اختيار المفردات ودقتها، وتوفره على مقدرة كبيرة في عرض مادته على الرغم من كثرة المصادر وتنوعها وضخامتها دون إخلال بالنصوص ولا تصرف في المعنى، ودون اللجوء إلى الإكثار من السجع والزخرفة اللفظية التي عرفت بها عادة الدواوين السلطانية، وديوان الإنشاء، فالقلقشندي كغيره من كتّاب عصره

امتلك أسلوبا بلاغيا يتسم بالوضوح، ولغة مباشرة صريحة على الرغم من عمله حقبة من الزمن في مثل هذه الدواوين، إضافة إلى قلة الأخطاء اللغوية في كل مؤلفاته، أو أي استخدام لألفاظ عامية، على الرغم مما وصلت إليه اللغة العربية من تحريف أو تشويه، ولحن واستخدام للعامية بسبب اختلاط العرب بغيرهم من الأعاجم[1]. فيقول القلقشندي في إطار حديثه عن اللحن:« واعلم أن اللحن قد فشا في الناس، والألسنة قد تغيرت حتى صار التكلم بالإعراب عيبا، والنطق بالكلام الفصيح عِيًّا...»[2]، وأقر القلقشندي أن سبب ذلك هو« استيلاء الأعاجم على الأمر وتوسيد الأمر لمن لا يفرق بين البليغ والأنوك لعدم إلمامه بالعربية والمعرفة لمقاصدها، حتى صار الفصيح لديهم أعجم، والبليغ في مخاطبتهم أبكم، وعلى هذا الأساس لابد من المحافظة على الإعراب في القرآن الكريم، والأحاديث النبوية، وفي الشعر والكلام المسجوع، وما يُدَوَّنُ من الكلام، ويكتب من المراسلات ونحوها، ويغتفر اللحن في الكلام الشائع بين الناس الدائر على ألسنتم مما يتداولونه بينهم، ويتحاورون به في مخاطبتهم»[3]، وبهذا الكلام يكون القلقشندي قد أبان بشكل صريح عن اللغة التي تستعمل في التأليف، واللغة الدراجة العامية التي أفسدت اللسان العربي، ويرجع ذلك حسبه إلى عاملين:

أ- تفشي اللحن بين الناس بشكل كبير، وصعوبة إصلاحه.

ب- فشو اللحن في بعض الأوساط المثقفة، وهذا يعني أنه يمكن إصلاحه لأهميته في المحافظة على القرآن الكريم.

أما في بعض الجوانب المتعلقة بعنايته باللغة فنجد في إطار توضيحه لبعض معاني المفردات اللغوية التي تتطلب التوضيح بسبب ما عرفته من اختلاف على مستوى معاني المصطلحات في حد ذاتها، مما استدعت من الكاتب الضبط المعجمي لها في الكثير من المواضع من المدونة، وذلك خيبة الوقوع في التحريف والتصحيف الذي أبان عنه في صبح الأعشى[4].

كما نجده قد ميز بين ما هو فصيح من كلام العرب وبين ما هو دخيل عليها، بالإضافة إلى الإشارة إلى ما تلحن به عامة الناس[5]، وكذا الألفاظ التي شاعت في زمانه وقام بضبطها بقوله:« كذا

---

[1]- صبح الأعشى، ج48/1، 50، 170، ج263/6.

[2]- م. ن، ج173/1.

[3]- نفسه.

[4]- م. ن، ج150/1 وما بعدها. وينظر: ظيماء السامرائي، المنهج التأريخي عند القلقشندي، مرجع سابق، ص57.

[5]- ينظر: نفسه، ج159/1،162.

ضبطه والجاري على ألسنة الناس»[1]، وفي هذا إشارة إلى التمييز بين الفصيح والعامي، ومما يبرز كذلك ثراءه اللغوي وعبقريته في التحليل حين يقوم بشرح وتحليل بعض المفردات والألقاب كما جاء في قوله:« شمس الشريعة... من ألقاب أكابر العلماء، والمراد بالشريعة هنا شرعة الإسلام، واستعيرت الشمس لها لمشابهتها لها في النور»[2]. فكل هذه الاستعمالات تنم بقدرة القلقشندي على التصرف في اللغة وقدرته على الاستيعاب والذكاء في كيفية توظيفها، فإذا شاء شرح أو حلل أو فسر، وإذا تطلب المقام عضد أفكاره بالحجج والبراهين استعان بكتاب الله عز وجل أو بحديث نبيه صلى الله عليه وسلم، أو استخدم الشواهد الشعرية،أو لجأ إلى تلك المكاتبات والرسائل والخطب والوصايا لأشهر العرب، وهذا يوحي طبعا على الثقافة الأدبية التي يمتلكها القلقشندي، فضلا عن تعليله لأهم الأسباب التي جعلت الشعر يطغى على النثر عند العرب، كما ضمن مؤلفه" صبح الأعشى" بكل ما امتلكته قريحته من نظم ونثر وإنشاء وتعريض، وإن كان نظمه لم يرتق إلى مستوى إنشائه[3].

وإذا عدنا إلى لغة القلقشندي نجده قد راعى فيها جميع صيغها الصرفية، وكذلك مراعاته للمقام وأحوال المتكلمين؛ وهذا هو الأصل الذي انبنى عليه متن" صبح الأعشى" للقلقشندي، فهذا الأخير أعطى أهمية للغة واستعمالاتها السائدة في زمانه مراعيا في ذلك كل الظروف والملابسات التي تقوم عليها العملية التواصلية.

فقد اعتبر القلقشندي أنّ هذه اللغة– العربية– لغة مشرفة من الله إذ هي اختيار إلهي لتكون وعاء للوحي، واستطاع القلقشندي من خلال عربيته الفصيحة أن يوزع الأدوار على المتكلمين بما أوتيَّ من كفاءة ثقافية وفنية من نقل وبث شعور الأمة المسلمة. ويبدو التماهي بين المنتوج( الأثر الأدبي= صبح الأعشى) وبين منتجه( المؤلف= القلقشندي) ظاهرا وجليا.

استطاعت لغة القلقشندي" صبح الأعشى" بسياقاتها المتنوعة أن ترقى إلى درجة الحوار والحجاج والجدل والفاعلية والانفعالية؛ وأن تحقق مبدأ الكفاية اللغوية والفاعلية التواصلية، ويمكن الإشارة والإشادة بجمله وعباراته إذ هي تتمتع بجملة من الخصائص:

– أنها مستوفاة الأركان.

– ذات معنى مفيد، بعيد عن التعقيد والغريب والشاذ والمهجور.

---

[1]– صبح الأعشى، ج299/1، ج12/6، ج127/4، ج291/3.

[2]– م. ن، ج561/6 وما بعدها.

[3]– ينظر: م. ن، ج11/14. وينظر: ظيماء السامرائي، المنهج التأريخي عند القلقشندي، مرجع سابق، ص58.

- أنّها ابنة بيئتها.
- أنّها ذات بعد جمالي.
- أنّها تمثّل إخبارا وحجاجا.

وأنّها تتنوع بحسب قائليها ومستعمليها تبعا لمستوياتهم وقدراتهم وكفاءاتهم فلغة القاضي غير لغة الجند، ولغة الفقيه غير لغة الشاعر وهلم جرا.

وبالجملة ففضل« الكتابة أكثر من أن يُحصى وأَجَلُّ من أنْ يُستقصى»[1]. وبهذا الصدد فقد كان القلقشندي ينقل الكلام من شخوص المتن كلٌ بحسب حالته ومنزلته، فالخطاب في الرسائل والخطب يختلف ويتباين عن الخطاب في ساحة المعارك مثلا، وهذا ما يطلِق عليه أهل البلاغة:" مراعاة الحال" أو" مراعاة النظير".

في متن" صبح الأعشى" استيفاء لكل معاني الطلب والأمر والنهي والنداء والندبة والاستفهام والسخرية والتعجب وحصول هذه المعاني في أذهان المتكلمين والسامعين؛ وكذلك حصولها في الخارج أي لدى المتلقي باعتباره من أركان العملية التواصلية:

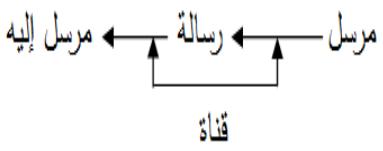


[1]– صبح الأعشى، ج42/1.

## المبحث الثالث

## المداعبة اللغوية وآليات التواصل في" صبح الأعشى"

### أولا: المداعبة اللغوية في صناعة الإنشا

إنّ الانفتاح الذي يشهده الدرس اللغوي التراثي مع المجالات المعرفية الحديثة جدير بأنْ يحظى بالمناقشة والوصف، كما أنّ عملية التواصل التي تحققها اللغة والكلام عبر مؤلفات ومدونات الكُتَّابِ والشعراء لأبرز دليل على فاعلية اللغة. وقد كانت البلاغة العربية دعامة أساسية للدرس العربي القديم ومثلت عالما للاتصال نظرا لارتباطها باستعمال اللغة وما ينتج عنه من أساليب تخرج إلى أغراض تفهم بحسب المقام، وما زاد من قيمتها هو ارتباطها بمقصدية الدفاع عن النصوص المقدسة كالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.

وبالنظر إلى الدراسات اللغوية وجهود النقاد إبّان القرن العشرين فإنّنا نلحظ اهتمامهم انصبّ في هذه المرحلة على مقاربتين رئيسيتين تمثلتا في:

أ/ المقاربة الدلالية التي تعالج علاقة الكلمات والجمل بالأشياء؛ أي أنّها تربط بين الكلمات والجمل ومعانيها بالمرجع والحقيقة.

ب/ المقاربة النحوية والتي تعنى بالعلاقات الشكلية بين العلامات وما يتفرز عنها من معانٍ؛ أي إنّ كل تغيير في التركيب ينتج عنه تغيُّرٌ في المعنى؛ وعلى هذا ركز اللسانيون قبل التداولية على« القواعد الشكلية وميزوها عن الاستخدام اليومي العادي لأنّ هذا الجانب قد لا يخضع إلى المنهجية الصارمة وبالتالي لا يؤسس موضوعا للدرس اللساني»[1].

وإذا كان هذا هو حال الدرس اللغوي الغربي الذي لم يتخلص من القواعد الشكلية إلا بعد أن جاء" بيرس Ch. Peirce" بتقسيمه الثلاثي المبدع في حقل السيميائية( النحو– الدلالة– التخاطبية أو التداولية) فإنّ الدرس اللغوي العربي قد اعتنى بحال المُخاطبين منذ قرون عديدة وراعى جميع الظروف المحيطة بالمتكلمين بل إنّه تعدّاها إلى النوايا والمقاصد.

#### 1– الخصائص الفنية في صناعة الإنشا:

تضمنت مدونة" صبح الأعشى" قيمة الخطاب وأهدافه ومراعاة حال المتكلمين ومقاصدهم. ومن أجل هذا الغرض فقد بوَّب القلقشندي لأهمية الإنشاء ومراعاة فن الكتابة بوصفها لسانا ثانيا، إذْ هي

[1]– ميجان الرويلي، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، ط3، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب/ بيروت، لبنان، 2002، ص169.

الصورة المادية للملفوظات، وهي الوعاء أو الذاكرة التي تختزن جميع ما يتلفظ به الإنسان ويبوح به أثناء وجوده وحياته. وقد تميز القلقشندي في صناعته بما يلي:

– **الاهتمام بالشكل وعلاقته بالتفكير:** أي أنّ اللغة عنده حاملة للفكر؛ فاللسان تُرجمانٌ عن الوجدان، وجميع الهيئات اللسانية في لغة القلقشندي تعكس المعاني الكامنة داخل النفس، وجميع العادات الكلامية معروضة عرضا جميلا ومنسقة تنسيقا كاملا للوصول إلى أرقى المعاني وأبْيَنها وأبلغها، واللفظ الفصيح عند القلقشندي ينطوي عن معنى بليغ:« اعلمْ أنّ كاتب الإنشاء لا تظهر فصاحته، وتَبينُ بلاغته، وتقوى يراعته، وتجل براعته إلا بعد تحصيل جملة من العلوم...»[1].

وهذه العلوم منها على الخصوص علمُ اللسان الذي من شأنه البيان والتبيان والإفصاح عن المقاصد الحاجات.

– **الإطار الزماني للغة:** والمعنى أنّها اكتسبت صفة الوصفية أو التزامنية التي من شأنها أنْ تقول إنسان عصرها وأشياء عصرها، فالقلقشندي حين يتحدث عن الكتابة بوصفها لسانا ثانيا يقصد أنّها تعيش وتُعمِّرُ أكثر من صاحبها، ومن أجل هذا السبب فقد اشترط القلقشندي على الكاتب أنْ يكون مُلمًّا بالعلوم الشريفة التي تضفي صفة الرفعة على هذه اللغة؛ وهذا ما أشار إليه في قوله:« ثم أهم ما يبدأ بتحصيله ويعتمد عليه في جملة الأمر وتفصيله؛ حفظ كتاب الله العزيز الذي هو معدن الفصاحة، وعنصر البلاغة وإدامة قراءته، وتكرير مثانيه، مع العلم بتفسيره وتدبر معانيه، حتى لا يزال دائرا على لسانه حاضرا في ذكره، ولا يبرح معناه ممثلا في قلبه مصوّرا في فكره، ليكون مستحضرا له في الوقائع التي يحتاج إلى الاستشهاد به فيها، ويُضطَرُّ إلى إقامة الأدلة القاطعة عليها...»[2].

لغة القلقشندي تحتوي كلّ الصنيع والأشكال التي يتداولها أبناء عصره من قسمٍ ووعدٍ وعرضٍ وتأكيد واستفهام وإنكار وتقرير... فهي لا تخرج عن الإطار العام والقانون العرفي لما يتداوله أبناء الزمان من محاورات وجدل ومعاملات.

– **البعد الاجتماعي للغة:** عندما نبحث عن الغرض الرئيسي والأساسي من جدوى اللغة، يتبين لنا جليا أنّها وضعت لغرض التواصل، وإذا بحثنا في هيئتها عرفنا أنّها عبارة عن نظام معقدٍ من الأبنية والأسيقة التي تتجاوز تلك النظرة القاصرة والتي مفادها أنها مجموعة من الألفاظ أو الوحدات اللسانية(Vocabulaire) القابعة في المعجم اللغوي.

---

[1]– صبح الأعشى، ج118/14.

[2]– نفسه.

هذا وقد أشار الجرجاني إلى أنّ:« الكلمات العربية في المعجم جثث هامدة لا حياة فيها إلا في التركيب الكلامي، وأنّ التفاضل بينها مبني على أساس أنّها ألفاظ مجردة أو كلمات مفردة بل على أساس دلالتها في التركيب ومواءمتها لمعنى غيرها في سياق الكلام...»[1]، فالكلمات العربية قد تدل خلاف ما وضعت له في الأصل، ولا يتضح معناها إلا من خلال السياق اللاستعمالي لها.

وإذا ألقينا نظرة في مدونة" صبح الأعشى" وجدنا أنّ القلقشندي قد راعى للغة العربية جانبها الاجتماعي؛ حيث إنّها كانت دائما الوسيلة المثلى في الخطاب منذ زمن الجاهلية وحتى عصر المؤلف، ولا أدل على ذلك من الخطب والرسائل التي أوردها القلقشندي في معرض حديثه عن زمن الخلفاء الراشدين.

ففي كل خطبة هناك[ مرسل]( خطيب) و[ مرسل إليه] ( جمهور). ويبقى فحوى الرسالة بين هذين الطرفين تتجاذبه عناصر أخرى لازمة له كالقيمة الجمالية Valeur esthétique [البعد البلاغي التأثيري] الذي من شأنه أنْ يُحدث استجابة لدى المتلقي، فالاتصال بين المتخاطبين تحكمه عوامل عدة منها السياق والمقام والتأثير، والمعوَّل عليه في هذه العملية التواصلية مردُّه في كثير من الأحيان إلى براعة الاستعمال اللغوي، لأنّ اللغة من شأنها أنْ تختزن داخلها كلّ مقومات وُجودها وديمومتها واستمراريتها بوصفها قانونا مستتبا في الأذهان.

فاللغة بوحداتها المعجمية القابعة في سطور المعجم مركوزة في ذاكرة الإنسان، غير أن ما يعزز بعدها الاجتماعي هو تداولها على ألسن المتكلمين والمتخاطبين بها. فالمولِّد والباعث على تأليف الكلام ونسجه على هذا المنوال وإخراجه بهذه الطريقة هو:" الآخر" الذي يمثل المحاوِر، وهذا ما يسميه النقاء بالإحالة المقامية؛ أي أن المقام يفرض عليك أنْ تُخرج كلامك على هذه الهيئة دون غيرها من الهيئات، ولقد راعت البلاغة العربية هذا البعد واعتنت به وأَوْلته المنزلة العلية، وأطلقوا عليه:" مقتضى الحال".

وقد كان القلقشندي في كثير من الأحيان ما يطلق أحكاما فرضها المجتمع واقتضاها العرف؛ فتجيء لغته تبعا لنفسيته، وتبعا لِما يُحدثه الآخر لدى القلقشندي، وهنا نسجِّل الوظيفة الإخبارية التي تضطلع بها لغة القلقشندي عن طريق البُنى اللغوية التي يتلفظ بها المتحدثون في متن" صبح الأعشى" من قبيل قوله:« ولعل الكتابة إنّما تحصل ذمتها بسبب هؤلاء وأمثالهم»[2].

---

[1]– فاضل مصطفى الساقي، أقسام الكلام العربي، تقديم: تمام حسان، ط2، مكتبة الخانجي، الشركة الدولية للطباعة، القاهرة، مصر، 2008، ص80.

[2]– صبح الأعشى، ج48/1.

وهؤلاء وأمثالهم هم من لم يُجِيدوا فن الإنشاء وإنّما هم مُجرّد دخلاء على هذا الفن متطفلين قد يئس المعلمون من تعليمهم فضلا على أنْ يتقلدوا مناصب الإنشاء ويضطلعوا بفضيلة الكتابة. فهؤلاء وأمثالهم ينتمون لزمان القلقشندي ومجتمعه.

**2- اللّغة من الوصفية إلى المقصدية:**

لقد استطاع القلقشندي بفضل لغته الواصفة أنْ يقيم علاقة منطقية بين الصور الحاصلة في الأذهان والأشياء الموجودة في الأعيان، فحين يتحدث مثلا عن" الرياح" يجعل لها أصولا أربعة، ويجعل لها جهة من جهات الأرض، ويجعل لها قطبا، ويجعل لها اسما:« وأصول الرياح أربعة:

الأولى الصَّبا: وهي التي تأتي من المشرق... وهي التي نُصر بها النبي صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب كما أخبر بقوله:" نُصرت بالصّبا".

والثانية الدّبور: ومهبها من مغرب الشمس إلى حد القطب الجنوبي... وبها هلكت عاد كما أخبر عليه السلام بقوله:" أُهلِكتْ عادٌ بالدَّبورِ".

والثالثة الشَّمالُ: ويقال فيها شَمال وشمأَلٌ، ومهبُّها من حدِّ القطب الشمالي إلى مغرب الشمس... ويُسارُ بها في البحر على كل حال.

والرابعة الجنوبية: ومهبها من حدّ القطب الأسفل إلى مطلع الشمس...»[1].

وهكذا الحال مع لغة القلقشندي الواصفة في مواضع مختلفة: كالسحاب والرعد والبرق والمطر والثلج والبرَد وقوس قزح والهالة والحر والبرْد... والمتتبع لهذا الأسلوب التقريري الذي لجأ إليه المؤلف يجد في نفسه ملاً من هذه الطريقة المبنية على الكشف والوصف المباشر، ولكن إذا علمنا الغاية من وراء هذه اللغة الواصفة فهمنا الغرض التعليمي والمحصلة منه هي: حفظ التاريخ والمعارف والهوية والدين واللغة.

لقد راض القلقشندي ميادين علمية عديدة، وروّض نفسه كثيرا على تقبل الآخر والتأقلم مع منجزات عصره، وأفكار غيره حتى أخرج مدونته" صبح الأعشى" واختار لها هذا الاسم الذي سيذكره الناس ولا ينسوه. وبين العنوان والمتن تتلخص جميع مقاصد الكاتب والكِتاب. وإذا وقفنا عند العنونة وردّدنا في أنفسنا هذه العنونة وتأملناها مـليّا؛ وجدنـا أنّ شيـئا من الشـغف البلاغـي والوهـج التـراثي يقطنها. إنّها محطة لما بعدها.

[1]- صبح الأعشى، ج167/2 بتصرف.

أمّا المتن فهو فضاء مفتوح على التأويل، يعكس قريحة القلقشندي وذهنيته العلمية التي صقلتها التجربة وراضها التأمل. إنّه العتبة الثانية بعد نقطة الولوج( العنوان). وهو معترك يتطلب شروحا وتأويلات لمقاصده ومضمراته التي لا يُفصح عنها إلا بالبحث والكشف.

وعند التعمق في اللغة المستعملة أو صناعة الإنشا عند القلقشندي يتضح لنا أنّها لغة واصفة، أي أنّها لغة تتكلم عن لغة أخرى، كمن يشرح متنًا شعريا بلغة النثر، ولما كان القلقشندي هو خلاصة عصره أو الموسوعة العلمية لفنون عصره، فقد بات من اللازم عليه أن يستوعب هذا الركام العلمي والثقافي لعصره وما قبل عصره حتى يكون المستدرك والملخص في آن واحد.

إنّ مضامين" صبح الأعشى" تنتمي إلى عصر المؤلف وإنّ القلقشندي هو بمثابة الرّاوي في عالم السرد غير أنّ هذه المضامين هي الأخرى تنتمي إلى المؤلف لأنّها إحدى المُحصلات الثقافية والروافد الفكرية التي تعيش في وجدان المؤلف كما تعيش في وجدان الأمة.

واللافت للنظر أنّ شخوص متن" صبح الأعشى" حقيقيون ينتمون إلى الحياة والواقع، وليسوا بأبطال يتفقون علينا في كل شيء كما هو الحال في التوصيف الأسطوري، ومن أجل هذا السبب باتت" صبح الأعشى" تعكس واقعها الحقيقي، إنّها هوية صادقة وناضجة عن صوت الأمة الذي لم يستطع الفكاك من قيود السياسة والإيديولوجية.

فهذه الازدواجية في الهوية التي تمثلها" صبح الأعشى": هوية المؤّلف وهوية الأمة يتبدى لنا أنّ أحداث التاريخ تتعاقب وتتوالى لتعيد نفسها في أزمنة أخرى لاحقة، وهنا نشير إلى فكرة الاستمرارية غير المنقطعة في النوع الذي أشار إليها به بول ريكور P. Ricouer بقوله:« الاستمرار غير المنقطع في تطور كائن ما من أوّل مرحلة إلى آخر مرحلة في نموه. وهكذا يمكن القول عن شجرة بلوط إنّها الشيء نفسه Same منذ أنْ كانت بذرة حتى صارت شجرة في ريعان نُضرتها. ويصبح الشيء نفسه حين يقال عن حيوان ما من مولده حتى مماته، وعن الإنسان حتى يصير شيخا»[1]، فإظهار مثل هذا الاستمرار يؤدي وظيفة معيار مُكمّل لمعيار المشابهة في خدمة الهوية العددية...

تحمل" صبح الأعشى" هوية متكررة ونافذة في وجدان الفرد والأمة على السواء، وهو بموسوعيته التي استغرقت أربعة عشر مجلدا يقول أَنَاهُ وأَنوات الآخرين. واللغة فيه تقول العوالم الواقعية والاجتماعية بوصفها أنساقا لها وجودها الحقيقي الذي تمثل فيه حواضر العالم الإسلامي كبغداد وسامراء ودمشق

[1]– بول ريكور، الوجود والزّمان والسّرد، ترجمة وتقديم: سعيد الغانمي، ط1، المركز الثقافي العربي، الدّار البيضاء، 1999، ص253.

ومصر والإسكندرية... الخ، وقد تنوعت هذه اللغة بحسب حاجة القلقشندي إليها في كلّ باب وفصل، وفي كل فنٍّ وخطاب.

فحين تعلق الأمر بالأمصار والظواهر الفلكية والطبيعة والطب والفلك والسحر جاءت موسومة بأنّها لغة واصفة، وحين كان بصدد فن المقامة والخطابات التعليمية أضفى عليها نمطا سرديا حكائيا قصد إحداث الفاعلية الانفعالية بين طرفي الخطاب.

لقد عملت البيئة الثقافية السائدة آنذاك على إحداث تفاعل فكري مما جعل خطابات القلقشندي تتسم بالفاعلية والإيجابية خصوصا وأنّه كان ينهل من الثقافة المشرقية والمغربية ويأخذ منهما بحظٍ وافرٍ، ويتجلى ذلك في القضايا الشرعية والفتيا.

يمكننا أنْ نسجل أيضا توافر الخطاب الديني في المدوّنة وحمولته الكثيفة التي تزخر بالمقاصد والمضمرات وهذا شأنٌ تطرحه" المقاربة التأويلية" التي تُعنى بتشعب وتأويلات النصوص وتأثيرها في متلقيها، ومن بين أهدافها البحث عمّا يريد المؤلِّف قوله حقيقة، فهل ينبغي البحث في المدونة عن مقصد القلقشندي؟.

وكما قلنا آنفا؛ فإنّه كان من بين قُصود القلقشندي: التعليم والتوجيه والمحافظة على التراث وتدوينه. ثم يأتي السؤال الثاني الذي يقتضيه التأويل: هل ينبغي البحث عمّا يقوله النص بغض النظر عن مقاصد كاتبه؟.

نقول إنّ هذين السؤالين هما مدار الممارسة النقدية حيث يُمثل الطرح الأول: وجهة نظر القراءة السياقية Lecture contextuelle التي تعنى بمقاصد المؤلف، ويمثل التساؤل الثاني: وجهة نظر القراءة النسقية Lecture systématique التي تقتصر على الأثر الأدبي بحد ذاته دون الرجوع إلى مؤلفه، ثم يقابلنا أمبرتو إيكو U. Eco بوجهة نظر ثالثة وهو أنّ هذا الاختيار الثاني يجر تقابلا جديدا يتفرع إلى« ضرورة البحث عمّا يقوله النص، بما يجده القارئ فيه أي استنادا إلى رغبات وانفعالات المرسل إليه ذاته»[1].

يُمكن أنْ يترك لدينا هذا الأثر الأدبي الكبير انطباعا مفاده أنَّ السبب الرئيسي لتأليف القلقشندي" صبح الأعشى" هو قضية:" **الكتابة** أو **الإنشاء**". ثم وجد نفسه مَسُوقًا بحكم ثقافته الموسوعية أنْ يُفرغ خزّان ذاكرته، فشمل الإنشاءُ كلّ أبواب الكتاب وفصوله، وهذا ما يقوله أو يُحسه القارئ وهو يقوم بفعل

[1]– أحمد يوسف، سيميائية التّواصل وفعالية الحوار: المفاهيم والآليات، ط1، مخبر السيميائيات وتحليل الخطاب، جامعة وهران، الجزائر، 2004، ص108.

القراءة والتأويل في متن" صبح الأعشى"، أمّا ما يقوله النص بحد ذاته أو بتعبير السكاكي اللازم من خطابات" صبح الأعشى" أنّها توجيهية، تعليمية وإنْ عكست صورة الثقافة والمجتمع والإنسان؛ خصوصا أنّها اصطبغت بصبغة" **مدنية**" فهي تعكس أحوال المدينة فكريًّا واجتماعيا لأنّها نشأت في زخم من الثقافات المتعددة ولكنّ اللسان المهيمن كان ولا شك هو: العربية.

وأمّا ما يقوله المؤلِّف فهو تلك العلاقة الوجودية التي أقامها القلقشندي مع عمله، إذْ إنّ حياته كلّها سخرها لكتابة هذا العمل، والذي استغرق منه سنين عديدة بغية إكماله، وقد قاده ذلك إلى جعل تجربته في الحياة كلها موجهة للكتابة. أو كما يقول أودنيس:« الكتابة هي التأسيس لعالم الأنا، المموضعة في سياق التاريخ، والتي تعبر عن نفسها بموروث لغوي قائم مستمر»[1]، فالكتابة هي أساس كل تصور ذهني روحاني، بل يبني من خلالها المؤلف عالمه الوجودي أو المتخيل في سياقه التاريخي وفق ما يمليه عليه التراث أو المعتقد بلغة تحفظه وتعمل على استمراريته وتواصله بين الأجيال.

فالقلقشندي كان يحفر أناه في التاريخ ويرسم صورة وجودية موازية لنفسه تنشد البقاء من خلال هذا الكتاب( صبح الأعشى) الذي صار هوية عن صاحبه وصوتا من أصوات الأمة التي تنشد التداول والتواصل في مسيرة الحضارة والحياة.

**3- القلقشندي وتعدد الفهومات:**

عكست مدونة" صبح الأعشى" التجربة الشعورية والحياتية للقلقشندي، كما كشفت عن تداخل بعض العلوم وامتزاجها كالتاريخ والتفسير والفقه والتنجيم والإنشاء والشعر... مما يجعل المتلقي أو القارئ يقع في مأزق التأويل، ويتورط في قضية البحث عن النوايا والمقاصد من وراء الملفوظات والجمل والعبارات التي حفلت بها المدونة كالخطب والرسائل والمكاتبات والعقود وعهود الأمان وغيرها من النصوص التي تحدث فيها القلقشندي الساسة والأماكن والبقاع...

وإذا كانت مقاصد القراءة لا تتحقق إلا بوجود التفاعل التداولي، فإنّ التأويل هو أكبر عقبة للمعرفة، وهنا يحضرنا القول بعدم التسليم بوجود قراءة بريئة. وقد كان" هانس جورج غادامير Hans-Georg Gadamer " في كتابه" الحقيقة والمنهج"( 1960) يسعى إلى تأكيد إجراءين جوهريين:

[1]- أدونيس، زمن الشّعر( الشّعرية العربية)، ط3، دار العودة، بيروت، لبنان، 1973، ص35.

أ- ضرورة تخليص عملية الفهم من الطابع النفسي التي وسمتها به رومانطيقية" دلتاي" و" شلايرماخر F. Schleiermacher "، وبالتالي ضرورة فصل النص عن ذهنية المؤلف وروح العصر الذي ينتمي إليه.

ب- ضرورة تحويل الاهتمام إلى عملية الفهم في حد ذاتها وفي حيثياتها الخفية، وفي بعدها التاريخي، وهو المبدأ الذي يختلف تماما عن تصوير" شلايرماخر" الذي ركز على وضع القواعد والمعايير التي تعصمنا من سوء الفهم[1]. ومن هذا المنطلق فإن" غادامير" يميز بين نوعين من الفهم:

1- الفهم الجوهري: وهو فهم محتوى الحقيقة التي تتكشف بالقراءة.

2- الفهم القصدي: وهو فهم مقاصد وأهداف الكاتب[2].

والقلقشندي في" صبح الأعشى" يُبِينُ عن حقيقة تاريخية بلغة عربية فصيحة تنأي بجماليتها وبلاغتها عن الدخول في خضم معترك التأويل، ومن الإنصاف أنْ نقول إنّ العرب مارسوا الجدَل من خلال علم الكلام والمنطق ولكنّهم لم يتورطوا في هذا الجدل الفلسفي الذي قد يدعو إلى فكرة" موت المؤلف" التي دعا إليها" بارت". لقد اكتفى المفسرون العرب المتقدمون بمعطيات النص اللفظية ولم يعزلوا النصوص عن سياقاتها اللغوية والخارجية، ورأوا أنّ الأصل فيها أنّها تعبير عن أغراض قائليها.

أمّا بخصوص" صبح الأعشى" فالمقاصد فيها متنوعة حسب المواضيع وحسب التكوين النفسي للمؤلف؛ لأنّ القلقشندي كان مفتيّا وفقيها ومؤرخا وأديبا. وتبعا لهذا التنوع الثقافي الذي حظي به القلقشندي، فإنّ الخطاب كان لديه يتغير كلّ مرة، ولأجل هذا السبب فإنّ التأويل كان يختلف حسب الموضوعات المطروقة؛ فاستقراء العلل في القضايا الشرعية مثلا كانت مقاصده ظاهرة وسهلة، بينما هي في التفسير القرآني تحتاج من القارئ أو المتلقي شيئا كبيرا من إعمال الفكر والنظر حتى يستقرأ السبب ويفهم المراد والمنوط.

وعموما؛ فإن المقاصد في" صبح الأعشى" باعتبارها ما يقوله الكاتب أو ما يضمره المؤلف أو حتى ما يقوله المتن هي المتروكة للقارئ ليقول فيها بما امتلكه من زاد معرفي وركام ثقافي، لأن القصد من التأويل هو تحقيق التواصل مع النص ومضمراته وتحقيق فعل القراءة.

---

[1]- ينظر: عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة- دراسة تحليلية نقدية في النظريات الغربية الحديثة- ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر، دت، ص36.

[2]- ينظر: محمّد شوقي الزين، تأويلات وتفكيكات: فصول في الفكر الغربي المعاصر، ط1، المركز الثقافي العربي، لبنان، 2002، ص37.

لقد أسهمت نظرية التلقي منذ ظهورها في تسليط الضوء على القارئ باعتباره مؤوّلا ومفسرا وشارحا وشريكا في عملية إنتاج النص، وكذلك بث الاعتبار التواصلي في إطار تفعيل الرسالة بمتلقيها وكان دورها الفاعل« دفع الدراسات النقدية لاقتحام مجال سوسيولوجيا القراءة حيث تم تجاوز مقولة الإنتاج ومواصفاتها التي كانت تهيمن على القراءات الاجتماعية بعامة والماركسية بخاصة، فاستبدلت بمقولات جديدة، مثل المؤلف والقارئ والجمهور ضمن رؤيا مغايرة لمفهوم الفاعل»[1]. فإنتاج النص لا تتوقف على منتجه فقط، بل للقارئ دوره الفاعل في إعادة قراءة النص وإنتاج نص موازٍ، وفي هذا تجاوز لتلك النظرة المعيارية التي تنظر إلى النص على أنّه ملك لصاحبه دون سواه، فالقارئ– أو الجمهور– شريك في عملية التحليل والشرح والتفسير والتأويل كونه عنصرا مهما في تفعيل الرسالة وتواصلها.

والمعلوم عند الدارسين والمهتمين بالدراسات النقدية أنّ مدونة" صبح الأعشى" تنتمي إلى التراث المعرفي العلمي الذي تميز بمتكآته الأصيلة والغنية بالأساليب والأنساق البلاغية مما جعلها محط تداول غنيٍّ بالدلالة البيانية واللغوية والنحوية والفقهية والكلامية. فهذه المدونة عبارة عن متتالية من النصوص ذات الخطابات المتنوعة والتي لا يمكن بحالٍ تحليلها وفق منهج واحد أو حصرها تحت منظور واحد كتسليط التحليل البلاغي مثلا عليها واستنتاج مضمرات القول فيها وفق وجه نظر بلاغية محضة؛ لأنّ البلاغة القديمة كما هو معلوم قاصرة عن تناول عمل فني أدبي علمي في حجم" صبح الأعشى" نتيجة للنزعة الجزئية المسيطرة على علم البلاغة القديم مما يجعلها مثلا تقف عند حدود الجملة أو ما في مقامها. وليس هذا القول معناه قصور البلاغة عن اكتشاف واكتناه ما تقوله المتون العلمية والفنية ولا هو انتقاص واستبعاد للآليات البلاغية في تحليل النصوص الأدبية، وإنما المراد من ذلك هو إشراك النظريات الغربية الوافدة والاستفادة من الآليات التحليلية التي من شأنها الكشف أكثر عن مضمرات النص ومساءلته والاندماج فيه وإعادة صياغته وإنتاجه وتأويله.

يحدثنا القلقشندي في" صبح الأعشى" عن الكتابة باعتبارها طرفا محاورا في عملية القراءة فطالما أن هناك كتاب فبالضرورة هناك قارئ يشارك في العملية التفاعلية والتواصلية، وقد آلمه كثيرا أن تكون اللغة بهذا المستوى الضئيل بين أبناء عصره، فقد انحدرت كثيرا وتسفلت بسبب دخول العنصر غير العربي على الأمة العربية، وبسطه السيطرة على نظام الحكم وتَحكُّمِه في دواوين الإنشاء، وانصراف الناس عن حلق العلم بسبب صعوبة العيش،وفشو اللحنحتى لم تعد اللغة العربية كتلك التي كانت على في

[1]– أحمد يوسف، القراءة النسقية( سلطة البنية ووهم المحايثة)، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، الجزائر، ص239.

عهد الخلفاء الراشدينوعلى أفواه الأمويين والعباسيين من الطلاقة والطلاوة والجمال الإبانة والإفهام وهو هدف التداولية التي تسعى إليه وتدعو إلى ترسيخه في الحوارات والمحادثات والكتابات الأدبية والشعرية قصد تحقيق عملية التواصل.

**4- "صبح الأعشى" : نسق تداولي بين منتجه ومتلقيه**

ظلت قضية ملكية النص سؤالا مُلحًا لدى النقاد حتى استقلت بتآليف منفردة ومتنوعة ذات صياغات متعددة، فتارة هو ملك لصاحبه( المؤلف) ومرة هو ملك( القارئ) أو الجمهور. ويبقى النص في المقولة النقدية المعاصرة وليد الكاتب والقارئ فهو بين قطبين رئيسيين يتنازعانه .

و" صبح الأعشى" هو واحد من النصوص التراثية التي تتمتع بالفعالية والانفعالية؛ لأن القلقشندي كان يستحضر تواريخ وأزمنة وعوالم سابقة طعّمها بثقافة عصره، وهو انعكاس لواقع الكاتب، وحمولةٌ ثقافية تنطوي على مشاهد اجتماعية سياسية ومآزق تاريخية وإيديولوجية وإثنيات وأعراف اِتحدت بالعالم الإسلامي فأخذت منه كثيرا وأمدته بما عندها من حضارة ورؤية للحياة والإنسان.

إنّ" صبح الأعشى" إفراز اجتماعي تاريخي يعتمد التاريخ ويتكئ عليه، وهو ينتقل بين آفاق متعددة أولها أفق الكاتب( القلقشندي) وآخرها أفق المتلقي( الجمهور- الأمة) الذي يخضع سلباً أو إيجاباً مع محتويات هذا السفر الذي يمتاز بالموسوعية والتنوع الثقافي .

واللافت للنظر أن لغة" صبح الأعشى" ذات بعد اجتماعي ومقاصد وخطابات تعليمية وتوجيهية ويغلب عليها صوت" المُذكر"، بل إنّه يهيمن على أبوابها وفصولها، ويبقى من المتعذر أن تسمع أو تصادف صوت" المُؤنث" إلا في النزر اليسير من المقاطع ولعل ذلك يرجع إلى طبيعة المجتمع الإسلامي المحافظ على القيم والأعراف.

وكذلك نُسَجل سمة أخرى على هذه الأصوات وهي أنها ذات مكانة شريفة وعلية كالسلاطين والحكام والقادة وأصحاب الدواوين والكتاب ومن أجل هذا السبب كان" صبح الأعشى" انعكاسا لضمير المجتمع وهوية لِأُمَّةٍ قدّست المقروء والمكتوب لقرون عديدة من تاريخها المجيد مع العِلم أن بداية تكوينها ونشوئِها؛ كان يصدر عن" أميّةٍ" في المكون الأول" النبوة". وكانت" أميّةٌ" كلها شرفٌ وسؤدُدٌ افتتحت حجر الأساس ولُب البناء بآية:" اقرأ".

إن التفاعل التداولي يحقق مقاصد القراءة ويتجاوز النظرة الكلاسيكية التي دعا إليها البلاغيون العرب حينما حصروا وظيفة اللغة في التبليغ، ولعل هذا ما يؤكد أن النظرية البلاغية العربية برمتها بنيت على أساس مفهوم التواصل بالمعنى الخاص الذي يصبح فيه المرسل المصدر الأساسي للمعرفة، أما

القارئ فهو المتلقي للمعرفة أو على الأصح الباحث عن المعرفة لا المساهم في تأسيسها يقول ابن سنان الخفاجي:« ومن شروط الفصاحة والبلاغة أن يكون معنى الكلام ظاهرا جليا لا يحتاج إلى فكر في استخراجه وتأمل لفهمه، ودليل على صحة ما ذهبنا إليه أن الكلام غير مقصود في نفسه وإنّما احتيج إليه ليعبر الناس عن أغراضهم ويفهموا المعاني التي في نفوسهم»[1].

إنّ مدونة" صبح الأعشى" شاهد تاريخي على صناعة الحضارة وصناعة الهوية والانتماء الإنساني؛ لأنّها تستبطن في متنها روابط روحية للشعوب والأديان، وإن هذا التراكم التاريخي والحمولة الثقافية التي بداخل المتن يؤهلها لأنْ تكون ضمن المحصِّنات الأساسية لهوية الأمة العربية المسلمة بما تحمله من ثوابت راسخة وأصلية كالدين واللغة.

وقد أولى القلقشندي" الكتابة" منزلة خاصة في كتابه" صبح الأعشى" إذ عدها المكون الأول لوجود الإنسان واستدل على ذلك بالنصوص القرآنية والمأثورات التاريخية «.. وعن ابن عباس رضي اللّه عنهما في قوله تعالى:" أو أَثَارَةٍ من علمٍ" أنه الخط. ويروي أن سليمان عليه السلام سأل عفريتا عن الكلام فقال: ريح لا يبقى! قال: فما قيده؟ قال: الكتابة»[2]. ويخبرنا القلقشندي تلميحا لا تصريحا أن اللغة هوية على الإنسان ووجوده ويرجع بهذه المسألة إلى عصور سحيقة، بل إلى بدأ الخليقة:« ولو لم يكن من شرف الخط إلا أن الله تعالى أنزله على آدم أو هود عليهما السلام.. وأنزل الصحف على الأنبياء مسطورة، وأنزل الألواح على موسى عليه السلام مكتوبة لكان فيه كفاية»[3].

ومن المفيد أن نشير إلى أنّ القلقشندي وهو بصدر حديثه عن هذه القضية" قضية الكتابة" نجده ينتصر أو حتى يتعصب للعربية ويجعلها قاهرة وفوق جميع الألسن، وإذا كانت البراغماتية المعاصرة ترى في اللغة وسيلة للتواصل، فإن هذا الأمر منوط بجميع اللغات وليس حكرا على العربية، غير أن القلقشندي كان يلمّح إلى ربط اللغة بالوحي والمقدَّس، وأنّها بإمكاناتها اللامتناهية من البنى والصيغ كانت جديرة بأن تكون وعاءً مناسباً للإعجاز ولمراد الله سبحانه وتعالى:« فلما أن تضمَّنت الحروفُ الدلالة، وقامت الألفاظُ بالعبارات، نطقت الأفواه بكل لغة، وتصرف المنطق بكل جهة، فلم تكتف منه أُمَّة بأمة،

---

[1]– ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، مرجع سابق، ص220–221.

[2]– صبح الأعشى ج 3/ 05.

[3]– م. ن، ج 07/3.

ولم تستغن عنه ملة دون ملة، فعُرِّب ذلك بلغة العرب التي هي القاهرة لجميع اللغات»[1]، والمنظمة لجميع المعاني في وجيزٍ من الصفات.

إنّ ما يعرضه القلقشندي في" صبح الأعشى" عن الكلام واللغة والكتابة لهو من صميم الدرس التداولي، ذلك أن هذا هو شأن الكائن الإنساني إذ هو:

- المعبر باللغة.
- الناطق بالكلام.
- الرامز بالكتابة.

وهذا الركام التاريخي والأزمان المجتمعة في" صبح الأعشى" تواجهك بمدٍّ زاخرٍ من التراكم الثقافي، وبمسالك متشبعة ومهالك متفرقة لنقول في النهاية أنّها هوية أمة، وقد جعل القلقشندي من هذه الفعالية اللغوية سبيلا للتواصل مع الآخر؛ لأنّه خرج وانحرف بها من مواصفات العادة والتقليد حتى بات كتابه" صبح الأعشى" واحدا من المدونات الخالدة في تراث الأمة الإسلامية الشاهدة على التميز والعطاء.

لقد كان القلقشندي يجمع هذا الشتات من أزمنة مختلفة، ومن أفواه جمّةٍ، ومن مصادر عدة وكانت عدته في ذلك ومعوله الأول هو عبقريته الفذة في إعادة إنتاجه وتصفيفه وتبويبه بهذه الطريقة، فالكتابةلا تحدث بشكل غير معزول أو فردي، وإنما هي نتاج لتفاعل مشتمل على عدد كبير من النصوص يختزنها المبدع في ذاكرته والتي يتمخض عنها جنين ينشأ في ذهن الكاتب ويتولد عنه العمل الإبداعي الذي نقصد به النص، وهذا التفاعل والتداخل بين النصوص في توارثها هو ما أطلق عليه رواد مدرسة النقد التشريحي بتداخل النصوص( Intertextualité) وهذا مفهوم مهم جدا في كشف حقائق التجربة الإبداعية للفنان وفي تأسيس العلاقة بين مختلف نصوص الجنس الأدبي الواحد[2].

وهذا الذي جعل بعض الباحثين من العرب المعاصرين يعتبرون الدرس النحوي والبلاغي قاصرا عن أداء مهامه التواصلية بين طرفي الخطاب؛ لأنّ دراستهم لهذين العلميين كانت تحليلية لا تركيبية أي أنّها كانت تعنى بمكونات التركيب نفسه، ومن وجهة نظر تمام حسان« فالنحاة لم يتخطوا إلى طبيعة التعارض الممكن حدوثه بين النظام ومطالب السياق، ولم يدرك أن السياق يفرض عناصر جديدة من المكونات التحليلية تعتبر حلولا لما قد يكون من تضارب بين السياق وبين النظام»[3]، فاهتمام النحاة

---

[1]- صبح الأعشى، ج07/3.

[2]- ينظر: عبد الله محمّد الغذامي، الخطيئة والتّكفير: من البنيوية إلى التّشريحية، مرجع سابق، ص15.

[3]- تمام حسّان، اللّغة العربية معناها ومبناها، ط3، عالم الكتب، القّاهرة، 1998، ص17

بالجانب القواعدي للتركيب اللغوي دون مراعاة عناصر السياق؛ جعل من نظرتهم قاصرة على التحليل، وهذا ما جعلهم في تضارب مع متطلبات السياق، لأنّ هذا الأخير يفرض عناصر جديدة هي من مكونات التحليل والتي تعدُّ حلولا لذلك التضارب بين السّياق والنّظام.

والنّاظر في مدونة" صبح الأعشى" يجد الخطاب ضمن سياقات محددة محكومة بأبواب ومواضيع مخصوصة فعندما يرمي القلقشندي إلى الإقناع والحجاج مثلا يتكئ على أقوال من سبقوه من العلماء في الفن الذي يريد الخوض فيه ولهذا فإنّه ليس بوسع القارئ أن يحصي الروافد الثقافية التي أخذ منها القلقشندي واستدل بها كشواهد تعضد وجهة نظره إزاء فكرة معينة طرحها في" صبح الأعشى" مثلما فعل في قضية" الكتابة".

وفيما يخص استدراج القارئ أو المتلقي إلى قبول فكرة ما أو توريطه في عملية التأويل فهي مسألة لا يخلو منها أثر أدبي لأن القراءة تؤدي إلى الاستنباط والتنبؤ بما وراء النص.

أمّا القول بأن هذا الموروث التاريخي يعوزه التواصل ففيه من التجني والتعالي وقصور النظر ما يجعلنا نورد كلمة الغذامي عن دور القرطاجني في هذا المضمار:« أود أن أشير إلى أن الناقد الفذ حازم القرطاجني قد لمح إلى بعض عناصر الاتصال اللغوي وعلاقتها بالأدب من قبل ياكبسون بسبعمائة عام( مات حازم 1285م) حيث ذكر أن الأقاويل الشعرية: تختلف مذاهبها وأنحاء الاعتماد فيها بحسب الجهة أو الجهات التي يعتني الشاعر فيها بإيقاع الحيل التي هي عمدة في إنهاض النفوس لفعل شيء أو تركه أو التي هي أعوان للعمدة وتلك الجهات هي ما يرجع إلى القول نفسه، أو ما يرجع إلى القائل، أو ما يرجع إلى المقول فيه، أو ما يرجع إلى المقول له»[1].فيوحي هذا بتنبه القرطاجني لعناصر مهمة تتعلق بالعملية التواصلية ومقوماتها من مرسل ومرسل إليه ورسالة وسياق وذلك في إطار ذكره للأقاويل الشعرية وكيفية اختلاف مذاهبها وأنحائها، وذلك بحسب ما يريده الشاعر من مقاصد، إذ يستعمل لكل جهة أسلوبها الخاص وبإيقاعها الخاصبغية إنهاض النفوس لفعل شيء أو تركه.

فهذه العناصر الأربعة التي أقرَّ بها القرطاجني هي نفسها تلك العناصر التي حددها ياكبسون والتي نوردها على النحو التالي:

1- ما يرجع إلى القول نفسه ..... الرسالة.

2- ما يرجع إلى القائل ..... المرسل.

3- ما يرجع إلى القول فيه ..... السياق.

4- ما يرجع إلى المقول له ..... المرسل إليه.

إن هذا الاستدراج التداولي هو الذي جعل القارئ يفهم تلك التغيرات الاجتماعية التي مسّت فئات كثيرة من عصر القلقشندي فبوأتهم المنازل العالية وأقصت فئات أخرى فَطَوتهم وجعلتهم يَرْتدون إلى الهامش بعد أن كانوا هم المركز والسبب أنّ العصر برمته تحكمه السياسة. وإن الاستدراج التداولي ومحاورة نصوص" صبح الأعشى" واستنطاقها هو الذي جعل المتلقي يجد فيها السمات العقلية لكل الطبقات والشعوب، وجعله يفهم التعاقب والتنوع الثقافي للمؤلف نفسه؛ فهو كاتب المقامة والمؤرخ والفقيه والسياسي، وهو المدوِّن والمفسر والشارح. لا شك أن هذا التنوع الإبستيمي لدى القلقشندي هو ما جعل" صبح الأعشى" ذات قيمة تاريخية ودينية وتعليمية.

فهذا الإجراء القرائي في شخصية القلقشندي من قبل القارئ هو ما جعله يحظى بفهم منجزات" صبح الأعشى" الثقافية، ويحظى بفهم تلك التداعيات المعنوية لنصوصه وفهم المعاني الإيحائية التي تتخفى وراء المعاني الحرفية والسياقات الرمزية والأنساق السردية والحكائية باعتبار القلقشندي كائنا سرديا تخطى التاريخ إلى السرد عند خوضه تجربة كتابة فن المقامة[2]القائمة على الحكي والقصص.

**ثانيا: آليات التخاطب والتواصل في" صبح الأعشى"**

بات اسم القلقشندي علَمًا على واحدٍ من أبناء العربية الذين عُرفوا بثقافتهم الموسوعية، ولا أدل على ذلك من كتابه؛ الذي استعاد فيه الماضي واستنشق عبقه، وحوّله إلى ظواهر فنية تسري فيها الحياة من خلال الشعر والنثر، وكان الواقع القاهري بمثابة المخبر الذي يُجري فيه تجاربه ويستمد منه الخبرة والحنكة. فقد كان القلقشندي يؤمن بـ:" روح الشعب" وإنْ بدا أنّه أديب وبلاغي ولغوي من صفوة النخبة.

ينصهر شخص[3] القلقشندي في متن" صبح الأعشى" ليحاور الشخصيات التي تم إنجازها عبر المخيال؛ وهذه الشخصيات هي التي تصوغ وتحمل مقاصد المؤلف الحقيقي داخل المتن وتلوِّنها بعديد الألوان حسب المواقف والضرورات في الأدب كما في الحياة. إذ يقوم الكائن[ الإنسان] بإزاء الزمان

---

[1]- الغذامي، الخطيئة والتّكفير، مرجع سابق، ص17.

[2]- ينظر: صبح الأعشى، ج14، المقامة 10- الفصل الأول في المقامات ص110 وما بعدها" الكواكب الدرية في المناقب البدرية".

[3]- الشخص( la personne): إنسان حقيقي تؤرخ الكتب والسجلات الرسمية لحياته.

*- الشّخصية( le personnage): كائن مُتخيل أو هوية قصصية؛ وإنْ استمد معالم ذاته وكيانه من التاريخ والواقع المعيش.

مشكِّلين ثنائية الكل/ الجزء؛ فالإنسان هو الجزء المنصهر في الكل الذي هو بطبيعة الحال: الزمان. والأدب يصور هذه المعادلة عن طريق الشخوص الورقية وما تتعرض له من عوائق ومواقف حياتية يتولى صنعها الزمان بوصفه السابق المهيمن والكلي الذي تسبح في لحظاته هذه الكائنات وتجري في سياقه هذه الأحداث لأنّه يستغرق كل شيء حتى الأفضية المتباعدة بشساعتها.

وهنا سؤال يفرض علينا نفسه: هل الأدب هو تصوير للواقع أو انعكاس للحياة؟ أم أنّه صورة تمَّ تهذيبها وإخراجها في صورة ملفوظات تحظى بالمقبولية؟! ثم ألا يكون هذا التهذيب تزييفا للواقع؟ أم هو تشويه يطال حتى الوقائع التاريخية؟!.

يرى بول ريكور P. Ricoeur أنّ فكرة كون المرويات التاريخية غير واقعية لمجرد أنّها جاءت بصيغة قصة كانت تعني أنّ الأدب لا يستطيع إضاءة" العالم الواقعي" بأي طريقة. غير أنّ فكرة كون المرويات التاريخية تضيء" العالم الواقعي" كون عالمها يعرض شكل قصة حسنة الصياغة، وذات شخصيات متصارعة تشبه تلك الصراعات التي نواجهها في أنماط القصص التقليدية، فهذه الفكرة يتعذر الدفاع عنها هي الأخرى[1].

تقدم مدونة" صبح الأعشى" هذا التداول التاريخي والواقعي في شكل محاجّة بين الراوي والقارئ، أو بين النص ومتلقيه، حيث يعرض لنا القلقشندي رأيه بخصوص السياسة مثلا فيرى أنّ السياسي لا بد أنْ يكون قد خَبِرَ شيئا كثيرا عن" الكتابة" وألمَّ بشيء من العلوم اللغوية واللسانية، فالسياسيُّ برأي القلقشندي هو نخبويٌّ، ذلك أنّ الثقافة تخرجه من زمرة[ العامة] وأنّه حريٌّ أنْ يتولى زمام الأمور في الحكم أو أنْ يضطلع بأعباء أية مهمة.

والكتابة شرط رئيس عند القلقشندي لأنّها منزلة شريفة، ورتبة عليّةٌ، والعاضد لهذا التصور عند القلقشندي هو:" الدين" و" التاريخ"، غير أنّ" العالم الواقعي"، المعيش[ بيئة القاهرة] قد تقدم لنا بديلا صادما:« قال صاحب نهاية الأرب: وقد اتسع الخرق في ذلك، ودخل في الكتابة من لا يعرفها البتة... ولله درُّ القائل:

تَعِسَ الزَّمانُ فقد أتى بعجاب ومحا فنون الفضل والآدابِ

وأتى بكُتَّاب لو انبسطت يدي فيهـم رَدْدُتُـــهُمُ إلى الكُتّابِ...»[2]

[1]– ينظر: بول ريكور، الوجود والزمان والسرد، ترجمة: سعيد الغانمي، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/ بيروت، لبنان، 1999، ص186.

[2]– صبح الأعشى، ج48/1.

بينما نسمع صوت القلقشندي يردد:«... الكتابة أسُّ المُلك، وعماد المملكة... وهي لسان ناطق بالفضل»[1]. وأورد هذا الرأي وحثّ عليه في مواضع كثيرة من" صبح الأعشى"، كما ذكره غير مرة في مقامته المشهورة:« الكتابة قانون السياسة...»[2].

ولكي يقيم القلقشندي الحجة على فضل" الكتابة" كان دائم الالتفات إلى الوقائع التاريخية، وإن واحدة من مقاصد الوحي هي" الكتابة"، فالنبي صلى الله عليه وسلم قد جاء لأجل هذا الغرض، ويقول القلقشندي:« وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم في كثرة الكُتّاب راغبا، فقد رُوي أنّه كان له عليه أفضل الصلاة والسلام نيف وثلاثون كاتبا، هم نخبة أصحابه، وخلاصة أترابه، ومن ائتمنهم على أسرار الوحي والتنزيل، وخاطب بألسنة أقلامهم ملوك الأرض...»[3].

لقد استطاعت مدونة" صبح الأعشى" التفاعل بين العوالم المختلفة: المادي( الواقعي) والفني( الإخبار– التاريخ– الأدب) ذلك أنّها إفراز طبيعي لطموح مؤلفها الذي كان يستصحب في ذهنه وذاكرته كل تلك العوالم بأبعادها المتسقة والمتناقضة.

**1– إستراتيجية الحوار وفعل الاتّصال:**

ساق القلقشندي في إحدى الرسائل المتعلقة بموضوع الوزارة نصا يقوم على التداول والتحاور؛ بحيث نلمس فيه توافر المادة التخاطبية، وآليات المحاججة والتفسير والإقناع. وهذا الأمر ليس متعلقا بهذه الرسالة وحدها، بل إنّ نصوص" صبح الأعشى" كلها أو جلها تتوافر على هذه السمات التداولية: من أفعال الكلام والإقناع والحجاج والتأويل والتواصل...غير أنّنا أردنا أنْ نسوق الشاهد منها لنستخرج بِنْيَاتِ التخاطب ونلَمِّحَ إلى فاعلية التواصل وطرفَيْ التحاور.

يقول القلقشندي: «... قال يحي بن خالد لجعفر بن يحي حين تقلّد الوزارة، وتكلّف النهوض بأعباء الخلافة:

– أيْ بُنيَّ! إنّي أخاف عليك العجز: لعظيم ما تقلّدت، وجسيم ما تحمّلت..

– قال جعفر: لكنّي أرجو القوّة، وأطمعُ أنْ أستقلَّ بهذا الثِّقْلِ وأنا مبتهل غير مبهور...

– قال يحي: إنّ لكل رجاءٍ سببًا، فما سببُ رجائك؟

– قال: شهوتي لما أنا فيه، والمُشْتَهِي للعمل لا يجدُ من أَلَمِ الكدِّ ما يجدهُ العسيفُ الأسيفُ.

---

[1]– صبح الأعشى، ج37/1.

[2]– م. ن، ج115/14.

[3]– نفسه.

– قال يحي: إنْ نهضْتَ بثقلها فبهذا، وإلَّا فلا، وأنا أسأل الله أنْ يصرفَ شهوتك إلى حبّ ذلك، وهواك إلى الاحتفاظ بنعمتك: بشكر المصلحين والتوكل على ربّ العالمين»[1].

يُورد القلقشندي في رسالته هذه الحوارَ على لسان مُتخاطبَيْنِ اثنين هما:

الأبُ ( يحي) ⟵ بوصفه مُرسِلا.

الابنُ (جعفر) ⟵ بوصفه مُرسَلا إليه.

وعلى **موضوع** رئيس أو بلغة التراث على **معضلة** تتمثل في" الوزارة" وهي أمر سياسي محض يتعلّق بأمور الحكم والفصل والقضاء؛ أي أنها شأنٌ عظيم كما أبان الوالد( يحي) بملفوظه الصريح الإخباري؛ فكأنه هو الآخر قد اضطلع بأمور الوزارة وشؤون الدولة قبل ابنه، وهنا يطلعنا متن صبح الأعشى عن تلك القيمة السياسية والاجتماعية التي تختزنها نصوصه، وتلك التجارب الحياتية لشخصياته المستعادة من تاريخ الأمة الإسلامية، وذلك المخزون الثقافي المتوارث جيلا عن جيل، وبهذا يتبيّنُ لنا سيرورة التواصل بين الأجيال في صورة ميراث لمحصلة ثقافية وحياتية فرضتها التراتبية الزمانية وفرضها الواقع المعيش لكل جيل، وقد صرّح الجاحظ من قبلُ عن فحوى هذا التصور قائلا:«... وينبغي أنْ يكون سبيلُنا لمن بعدنا، كسبيل من كان قبلنا فينا. على أنّا وجدنا من العبرة أكثر مما وجدوا. كما أنّ من بعدنا يجد من العبرة أكثر مما وجدنا...»[2]. والمشهور أنّ هذا الرأي من الجاحظ إنما كان في معرض ذمّه لصمت العلماء في وقت الحاجة إلى بيانهم ودعوتهم إلى الخروج من صمتهم وتقيّتهم وضرورة الإدلاء برأيهم؛ غير أنه يوضح بجلاء فكرة التواصل بين الأجيال والحث على الأخذ من الآخرين مهما كانت مواقفهم تُبَايِنُ مواقفنا لأنّ الحياة لا تقف عند رأي واحد؛ وهذا يوضح مدى اتساع أفق الجاحظ إزاء القضايا المصيرية. وكذلك كان الشأن عند القلقشندي الذي طمح من خلال مؤلفه صبح الأعشى أنْ يمدّ جسور التواصل مع أبناء العربية في حثّهم على الأخذ من مختلف العلوم البلاغية واللسانية من خلال مبدأ الكتابة أو الإنشاء الذي وقف له عمره في سبيل إنجاح مشروعه الذي تلخصه عبارة العنوان في أنه صبحٌ تنشده الأجيال وطريق إلى النور والتعلم.

ثم يبني القلقشندي هذا التخاطب وفق إستراتيجية تداولية حيث يتضح للقارئ أنّ المتخاطبَيْنِ يتقاسمان الأدوار بفاعلية تؤول إلى نتائج منطقية، وتنطلق من مقدمة مغرية مبدوءة بنداء أب رحيم ووالد

[1]– ينظر: م. ن، ج183/14 بتصرف.

[2]– حمادي صمود، التّفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوّره إلى القرن السّادس، د ط، منشورات الجامعة التّونسية، تونس، 1981، ص179 .

مشفق على ولد طموح يمتلأ حيوية وشبابا، ويمكن أنْ نعبر عن هذه الإستراتيجية التواصلية عبر هذه الخطاطة:

مرحلة المساءلة( خطاب عاطفي)⟵ مرحلة الإفصاح( خطاب حجاجي)⟵ النتيجة( التسليم)

وإذا جئنا نربط بين الحجّة والنّتيجة في خطاب القلقشندي الماثل في لسان الشخصيات المتحاورة، وجدنا أنّ هذه العلاقة الحجاجيّة المستخرجة من الحجة والنتيجة تتجه لأنْ تكون استلزاما لأنّها انتهت بالتسليم لمراد المُخَاطَب( الابن جعفر) الذي كان متشبثا برأيه الصادر عن قوة كامنة فيه عبّر عنها بملفوظ: الشهوة.

وليس يعني هذا القول أنّ هذه القضية فيها منتصر ومنهزم، أو تابع ومتبوع، كما ليس يعني" **التسليم**" أنّ أحد الطرفين كان أقوى بحجته من الآخر، والدليل عبارة( يحيى الوالد) في نهاية المحاورة التي علّقها المتلفّظ بدال لغوي يوهم بالشرط، بالإضافة إلى تضمّنه دلالة مضمرة متمثلة في الاختيار: إنْ نهضْتَ بثقلها فبهذا، وإلَّا فلا، وأنا أسأل الله أنْ يصرفَ شهوتك إلى حبّ ذلك، وهواك إلى الاحتفاظ بنعمتك: بشكر المصلحين والتوكل على ربّ العالمين.

**لغة متن الرّسالة:** يبدو السبك اللغوي– مما سبق– ظاهرا جليا في ملفوظات هذا المتن التخاطبي، حيث تتبني الكفاءة اللغوية عند كليهما في قوة حضور الرّد، وتخيّر اللفظ المناسب للموقف المناسب، ويبدو جوّ التخاطب بينهما تعلوه حميمية ظاهرة، وعاطفة جليّة؛ فبين الباثّ والمستقبل وشائجُ أسرية وروابطُ دمويّة أبانتها تلك الوحدة اللغوية الصغيرة الدالة:( بُنَيَّ) وهي تصغير لكلمة( ابني ) وهذا التصغير ينطوي على عاطفة أبوية؛ إذْ يُرادُ منه التّحَبُّبُ والتّودّد والتّقرب ورفعُ الكُلفة بين طرفَيْ الخطاب، وكما هو معلوم فالتصغير ظاهرة صرفية وهو تغيير في بنية الكلمة للوصول إلى مراد المتكلم وقصده من هذا التعبير دون غيره، بالإضافة إلى مؤشر النداء( أيْ) الذي هو لنداء القريب، والقرب هنا على معنيين اثنين: قرب المسافة وقرب القرابة وهذا من عجيب ما يتفق في لغة التراث العربي وفي لغة القلقشندي.

تعكسُ لغة الخطاب العوامل والخصائص النفسية والعقلية والفكرية والثقافية وحتى العقائدية لكل من المرسل والمرسل إليه، وهذه العوامل تلعبُ دورا رئيسا وحاسما في إنتاج الخطاب وتوجيهه. فعلاوة على التداول الحاصل بينهما في مقدار الملفوظات، نسجل حضور الاستدلال أو الحجاج بين شفقة الوالد على ابنه وخشيته عليه من العجز من جهة، وحرص الابن من جهة أخرى على منصب الوزارة الذي يريد أنْ يتقلّده، ففي قول الأب( يحي):" إنّي أخافُ عليك العجز" أخرج الخطابَ مؤكَّدا بـ" إنّ" التوكيدية، وهذا

يحيلُ على خصوصيّة معيّنة من ذاتيّة" المرسِل" ورؤيته إلى أعباء" الوزارة" بإزاء" العجز" الذي يراه هو حاصلا من ابنه أو يخشى أنْ ينال ابنه.

أمّا ملفوظ الابن" جعفر": " لكنّي أرجو القوة، وأطمعُ..." فأخرج الخطاب وقد تنازعته خصلتان من خصال النفس البشرية وهما( الرجاء/ الطمع)، ولهذا نراه يستهل كلامه أو جوابه عن سؤال أبيه بحرف الاستدراك" لكنْ" كأنّه يريدُ أنْ يعترض ولكنْ وفق إستراتيجية واضحة توحي بالرضا والتداول في التحاور بين متكلم ومُصْغٍ، ومن أجل هذا رتّب ملفوظاته ترتيبا مقصودا راعى فيه مقام المخاطب، وكذلك من أجل بلوغ الهدف المتمثل في" الإقناع" و" التأثير" في الوالد( المحاور) بوجهة نظره إزاء هذا الثقل الذي هو أساس المحاورة بينهما والمتمثل في موضوع( الوزارة).

فـكُلُّ قول يقعُ في« السّلم الحجاجي يلزم عنه ما يقعُ دونه، بحيثُ تلزمُ من القول الموجود في الطرف الأعلى جميع الأقوال التي دونه»[1]. وهذا هو الأمر عينه الذي وقع بين الأب والابن؛ فكان أحدهما بمثابة المفجر للخطاب وهو الأبُ بسؤاله الاستفساري حول عزيمة ابنه، فلو أنّه لم يفتح الخطاب بسؤاله ولم يلتفت إلى هذا الشأن الذي عزم الابن على تولّيه لمضى الابن إلى حاجته دون تبرير ودون كلام ومن غير سوق الحجج. وبهذا يكونُ الخطاب بين طرفين يتجاذبانه وفق تراتبية حوارية مؤسسة على الحجاج والتداول.

ولتنفيذ هذه الإستراتيجية القائمة على الإدلاء بالحجة، يتشبّثُ كلٌ من المرسل والمرسل إليه بتلك اللغة الفاعلة والمؤثرة المُنْبَنية على الاستدراكات والمراجعة المَرّة بعد المَرّة أحدهما للآخر من أجل توجيه فهم كل منهما ناحية مقصود صاحبه.

فمجموع هذه الأدوات المستعملة في خطاب الأب والابن( لكنْ، عليك، إنّي، أنا...) هي التي أتاحت للمتخاطبَيْنِ هذا التداول، وهي التي عملت على الربط بين القضايا وترتيب الحجج، بالإضافة إلى دورها الكبير في عملية اتساق الخطاب وانسجامه، أي أنّ هذه الروابط أدت وظيفة دلالية حجاجية في الآن نفسه[2].

ينبغي الإشارة أيضا إلى الحمولة الدلالية التي تفيدها الضمائر في هذا التخاطب الحاصل بين الطرفين، فكلاهما حاضر ومثبتٌ لهويته من خلال الضمير المنفصل( أنا) والمتصل( ياء المتكلم) الذي

[1]– طه عبد الرّحمن، اللّسان والميزان أو التكوثر العقلي، مرجع سابق، ص272.

[2]- Voir: Mainguneau Dominique, "Eléments de linguistique pour le texte littéraire", Bordas, Paris, 1986, p133.

يدل على المتكلم وعلى الأنا والملكيّة، وبهذا يحاول كلٌ منهما أنْ يوجه ويستدرج صاحبه لإقناعه بوجهة نظره؛ وفي هذا الصدد يمكن التنبيه على دور هذه الروابط الحجاجية في هذا النص المنبني على التخاطب والتحاور وبيان أنّ لها علاقة بالمعنى المباشر للمتلفظين وعلاقة أخرى قوية مع المعنى الضمني والمضمر Implicite؛ فالرابط الحجاجي( لكنْ) يستعمل للإبطال أو الفسخ والنسخ وحتى يوهم بالاعتراض وعدم الموافقة، كما أنّ استعماله لصيغة( فعيل) التي توحي بالكثرة والتكرار والتي يستوي فيها المُؤنثُ والمذكر خصوصا عندما تفيد المبالغة وحين تكون منقلبة عن معنى فعول كقوله:( الأسيف) أي كثير الأسف والتي جعلها رديف اسم( العسيف) الذي هو الأجير لتحصل عنده تلك الموافقة اللغوية التي تفيد التأكيد، وحتى يُؤتِيَ الخطابُ مراده وفعله التأثيري لدى المتلقي.

وبالجملة، فإنّنا نتكلّم قصد إنجاز مواقف وحاجات معينة وتحقيق أهداف خاصة بحياة كل واحد منّا، ولا يتم ذلك إلا باستصحاب جميع الروابط اللغوية التي يتألف منها الكلام، وهذا هو الشأن داخل متن صبح الأعشى الذي راعى فيه القلقشندي وسيلة التخاطب( اللغة) عند كل شخصية وفي كل موقف ومقام؛ ولعل هذا هو السبب الذي جعل علماء اللغة وعلماء البلاغة والتداولية يفسرون حاجة الإنسان للغة والكلام ولا أدلّ على ذلك من فعل اللغوي الفرنسي أزفالد ديكرو O.Ducrot الذي انطلق من« الفكرة الشائعة التي مؤدّاها:" أننا نتكلم عامة بقصد التأثير"»[1].حيث بنى على أساسها نظريّته في الحجاج.

**2- القصد في مدونة" صبح الأعشى":**

مما لا شك فيه أنّ عملية التواصل التي تتم بطرق مختلفة وكثيرة تحمل الكثير من القصودات التي يفرضها السياق، والمقاصد هي أساس العملية التواصلية بين المتحاورين والمتناقشين في أيِّ حقل من حقول المعرفة الإنسانية.

والقصد: هو أنْ يُضمن المتكلم كلامه ما ينوي فعله أو طلبه وإنجازه مع مراعاة الظروف المحيطة به وبالجهة التي يقصد أنْ يجد فيه مراده ويحقق فيها مقصوده. وتتعدد دلالات مفهوم القصد في المعالجات النظرية فهو دال على أحد ثلاثة:

أ- دال على الإرادة.

ب- دال على معنى الخطاب.

ج- دال على هدف الخطاب.

[1]- أبو بكر العزاوي، اللّغة والحجاج، ط1، الدّار البيضاء، المغرب، 2006، ص08.

أمّا التواصل فيدل على الاتصال والترابط، ويعني في اللغة الأبجدية( Communication) العلاقة التي تتم بين المتراسلين أو المتكلمين، فهناك دائما طرفي تواصل، وهناك على الدوام: إخبارٌ وإعلام«.. فما تكلّم أحدٌ إلا وأشرك معه المخاطب في إنشاء كلامه، كما لو كان يسمع كلامه بأذن غيره، وكأنّ الغير ينطق بلسانه»[1]، فطه عبد الرحمن يدعو إلى ضرورة تقيد المخاطِب بشروط يجب أن تتوفر في المخاطَب حتى تتم عملية التواصل بأيسر الطرق وكأنّ هذا المخاطَب ينطق بلسان مخاطِبه.

غير أنّ هذا التواصل لا يقتضي وجود لغة على الدوام؛ بمعنى أنّه في إمكان الإنسان أنْ يتواصل مع غيره دون وساطة" اللغة" كأنْ يعمد إلى إشعال النار مثلا لينبه قوما، أو يعمد إلى كسر زجاج النافذة ليجلب النظر إليه، فالتواصل يكون باللغة وبغير اللغة وهو يحمل شحنة دلالية وحمولة قصدية، أمّا التخاطب فيقتضي المشافهة والحضور، فلا يكون إلا باللغة وهو يقتضي القصد.

القلقشندي يرمي في مدونته" صبح الأعشى" إلى بيان أثر الكلام على السامع والمتلقي؛ فيؤكد أنّ الخبر قد يحتمل أكثر من معنى، وهو بهذا يشير إلى المقصدية بإثر فعل التكلم مباشرة:

«.. أعرابية قالت لجارتها:" حديثُكِ تَرويعٌ وزيارتك توقيعٌ»[2]، فماذا قصدت الأعرابية بكلامها؟

- هل قصدت إهانتها وطردها من بيتها؟
- هل قصدت مدحها والثناء عليها؟
- هل هذا القدر من الإخبار يجعل الخطاب ذا دلالة لغوية مقنعة وكافية لجعل السامع ينجز فعلا كلاميا ما؟.
- هل هذه" الرسالة" موجزة إلى حد الإخلال؟
- هل لغة هذا الخطاب مجازية؛ بحيث تُحدث تشويشا لدى الجارة، فلا يسعها الفهم، وبالتالي لا تعرف كيف تتصرف؟

وعند الرجوع إلى القلقشندي نجد تعددا في الرُؤى التأويلية وعليه فإنّ هذا القول يمكن تأويله عند القلقشندي على النحو التالي:« قلت: يحتمل أنْ يكون من قولهم وقع الأمر: إذا حق ولزم، ومنه قوله تعالى:﴿ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ ﴾أي حقَّ، أو من قولهم: وقَّع الصَّيقلُ السيف إذا أقبل عليه بميقعته يجلوه لأنّه بتوقيعه في الرُّقعة يجلو اللبس بالإرشاد إلى ما يُعتمدُ في الواقعة، أو من مَوْقَعَة الطائر: وهي

[1]- طه عبد الرّحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، مرجع سابق، ص50.

[2]- صبح الأعشى، ج53/1.

المكان الذي يألفه من حيث إنّ الموقِّع على الرقعة يألف مكانا منها يوقِّع فيه كحاشية القصة ونحوها، أو من المَوْقَعة بالتسكين، وهو المكان المرتفع في الجبل لارتفاع مكان الموَقِّع في الناس وعلوّ شأنه، أو غير ذلك»[1].

فهذه جملة من التأويلات التي تبحث في مقصدية المتكلم، مع العلم أنّ الخطاب يحمل معنًى واحدا لأول وهلة عند قراءته أو سماعه، غير أنّ اللغة من شأنها أنْ تحمل هذه الكثافة في القصود، وفي انزياح الملفوظات عن استعمالها العادي ودلالتها المباشرة.

ثم نرجع لنبحث مع القلقشندي عن المعنى المباشر، وهو من سنن العرب في كلامها: أن تفهم لأول وهلة وأنْ تتحدث عن أوّل خاطرٍ:

"وحكي أنّ أعرابية قالت لجارتها:" حديثُكِ تَرويعٌ وزيارتك توقيعٌ"

تريد أنّ زيارتها خفيفة.

نعم: تريد أنّ زيارتها خفيفة، وأنّ هذه الأعرابية تود من جارتها لو أطالت المكوث.

ومن هنا يُعلم أنّ العملية التواصلية غاية في التعقيد، وأنّه ليس كل تحاور وتواصل ينجح ويتم، بل قد تنفك عُرى التواصل بين المتخاطبيْن عند انزياح وحدة لغوية أو سقوطها سهوا أثناء التكلم، أو حتى الانتقال أو العدول من ضمير المخاطب إلى ضمير الغيبة فيذهب فهم محتوى الرسالة وقصد المتكلم؛ ويدخل الطرف الآخر في عملية تأويلية وتساؤل عويص عن قصد مُكلِّمه. وعلى هذا تَوَجَّبَ مراعاة ما يلي:

- المتكلم ومقامه.
- السامع ومقامه.
- الرسالة ووضوح متنها.
- سلامة القناة.

وإخضاع كل هذا إلى" قاعدة الكم Quantité" التي جاء بها غرايس ضمن مبدئه" مبدأ التعاون" والتي تقتضي مراعاة المتكلمين والظروف المحيطة بهم. فينبغي الدخول في العملية الحوارية بالقدر الذي يحتاجه طرفي الخطاب دون الإفراط والتطويل، ودون الإخلال والتقصير.

[1]- صبح الأعشى ج53/1.

**3- الملاءمة المقامية:**

تكمن قيمة" صبح الأعشى" في أنّه كتاب تعليمي ذو طابع توجيهي، وهو مليء بالإشارات والرموز والسياقات[1] التي توفر له إمكانية محاورة قائله والمضي به في آفاقٍ متنوعة مفتوحة على التأويل والتساؤل.فما من باب ولا فصل إلا وتصلح مادته اللغوية لأنْ تكون ميدانا للتحليل اللساني والمقاربة التداولية، كما هو الشأن في قضية الوزارة، وكما هو الحال مع رسائل الخلفاء والأمراء، وكما جـــاء فـــي:( الباب الرابع: من المقالة الخامسة في الولايات الصادرة عن الخلفاء لأرباب المناصب من أصحاب السيوف والأقلام وفيه ثلاثة فصول: ومن الفصل الأول: من الطرف الثاني منه جاء ما يأتي:

فيما كان يُكتبُ عن بني أميّة: كتب عبد الحميد بن يحي الكاتب، عن مروان بن محمد لبعض من ولّاه*أما بعدُ:« فإنّ أمير المؤمنين...، أحبّ أنْ يعهد إليك...، أنْ اعلم أنّ كلّ أهوائك لك عدوٌّ يحاول هلكتك، ويعترض غفلتك...( إلى أنْ يقول):...، مُحَصِّنًا أعمالك من العُجْب: فإنه رأس الهوى، وأول الغَوَاية، ومقاد الهلكة...، وخلوتك فاحْرُسْها من الغفلة واعتماد الراحة، وصمتَكَ فانْفِ عنه عِيَّ اللفظ، وخَفْ سوء القالة، واستماعَكَ فارْعِه حسن التّفهم، وقوِّهِ بإشهاد الفكر، وعطاءَكَ فامْهَدْ له بُيوتات الشرف وذوي الحسب، وتحرَّز فيه من السَّرف واستطالة البذْخِ وامتنان الصنيعة، وحياءَك فامنعه من الخجل...، تم لتكنْ بطانتك وجلساؤك في خلواتك... أهل الفقه والورع من خاصة أهل بيتك... واعلمْ أنّ أقواما يتسرّعون إليك بالسِّعاية، ويأتونك على وجه النّصيحة، ويستميلونك بإظهار الشفقة، ويستدعونك بالإغراء والشبهة... فلا يَصِلَنَّ إلى مشافهتك ساعٍ بشبهة، ولا معروفٌ بتهمة، ولا منسوبٌ إلى بدعة... فَيحْمِلَكَ على رعيّتَك بما لا حقيقة له عندك ...»[2].

يجدُ المتأمل في هذا الخطاب التراثي أنّ ثمّة طرفٌ متعالٍ منتج للخطاب ومهيمن على حركيّته، ومهيمن على المرسل إليهبتوجيهه وفق إستراتيجية قولية هادفة تتمثّل في:( النصيحة) باعتبارها (acteperlocutoire ) وهو حدثٌ كلامي مترتب على النطق بتلك الزمرة التي لا نودُّ إحصاءها من الأفعال الأمريّة التي امتلأت بها الرسالة.

---

[1]- السّياق هو:" مجمل الشّروط الاجتماعية المتفق عليها التي تأخذ بعين الاعتبار لدراسة العلاقات الموجودة بين السّلوك الاجتماعي واستعمال اللّغة... وهي المعطيات المشتركة بين المرسل والمرسل إليه والوضعية الثّقافية والنّفسية والتّجارب الشّائعة بينهما".

- Voir : Jean Dubois, Dictionnaire de linguistique et des siences du langage, Larousse 2eme Edition,1999, p116.

[2]- صبح الأعشى، ج195/10 وما بعدها بتصرف.

غير أنّ هذا القول لا يمنع من وجود ملاءمة بين مقام المتكلم الآمر، ومقام المأمور المنفّذ لتعليمات سيّده، فالقناة التخاطبية بينهما لا يحكمها الضيم، بل إنّ جميع حيثيات وملفوظات طرفي الخطاب تحيلان إلى تداول تحكمه علاقة تفاهم تتمثل في:

- طاعة الأمر.
- الاقتناع بالنّصيحة.
- تصديق المتكلم.
- فهم مقصوده ومراده.

وهكذا تنظر التداولية إلى عملية التواصل والتخاطب بين المرسل والمرسل إليه على أنها ملاءمة مقامية بالدرجة الأولى وتفاهم متبادل قائم على أساس الحوار الهادف إلى تبيان المقاصد في هيئة ملفوظات يحكمها سياق معيّن، وعوامل ثقافيّة واجتماعية وفكرية محددة.

وكما قلنا سابقا؛ فإنّ هذه الرّسالة مبنيّة على تحاور شخصيتين اثنتين نافذتين في الدولة، ولكل واحدة منهما سلطة وفاعلية في إصدار القرار وتنفيذه، فهما ليستا من العوام، وبالتالي فإنّ التواصل بينهما نوعيٌّ، والتخاطب الجاري بينهما تحكمه أخلاق معيّنة. أما فيما يتعلّق بأفعال الأمر التي تدلّ في الغالب على وجود طرف متعال مهيمن، فتبرّره السياسة والمصلحة التي يدرك الطرفان متطلبات القول التي تقتضيها، بالإضافة إلى معرفة كليهما بأغراض أسلوب الأمر والدافع إلى استعماله، والمقام الذي يقتضيه إصدار الأمر، ومقاصد المتكلم من إخراج ملفوظاته بحدة وشدة في صورة أصوات منبورة وشديدة التنغيم، ومن أجل هذا الغرض نجد ابن خلدون في مقدّمته يربط لغة المتكلم بنيّته وقصده؛ يقول ابن خلدون:« اعلم أنّ اللغة في المتعارف عليه هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعلٌ لساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام، فلا بدّ أنْ تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل وهو اللّسان، وهو في كلّ أمة بحسب اصطلاحاتها»[1]. ومنه يُعْلَمُ أنّ إخراج الخطاب في صيغة معيّنة كالأمر أو النهي أو الاستفهام أو في أيّة صورة إنشائية أخرى إنما مردّه إلى قصد قائله، غير أنّه ينبغي التنبيه إلى عامل التشويش في العمليّة التواصليّة بين المتكلّمين؛ فكثيرا ما يريدُ المتكلم شيئا ويقعُ اللفظ دون قصده فَيُعَرِّضُ العملية التخاطبيّة إلى شرخ يصعب رَتْقُهُ وتَدَارُكُهُ.

[1]- حسام البهنساوي، أهمّية الرّبط بين التّفكير اللّغوي عند العرب ونظريات البحث اللّغوي الحديث، دط، مكتبة الثقافة الدّينية القاهرة، 1994، ص10-11.

فالأمر في نص القلقشندي السابق جزءٌ منه يفيد الطلب أو الفعل والإنجاز، وجزءٌ منه يفيدُ التحذير والإغراء، وهو في العموم كما يقول ابن خلدون بحسب مقامات المتخاطبين، ويمكنُ أنّ نلخص إفادات فعل الأمر في الرسالة السابقة إلى ما يأتي:

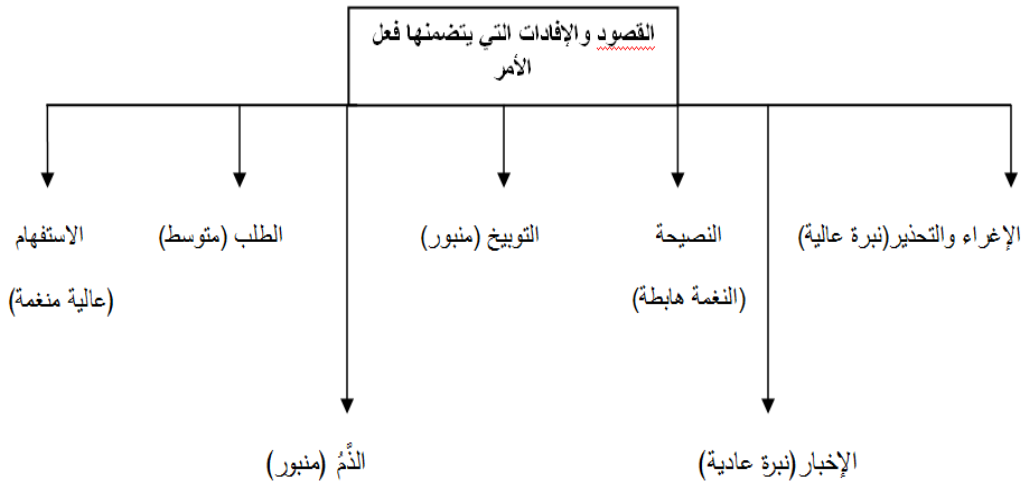


**مخطط يوضح: المقاصد التي يتضمنها فعل الأمر**

## 4- الإمتاع والتأثير في خطاب القلقشندي:

إنّ الوقوف على مدى نجاعة الخطاب وتحقيقه للقصد وإحداثه التأثير في المتلقي يتطلب مراعاة زمان ومكان" المرسِل" وكذلك الجو النفسي والسياق الاجتماعي، بل والإيديولوجي والثقافي ومختلف العناصر السوسيو- لسانية التي كانت تحكم المرسل بوصفه باثا للخبر، كما هو الحال مع القلقلشندي، فلا بد من مراعاة جميع الظروف المحيطة بإنتاج الخطاب،بالإضافة إلى مسألة أخرى تتعلق بمتن" صبح الأعشى" والنظر إليه على أنّه نصٌ أدبي مليء بالدلالات والنصوص الأخرى المتعاقبة فيه، فكل نصٍ هو ذاكرة لنصوصٍ أخرى تقبع بضفاف النص المقروء، ومن هذا التصور تتبدى لنا بعض التساؤلات التي هي في غاية الأهمية بخصوص هذه الملفوظات التي لا حصر لها:

أ- من المتكلم في متن" صبح الأعشى"؟

ب- ما الغاية من خطابه؟

ج- من يتبنى نظام القيم المضمنة فيه؟

د- إلى من يتوجه بخطابه؟

يبدو القلقشندي مُمثِلا لعصره من خلال لونٍ معينٍ من الكتابة" الإنشاء"، ومتكلما بطابع الفن الغالب على تلك الحقبة" السجع". ومستصحبا لكل الصيغ اللغوية المتمثلة في البنى الكلامية: صيغ المبالغة وصيغة التصغير وأفعل التفضيل واسم الفاعل التي تعبر عن ذاتية المتلفظ ووجهة نظره. واستعمال هذه الأدوات الكلامية هو استعمال تداولي نفعي يُحقق وينجز مقاصد المتلفظ. فكل بنية صرفية لها بعدها التّداولي ودلالتها الاجتماعية والسياسية والثقافية، وكل وحدة معجمية تحمل في سياقها قيمة سوسيولوجية، حتى ولو كانت هذه الوحدة المعجمية ظرف زمان أو مكان أو حتى حرف عطف، ونلمس ذلك عند قراءتنا لهذه الفقرة المتعلقة بهذا التركيب اللغوي الذي كانوا يفتتحــون به الرســائل منذ عهد الصـــحابة وهو قولهم:[ أمّا بعد].

وهذا ما نجده في هذه المدونة إذ عبر عنه القلقشندي بقوله:« وكانوا بعد حدوث الدعاء في المكاتبات يُتبعونها بالدعاء بطول البقاء غالبا، فيقال:" أما بعد أطال الله بقاءك"... وكان الناس فيما مضى يستعملون في أوائل فصول الرسائل" أمّا بعد"... ثم قال: فإنّ استعْمَلْتَها إتِّباعا للسلف ورغبة فيما جاء فيها من التأويل أنّها فصل الخطاب فهو حسن، وإنْ تركتها توخيا لمطابقة لأهل عصرك، وكراهةً للخروج عما أصّلوه لم تكن ضائرا. أما الآن فقد ترك الابتداء في الكتب بأما بعد حتى لا يكاد يُعوِّل عليها في الابتداء كاتبٌ من كُتَّاب الزمان، ولا يفتتح بها مكاتبة...»[1].

فالمتكلم في هذه الفقرة هو القلقشندي نفسه، وهو أبو هلال العسكري صاحب الصناعتين الذي أورد الحديث عن هذه الافتتاحية[ أمّا بعد]، وكذلك هو ابن القِرِّيَّة في تخاطبه مع الحجاج بن يوسف الثقفي، وكما ترى فالمتن تتجاذبه أطراف كثيرة في الخطاب والتلفظ، فالذي يتكلم في متن" صبح الأعشى" ليس هو القلقشندي بصفة مباشرة، ولكنّها عنعنة أشبه بعنعنة الأسانيد الحديثية، والغالب فيها أنّها تلفظ بالرواية وليس بتلك الإشاريات المباشرة من قبيل ضمير المتكلم:[ أنا- نحن]، أو ضمير المخاطب[ أنت- أنتم...].

ولو رجعنا إلى المثال السابق ونقلناه بحرفيته دون التصرف فيه لوجدناه الآتي:« وكانوا بعد حدوث الدعاء في المكاتبات يُتبعونها بالدعاء بطول البقاء غالبا، فيقال:" أما بعد أطال الله بقاءك". ونحو ذلك، ثم أضرب عنها بعض الكتّاب بعد ذلك. قال أبو هلال العسكري: في كتابه" الصناعتين: وكان الناس فيما مضى يستعملون في أوائل فصول الرسائل" أما بعد" وقد تركها جماعة من الكتاب فلا يكادون يستعملونها.

[1]- صبح الأعشى، ج331/6- 332 بتصرف.

قال: وأظنهم ألمُّوا بقول ابن القِرِّيَّة– وقد سأله الحجاج عما ينكره من خطابته– فقال: إنك تكثر الرَّدَّ، وتشير باليد وتستعين بأمّا بعد. فتحامَوْها لهذه الجهة...»[1].

والحاصل أنّ القلقشندي استطاع أنْ يمرر خطابه وفق متتالية من الذوات والأنوات، كما أنّ هذه الملفوظات التي بعث بها على ألسنة[ المرسِل] المتعدد:

- العسكري.
- ابن القِرِّيّة.
- الحجاج.

تحمل أحكاما قيمية ممثلة لوجهة نظر القلقشندي، وعندما نُرجع هذه الملفوظات إلى الظروف الاجتماعية والسياسية، ونرجعها إلى سياقها التاريخي نجدها ناتجة عن وجهة نظر شخصية وقناعة ذاتية تدل على تبصر المرسِل[ القلقشندي] بالأمور ودقائقها، فكأنّ القلقشندي كان يتكلم بلسان العصر.

وعند الوقوف عند قوله:[ أمّا الآن..] فنلمس الحاضر الذي هو حاضر القلقشندي وليس زمن العسكري ولا الحجاج، فهذه الوحدة اللغوية الصغيرة[ الآن] التي هي ظرف زمان تنطوي على قيمة اجتماعية وثقافية وأدبية. فالرسائل في هذا العصر لم تعد تستعمل هذه الصيغة، مما يدل على الخروج على سَنن الكتابة المعروفة في العصور التي سبقت عصر القلقشندي، والانسجام والتلاؤم والتواصل مع متطلبات عصر القلقشندي في طرائق الكتابة والتأليف.

وعلى العموم، فإنّ إستراتيجية المتلفظ تعمل على إقناع المرسَل إليه بوجهة نظر المرسِل[ المؤلِّف] وإنْ تطلب ذلك إشراك بعض المرسلين الآخرين[ فعل الرواية] والإتيان بالشواهد على ألسنتهم وبملفوظاتهم، وهنا يكمن فعل **التأثير والإقناع والإمتاع** في خطابات" صبح الأعشى" وذلك باعتمادها على[ الرِّواية التاريخية] أو ما يسمى بـ:[ التضمين] عند البلاغيين العرب.

إنّ متضمنات القول في" صبح الأعشى" تدلُّ على مكانة" الكتابة" في عصر المؤلِّف. ومن أجل هذه الغاية التي يعتبرها القلقشندي:[ نبيلة وسامية وشريفة] كتب كتابه قصد التعليم والإبلاغ بشأن" الكتابة" ومنزلتها الرفيعة، لذلك نجده دائما يعمد إلى توظيف الروابط الحجاجية التبريرية من قبيل قوله:" واعلم حفظك الله"، و" اعلم رعاك الله"، كما يكثر من استعمال:[ لأنّ، لأنّه... والذي نراه...] التي وظيفتها التعليل والإقناع في الخطاب، فهي تستعمل لتبرير الفعل أو لعدمه.

[1]– صبح الأعشى، ج331/6.

لقد كان القلقشندي يكتب موجها خطابه إلى أبناء زمنه، وكانت تلك القيم المتضمنة في صبح الأعشى" تخاطب القراء على اختلاف مستوياتهم، فكل من كانت له القدرة التواصلية مع لغة التراث فهو جدير بأنْ يحظى بمضامين" صبح الأعشى" وفهم وتأويل معانيها البعيدة.

وليس يخفى ما للكتابة من شأنٍ في عملية التخاطب، وإن عدّها البعض لغة صامتة لا تؤدي المقصود كما يؤديه الكلام أثناء التشافه والتحاور بين أطراف الكلام، ومع ذلك فقد اكتسبت" صبح الأعشى" صفة الكتابية، التي بفضلها– الكتابة– يكتسب الخطاب استقلالا ذاتيا دلاليا ثلاثيا، تجاه كل من:

– قصد المتكلم.

– تلقي حضور بسطاء.

– الظروف الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي تنتجها[1].

لقد استطاع القلقشندي أنْ يبني عالما ثقافيا من خلال" صبح الأعشى" متجاوزا الصراع المذهبي والإيديولوجي السائد آنذاك، كما سجل أهمية" الكتابة" باعتبارها وسيلة من وسائل التواصل، واستطاع أنْ يحدث وتيرة حيوية وتفاعلا تداوليا من خلال الشواهد الشعرية والنثرية التي ضمنها كتابه حيث كان يعمل على الإقناع والإمتاع من خلال الاستهلالات التي كان يستهل بها عند كل فصل وباب[ المقدمة المغرية]، بينما يجيء صلب النص أو أُسُّه مليئا بالتصورات والأفكار التي تحملها تلك الملفوظات والخطابات على ألسنة الشخصيات المستعارة من أزمنة سبقت عصر القلقشندي بقرون، ومن هذا المنطلق يتعيّن على المرسل إليه أنْ يتسلح ببعض النباهة والفكر اليقظ حتى تستبين عنده مقاصد الخطاب، بل إنَّ عليه أنْ يدخل هو في عملية حوارية مع تمفصلات النص ومضمراته حتى يملأ فراغاته ويمسك على ما لم يقله النص، وعلى هذا يكون النص كما يقول أمبرتو إيكو U. Eco:« آلة كسولة تتطلب من القارئ بذل جهدٍ تعاضدي جبّار لكي يملأ فراغات" ما لم يقل" و" ما قيل" التي لبثت بيضاء، فإنّ ذلك مما يحيلُ النص حقا إلى مسلّماتية ليس إلا»[2]. فالقارئ الفذ هو من يستطيع فك شفرات النص ويعمل على ملء فراغاته التي تركها مبدعه، بكل ما أوتي من كفاءات ثقافية وتداولية.

---

[1]– ينظر: بول ريكور، من النّص إلى الفعل، ترجمة: محمد برادة وحسان بورقبة، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، مصر، 2001، ص24.

[2]– أمبرتو إيكو، القارئ في الحكاية، ترجمة: أنطوان أبو زيد، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب/ بيروت، لبنان، 1996، ص28.

فنصوص القلقشندي في مجملها مليئة بتلك الفراغات التي تتطلب من القارئ أو الدارس أن يسبر أغوارها ويلج عوالمها ويكشف عن مضمراتهاويتفاعل معها بغية الوصول إلى المقاصد والغايات التي يرمي إليها، فالقلقشندي يعمل دائما على استدراج القارئ أو المتلقي إلى قبول فكرة ما أو توريطه في عملية التأويل فهي مسألة لا يخلو منها أثر أدبي لأن القراءة تؤدي إلى الاستنباط والتنبؤ بما وراء النص.

**خاتمة الفصل:**

نستطيع أنْ نقول في خاتمة هذا الفصل:

– أنّ مدونة" صبح الأعشى" تعد انعكاسا على عصر بعينه، وهو" العصر المملوكي".

– لم تخرج مدونة" صبح الأعشى" عن إطار الكتابة الديوانية المتعارف عليه في ذلك الزمن لا من ناحية الشكل ولا من ناحية المضمون.

– بنية اللغة عند القلقشندي هي بنية تعيد إنتاج الواقع، إذ أنّ لها افتراضات مسبقة وتأويلات في سياق استعمالها، بحيث أنّها وضعت أساسا لتحقيق أهداف وبلوغ غايات معينة، حيث استطاع القلقشندي من خلالها أن يوصل لأبناء زمانه ولعامة الناس كمتلقين أهمية الكتابة ودورها الفاعل في التواصل الإنساني، وأنّها السبيل الوحيد لصناعة الإنشاء.

– اعتبر القلقشندي الكتابة صناعة روحانية لها صورتها المادية المتمثلة في منظومة الأبجديات اللسانية، وبتلك الوحدات المعجمية واللسانية التي ينشأ عن طريقها الكلام والتواصل والتعبير.

– باتت الصنعة اللفظية عنوانا على العصر برمته؛ وآية ذلك البديع الذي أولع به الأدباء والشعراء والخطباء وأهل التراسل والكتّاب في الدواوين، ويظهر ذلك في التفاعل الحاصل بين الكتاب واستعمالهم لهذه الصنعة بأبعادها التأثيرية لدى متلقي الخطاب، وهو الحال الذي نلمسه في مدونة صبح الأعشى.

– موسوعية المدونة وانفتاحها على علوم مختلفة كالتاريخ والجغرافيا والفلسفة والاجتماع والأصول والهوية وغيرها تنم بأنّ القلقشندي قد أخذ من كل فن شيئا، إضافة إلى طريقة عرضه للمادة وترتيبها لخير دليل علىموسوعية الرجل واتصافه بالعلمية.

– تميزت مدونة" صبح الأعشى" في أكثر موضوعاتها بالطابع الإخباري وذلك لأن أكثر أبوابها وفصولها تجنح إلى الخطاب العلمي خصوصا عندما يتعلق الأمر بالحديث عن الصنائع وأحداث التاريخ، والجغرافية وأقاليم الأرض، ولكنّ هذا لم يمنع من تميز فصولها ذات الطابع الأدبي بالبراعة والتفنن في أساليب القول وبراعة الطرح وحُسن الديباجة.

– بنى القلقشندي خطاباته وفق إستراتيجية تداولية حيث يتضح للقارئ أنّ المتخاطبَيْنِ يتقاسمان الأدوار بفاعلية تؤول إلى نتائج منطقية.

–تتضمن رسائل" صبح الأعشى" كلاما بليغا خاضعا لشروط" حسن التأليف" و" جودة التركيب" وأداء" المقاصد"، بينما تبقى" المقامة" قائمة على عنصري الإيهام والتخييل كونها تعيد صياغة الواقع صياغة فنية تقوم على الإنشاء بعكس الرسالة التي تحمل طابع الإخبار والإقناع.

– عمل القلقشندي على استدراج القارئ وإدخاله في عملية تأويلية خصوصا عندما تطرق لقضية الكتابة، فقد عضد آراءه بالاستشهاد عليها بالقرآن والحديث وبمختلف الخطب والرسائل ذات المستوى اللغوي المرموق والأسلوب الأدبي الرصين، وهذا ما يجعل القارئ يتوصل إلى ما يرمي إليه القلقشندي من مقاصد ومعاني مبطنة.

–عملية التواصل والتحاور لا تتم في جوٍّ من العنت وإعمال الفكر وفق قواعد وإكراهات فرضتها قوانين كل علم؛ ولكنّها تتم في جو من التلقائية منحتها إياها سنن التخاطب اليومية. فالعملية التخاطبية لها آلياتها التي يتم فيها مراعاة كل أطراف التواصل( متكلم، سامع، رسالة، ظروف مقامية وسياقية).

## الفصـــــــــل الثـــــاني

## الالتزام التداولي وعقبات المعرفة والتخاطب في" صبح الأعشى"

- **تمهيد**

**المبحث الأول: البعد التداولي للفعل الكلامي في" صبح الأعشى"**

أولا: أفعال الكلام في خطاب القلقشندي.

1- التجليات والتمظهرات.

2- الأفعال الكلامية التقريرية في عينات من" صبح الأعشى".

3- الأفعال الإنجازية الإثباتية.

4- الأفعال الكلامية الإنجازية والتأثيرية.

5- الأفعال الكلامية غير المباشرة.

ثانيا: البعد البلاغي ومنجزات القول في خطاب القلقشندي.

1- الاستراتيجيات التوجيهية في" صبح الأعشى".

2- منطقية الأفعال بين الوظيفة النفعية للغة والمواضعة الاجتماعية.

**المبحث الثاني: إستراتيجية التلميح واستلزام التخاطب في صبح الأعشى**

أولا: الإستراتيجية التلميحية والاستلزام الحواري.

1- الاستلزام الحواري في مدونة" صبح الأعشى"

2- من القوة الحرفية إلى القوة المستلزمة.

3- مظاهر القوانين الغرايسية في" صبح الأعشى"

ثانيا: الاستلزام الحواري والصور البلاغية في" صبح الأعشى".

1- الكناية واستلزام التلميح.

2- الاستعارة وتخطي حدود الحرفية.

3-قوة التمثيل لمسوغات الاستحسان والتلميح.

4- انزياحات المجاز وخروقاته.

**المبحث الثالث: الإشاريات الخطابية وفاعلية التواصل في" صبح الأعشى".**

أولا: الإشاريات وتداولية الخطاب.

ثانيا: أنواع الإشاريات في" صبح الأعشى".

**تمهيد:**

لا يمكن بأي حال من الأحوال استقراء جميع دقائق مدونة" صبح الأعشى في كتابة الإنشا" للقلقشندي، وذلك لأننا أمام تركام معرفي يتسم بالموسوعية، فهذا السِفرُ لا يزال بحاجة إلى دراسات معمقة ومكثفة تسلط الضوء على جوانبه العميقة والمتنوعة.

والجدير بالذكر؛ فإن هذه الموسوعة المعرفية قد جمعت في طياتها الكثير من النظرات الأدبية والآراء النقدية والتي جاءت في شكل توجيهات وتصويبات وتعليمات، ومن أجل هذا السبب، بدا جليّا أن المؤلف– القلقشندي– تبوأ فيه مكانة المرشد والمريد في آنٍ واحد ولكن على ألسنة الآخرين من: خطباء وشعراء وكتاب ووزراء فلا عجب أن تسمعه مرة يقول:" قال صاحب العقد" ومرة" حكى العباس بن أسد"، ومرة:" يُروى"، وتارة أخرى يورد القول في أثناء الخطبة أو الرسالة كمن يريد أن يقول عن نفسه أنّه يتبنى هذا الموقف أو ذاك في تلميح ذكي يستنبط القارئ منه أن هذا الرأي هو رأي المؤلف وموقفه إزاء هذه الفكرة أو تلك.

تضمنت هذه الموسوعة الكثير من العلوم كالبلاغة والشعر والمنطق والجدل والخطابة والتاريخ والجغرافيا وعلوم الفلك والفلسفة والفقه وغيرها من العلوم والفنون الأدبية، وتكشفت عن رجل مُلِّمٍ ساق من كل فن طرفا، ومهتم بالنظم الإدارية والانقلابات السياسية، عالمٍ بالدراسات الاجتماعية، عارف بأحوال عصره وخباياه.

ومن المهم أن نشير في هذا التقديم أن هذه الموسوعة جاءت في شكل:" إخبار" أي أنّها تضمنت إعلانا عمّا فيها بطريق الخبر والإعلان صراحة عن مضامينها الفكرية والثقافية والسياسية في سياق خبري مباشر، اعتمد فيه القلقشندي على كلام العلماء والفقهاء والشعراء في وثوقية لم يحتج فيها إلى الاستدلالات العلمية القائمة على الحجاج والحوار.

ومن أجل هذا السبب نجد مؤلفه يعج بالأصوات المختلفة بينما لا تكاد تسمع له حسا إلا ما جاء في صدر المجلد الأول حيث يقول:« فشرعت في ذلك ...، واستخرت الله...، وسميته" صبح الأعشى في كتابة الإنشا" ...»[1]، وهنا بدا القلقشندي مُتكلما وله حضور بَيِّنٌ، أمّا في بقية الأجزاء الأخرى فإننا نسمع صوته من غير أن نسجل حضوره كأنه الصدى.

[1]– صبح الأعشى، ج10/1 بتصرف.

ونعود مرّة أخرى لنؤكد على حقيقة تتعلق بالقلقشندي ومؤلفه ومفادها: أنه عمل سنين طويلة حتى يخرج للناس هذا الزاد العلمي والمعرفي والثقافي وكان عمله فيه الجمع والرِّواية على لسان الآخرين، والكتابة مما تميله ذاكرته من الأقوال والأخبار التي استوعبها من مطالعاته وفهوماته.

إن ما نقله القلقشندي من أقوال وأخبار حملت في ثناياها مقاصده، سواء كانت صريحة أو ضمنية. فلم يعد الإخبار إذاً مجرد« القصد الوحيد عند المرسِل، وإنْ عددناه واحدا من مقاصده، فليس القصد الرئيس، إذ يختبئ وراءه قصد آخر، اختار المرسل الإستراتيجية التلميحية للدلالة عليه، وهو إمّا الرفض أو التهكم، ولذلك لم يستعمل المرسِل صيغة الخطاب المباشر»[1]. كما أنّ الكلام محكوم بمعايير عديدة منها الصدق والكذب، يقول أبو حامد الغزالي:« الكلام وسيلة إلى المقاصد فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعا..»[2]. أي أنّ كل كلام يحمل مقصد صاحبه يُتوصل إليه بمعياري بالصدق أو الكذب معا.

ومبدأ التلميح أصيل في التراث العربي، يقول الرازي:« إنّ اللفظ إذا وُضع للمسمى انتقل الذهن من المُسمى إلى لازمه»[3]، وهو عند عبد القاهر الجرجاني، معنى المعنى، يقول:« إن المعنى هو المفهوم من ظاهر اللفظ، أما معنى المعنى فهو أن تعقل من اللفظ معنى، ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر»[4]. أمّا السكاكي فقد تميز بحثه في بالنظر في ضوابط خروج بعض الأفعال اللغوية في قانون الطلب عن معناها إلى معان أخرى كما يقتضيه السياق[5]، الذي يعد من العناصر المهمة في فهم المقاصد والمعاني المبطنة. وبما أنّ مدونة" صبح الأعشى" تعج بالخطابات التراثية على اختلاف أنواعها، فإننا بصدد الوقوف عند أبرز الملامح التداولية التي ذكرها هانسون في تصوره لدرجات التداولية الثلاث( أفعال الكلام، الاستلزام الحواري، الإشاريات) ومدى تجليها في موسوعة" صبح الأعشى" للقلقشندي.

---

[1]– الشهري، استراتيجيات الخطاب، مرجع سابق، ص367.

[2]– أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، تحقيق: الإمام حافظ العراقي، ج3، د ط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، منشورات محمد علي بيضون، دت، ص185.

[3]– محمد بن عمر بن الحسين، فخر الدين الرازي، المحصول في أصول الفقه، ج1، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1988، ص219.

[4]– عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، مراجعة وتصحيح الإمام الشيخ: محمد عبده، د ط، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1981، ص203.

[5]– ينظر: الشهري، استراتيجيات الخطاب، مرجع سابق، ص375.

## المبحث الأول

## البعد التداولي للفعل الكلامي في" صبح الأعشى"

### أولا: أفعال الكلام في خطاب القلقشندي

#### 1- التّجليات والتّمظهرات:

تتضمنُ مدونة صبح الأعشى نماذج كثيرة من فنون القول، يمكنُ إدراجها ضمن نظرية أفعال الكلام التّي تعنى بالمتكلمين وأحوالهم ومقاماتهم، والتي تراعي وترصد الخطابات والملفوظات في أسيقتها الاجتماعية واللغوية.

ويمكن التّنبيه على أنّ نظرية أفعال الكلام هي من أبرز مقومات الدرس التداولي، لذا فقد كان اهتمامنا بذلك الجانب الإجرائي الذي يحاول تلمّس واستجلاء ظلال هذه النظرية في مدونة" صبح الأعشى" الغنيّة بالخطابات الفرديّة والجماعية.

وقبل الخوض في سوق الشواهد والعينات، لا بد من الإشارة إلى أن هذه الشواهد التي هي خطابات أو مجموعة( ملفوظات) لا يمكن عزلها عن قائلها، ولَمَّا كان قائلها مجموعة" ذوات" ونقصد بهم الشعراء والخطباء والحكماء والكتاب والمؤرخون والفقهاء وأهل التفسير والنحو والأصول، بات من اللازم علينا التسليم بأننا أمام جمع غفير من منتجي" الخطاب"، وهذا مؤداه إلى أن هذه المدونة مبنية بالأساس على الجمع والتقمـيش من التـراث الـذي سبـق زمن القلقشندي ومن المعطى الذي عاصره وعايشه. وبالتالي فنحن إزاء" أصوات" عديدة لا صوتٍ واحدٍ. ولكننا بالمقابل إزاء مُؤلَّفٍ واحدٍ لمُؤَلِّفٍ وحيدٍ هو القلقشندي نفسه.

فهذا النص من إنتاج القلقشندي وإن تعددت الأصوات بداخله والعلة الرئيسية فيه هي:" قصد المؤلف"، فهذه الموسوعة برمّتها هي في وعي المؤلف وهي في الأخير مُحصلة عن القلقشندي وعن عقل القلقشندي وفهم القلقشندي وتأويل القلقشندي وعصر القلقشندي.

تتحقق القراءة الصحيحة إذاً؛ بإعادة تشكيل التجربة الشعورية للمؤلف من خلال المتلقي عبر ما يكشف عنه النص من مخزون ثقافي واجتماعي وسياسي. فهذه" الذوات" هي صورة انعكاسية للمؤلف، فالقلقشندي هو الذات المتعالية التي من شأنها التوجيه والأمر والنهي والتعجب والاستفهام والنقد، وقد دافع« أ. د. هيرش" بقوة عن مفهوم إعادة البناء النفسي للتجربة الشعورية للمؤلف»[1]، وأن معناه اللّفظي

[1]- محمود عكاشة، النظرية البراجماتية اللسانية ،ط1، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، 2013، ص52.

قد يكون واضحا وقد يكون غامضا ويحتمل وجوها متعددة، وأن النص يقبل أن يعيد القارئ إنتاجه، وأنه يتضمن قصدا أو معنى واحدا لأنّه الأصل الذي عمد إليه المؤلف وحاول بلوغه وتقديمه إلينا[1] كمتلقين للخطاب.

ومن خلال هذا التّفسير يُمكن إعادة الاعتبار للمؤلف باعتباره المنتج الأول للنص أي أنه هو"مُبدعهُ" وإن كانت حمولته الدلالية متنوعة الروافد، وهذا هو الحال مع مدونة" صبح الأعشى" ففيها من الفقه ما فيها، ومن الفلسفة والجدل والخطب والرسائل والاجتماع وسياسية الحكم والسلطان والرعية.

لقد جعل القلقشندي القارئ يتواصل ويتفاعل مع ثقافات متنوعة وذلك من خلال كفاءته اللغوية، وهو بالمفهوم التداولي اللساني يعتبر مرسلا وباثا وباعثا لأنّه استطاع الأداء اللغوي من خلال عربيته الفصيحة واستطاع الحجاج والإقناع بما معه من كفاءة ثقافية ونفسية يمكن من خلالهما نقل وبث شعور الأمة المسلمة إبان تخبطها في أتون الطامعين من المغول والروم ومَنْ وَالاهم من أصحاب النفوس الميتة والهمم الساقطة ممن باع ذمته من أبناء هذه الأمة.

إنّ القول إذن بعدم الملاءمة بين المتن وقائله أو حاكيه أو راويه فيه إقصاء أو إبعادٌ غير مبرّرٍ وانتقاص لوظيفة المُنتج وأيًّا يكن من أمرِ هذه النظرة أو المقولة فإن التماهي بين المنتوج" الأثر الأدبي" ومُنتجه" المُؤلف" يبقى ظاهرا وجليا في أغلب الأعمال الأدبية والفنيّة. والترسيمة التالية يمكن أن نستشف من خلالها علاقة المُؤلِف بالأثر المُنتَجِ وبالمتلقي وحتى بالذوات الكائنة داخل المتن برمته:

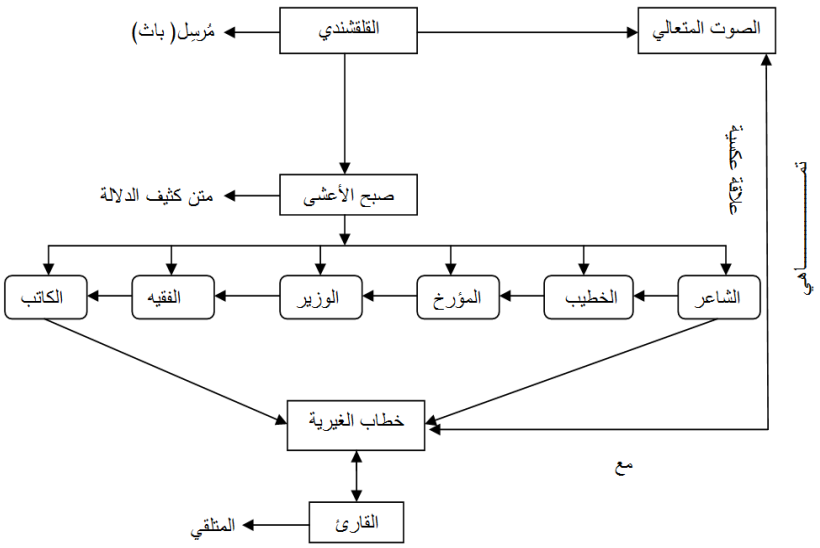


[1]– ينظر: محمود عكاشة، النّظرية البراجماتية اللّسانية، السابق، ص53.

## 2- الأفعال الكلامية التّقريرية في عينات من" صبح الأعشى":

### 2-1- العنوان:

اتسمت موسوعة القلقشندي- كما قلنا- بالتنوع والتعدد، وقد اقتضى هذا التنوع أن تكون الموسوعة قد رَبَت على الأربعة عشر مجلدا، وأُختزل هذا الفيض من الكتابة في العنوان الآتي:" **صبح الأعشى في كتابة الإنشا**".

وهذا العنوان هو من اختيارات القلقشندي نفسه. يقول في المجلد الأول:« وسميته" صبح الأعشى في كتابة الإنشا"»[1]، فهذا القول هو تركيب إضافي ثم شبه جملة تتكون من حرف جر واسم مجرور وإضافة. وهو العتبة الأولى التي يواجهها القارئ. وهذه الجملة هي: إخبار أو ما يسميه أوستين بالفعل التقريري Acte constatif وأهم ما يميزها أنها اسمية، والجمل الاسمية كما هو معهودٌ في عرف النحاة تتميز بالثبات.

وإذا نحن استقرأنا فحوى" العنونة" أو بصيغة أخرى أردنا أن نلج إلى عوالم القلقشندي النفسية في اختياره لهذه التسمية؛ أي بحثنا في الدوافع وراء هذا العنوان، ومنها استنبطنا مقصدية الكاتب سلمنا بأمور منها:

أ- أنه معطى جاهز في بنيته الصرفية الإيقاعية، ونقصد أن هذا وليد العصر الذي عاشه القلقشندي. إنها صناعة لفظية فرضتها راهنية الكتابة آنئذ[ عصر الضعف].

**ب**- يعتبر العنوان البوابة الأولى لأيّ عمل فني؛ إذ هو من المتعاليات النصية التي يلتقيها القارئ لأول وهلة عند ممارسته لفعل القراءة. ويوصف العنوان بأنّه العتبة الأولى والفاتحة لشهية ومخيلة القارئ، إنّه محطة تحمل القارئ على التوقع، وتستفزه لأنْ يستجلي عوالم ما بعد العنونة وخوض غمار عملية التفسير والتوقع.

**جـ**- تضمن العنونة هوية الكتاب كله وتدخله في إطارٍ زماني ومكاني، وتمنحه صبغة سوسيو- ثقافية.

**د**- " صبح الأعشى في كتابة الإنشا" عبارة تمثل النص الموازي Para texte وتُعد رهانا منهجيا سيميوطيقيا راهن عليه الكثير من النقاد الغربيين واعتبروه بوابة إلى الضفاف العميقة التي يتوارى فيها

[1]- صبح الأعشى، ج10/1.

المعنى، ومن هؤلاء نذكر جيرار جينيت G. Genette الذي وصفه بـ: العتبة Seuil[1]، وبورخيس J. L. Borges الذي عدّه بهوًا Vestibule يتيح لأيٍّ كان إمكانية الدخول أو الرجوع القهقري. إنّه" العنوان" منطقة متذبذبة Zone indécise تتراوح بين الداخل والخارج. وإذا كان النص دون نصٍ موازٍ كالفيل دون فيّال يسوسه ويوجهه يمثل طاقة محدودة، فالنص الموازي Para texte دون نصٍ هو فيّال دون فيل إنه استعراض غبي[2].

وأيًا يكن من أمر العنونة وأقوال النقاد فيها، تظلّ المَعْلم الأول لأيِّ نصٍ أو مؤلف، إنّها خطاب مستقل بذاته ومقام يستدعي قولا أو أقوال عديدة.

**هـ-** في عبارة" صبح الأعشى في كتابة الإنشا" طاقة إيجابية، فالصبح يشير للنور والضياء، والأعشى الذي لا يرى يفرحه أن يرى النور، ونوره في الكتابة والإنشاء، في الإخبار والبوح والتعليم، وهنا نسجل التوازي والتقابل الذي أحدث وظيفة انفعالية Fonction émotive لدى المُخاطَب. ومن الجميل أن نشير إلى أن الأمة العربية في زمن القلقشندي كانت أمة قارئة أي أن نسبة الأمية فيها منعدمة أو تكاد تكون كذلك، وأمامنا في عبارة" العنونة" أثر عرفي يتمثل في" الكتابة" التي هي نقيض الأمية، وهذه طاقة إيجابية ثانية وإنجاز عملي يَعضُد نظرية أفعال الكلام التي جاء بها أوستين وسيرل.فالكتابة أو الإنشاء أداء فعلي يأتي بعد القول ويتحقق ويتجسد في الواقع ويترك أثرا طيبا وثمرة نامية وكثيرا ما تكون الكتابة بعد الإملاء لتحقق للملفوظات وجودها الحقيقي والفعلي.

**و-** يكتنف الأعشى الغموض في رؤيته البصرية وفي قوته الباصرة فيتعثر حتى يجد دليله في الكتابة فهي صُبحُه ونوره الذي يكرر فيها نظرَهُ ويحقق فيها وُجوده. ويستفاد من هذا التركيب أن محتويات المتن:" متن صبح الأعشى" عبارة عن توجيهات لِمنْ لم ينل حاجته من علم بعينه سواء كانت الكتابة أو غيرها، أما الفعل الإنجازي فيمكن تصنيفه في هذه التقريرة الصريحة المعلنة في توجيه صاحب الحاجة إلى حاجته رغم العوائق المتمثلة في عدم الرؤية مثلا" حال الأعشى"، وتكمن القوة الغرضية لهذا الفعل الإنجازي في التحدي الذي يُحدثه الصبح فسماه" صبحا" ولم يذكر النور لأنّ ذكره من قبيل تحصيل حاصل.

---

[1]- Voir: Gerard Ggenette, Seuil, édition seuil- France, 1987, p07.

[2]-Ibid, p08.

**3- الأفعال الإنجازية الإثباتية:**

تحدث القلقشندي عن الكتابة وفضلها، وما يمكن أن يحققه طالبها ونائلها فقال ما معناه: إنها منزلة شريفة، وأورد أخبارا عنها في ذلك:« وأبلغ من ذلك كله أبو إسحاق الصابي صاحب الرسائل المشهورة، كان على دين الصابئة مشددا في دينه، وبلغت به الكتابة أن تولى ديوان الرسائل عن الطائع والمطيع وعز الدولة بن بويه: وجهد فيه عز الدين أن يُسلم فلم يقع له، ولما مات رثاه الشريف الرضي بقصيدة فلامه الناس لكونه شريفا يرثي صابئيا، فقال: إنما رثيت فضله..»[1].

ههنا قضية متعلقة بالكتابة* أوردها القلقشندي في سياق الإثبات فأسماها:" الكتابة" والمراد" رتبة في ديوان السلطان"، منزلتها شريفة تنافس الناس لنيلها. وفي ضمن هذه القضية تولد موقف المؤلف الداعم والمُثبت لدور الكتابة في المعاش والترقي في المنزلة والشرف حتى إنّ صاحبها الصابئ استحق الرثاء ممن هو أعلى منه منزلة (الشريف الرضي) ثم تأتي الملامة بوصفها فعلا كلاميا أنجز فعلا متمثلا في"ردة فعل" الناس فنتج لدينا موقفا حياتيا مضادا جاء في سياق الاستفهام الذي يُراد منه الاستنكار: كيف لشريف أن يرثي صابئيا( وضيعا)؟. لكننا بالمقابل نجد القلقشندي يصور لنا حسن التخلص من الملامة في القول الذي ساقه بأدوات بسيطة وقرائن صريحة لكنّها متناهية في الإقناع والحجاج والرد المفحم: يقول القلقشندي في عرضه لهذا الموقف:« فقال: إنما رثيت فضله»[2].

هذه العبارة هي إخبار وجواب لا يصدر إلا عمن خَبِر مرامي الكلم ومواضعه، فقوله:

- إنما رثيت فضله ـــــ يستلزم: أني لم أرثه هو ولكني رثيت خصلة فيه.

تماما كمن قال:

- أنا لا أمدح فلانا ولكن كرمه.

وهذا يستلزم أنني أفرق بين الحامل والمحمول، والصفة والموصوف.

وهذا الذي نقوله هو من منجزات القول ومن عبقرية العربية التي استطاعت بسياقاتها اللامتناهية وجملها اللامحدودة أن تكون لغة الحوار والحجاج والجدل. فالمثال الذي ساقه القلقشندي هو نقطة من بحر كتابه" صبح الأعشى" الذي يعتبر مدونة فذة تشهد للمؤلف بقدرته ونبوغه في مختلف المجالات الأدبية والسياسية والاجتماعية.

---

[1]- صبح الأعشى، ج1/41-42.

*: لا نقصد بالكتابة الخط باليد فحسب، ولكنها وظيفة في الديوان في عهد الكاتب.

[2]- صبح الأعشى، ج1/42.

في المثال السّابق اعتمد المؤلّف في سوق الجملة على مؤكّد واحد هو:" إن" ثم أردفه بـ:" ما" الكافة، ومع ذلك بدت القرينة أنها تنطوي على حمولة الرد والمخالفة وكف السائل عن غرضه الذي يريده، فجاءت واضحة تماما كصبح الأعشى، واضحة في الرد البليغ بالإخبار.

وإذا رجعنا إلى جملة القلقشندي وقفنا على دلالة تقريرية وإن تضمنت مؤكدا؛ إلا أنها تبقى– حسب نظرية أفعال الكلام– في باب التقريريات. إذن فالجملة الإخبارية:« إنما رثيت فضله»[1] خبر ابتدائي في عرف البلاغة لخلوه من أدوات التوكيد. فإن قال قائل: إنّ به مؤكدا قلنا هو مكفوف عن العمل بما الكافة، وعليه فهذه الجملة هي جملة تقريرية بامتياز، يمكن صياغتها على النحو التالي:

" أنا رثيت فضله"، وبهذا يمكننا أن نستعمل آلية الاستبدال فنقول:

أ– أنا رثيت فضله.

ب– " إنما رثيت فضله".

جـ– إنما رأيت فضله.

د– إنما قصدت فضله.

هـ– إنما أردت فضله.

المخبر عنه في هذه الجمل والتراكيب هو: الفضل لا الشخص؛ أي إن الثابت والمقرر والمنجز من هذا الخطاب هو: الفضل الذي تميز به مهما تنوعت أدوات الخطاب وقرائنه النحوية الدالة على الاستبدال.

فالخبر الذي انطوت عليه جملة القلقشندي هو– كما قلنا– خبر ابتدائي لأن المرسل إليه المعني بالإجابة لم يكن بنظر المرسل سوى مُغْرِضٍ أو مكابر، وهنا تأتي الوظيفة التعبيرية التأثيرية للكلام والمتكلم، فلم يشأ القلقشندي مثلا أن يولي سامعه أكثر من أن يقول له في لامبالاة:" إنما رثيت فضله" في سياقٍ يُستشف منه أنّ السامع لم يفهم قصد المرسِل.

يحمل الخطاب نية المرسِل ويظهر ذلك من خلال النبرة التي استعملها المتكلم، ففي هذه النبرة L'intonation شيء من الميل إلى تخطئة المخَاطَب تجلت في هذه الثقة الظاهرة لدى المتكلم، وفي هذه السهولة والمرونة والتي لا تتأتى لكل واحد، خصوصا إذا كان المقام مقام تواصل Acte communicatif.

[1]– صبح الأعشى، ج42/1.

ومن جهة ثانية، إذا نظرنا إلى عبارة القلقشندي نظرة بلاغية وجدنا أن علاقة الجوار بين وحدات الجملة غير مبررة، وأن هناك علاقة غير مألوفة بين ألفاظ هذا الخطاب، فهي وحدات معجمية لم يُعهد تلازمها من قبل. إن في هذا التركيب غرابة وفرادة، فالألفاظ من حيث هي ألفاظ؛ أي من حيث هي مادة صوتية ومعجمية لا يحمل أي نشازٍ في البنية أو الصوت أي أنها ألفاظ حقيقية لكن علاقتها بضمائمها مجازية. فالذي يُرثي هو الميّت، فكيف إذاً" يُرثى الفضل" الذي هو قيمة معنوية وفضيلة في الإنسان فكأن الشخص حيٌّ بشخصه فقط، أما معانيه فميّتة. وهذه الصورة الاستعارية المجازية زادت في بلاغة القول وفي قوته التأثيرية والتبليغية لدى السامع.

صاغ القلقشندي عبر هذه المنظومة الكلامية" صبح الأعشى" وجهات نظره كذاتٍ متعالية أو ناطقة عبر ألسن مختلفة داخل المتن. ومجموع هذه الأمثلة التي سقناها تمثل أفعالا كلامية إثباتية تقريرية، قوتها الغرضية هي التأكيد على فاعلية الصوت المتعالي والمتناغم في الوقت نفسه مع بقية الأصوات داخل المتن:

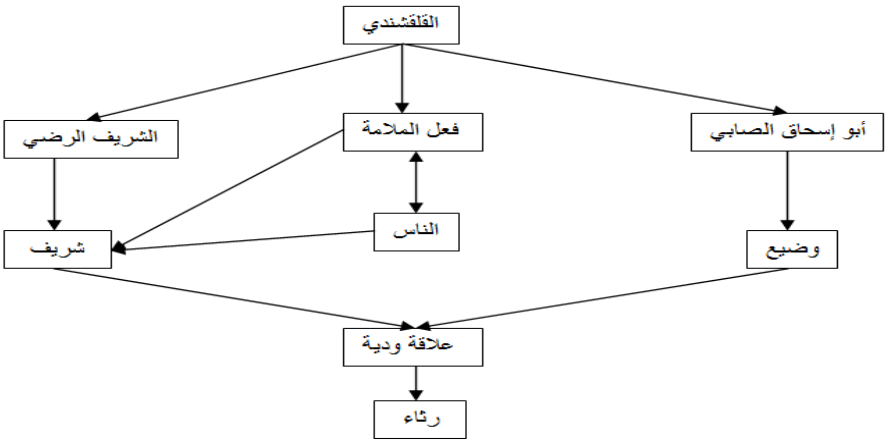


**مخطط يوضح: بنية الخطاب الكلية من منظور تداولي( تحليل العينة من: صبح الأعشى)**

بعد أن أوردنا الشاهد المتمثل في الجملة: « إنما رثيت فضله»[1]

بدا أنها: – جملة مستوفاة الأركان.

– وأنّها ذات معنى مفيد.

– وأنّها ذات بنية معجمية وصرفية وصوتية سليمة.

– وأنّها ذات بعد بلاغي.

[1]– صبح الأعشى، ج42/1.

– وأنّها تمثل إخبارا وحجاجا في نفس الوقت.

وبهذا تكون منضوية في ما أسماه" أوستين" ضمن سلسلة أفعال الكلام: أي أنّها فعل قولي( لغوي أو لفظي) acte locutoire، لأنّها حققت تلك الشروط الآنفة الذكر، أما الأفعال المنجزة من خلالها( الفعل المتضمن فيها) فهو: معنى المخالفة:

– عدم رثاء الشخص الوضيع كما يتوهم العذّال.

وهذا ما أنجزته العبارة بالفعل حيث حققت: الإجابة عن السؤال أو رفع التوهم ودفعه، وهذا بحدِّ ذاته فعل إنجازي تبدَّى للمخاطب Acte illocutoire من خلال رثاء محامد ومناقب وأفضال أبي إسحاق الصابي صاحب المنزلة الرفيعة في ديوان الإنشاء.

وعندما نجيء إلى المُخاطَبِ أو السامع، وهو هنا" الناس" الذين صدر منهم فعل متمثل في:" الملامة" فإننا نجد آثار القول السابق وما خلّفه من ردة فعل لديهم، فنسجل أثر الفعل الناتج عن القول، أي ما تركته عبارة القلقشندي من تذمر أو قبول واستحسان أو استهجان في عقولهم وضمائرهم؛ وهذا ما يسمى في نظرية أفعال الكلام بالفعل التأثيري لأقوال المتكلمين وأثره لدى المتلقي Acte perlocutoire، ومن هذه الأبعاد الثلاثة لجملة القلقشندي:" إنما رثيت فضله" تكون العملية التواصلية قد تمت مستوفية القوة الإنجازية والقوة التأثيرية والقوة التبليغية.

**4– الأفعال الكلامية الإنجازية والتّأثيرية:**

يرمي القلقشندي من خلال مؤلفه:" صبح الأعشى" إلى تثبيت وُجهات نظره لدى القارئ؛ تلك النظرات التي اقتنع بها في مسيرته العلمية وأراد أن يعرضها في شكل تقريريات Actes constatifs لأنّها تصف العالَم الخارجي وتقدم أخبارا عنه، ولكن المُتحرِّي لمضامين أقواله يستشف قراءات أخرى لديه أراد تمريرها من خلال الأحكام التي يطلقها على بعض القضايا التي شغلت تفكيره من قبيل: الحكم والسياسة والأخلاق والتربية...، وهي قضاياتتطلب صلابة رأي وقوة وحجة وعزيمة تذهب بصاحبها مذاهب مختلفة وتورده موارد شتى وتُصدره مصادر عدة. وهذا مُشاهَدٌ في البشر عموما، فكثيرا ما يتواضع الناس على مُسلَّمة سنوات عديدة ثم يجئ النقض والهدم حيث يظهر عُوارها ويَبين عيبُها من خلال ما يعرف بآلية الاستدراك الذي هو وليد التمحيص وطول النظر والتجربة.

وكذلك الحال مع القلقشندي في مؤلفه:" صبح الأعشى"، فهو كثيرا ما يطلق الأحكام على القضية على اعتبار أنّها مُسلَّمة لدى الجميع؛ ولكنّها في الوقت نفسه ليست إلزامية بل تدل على التقييم أو التوجيه والنّصح.

يقول القلقشندي:« وقد ثبت في العقول أن البناء لا يقوم على غير أساس. والفرع لا ينبت إلا على أصل، والثمر لا يُجتنى من غير غراس..»[1].

فهذه العبارة– كما ترى– تندرج ضمن الأفعال الدالة على الحكم Verdictifs، ولا يجد المتلقي إزاءها إلا أن يسلِّم بصحتها لأنها متولدة عن المنطق وعن التجربة والمشاهدة. إنها حقيقة ذات وجهين:

أ– عرفية.

ب– منطقية.

ولكن ينبغي البحث عن مدى جدارتها وفاعليتها في الحياة، أي مدى إنجازيتها وتحولها من كونها مجرد قولٍ إلى كونها فعلا وحركة وإرادة وسعيا. ومنه يتولد عن عبارة القلقشندي ما يأتي:

**فعل الإغراء:** ومثاله:

– من أراد الثمر فليغرس.

– من أراد الولد فليبتغ النكاح.

– من أراد البناء فليوطد الأساس.

فهذه جمل شرطية بمقدمات ونتائج، وسبب ومسبب وعلة ومعلول، وهي متولدة من فهم المتلقي، وهي غيرما نطق به القلقشندي، ولكنها نظائر مقولته فكأنّها خرجت منها وهي أشبه بالحاشية على المتن:

– " البناء لا يقوم على غير أساس"⟵ من أراد البناء فليوطد الأساس.

– " الفرع لا ينبت إلا على أصل" ⟵لا يكون الولد إلا من نكاح.

– " الثمر لا يجتنى من غير غراس" ⟵ من أراد الثمر فليغرس.

لقد بنى القلقشندي كلامه هذا وفق مسلمات موجودة بالقوة في ذهن كل متلقٍ، فسياق كلامه وإن خلا من الإنشائية التي يراد منها فعل التأثير إلا أنّ حجته لا تكاد تُقاوم أو تُرد، ولو كان المتلقي ممن ألف الجدال وتمرَّس فيه؛ وذلك لأن القضية الكلامية التي أثارها القلقشندي خرجت من كونها معنى حقيقيا إلى معنى منجز موجود بالقوة؛ وبالتالي فهذا المقالُ يناسبُ جدا المقام، وهذه الثنائيات التي قصدها القلقشندي هي برهان قاطع على قوة الحجة، ولذلك فإن السياق في عبارة القلقشندي، أو الخطاب يحمل مقصدية لا تقبل تأويلات عديدة لأن القارئ سيتولد عنده المعنى بالحس والشعور: أن هذه المقولة لا تقبل النقض، فالمفهوم واضح وإن تغيرت البنية التركيبية للكلام.

[1]– صبح الأعشى، ج08/1.

المراد من كلام القلقشندي هو الإقناع Persuasion عن طريق سَوْقِ الأمثال مباشرة؛ فهذه الألفاظ التي استعملها في رسالته تصل إلى المتلقي بحرفيتها لتفسر فكرة بعيدة عن التعقيد، فالألفاظ فيها مكتفية بدلالاتها الصريحة دون أن تذهب بقارئها إلى المجاز أو الانزياحات التي تذهب به في متاهات التأويل. وبهذه المقابلات التي استعملها القلقشندي لفت انتباه المُخاطَب وشدَّ على مسامعه وأشركه في تبني الفكرة التي يدافع عنها. فصار المتلقي– كما في مقولة السرد– منتجا ثانيا للنص، ومتورطا من حيث يشعر أو لا يشعر في إنجاز مواقف قولية وكلامية تارة بالتأكيد وتارة أخرى بالإقرار والاعتراف.

هذه المقابلات[1] التي استعملها القلقشندي فرضت جوا من الإقناع والتصديق الصريح لدى المتلقين. والمتتبع لطرح القلقشندي في مؤلفه" صبح الأعشى" يلاحظ أن القضايا التي دافع عنها تتماشى مع ما يُدينُ به الإنسان المعاصر من مسلّمات في منظومة القوانين أو الفقه والتشريع. ورغم أن هذا المُؤَّلف قديم نوعا ما بالنظر إلى زماننا إلا أن القلقشندي قد صَدرَ فيه عن روح المفكر الذي لا يُسلّمُ للتقليد الأعمى والجمود؛ وإن جاءت عبارته( أسلوبه) مطابقة لجوِّ الكتابة السائد في عصره.

إن هذا التقابل الذي أجراه القلقشندي في عبارته يحمل قوة داخلية إخبارية من شأنها أن تُشِع في نفس المتلقي قبول محتوى العبارة والانصهار معه بالتوافق والانسجام والارتياح والشعور بالرضى والتقبل لمفهوم العبارة، ويمكن أن نورد هذا التقابل على النحو التالي:

- البناء ←——— الأساس.
- الفرع ←——— الأصل.
- الثمر ←——— الغِراس.

فهذا التّقابل أدى إلى الوضوح والتصريح بالمعنى المراد، وأفضى إلى تماسك وانسجام وتضام بين وحدات الكلام؛ أي أنّه عاملٌ داعم وفاعل على مستوى البنية النصية للقول. فقد أراد القلقشندي من خلال هذا النسيج القولي إلى التوصل إلى الكيفية المثلى في الوقوف على العبارة التي تنفي عنها كل الشبهات التي قد تراود ذهن المتلقي، ولم يبق لسامعه عذر في عدم تقبل ما يقول.

[1]– نقصد بالمقابلات: اللّفظ وما يشاكله ويعضده في مقولة القلقشندي وسيجيء قريبا توضيح ذلك.

وإنّما ساق القلقشندي هذا الشّاهد العقلي وعضده بأدلة الحسِّ ليؤكد على فكرة كان ساق لها شاهدا من الشعر وهي قوله:« .. والمقلِّد لا يوصف بالاجتهاد، وشتان بين من يَعرِف الحكم عن دليل ومن جمد على التقليد مع جزْم الاعتقاد.

ولم أرَ في عيوب الناس شيئا كنَقْص القادرين على التمام»[1].

أسس القلقشندي خطابه على سلسلة من الملفوظات التي تفيد حدثا كلاميا مُنجزا في الحياة، وتَضمَّن هذا الخطاب نفسية وشعور القلقشندي، فكأنّه ينفي عن نفسه أن يكون مقلدا، ودلل على أنه ممن يعرف الحكم عن دليل، ونفي الاجتهاد عن المقلد. وبهذا يكون كل من عَلِم الحكم دليل: أي كل من كانت لديه آلة الاستنباط متوفرة فهو ينخرط في قائمة المجتهدين، وكل من قلّد فهو أبعد ما يكون عن الاجتهاد وأقرب إلى التقليد.

ثم اقترض القلقشندي خطابا يدخل في ضمن الملفوظات الإنشائية ذات الطابع التأثيري والتعبيري ليرسخ فكرته لدى المتلقي، فتقاطع مفهومه وملفوظ المتنبي في فكرة واحدة:

ولم أرَ في عيوب الناس شيئا كنقص القادرين على التمام

فالمُحيِّر في أمر هؤلاء– برأي القلقشندي– أنّهم تمسكوا بالتقليد ولم يجاوزوه إلى آراء وفُهوم غيرهم، وظلوا حبيسي الرؤية الأحادية القائلة بالتقليد، والأكثر من هذا" مع جزم الاعتقاد" أي التعصب للرأي، وهو بلغة المتنبي: زعم باطل وزيف ظاهر، فمن يدّعي منهم التمام أو إدعاؤه القدرة على التمام فلينظرْ: فإن النقص جارٍ عليه وعلى أحوال خلقِه معاشِه وافتقاره...

وهنا مقارنة بين الخطابين: الخطاب الشعري والخطاب النثري المباشر التقريري الذي يمتح من فنون القول النثرية الأخرى. فالتواصل والتفاعل في بيت المتنبي سائغٌ وجارٍ مجرى المثل نظرا لما يتيحه الشعر من جمالية قلَّ نظيرها في الكلام العادي، فالشاعر« يتميز بقدرة ذهنية من نوع خاص، فإذا كان البشر العاديون يعبرون عن أفكارهم تعبيرا مباشرا يتوقف عند الحدود الدنيا للإفهام، فإن الشاعر يعبر عن أفكاره تعبيرا متميزا عن طريق ما يحدثه في هذه الأفكار من صياغة خاصة تتجاوز مرتبة الإفهام إلى مرتبة التأثير»[2]، فالشاعر أحيانا يجنح إلى استعمال المفردات والتراكيب ذات الطابع الرمزي والتأثيري؛ نظرا لما

[1]– صبح الأعشى، ج08/1.

[2]– جابر عصفور، الصّورة الفنّية في التّراث النّقدي والبلاغي عند العرب، ط3، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 1992، ص321–322.

تحدثه في نفس المتلقي، فما يتوصل إليه المتلقي بنفسه لا يمكنه الاعتراض عليه، وبالتالي يحدث لديه نوع من الاقتناع.

فبيت المتنبي الذي تناوله القلقشندي ليمثل الدليل على فكرته؛ ومقتضى كلامه يدخل ضمن الأفعال الكلامية غير المباشرة حسب الاصطلاح التداولي، فهو لا يحيل إلى المعنى الحرفي بل إنه يعطي المعنى مغلَّفًا بظلال الكلمة وما تحمله من كثافة دلالية، فالسياق يفرضُ منجزات عديدة:

أ- قصد المتكلم.

ب- قدرات المتلقي اللغوية والثقافية.

جـ- محاذير التأويل القريبة والبعيدة.

د- منجزات الكلام الفعلية.

هـ- تفاعل المتلقي أو المخاطب L'intéraction

إن بيت المتنبي يدخل ضمن سياقات القلقشندي التي تضمنها كتابه" صبح الأعشى" فلا غرابة إذن أن يكون واحدا من خطابات القلقشندي الداعمة لمقتضيات قوله.

**5- الأفعال الكلامية غير المباشرة:**

على الرغم من أن" صبح الأعشى" مدونة علمية جمعت بين علوم كثيـرة كالتأريخ والجغرافية، والفقه والسياسة، والعمران وأحوال البلدان غير أن ذلك لم يمنع من تصنيفها ضمن خانة الأدبيات التي لا بد للأديب منها، فهي غنية الموارد متشعبة المسالك، كثيرة النفع، كونها حوت من كل علم طرفا يحتاجه أيضا الباحث والمؤرخ والفيلسوف...

صحيح أن ما يطغى عليها هو الأساليب الخبرية التي تنشد الحقيقة المباشرة من ذكر أحوال السلاطين، وذكر الأنهار والبلدان، وحرف اليد واللسان كالكتابة والخطابة، ومع ذلك فإننا آنسنا منها شيئا من الخيال يشيع من أفواه الشعراء والحكماء وهو ما يندرج ضمن قائمة الأفعال الكلامية غير المباشرة، والذي يصلح أن يكون شاهدا على بذور التداولية في منظومتنا التراثية.

ولعل الشواهد الشعرية هي عُدَّةُ القلقشندي وسلاحه الذي يدافع به عن وجهة نظره تجاه حكمٍ ما أو قضية من قضايا السياسة والفقه. ولا بأس أن نورد أمرا أغضب القلقشندي ذات يوم فقال حول حال من لا يحسن الكتابة:«... وقد اتسع الخرق في ذلك، ودخل في الكتابة من لا يعرفها البتة، وزادوا عن الإحصاء، حتى إن فيهُمْ من لا يفرق بين الضاء والطاء... وسعى في الدخول إلى ديوان الإنشاء والانضمام إلى أهله؛ ولعل الكتابة إنما يحصل ذمَّها بسبب هؤلاء وأمثالهم. ولله درّ القائل:

تعس الزّمان فقد أتى بعجـاب ومحا فنون الفضل والآدابِ

وأتى بكتّابٍ لو انبسطت يدي فيهم لرددتـهم إلى الكُتّـابِ»[1]

وأورد القلقشندي هذا الخطاب:« وقد تنبّه قوم بالكتابة بعد الخمول، وصاروا إلى الرتب العلية والمنازل السنية. منهم: سرجون بن منصور الرومي كان روميا خاملا فرفعته الكتابة...، ومنهم حسان النبطي كاتب الحجاج...، وابن المقفع والفضل بن سهل...، وأبلغ من ذلك كله أبو إسحاق الصابي صاحب الرسائل المشهورة...، على أن المبرِّد في هذه الصناعة إن قعدت به الأيام في حال فلا بد أنْ يُرفع قدره في أخرى: لأنّ دولة الفاضل من الواجبات ودولة الجاهل من الممكنات؛ خصوصا إذا صادف الكاتب الفاضل ملكا فاضلا أو رئيسا كاملا، فإنّه يوفيه حقه ويرقيه إلى حيث استحقاقه. فمن كلام بعض الحكماء تسقط الحظوظ في دولة الملك الفاضل فلا يتنسم الرتبة العلية إلا مستوجبُها بالفضيلة»[2].

استثمر القلقشندي فهومات غيره وتعابيرهم وأقوالهم، فساق ما يلائم انطباعه ويوافق طباعه من أقوال الحكماء والشعراء، وقدّم معانيه بشكل ضمني وغير مباشر. إنه يعبر عمّا ارتسم على صفحات نفسه ويعمد إلى تصوير الأثر الذي أحس به؛ وعدته في ذلك حسن العرض وقوة الإبانة وجمال التصوير. وقد استطاع القلقشندي أن يدافع بأسلوب راقٍ عن أهل هذه الصناعة:" الكتابة" من أهل زمانه وقد وُفق إلى رسم صورة محزنة بالفعل عمّا آل إليه الزمان وتبدل بهم الحال، فقال هذه الكلمة الموجعة المؤثرة والتي تصلح أن تكتب بماء الذهب:« دولة الفاضل من الواجبات، ودولة الجاهل من الممكنات»[3].

وهنا يُفهم غير ما قال، يفهم منها أن المعيار قد تبدل، وأن الزمان قد فسُد وآية ذلك أنّه قال قبلها:

« إن فيهم من لا يفرق بين الضاء والطاء»[4]

فيصير مقلوب العبارة هكذا:

" دولة الفاضل من الممكنات، ودولة الجاهل من الواجبات!"

وهذا الذي حصل في زمن القلقشندي، وقد توعدهم وهددهم بقول الشاعر:

تعس الزمان فقد أتى بعجـاب ومحا فنون الفضل والآدابِ

وأتى بكتّابٍ لو انبسطت يدي فيهم لرددتـهم إلى الكُتّـابِ

---

[1]- صبح الأعشى، ج48/1.

[2]- م. ن، ج40/1-41-42.

[3]- م. ن، ج42/1.

[4]- م. ن، ج48/1.

فلو كان الأمر بيد القلقشندي لأرجعهم إلى التهجئة وإلى أولية الكتابة من الإعجام والمدّ والنّقط..، ولكن الحاضر( حاضر الكاتب) يقول خلاف ذلك.

**5-1- الاستعارة والتّشبيه:**

الحدث الكلامي يقتضي دائما متكلما وسامعا وقناة بينهما ورسالة تحمل المحتوى الذي يراد إيصاله. ويبقى أن هذه الرسالة قد تكون مباشرة أو غير مباشرة، ولا شك أن الخيال هو إحدى آليات اللغة الفاعلة في التأثير وفي خلق الجمالية وتدعيم الوظيفة البلاغية لدى المتكلم الذي يعمل دائما على إخراج خطابه في أبهى حلة؛ بغية إقناع مخاطبه بما يرمي إليه من مقاصد.

ففي قول القلقشندي:" تعس الزمان.." استعارة مكنية بحيث جسد لنا الزمان في صورة" شخص" يفعل ويتحرك ويمحُ، ويقوم بكل ما يقوم به الإنسان، فشبه الزمان بالإنسان وهي مقاربة منطقية، فالعلاقة بين الزمان والإنسان هي علاقة الجزء بالكل؛ فالإنسان مُنَماهٍ في الزمان وغير متناهٍ فيه لأنّه يقصُر عنه، ولكن يَحسُن أن يقال: إن الإنسان كائن زماني.

حذف من القول المشبه به( الإنسان)، وبقي لدينا القرينة الدالة عليه والمتمثلة في الوحدة الدلالية" أتى بعجاب"، والحال أن الناس هم من يأتون بالعجاب في دنياهم، فهم سبب المصائب والمشاكل التي يتخبطون فيها في شتى المجالات، وما من حلٍ سوى التحسر والألم، وليس الزمان إلا تعاقب الليل والنهار على هذا الكائن( الإنسان).

في هذه الصورة البيانية( الاستعارة) بيان لما آل إليه وضع الكتابة في زمن القلقشندي، وفيها من التشبيه وأركانه ما لا يخفى على عارفٍ بالبلاغة. ويبدو الأسى والحسرة بادية على نفسية الكاتب، فجاء الفعل الماضي" تعس" الذي يفيد الدعاء أو ما يشبه السّبّ؛ فكأنّه يسب الزمان الذي جُعلت الصدارة فيه لأمثال هؤلاء الأرذال من الناس. والأفعال جاءت بصيغة الماضي لتفيد تحقق هذا الأمر:

| الفعل | زمنه |
|---|---|
| تعِس | ماضٍ |
| أتى | ماضٍ |
| محا | ماضٍ |

ثم يتمنّى الشّاعر على لسان الشاعر أن: لو كان له بهم قوة أو سلطة لجردهم من رتبهم المزيفة وأعادهم إلى حقيقتهم، ولكن القلقشندي ليس له إلا أن يأسف ويتمنى لأنه لا سلطان له على هؤلاء. وقد

تلبس القلقشندي مرة أخرى بلبوس المؤرخ والحكيم عند قوله:« تسقُطُ الحظوظ في دولة الملك الفاضل فلا يتنسم الرتبة العليَة إلا مستوجبها بالفضيلة»[1].

عَبْرَ هذه المنظومة الكلامية من أقوال الشعراء والحكماء كانت تنكسر نمطية اللغة لتتداح لنا عوالم سِحريّة من القول وهذا ما تتيحه الاستعارة والكناية والمجاز باعتبارهم عمليات خلق جيد في اللغة. إنها لغة داخل لغة فيما تُقيمُهُ من علاقات جديدة بين الكلمات، وفيما تختزنه من بُعدٍ جمالي وتخييلي وعاطفي، وذلك بتخطيها للقوالب التقليدية الجاهزة من القول. لقد قررت البلاغة القديمة ما للمجاز من دور في صناعة الفن، وإحداث التأثير أكثر من الحقيقة لأن:« النادر والغريب من الصور الشعرية يثير فضول النفس ويغذّي توقعها إلى التعرف على ما تجهله فتُقبل عليه لعلها تجد فيه ما يشبع فضولها»[1].فالصورة الشعرية تعمل على إحداث زعزعة في النفس تجعلها تبحث في مكامنها للتعرف على ما تجهل من مستنكر اللفظ وغريبه، حتى يحدث لديها القبول والتأثير.

فهذا الفن القولي الشعري والنثري الذي تكشفت عنه مدونة" صبح الأعشى" يحقق بجدارة مقولات التداولية من حجاج وأفعال الكلام والإقناع وكل مستلزمات الخطاب من تلفظ وتحاور وافتراض وانتقال وتفاعل... الخ، وما ينم هذا إلا عن وعي القلقشندي بهذه الأبعاد التداولية، حتى وإن لم يصرح بها فإنها تبدو جلية واضحة.

وإن معرفتنا بالموضوع( الشيء) لا يمكن أن تتشكل معزولة عن خبرتنا الحياتية وطبيعة وجودنا التاريخي والثقافي، ولا يمكن للمعرفة الإنسانية أن تتشكل من الراهن أو( الحاضر) وحده، بل لا بد من أن تتحرك هذه الأنا المُدْرِكةُ( الإنسان) بين ما عرفته مسبقا من تجارب وخبرات وبين ما يستجد لها من معاني ودلالات في حقول المعرفة والحياة، والقلقشندي واحد من هذه الذوات، فقد استطاع أن يبرهن لنا من خلال" صبح الأعشى" أنّه مُلِّمٌ بالجوانب اللغوية والتعبيرية، وأنّه يتصف بالموسوعية، وأنّه مستنير بالتأويل والتفسير، وأنّه يجمع بالإضافة إلى إرثه اللغوي معرفته بالأجناس والألسن، وأنّه نتيجة هذا الانصهار والاندماج مع واقعه وتاريخ أمته استطاع أن يخط" صبح الأعشى" الذي هو من مفاخر العرب والعربية ومنجزاتها.

[1]– صبح الأعشى، ج42/1.

**5-2- المجاز والإشارة( الرّمز):**

يقول القلقشندي عن المزاح:« ... الأليف بذوي المخالصة والوفاء أن يتنزهوا في المداعبة الدائرة بينهم عن بذيء اللفظ ومفحشه، ومُؤلم الخطاب ومُقذعه، ويكفوا اللسان واليد عن الانطلاق بما يدل على خفة الأحلام... إذْ لا فرق بين جرح اللسان وجرح اليد...:

فرُبَّ كلام يُمضُّ الحشا وفيه من الضِّحْك ما يستطاب

ولا يجعل المزح غالبا على الكلام، مُداخلا لجميع الأقسام فإن ذلك يميله عن القصد:

أفِد طبعك المكدودَ بالجدّ راحة بلـهوٍ وعلّلـهُ بشـيء من المـزْحِ

ولكنْ إذا أعْطيتَهُ المزحَ فليكن بمقدارِ ما يُعطى الطعامُ من الملحِ»[2]

في هذا الفصل، يجنح القلقشندي إلى التورية والرمز والمجاز والتلميح والإشارة لأنه في مقام الوعظ والنصح والإرشاد. وهذا الباب في غاية الخطورة لأنه يتعلق بأفعال الكلام كما جاء بها الدرس التداولي، وقد قال الإنجليز في أحد أمثالهم: إننا نقول أكثر من حقيقة ونحن نمزح. ولقد سميت اللغة الفرنسية باسم أحد أكبر أدباء فرنسا وأظرفهم وأميلهم إلى النكتة والضحك والسخرية في أعماله المسرحية ذات السمعة الطيبة والواسعة فقالوا عن الفرنسية لغة موليير: La langue de Molière، ومن يقرأ الملهاة المولييرية يتبدى له صدق ما نقول.

وإذا ما عدنا إلى نص القلقشندي وجدناه يبحث عن قارئ نموذجي يستطيع فك شفرته ويكشف عن معانيه القابعة تحث أقنعة المجاز؛ خصوصا تلك الفقرات التي تتعلق بالعلم والعلماء، وحتى الشواهد الشعرية وأقوال الحكماء لا بد فيها من الذهن الوقاد والفكر المستنير، ففي كثير من الأحيان تدل اللغة على غير محتواها القضوي كما يقول" مبدأ التعاون" وهو مفهوم من أهم جوانب الدرس التداولي الذي يعنى بربط المعنى الصريح بالمعنى المستلزم مقاميا. ومن أجل هذا كان لا بد من البحث وراء ظلال اللغة عن الرموز التي تنضوي عليها الملفوظات من قبيل هذا القول:

فرُبَّ كلام يُمضُّ الحشا وفيه من الضِّحْك ما يُستطابُ

أي ما أكثر الكلام الذي ظاهره الدعابة وحقيقته الهمز والخدش، ولهذا قال القلقشندي:" لا فرق بين جرح اللسان وجرح اليد" وهنا نشير إلى المجاز في قوله:" جرح اللسان" ويقصد به الغيبة والنميمة والكذب وكل أعمال هذه الجارحة( اللسان)، ثم عطفها على جَرح اليد وهو الفعل الحقيقي وكلاهما جَرح من نوع

---

[1]- جابر عصفور، الصّورة الفنية، مرجع سابق، ص325.

[2]- صبح الأعشى، ج9/225-226.

خاص. فالكلام جراحاته لا تندمل حتى ولو تحلّل منها صاحبها، والقصد أنها لا تُنسى وإن طال بها الزمن وتقادم عهدها، أما جراحات اليد فالزمن كفيل بمداواتها وبذهاب آثارها من النفس والبدن.

فالدعابة بوصفها فعلا كلاميا ومُنجزا لغويا وحقيقيا تدخل في إطار الأفعال الكلامية التأثيرية لأنها محكومة بمبدأ التواصل الحواري أو الجماعي. فلا يكون المزاح عادة من واحد، بل لا بد من وجود أطراف عدة في المجلس حتى يتحقق التفاعل ويتجلى إنتاج الخطاب الحامل لمعاني" المزاح أو الدعابة"، ومن أجل هذا الغرض جعل غرايس همه إيضاح الاختلاف بين ما يقال، وبين ما يقصد من القول، فما تعنيه الكلمات والعبارات بقيمها اللفظية شيء وما يقصده المتلفظ بها شيء آخر، وما يفهمه السامع طرف ثالث ومن هنا نشأت عند غرايس فكرة الاستلزام L'implicature[1].

وقد وضع القلقشندي استراتيجية التمثيل فقابل بين المعنوي والمادي في اختياره لوضع شيء مقابل شيء آخر أو لنقل تفسير ظاهرة بظاهرة أخرى ليس بينهما علاقة مماثلة إلا في المآلات، ولتوضيح هذه الفكرة ساق هذا المثال:

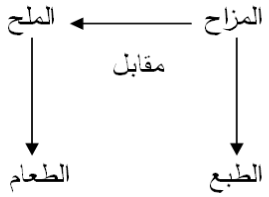


إذا زاد المزاح على القدر أفسد على الطبع، وإذا زاد الملح على المقدار المحدد الذي يبقى به الطعام طعاما في مذاق آكله فَسُد الطعام. وليس هذا وحسب، بل إن المتضمنات التي تنضوي عليها الملفوظات التي ساقها القلقشندي ترمي إلى أبعد من ذلك بكثير:« وهي أن لا يودع بابا من الأبواب ما لا يحتمله من الخطاب: فإن القصد في هذا النوع من المكاتبات إنما هو الإعراب عن الظرف والبراعة، والإبانة عن طلاقة النفس والانسلاخ من تعبيس الفدامة والجهامة...»[2].

أراد القلقشندي تبيان منزلة الكتابة الشريفة التي ينبغي أن يتحلى بها صاحبها في ديوان الإنشاء، وأنه لا يليق معها كثرة الضحك والدعابة والهزل والسخرية وغيرها من الأمور المتعلقة بهذا الجانب، وأن هذا باب من الخطاب لا يحتمل المزاح لأنه قد يخرج به إلى عاقبة سيئة أو ما لا تحمد عاقبته.

---

[1]– ينظر: محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، مرجع سابق، ص33.

[2]– صبح الأعشى، ج9/226–227.

وبالعودة إلى المثال السّابق:"... لا فرق بين جرح اللسان وجرح اليد.."، نجد الفعل" جرح" يخرج إلى معان عديدة منها:

- الكسب أو الاكتساب.
- الغيبة.
- النّميمة/ الوشاية.
- الكذب.
- شهادة الزور.
- النقد.
- السخرية.

يقول الله تعالى في كتابه العزيز:﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمًّىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾الأنعام: ٦٠. يقول ابن كثير في تفسير معنى:" جرحتم بالنهار" أي يعلم ما كسبتم من الأعمال بالنهار[1]. ويقول الزمخشري فيه: أي ما كسبتم من الآثام فيه. ويقول أبو حيان في تفسيره البحر المحيط[2]: والجوارح: الكواسب من سباع البهائم... وسميت بذلك لأنها تجرح ما تصيد غالبا أو لأنها تكتسب. يقال: امرأة لا جارح لها أي لا كاسب، ومنه: [ ويعلم ما جرحتم بالنهار] أي ما كسبتم ويقال جرح واجترح بمعنى اكتسب، أما الشوكاني صاحب فتح القدير فيرى أن معنى" جرحتم" يكون في الخير والشر: أي كسبتم بجوارحكم من الخير والشر

والحاصل أن القلقشندي في إحدى وصاياه:" كنى" بالفعل" جرح" ليقصد معنى بعيدا له أثره على السلوك، ويمكن القول أنّ هذا اللفظ أو القول هو فعل كلامي غير مباشر يشير إلى أثر اللسان وعواقبه. ولكل هذه الرموز والكنايات ومتضمنات القول أبعاد تداولية إذ يمكن اعتبارها أفعالا كلامية غير مباشرة لأنها تشير إلى معانٍ كامنة في عمقها: كالوصف، التحذير، النصح، التمني، الوعد... وهي أفعال كلامية

---

[1]– ينظر: عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، علق عليه وخرج أحاديثه: هاني الحاج، المجلد2، د ط، القاهرة، مصر، 2008، ص164.

[2]– ينظر: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان، تفسير البحر المحيط، ج2، د ط، بيروت، لبنان، 1982، ص175.

ترتبت عليها منجزات فعلية، فالقول الحواري والإنشائي كالكناية والرمز آل إلى عوالم الأشياء وتحقق في صورة بنية سلوكية أدائية.

في الأخير، يمكن القول أنّ القلقشندي قد تحلى في مؤلفه" صبح الأعشى" بالإقناع وحقق تواصلا مع المتلقي عبر منظومة الأقوال والأمثال والخطب والرسائل، وأن القضايا التي خاضها والتعابير التي استعملها كانت من صميم الدرس التداولي كما نفهمه نحن اليوم؛ فقد راعى مقتضى الحال وقصد المتكلم وإفادة المخاطب وفعل التأثير، ويمكن الاستفادة من" صبح الأعشى" على اعتباره خطابا تواصليا ذو مقاصد وسياق وفعل كلامي وخطاب حجاجي وإن كان أكثره في التقريريات.

**ثانيا: البعد البلاغي ومنجزات القول في خطاب القلقشندي**

تضمن التراث في شقه الأدبي والبلاغي أخبار العرب وأيامهم وطرائق عيشهم ومعاملاتهم، وكذلك محاوراتهم وأساليب أقوالهم وأحاديثهم ومسامراتهم، وسائر خطبهم وأمثالهم ومناظراتهم. فجمع هذا التراث ضروبا من الآداب ما بين كلامٍ منثورٍ وشعرٍ مرصوفٍ ومثلٍ سائر وموعظة بليغة. ولقد نقل الأُمَناء من هذه الأمة أنّ نبيّ الله صلى الله عليه وسلم نطق بالحق وبلّغ ولم يُقصِّر وحاشاه أنْ يُقصِّر فجاءت الطرق التي تُلقيت الأحكام منها عن النبي صلى الله عليه وسلم مختصرة في ثلاثة أساليب:

- إمّا لفظٌ.
- إمّا فعلٌ.
- إمّا إقرار.

ومجموع هذه الأساليب الثلاثة تجمع" كلام العرب"؛ بل تجمل كلّ ما من شأنه أن يتعلق باللسان والجوارح في الإنسان.

والذي نصبو إلى تبيانه من خلال هذه التوطئة هو أنّ العرب اهتموا بالكلام والمتكلم؛ فأكد البلاغيون من خلال استنباطاتهم أنّ للكلام مناحٍ وطُرقا ومعاييرَ تحكمه فهو لا يخرج عن كونه واحدا من اثنين. إمّا أنّ يكون:

- خبرا.

أو- إنشاءً.

وقد حُدّا- الخبر والإنشاء- بقولهم:« الخبر ما يقبل الصدق والكذب، والإنشاء خلافه»[1]، فمثل هذا الطرح نجده في الكثير من النصُوص الواردة من علماء البلاغة العربية وكثر كثرة بالغة تدل على إجماعهم على ذلك.

وبالنّظر إلى جهود المحدثين في حقل البلاغة واللّسانيات من علمائنا العرب وما استحدثوه من آراء حول هذه القضية المتعلقة: بالخبر والإنشاء، فإنه قد تغيرت نظرتهم تجاه هذا التقسيم لأنهم وجدوا أنّه في كثيرٍ من الأحيان ما يخرج الإخبار عن معياره فلا يدل على صدق ولا على كذب، ولهذا اقترح" محمود أحمد نحلة" الاستفادة من التقسيم الذي وضعه" سيرل" من أجل بناء نظرية عربية للأفعال الكلامية، وبدل تقسيم الكلام إلى خبر وإنشاء، يقسم على النحو التالي:

- الإيقاعيات Declaratives: كل ما يُصرح بفعله وإنجازه، كإعلان الحرب مثلا.
- الطلبيات Directives: توجيه المخاطب لفعل شيء ما كالأمر، النصح...
- الإخباريات Assertives: وصف العالم الخارجي وأفعال هذا الصنف تحتمل الصدق والكذب.
- الإلتزاميات Commissives: كل ما تضمن عزما على الإنجاز في المستقبل كأفعال التعهد وأفعال التكليف ومثالها:( الوصية، الوعد).
- التعبيريات Expressives: كل الأفعال القلبية الوجدانية كالتهنئة والشكر والمواساة.

وقد عرف العرب الأوائل هذا الأمر، وتفطنوا إلى هذه النقطة وعرفوها، وذلك عند تطرقهم إلى خروج الأساليب الإنشائية الطلبية عن معانيها الحقيقية إلى معانٍ أخرى تفهم من سياق الكلام حيث ذكر السكاكي:« أنّ الطلب بأنواعه يخرج عن المعنى الأصلي إلى المعنى المقامي حين يمتنع بقرائن الأحوال ومقامات الكلام إجراؤه على الأصل فيتولد عنه معنى آخر يخالف المعنى الأصلي»[2]، وهو المعنى المستلزم مقاميا التي تخرج تخرج إليه الأساليب البلاغية العربية من( نصح وتوجيه وإغراء وتحذير...).

وكذلك ما رمى إليه الجرجاني بقوله:« تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة، وبمعنى المعنى أنْ تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر»[3]، وهذا ما يتماشى مع ما يعرف في الدرس الغربي بظاهرة الانتقال من المعنى الطبيعي إلى المعنى غير الطبيعي وهو المعنى المستلزم المقصود بالكلام.

---

[1]- مسعود صحراوي، التّداولية عند العلماء العرب، مرجع سابق، ص84.

[2]- محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللّغوي المعاصر، مرجع سابق، ص103.

[3]- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص263.

وبهذا يتجلى لنا أنّ جهود علماء الغرب في الدرس التداولي يكاد يتماشى مع مقولات البلاغة العربية في تراثنا النقدي والأدبي.

**1- الاستراتيجيات التّوجيهية في" صبح الأعشى":**

أورد القلقشندي في سياق حديثه عن جحود النعمة كلاما ينضوي تحت ما أسماه سيرل" بالتعبيريات" وهي ضرب من الإنشاء الذي حوى أكثر من صيغة كالسؤال والطلب والاستفهام والتعجب. وليُدلِّل القلقشندي على ما جرى معه فقد ساق كلامه في شكل قصة حوارية شعرية. يقول القلقشندي:«... فجازاني مُجازاة السِّنمار...، وجعل محاسني التي أُدلي بها ذنوبا فكيف أعتذر؟:

وكان كذئب السُّوء إذْ قـال مــرَّة: لعمروسةٍ والذئب غرثـــانُ مُرمِلُ:

أأنتِ التي من غيرِ سوءٍ شتمتني؟ فقالت: متى ذا؟ قال: ذا عامُ أوَّلُ

فقالت: وُلدتُ الآن بل رُمْتَ غدرةً فدونكَ كُلْنِي لا هنا لك مـــــأْكَلُ!»[1]

مثلما هو معلوم في نظرية أفعال الكلام فإنّ الخطاب في عمومه يُمكن أنْ يُنجزَ لنا أفعالا، ويصنع لنا أشياء بمجرد النطق باللغة، وإذا كان هذا الأمر ليس منوطا بالخطابات العادية فقط ويتعداها إلى مراتب أعلى في القول، فإن الشعر واحدٌ من هذه الأساليب التي لا تنفك عن كونها فعلا كلاميا عاديا، وينطبق عليه ما ينطبق على الخطاب العادي رغم كثافة لغته وتميُّزها بالاختزالية والقوة التعبيرية التي تلامس أجزاء عديدة في النفس الإنسانية، وربمّا تؤدي أحيانا إلى تغيير وجهات النظر، وتغيير بعض المواقف الحياتية والمصيرية نظرا لما يتميز به الشعر من موسيقى وإيقاع وتناغم بين الألفاظ والعبارات الإيحائية التي تمنحه القدرة على التأثير على الآخر. وهذا الذي لجأ إليه القلقشندي هو من هذا القبيل، فقد جعل المتلقي يعيش حالة من الصِراع من خلال هذه المَسرحة للحدث الكلامي، حيث بناه على أطراف الحوار المتمثلة في الذئب الشرير وعمروسة البائسة.

ومن خلال هذا المثال يمكننا تلمس الإستراتيجية التوجيهية المتمثلة في أركان الكلام التبليغية القائمة على السؤال والجواب:

**1-1-الإستفهام:** وتمثل في:

* أأنتِ التي من غيرِ سوءٍ شتمتني؟

[1]- صبح الأعشى، ج244/14.

والاستفهام كما هو معلوم: طلب العلمِ بالشيء لم يكن قبل معلوما وأدواته إحدى عشر كما هو مبثوث في المقررات المدرسية[1]. والاستفهام من الآليات اللغوية التوجيهية وإن لم يتفق العلماء العرب حول تصنيفه: أهو من الإنشاء الطلبي أو غير الطلبي. ويكاد العلماء يجمعون على تصنيفه في خانة الطلبي لأنه يحتوى معنى الطلب.

وبالرجوع إلى خطاب القلقشندي الشعري نجد ما يلي:

جاء بالاستفهام عن طريق القرينة التي تفيد القرب والملامسة والجوار وتمثلت في" الهمزة" التي هي للقريب وللاقتضاب، ثم جاء بالضمير المنفصل للمخاطبة" أنتِ" وبعدها جاء بالقرينة الموصولية" التي" التي تفيد تحديد المُوجه إليه الخطاب والمعنيُّ به.

والمحتوى الذي تحمله هذه القضية التي جاءت في صيغة الاستفهام هو" الاتهام والإدعاء بالفرية" وهو أمرٌ غاية في الظُّلم صدر من الذئب الجوعان.

* قالت عمروسة: متى ذا؟[1]

فجاء الجواب في شكل استفهام استنكاري: متى حدث هذا الشتم مني لك؟ وكان المتلقي ينتظر أنْ يكون الجواب في صيغة" إخبار" أو" نفي" أي كان من المنتظر أنْ ترد عمروسة هكذا: لا، أنا لم أشتمك. وهذا الاستفهام الصادر منها يُنبئ عن الاستنكار كما يوحي بطلب التذكير فكأنها تقول لمحاورها: إنْ كان صدر منّي شتمٌ فمتى حدث هذا؟ ذكِّرني لعلني نسيتُ ما يكون قد صدر مني بالفعل.

ومن خلال السياق الذي جاء فيه خطاب المُرسِل أو بالأحرى استفهام الذئب نلمس أنّ الاستفهام هو من نمط الأسئلة المفتوحة الأقل توجيها، فالمرسلُ[ الذئب] لم يترك للمرسل إليه[ عمروسة] حرية اختيار الجواب، وحتى أنّه لم يُخيِّرها بين:( نعم/ لا) بل إنّ هذه القوة التوجيهية في خطابه حصرتها في الإدانة. فكأن المرسلَ متعالٍ عن المرسل إليه ومهيمن عليه.

فالمرسل في هذه العملية التحاورية ذو فكرة مُسبقة عن الموضوع المُستفْهَمِ عنه؛ وإنما أراد أنْ يُجبرَ المرسَل إليه على رأيه وهذا ما يتصوره القارئ عند التدقيق في السياق وأدوات الخطاب المستعملة إذِ" الهمزة" تنبئُ وتشير إلى" الحضور" و" القرب" فالمُرسلُ إليه[ عمروسة] حاضرة وقريبة وهي بين يدي الذئب الجائع.

* قال الذئب: ذا عامُ أوّلُ[2].

---

[1]– وهي: الهمزة– هل– ما– من– متى– أيّان– كيف– أين– أنّى– كم وأيُّ.

أي حدث في العام الفائت أو الماضي، والعرب تعبِّرُ عنه بـ" أوّلُ" إذا كان المعدود يفيد ترتيبا. وفي هذه الإستراتيجية الخطابية التي تفيد" الإقناع" دون توكيد بدا أنّ الخطاب يحمل دِلالة إيجابية لدى المرسل بينما هو سلبي بالنسبة للمرسل إليه. وفي هذا الخطاب حذفٌ دل عليه اسم الإشارة العاري من قرينة التنبيه" الهاء" وتقدير الكلام:" حدث هذا العام الماضي" أي حدث منكِ الشتم لشخصي العام الماضي، واكتفى بإيراد اسم الإشارة على هذا النّحو:" ذا".

**1-2- الأمر**: وتمثل في قرينتين اثنتين وردتا في خطاب القلقشندي على لسان" عمروسة" وهما:

أ- فعل الأمر: كُلْنِي.

ب- اسم فعل أمر: دونَكَ.

والأمر يدخل في إطار" الطلبيات" وهو جزء من الأفعال التوجيهية كما أشار إلى ذلك" سيرل" و" براون" و" ليفنسون" وهو من أكثر الأساليب الإنشائية استعمالا وتداولا في الإستراتيجية التوجيهية.

والصيغة التي استعملها القلقشندي:" كلني" تبدو وِحدة واحدة ولكنها على الأرجح تعبير مكتفٍ بجوانبه التركيبية والنحوية والبلاغية، ففي هذه الكلمة نسجل حضور:

- جملة فعلية تامة الأركان:

1- فعل: كلْ.

2: فاعل: محذوف تقدره" أنت"[ يعود على الذئب].

3- مفعول به: الضمير المتصل[ الياء] العائد على" عمروسة"[ ياء المتكلم].

4- النون: نون وقاية الفعل من الكسر.

* قالت عمروسة: دونك كُلني![3].

ففي هذا الأمر، يشعر القارئ أنّه ليس في الخطاب قوة توجيهية للفعل، بل إنّ في العبارة: رُوحًا استسلامية لعدم تكافؤ فرص القول لدى المرسَل إليه وعدم تكافؤ الرتبة والمنزلة والمقام الذي يتحدث ويتداول منه الخطاب لكلا الطرفين.

ففي هذا الخطاب استعملت عمروسة استراتيجية حوارية مباشرة وتوجيهية للذئب الجائع حتى يخلِّصها مما فيه من عذاب، وهذا كما قلنا نوع من الانكسار النفسي والاستسلامي الروحي.

---

[1]- صبح الأعشى، ج244/14.

[2]- نفسه، ج14/ 244.

[3]- نفسه.

**1-3- اسم فعل الأمر:**

هو من الإستراتيجية التوجيهية التي تفيد القيام بالفعل أو الإنجاز لأنه يتضمن معنى الطلب؛ أي الطلب بالقيام بالفعل على وجه الأمر.

وكلمة:" دونَكَ" هو اسم فعل أمر بمعنى" خذْ" منقول عن الظرف[1]، وما بعدها منصوب على أنّه مفعول به لاسم الفعل في مثل قولك:

- دونك الكتابَ أي خذْهُ.

ومن المهمّ أنّ أسماء الأفعال هي ألفاظ تقوم مقام الأفعال في الدّلالة على معناها، وفي عملها دون أن تتأثر بالعوامل، ودون أن تقبل شيئا من علامات الأفعال.

والتعبير بهذه القرينة الضئيلة الحجم التي تحمل شحنة دلالية عنيفة تؤكد على البعد النفسي للمقام الذي تتواجد فيه" عمروسة"؛ فهذا التمثيل الأيقوني الذي أبرزته هذه[ الكليمة] على صغر بنيتها الصرفيّة هي التي أوحت بحجم التعسُّف الذي يحمله الخطاب وبحجم سلبية الموقف الذي لا تحسد عليه" عمروسة". ولمّا أيقنت بدُنوِ أَجَلِها واستغلقت سبل النجاة أمام ناظريها أرادت أن تختصر الموقف المأساوي فاختارت أقصر طريق لإنهاء هذه المأساة فجاءت باسم الفعل[ دونك] الذي لا يتطلب أكثر من برهةٍ قصيرةٍ من الزمن، فما إنْ تنطق بها حتى تتحقق قوة إنجازية من طرف[ المرسِل] المتمثلة في الانقضاض الكلي وغرز أنيابه وأظفاره بجسدها.

وفي زمن الحكي داخل خطاب القلقشندي لا تكاد تشعر بالزمن إزاء هذه الحادثة.

**1-4- الدّعاء:**

وردت صيغة الدعاء في قوله:« لا هَنَا لكَ مَأْكَلُ!»[2].

وجاءت في معرض النفي الذي يفيد عدم تحقق الفعل أو عدم تمام الفعل أو حتى أنّها صيغة تفيد التنديم الذي يعود على المدعو عليه، ودلّت على هذا المفهوم القرينة النافية[ لا] التي تفيد عدم استحقاق الذئب لفريسته.

ومن مميزات هذا الاستعمال أنّه ينطوي على إيجازٍ في بِنية المصدر" مَأكل" الذي هو مصدر ميمي والذي ناب عن اسم المفعول" مأكول" الذي يدل على تحقق الفعل وإنجازيته. وفرق بين" المصدر

[1]- ينظر: المعجم في الإعراب: وضع وتصميم عمر توفيق آغا/ محمد بنيس، ط1، دار المعرفة، الدّار البيضاء، المغرب، 2013، ص75.

[2]- صبح الأعشى، ج244/14.

الميمي" و" اسم المفعول" أنّ الأول يوحي بانقضاء الفعل واكتماله، ويدلّ الثاني على الاستمرارية التي تفيد العموم والديمومة في الزمن.

" فالضحية تدعو على مُفترسِها بعدم الهناء الأبدي بلحمها أو بلحم غيرها".

فالدعاء إذن، من الصيغ الأسلوبية المندرجة ضمن الإنشاء الطلبي؛ وهو طلبُ حصول أمرٍ محبوب أو دفع أمرٍ مكروه، وهو بهذا قريب من الرجاء والتمني، والأصل أن يكون بألفـــــاظٍ معلومة مثل:[ يا الله، اللّهم ...].

وفي خطاب القلقشندي الذي جاء على لسان الضّحية، يتلمس القارئ معنى:" التوبيخ والتقريع" الذي تحمله العبارة المتضمنة لصيغة" الدعاء". وتكاد تكون القصة الشعرية فارغة من البنية الحجاجية ذات المغزى الإقناعي والتأثيري بين طرفي الخطاب بسبب أنّها– أي القصة الشعرية– أحادية الصوت؛ أي أنّ الصوت الطاغي والمهيمن هو صوت" المفترس"، أما الصوت الثاني الذي هو المرسل إليه فيكاد يكون في حد ذاته" بنية سالبة" لأنها تمثل مُطاوعَ الفعل لا مقاوم الفعل. وهذا لم يمنع من قِيام عملية حوارية بين مُتخاطبيْن اثنين. والجدير بالذكر أنّ هذا التحاور مثّل فضاءً رحْبا استوعب الأفعال الكلامية الإنجازية بأنواعها المختلفة:

- الإثباتية.
- الالتزامية.
- التعبيرية.
- التّوجيهية.

اشتملت هذه الأحدوثة الشعرية التي ساقها القلقشندي على عبرة وقيمة أخلاقية وهي أنّ الإحسان إلى الخَلق قد يُجابه ويقابل بعكسه، وقد يُجازى المحسنُ مجازاة السنمار. كما أنّه لو جاء أهل الأرض بملء الأرض حسنات لعدّوها ذنوبا فكيف الاعتذار إلى هؤلاء؟ كأنّ القلقشندي قد خَبَرَ الناس ورأى أنّه من الجدير الهروب إلى الله الذي لو جئته بملء الأرض خطايا لاستقبلك بالأعذار.

**1-5- النّهي:** أورد القلقشندي قوله:« لا أدري أأتعجب من قومٍ هم ما همُ: شِربٌ مناسبُ، وطِيبُ مكاسب، قد أمكنتهم المعالي، وطاوعتهم الأيام والليالي، وخدمتهم جواري السُّعود، وتطامنت لكلٍّ منهم مراقي الصعود.. إلى أن يقول:

وإذا الزمانُ جفاكَ وهو أبُو الوَرَى طُرًّا فلا تَعْتِبْ على أولادِه!»[1]

هنا يشبه القلقشندي الزمان بالأب ويشبه الحوادث بالأبناء غير أنّه لا يذكر ذلك صراحة، وإنما يعمد إلى التلميح. ولأنه اكتوى بنار الخيبة لطول تجربته، نسمعه يُسدي النصح لقارئه في هذا الشاهد الشعري الذي تضمن أسلوب النهي:

[ لا تعتب على أولاده]

فهنا صيغة توجيهية تتمثّل في عدم العتاب وعدم إبداء التخرم والشكوى من أفعال الزّمن وبنيته. وقد لجأ القلقشندي إلى استعمال[ لا] الناهية الجازمة باعتبارها أحدُ دعائم الصيغة التوجيهية، الدالة على النهي بالإضافة إلى الفعل المضارع[ تعتب] الدال على الديمومة والاستمرارية[ الحالية]. وقد حرص على أن يُبَلِّغ قصده التوجيهي إلى الناس ليدركوا قيمة هذه[ النصيحة] ويفهموا حرصه الشديد على التقيد بهذه التوجيهات.

ولأن النّهي هو طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء[2]، فهو من أفعال الطلب التي تصدر من صاحب المرتبة الأعلى إلى من هو في مرتبة دونه.

فالقلقشدي هو[ الناهي– الباث– المرسل] ونحن بوصفنا[ قرّاء– مستقبل– مرسل إليه] ما علينا إلا الإصغاء إلى هذا الفعل التوجيهي الذي غرضه النصح والإرشاد والتبليغ. ففي عبارة القلقشندي قوة تعبيرية إنجازية تمثلت في الفعل المضارع المقرون مع لا الناهية الدّالة على الإخبار المباشر والإفصاح عمّا ناله من تقلبات الليالي والأيام.

**2– منطقية الأفعال بين الوظيفة النّفعية للغة والمواضعة الاجتماعية:**

في هذه الحكاية الشعرية يتفاجأ القارئ بدرامية الأحداث، فهذه الشخوص التي أحدثها السارد عبْر هذه المتواليات اللغوية تدخل في إطار تشخيص القيم والإعلان عنها على لسان الحيوان وفق هذا الجدل القائم بين الذئب والعنزة[ الحمل]. وهو جدل يكاد يفتقر إلى المنطقية ويدخل ضمن ما يسمى بـ" الخرافة" ولكنّ عبقرية اللغة والسياق جعل هذا التداول بين المُتحاورِيْن يُشعرُ القارئ أنّ طرفيْ الخطاب في علاقة وديّة وأنّ هذا التناوب في الحوار بين الأخذِ والردِّ يُحقق الإنصاف بين المتحاوِرَيْن، ولكنّ الحقيقة أنَّ

[1]– صبح الأعشى، ج243/14.

[2]– يكون النهي عادة بالقرينة:[ لا الناهية] وأحيانا يكون بأدوات أخرى من قبيل الضمير المنفصل: إياك، إيّاك...

المتلقي سيتفاجأ حين يجد نفسه أمام عِراكٍ حقيقي بين وحشٍ ضارٍ وحملٍ ضعيف. ولذلك فقد جاء التعبير غاية في الدقة عندما يقول:« كيف يعتذرُ من كانت حسناته تُرى ذنوبا؟»[1].

إنّ القوّة التّوجيهية التّي في الأفعال تجعل الكلام يتمتّع بالحيوية، لأنّ الأفعال هي أكثر عناصر اللّغة مطاوعةً ومرونة لأنّها مرتبطة بالزّمن الذّي يُكيِّفها حسب حالات المتكلّم وبالتّزامن الذّي يعطي لها قدرًا من الإنجازية والقوة التأثيرية حال تكلّم المتكلّم.

وبارتباط الأفعال بتلك الوحدات التّي تسبقها عادة أو تلحقها كأدوات النّفي والنّهي والاستفهام والأمر أو ما اصطلح على تسميتها بـ[ السّوابق واللّواحق] تمتلك القدرة على تغيير معناها من موقف كلامي إلى موقف كلامي آخر.

إن مسألة المطابقة بين الكلمات والواقع معيار يُمكِّنُنا من التّمييز بين الأفعال الأمرية[ الأمر– النهي– الطلب– التحذير– الإغراء...] التي يكون فيها الواقع اللغوي مطابقا للواقع، وبين الإخباريات الجاهزة التي لا تحتاج إلى قوة أدائية حتى توافق الواقع فلا يحتاج المتكلم إلى مؤكدات ولا إلى الصيغ التوجيهية ولا إلى مبدأ التكرار.

ومن هنا؛ يمكننا أن نقول إنّ كل فعل كلامي يحمل قيمة تعبيرية وأخرى إعلانية وثالثة توجيهية، ولا يكاد يخرج الكلام في معظمه على مؤشرات المواضعة الاجتماعية والعرف اللغوي المؤسس على التصنيفات المنطقية للبنى اللسانية. ولتوضيح هذه القيم نأخذ فعل الأمر كونه أكثر الأفعال المستعملة في الخطب والمراسلات والمكاتبات في" صبح الأعشى":

**2–1: مورفولوجية فعل الأمر في المدوّنة:**

إذا نحنُ أمعنا النظر في التراكيب العربية وجدنا أنّه لا يخلو خطابٌ من فعل. ومن هنا يُعلمُ دوره البالغ الأهمية في بناء الجملة والخطاب والنص. وكثيرا ما يكتفي الفعل– بوصفه وحدة لغوية واحدة دالة– ببنيته الصرفيّة ليشكّل خطابا أو جملة مفيدة، حتى وإنْ بدا أحيانا في خطّيّته:( حرفا واحدا) من مثل قولنا:[ عِ ] و[ فِ ] و[ قِ] من الأفعال :[ وعى]/ [ وفى] / [ وقى].

وعلى هذا، فإنّ الصورة الخطيّة( الكتابة) للفعل تكتسبُ دلالتها ومحتواها اللساني من الصيغة الصرفيّة المنوطة بشكلها الذي يفرضه العرف الكتابي والهيئة النطقية للفعل، وبهذا يجدُ فعلُ الأمر على ألسنة مستخدميه بُعْدَهُ التّداولي بين المرسل والمرسل إليه كما رأينا ذلك في المثال الفارط.

[1]– صبح الأعشى، ج244/14.

من خلال تلك الصّوائت والصّوامت يتفاعل المتكلّمون، فينتجون خطابات على إثر ذلك التّفاعل والتداول، وتحصلُ بينهم محاورات بالألفاظ تنجّرُّ عنها أفعال؛ وانطلاقا من هذه العملية وهذه الكيفية في التواصل والتخاطب فإنّ كلّ رابطٍ نحوي أو عطفي أو إشاري هو عنصر في منظومة الكلام، واللغة لا يستغني عنها المتكلم ولا السامع: وإذا رجعنا إلى خطاب الأمير مروان بن محمد إلى أحد ولاته( عبد الله بن مروان) تحسّسنا تلك الرّوابط الحجاجية التي هي أساسُ العملية التّواصلية وعرفنا الجدوى منها كقوله مثلا وهو يصفُ "**العُجْبَ**" ويُحذّرُ مُحَاورَه منه:« ...إنه رأس الهوى، وأول الغَواية، ومَقادُ الهَلكة»[1]، فالدّلالة هنا مكررة لأجل قصد المتكلم الذي هو التحذير، والتكرار يُبيِّنُهُ( الترادف) الحاصل في مفردات الخطاب:

رأس= أول= مقاد

**فالرّأس** هو **أوّل** شيء في جسم الإنسان، وهو المكان الذي **يُقادُ** منه، وحتّى البهائم العجماء تقادُ من رؤوسها، **والمَقَادُ**: الموضع من رأس الدّابة يوضع فيه الحبل من أجل قيادها أو سحبها.« والأوّل معروف ضد الآخر، وأصله أوْءَلُ على وزن أفْعَلَ مهموز الأوسط قُلِبَت الهمزةُ واوا وأدغم ودليلهم: هذا أولُ منك والجمع( الأوائل)**مادة: [وأل]**...»[2]. فالترادف موجود في الاستعمال اللغوي بين المتخاطبين، وهو ضربٌ من المجاز الذّي يحصلُ عند تداول الكلام، والحاصل أنه عملية انفجارية شكلية تمسّ الألفاظ وتلحقها لتولّد منها مفردات كثيرة لمدلول واحد. وللترادف قيمة لسانية وغاية نفسية أو اجتماعية لدى الباثّ باعتباره هو من يبدي النّصح مثلا ولكن بصيغة الأمر كما في المثال السابق في رسالة القلقشندي، وبهذا الحضور الكثيف له في هذا النّص التّراسلي، فإنّه يحيل إلى قضية مهمّة في التّراث اللّغوي العربي؛ ويتعلّق الأمر بثنائية اللّفظ والمعنى في الثّقافة العربية، مما يسمح لنا بالقول بأنّه إستراتيجية مجدية في تحليل النصوص والخطابات لها بعدها التداولي والثقافي.

وكذلك نجد التّرادف مرة أخرى وفي نفس العبارة بين المفردات المكملة لنفس الخطاب، وبنفس الغرض الذي هو التّحذير؛ وهذا الترادف هو حاصل بين هذه المتواليات:

---

[1]– صبح الأعشى، ج**10**/195 وما بعدها بتصرف.

[2]– محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، معجم مختار الصحاح، قراءة وضبط وشرح: محمد نبيل طريفي، ط1، دار صادر، بيروت، لبنان، 2008، ص427.

الهوى= الغواية= الهلكة

↓

(عملية انفجارية شكلية للفظ)

↓

المدلول واحد

وهذه الملفوظات أو الوحدات اللّغوية تنتمي إلى حقل دلالي واحد؛ وكل واحدة منها سبب ونتيجة للأخرى وعنها. ونجد الشيء نفسه بالنسبة لقوله:«... فلا يَصِلَنَّ إلى مشافهتك ساعٍ بشبهة، ولا معروفٌ بتهمة، ولا منسوبٌ إلى بدعة»[1].

فالمتلقّي لهذا الخطاب سيدرك اهتمام المُرسِل بالمرسَل إليه وسيتحسسُ ذلك الشعور الذي ينتابُ المرسل وهو( الخوف) على محاوره من كيد الكائدين. فالترادف يجلي مضمرات القول من خلال تكرار المعنى بملفوظات جديدة تصب في نفس الدلالة كما في هذه الاختيارات:

- شبهة.
- تهمة.
- بدعة.

وقد يكون هذا التّرادف توسّعا في القول، وتمطيطا للمعنى، وتأكيدا على حاجة في النفس، غير أنّه بدافع التأكيد على معنى حاصل لدى طرفي التخاطب وإنْ توسعت دائرة الملفوظات: ويتمثل في فعل طلبي أو اقتضائي عبّر عنه المتكلم بفعل الأمر الذي يفيد الطلب.

وفعل الأمر يعتمدُ على التّسميع والنبر والتنغيم ليُحصّلَ مراد المتكلم لدى السامع لأنّه من الاستلزامات المقامية التي تأخذ أكثر من صورة سمعية على مستوى التلفظ، وأكثر من صورة خطية على مستوى الكتابة، وعلى هذا فالخطاطة التالية توضح مدى تداولية فعل الأمر وتحيقيه للغاية التوجيهية التي تجعل من متلقي الخطاب يصغي لمخاطبه حتى ولو كان غير مقتنع بكلامه وذلك نظرا لتركيبة فعل الأمر ومكوناته الصرفية والصوتية، فنبرة الخطاب الحادة تختلف من متكلم لآخر حسب الموقف الكلامي والتواصلي، فكذلك هو الحال بالنسبة للنصوص التي استثمرها القلقشندي في موسوعته كالرسائل السلطانية وخطب الحروب فهي تتطلب الكثير من أفعال الأمر لأنّ المقام يتطلب ذلك، فالرسالة الصادرة عن الأمير

[1]- صبح الأعشى، ج195/10 وما بعدها بتصرف.

أو الوزير أو القائد ليست كباقي الرسائل الموجهة للعامة، فهي أقل حدة وتأثير حتى وإنْ كثرت أفعال الأمر فيها.

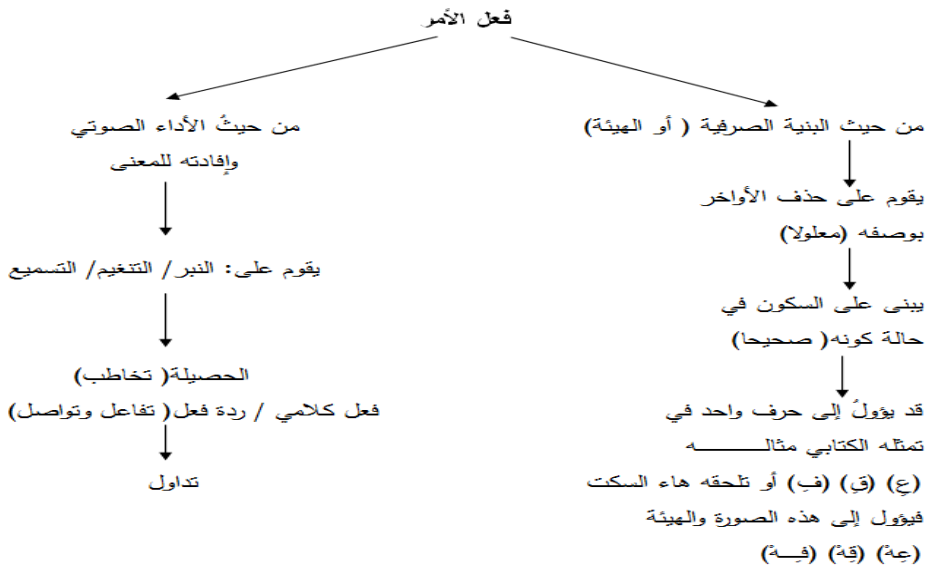


**مخطط يوضح: مرفولوجية فعل الأمر وتداوليته**

وقد مضى القلقشندي في مؤلفه" صبح الأعشى" بأن جعل لكل باب فصولا تنضوي تحته؛ حتى يصل إلى الملاءمة المقامية بين القائل ومحاوره مراعيا في ذلك جميع السياقات التي تحيط بالمتكلم بوصفه فاعلا ومنفعلا في الوقت ذاته، وحتى يحقق الإقناع لدى المتلقي. ومن خلال تلك الأمثلة التي سقناها كشاهد على ملامح التداولية في" صبح الأعشى"، يتضح لنا أنّ هناك علاقة وطيدة بين المتكلم وبين ما يتفوّه به من ملفوظات وبين المقام الذي هو فيه والحاجة الكامنة في نفسه والمعبّر عنها بخطابات مُتَخَيَّرَةٍ ومقصودة. كما لا ننسى أنْ نشير إلى أنّ القلقشندي قد أولى موضوع" الكتابة" العناية والاهتمام حيث اعتبرها هي البديل عن الكلام والتخاطب، خصوصا إذا علمنا أنّه أَحَدُ الكَتَبَةِ الذين نذروا أنفسهم لخدمة ديوان الإنشاء.

وتبرز الملاءمة بين" الكتابة" وما تحمله من رسائل وعهود؛ أي ما تحمله من متضمنات قولية في استجابة المرسل إليه، وذلك بأن يَرُدَّ هذا الأخير عن الكِتاب بكِتاب آخر، وهذا ما تعبر عنه الصيغة اللغوية للمكاتبة التي تفيد المشاركة بين طرفين يحققان الملاءمة المقامية. ومن بين المواضيع التي كانت تمثل" مركزا" في" صبح الأعشى" قضية" الكتابة" وفضلها ومنزلتها وشرفها. ولعل رمزية العنوان وحمولته

الدلالية تشير إلى مسألة" الكتابة" وكيفية الوصول إلى إجادتها وإتقانها. وليس يخفى أنّ" الكتابة" مرحلة لاحقة وبعدية؛ وهي الوجه الثاني" للغة".

وقد عمل القلقشندي على استثمار جميع أدوات اللغة من أجل الحجاج والإقناع والوصول إلى نتائج تُدخل الارتياح لدى المتلقي وتخْلق فيه الرِّضا والتسليم باقتراحات القلقشندي الفكرية في مجالات عدة: كالفقه والحكم والسياسة والتاريخ، وبالخصوص في قضية" الإنشاء" وفاعليته في تحقيق مبادئ البراغماتية والحوارية. فالذي يتعاطى الكتابة أو الإنشاء لا بد وأن يكون قد تسلح بكل أدوات اللغة وميادينها من شعر ونثر وخطابة ورسائل وبلاغة، ومن نحو وصرف ورسم وإعراب.

وعند النّظر في قضايا" صبح الأعشى" نتلمس الحسّ التداولي في شخصية القلقشندي، فنجده مثلا يعرض لقضية الشعر والنثر ويعقد لها فصلا ويرجح النثر على الشّعر ويُرجع السبب في ذلك إلى طبيعة القول وكيفيته في كلٍّ منهما:«.. فإنّ النثر أرفع منه درجة وأعلى رتبة وأشرف مقاما وأحسن نظاما؛ إذ الشعر محصور في وزن وقافية يحتاج الشاعر معها إلى زيادة الألفاظ والتقديم فيها والتأخير...، وصرف ما لا ينصرف ومنع ما ينصرف من الصرف واستعمال الكلمة المرفوضة، وتبديل اللفظة الفصيحة بغيرها وغير ذلك مما تُلجئ إليه ضرورة الشعر فتكون معانيه تابعة لألفاظه، والكلام المنثور لا يُحتاج فيه إلى شيء من ذلك فتكون ألفاظه تابعة لمعانيه...، وناهيك بالنثر فضيلة أن الله تعالى أنزل به كتابه العزيز...»[1].

لقد ترسّخ في وعي القلقشندي أن عملية التواصل والتحاور لن تتم في جوٍّ من العنت وإعمال اللسان والفكر وفق قواعد وإكراهات فرضتها قوانين كل علم؛ ولكنّها تتم في جو من التلقائية منحتها إياه سنن التخاطب اليومية، ولذلك فهو في حاجة إلى هذا الضرب من الخطاب الذي يُتيحُ مساحة من الحرية؛ إذ يهدف بالأساس إلى غاية تعليمية، والأمر الآخر الذي لم يفت القلقشندي هو وعيه التام بأننا لا نقضي حوائجنا بالشعر، والمعنى أننا لا نستعمل الشعر لنصنع به أحداثا في حياتنا اليومية، بل إننا نستعمل الكلام واللغة تبعا لحاجاتنا النفسية والروحية ومراعاة لظروف ومقامات السامعين والمتكلمين. فبين المرسل والمرسل إليه تذوب جميع العوائق والقوانين غير قانون التواصل الذي يعمل فيه الطرفان( المرسل والمرسل إليه) على إنجاح عملية التحاور بينهما. وليس يعني هذا أن الشعر مقصي في دورة التخاطب بين

[1]– صبح الأعشى، ج58/1 بتصرف.

المتحاورين، فهو في نظام الكتابة وسيلة فاعلة في الإقناع، غير أنّه يجيء ثانيا بعد النثر في عملية التخاطب والتواصل.

لقد تفطن القلقشندي إلى فاعلية" الإنشاء"( الكتابة) بوصفه تعبيرا وتمثلا ماديّا لتلك الأصوات المتتابعة عند فعل الكلام والتلفظ بواسطة إشارات خطية مكتوبة؛ وهذه الإشارات هي في حقيقة الأمر أدوات اللغة، ويلعب حُسن اختيار هذه الإشارات دورا مهمًّا في عملية التواصل والإقناع لدى المتحاورين، وهذا ما أكّد عن أهميته القلقشندي في المقالة الرابعة من كتابه عندما تحدث عن المكاتبات فعقد لها أصولا ينبغي مراعاتها حتى تؤتي- هذه المكاتبات- ثمارها[1]:

- **الأصل الأول:** أن يأتي الكاتب في أول المكاتبة بحسن الافتتاح المطلوب في سائر أنواع الكلام؛ من نثر ونظم مما يتوجب التحسين ليكون داعية لاستماع ما بعده.
- **الأصل الثاني:** أن يأتي في ابتداء المكاتبة ببراعة الاستهلال المطلوبة في كل فن من فنون الكلام.
- **الأصل الثالث:** أن يأتي في المكاتبة المشتملة على المقاصد الجليلة بمقدمة يُصدر بعدها تأسيسا لما يأتي به في مكاتبته.
- **الأصل الرابع:** أن يعرف الفرق بين الألفاظ المستعملة في المكاتبات فيضعها في موضعها.
- **الأصل الخّامس:** أن يعرف مواقع الدّعاء في المكاتبات فيدعو بكل دعاء في موضعه.

ولعلّ سببَ إدراج "صبح الأعشى" في التعليميات من قبل أكثر دارسي الأدب هو هذه الأصول التي يراها المؤلف لازمة لصاحب الإنشاء. ومن خلالها بنى تصوره عليها في اعتماد هذا الكتاب مصدرا رئيسا لمن التمس تعلم الإنشاء الذي هو بطبيعة الحال وظيفة في ديوان السلطان على عهد المؤلف، وليس المراد التأليف في فنون الكتابة الأدبية كما قد يفهم البعض؛ والدليل أنّ الإنشاء الديواني قائم على المكاتبات التي يرد ذكرها كثيرا في أثناء صبح الأعشى وصفحاته؛ وهكذا يمضي القلقشندي مُدلِّلاً على دور الكتابة وفاعليتها ومشيرا إلى بنياتها وأركانها التي لا يتم الإنشاء إلا بها.

ومما جاء في صبح الأعشى من فنون القول والأدب ذكره للمقامة والتي هي متنٌ حكائي ظريف يقوم على الدعابة، وعلى شخصيات افتراضية من نسج المؤلف نفسه، وقد تتعدد فيها الأصوات ويتنامى فيها الحدث، وقد تكون أحادية الصوت فيغلبُ عليها ضمير المتكلم كما فعل القلقشندي في مقامته التي

[1]- ينظر: صبح الأعشى، ج6/274-276- 278- 281- 284 بتصرف.

ضمنها في كتابه هذا، والتي سنتناولها- لاحقا- ونطلع على عوالمها وممكناتها الافتراضية والحقيقية، والتي سنرى من خلالها القلقشندي راويا وساردا ومتكلما ومحاورا.

وقد تحدث المؤلف عن هذا الصنف من الكتابة:" المقامة" وأشار إلى أنّها ليس لها تعلق بكتابة الدواوين الإنشائية وذلك في المقالة العاشرة من" صبح الأعشى"[1].

ففي هذه المقامة التي أسماها" الكواكب الدرية" يقصد القلقشندي إلى التركيز على قارئه فيُبيِّنُ له ضروب الخطاب وكيف أنّ الإنشاء جدير بأن يضطلع بدور خطابي مع مراعاة حال السامع، ومن أجل ذلك وجب- عنده- أن يتخير المتكلم ألفاظه حتى يؤثر في السامع ويشركه في العملية الحوارية والتواصلية:«... مقدّما من العلوم أشرفها، ومؤثرا من الفنون ألطفها، معتمدا من ذلك ما تألفه النفس ويقبله الطبع، مُقبلا منه على ما يستجلي حسنه النظر، ويستحلي ذكره السّمع... وموفيا لكل علم مُستحقه...»[2].

وبالرجوع إلى هذه المقامة سنجد موضوعها الرئيس هو الإنشاء، غير أنّ القلقشندي غيّر إستراتيجية العرض فيها من نمط الرسالة والخطبة إلى نمط السرد والحكي بالاعتماد مرارا على بنية السجع التي كانت السمة الظاهرة والغالبة على كتابه كما سنرى في الفصل الثالث.

ويمكن أن نصوغ تصور القلقشندي لفعل الإنشاء على النحو التالي:

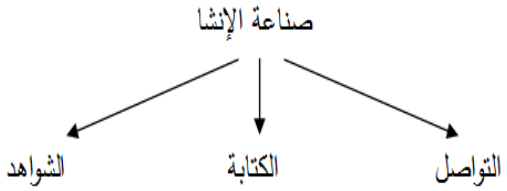


فالكتابة هي السّبيل الوحيد برأيه إلى الانخراط في صناعة الإنشاء؛ لأنّها هي وسيلته التي من خلالها يتمّ التّواصل عبر ما أسماه في كتابه بـ:" المكاتبات" وهذه الصيغة كما هو معلوم تفيد في العربية التشارك والتفاعل والتجاوب والتجاذب.

وقد اشترط القلقشندي صفات معينة في الكاتب من بينها:

- الإسلام( الأمانة).
- الذكورة.

---

[1]- ينظر: صبح الأعشى ، ج110/14.

[2]- م. ن، ج112/14.

- الحرية.
- التكليف.
- العدالة.
- وفور العقل وجزالة الرأي.
- العلم بمواد الأحكام الشرعية والفنون الأدبية.
- قوة العزم وعلو الهمة وشرف النفس.

وهذه الشروط التي اشترطها هي وليدة ملابسات عصر القلقشندي، ووليدة وجهة نظره الشخصية، فقد استثمر المؤلف كل هذه الشروط التي تنطوي على معاني الفضيلة والكمال في الإنسان، وعرضها عرضا سرديا في نص" مقامته". والذي يعنينا من هذا كله أنّ مدونة" صبح الأعشى" قد عكست اهتمام القلقشندي بفكرة الكتابة( الإنشاء).

إنّ هذه الشروط التي وضعها القلقشندي حول قضية الكتابة، توحي بأنّ هناك نوعا خاصا من المتلقّين وهم أصحاب الدّواوين الإنشائية، سواء الذين عاصروا زمن القلقشندي أو جاؤوا بعده، وبهذا يعد كاتب الإنشاء قارئا مستهدفا مشكلا في ذهن المؤلّف، أو أنّه صورة من تكوين المؤلف ذاته عن القارئ. فصبح الأعشى هو بمثابة خطاب موجه لعامة الناس، إلا أنّه يستهدف فئة معينة من المتلقين يَلقى من طرفهم الاستجابة والتّفاعل وهمْ المهتمون بالكتابة الإنشائية.

فنصوص" صبح الأعشى" هي نتاج تواصل تفاعلي بين المرسل[ المتكلم] والمرسل إليه[ المتلقي]، فالمرسل عبر النص يخلق سياقا آخر في عدم وجود السياق الفعلي للتواصل، ليمرر عبره عمليته التواصلية، وهذا ما يخلق نوعا من التفاعل بين المرسل والمرسل إليه.

وبما أنَّ العملية التخاطبية/ التواصلية تقوم على مكونات[ المتكلم، المخاطب، والناقل]، فإنّ المتكلم يقوم بعملية التركيب وصياغة المفاهيم ضمن نسق كلامي ما، أمّا الناقل فيتم ذلك عن طريق القناة الحسية بواسطة الأداة اللسانية، أمّا المخاطَب فمهمته تقتصر على التفكيك وفك الشفرات« فما تكلم أحد إلا وأشرك معه المخاطب في إنشاء كلامه كما لو كان يسمع كلامه بأذن غيره، وكأنّ الغير ينطق بلسانه»[1]. وبهذا فالمخاطب[ المتلقي] يقوم بعملية دلالية تشاركية ما إنْ يتلفظ المتكلم بكلامه؛ لأنّ هذه الدلالات الخطابية« لا تنزل على ألفاظها نزول المعنى على المفردات في المعجم، وإنّما تنشأ وتتكاثر

[1]– ينظر: عبد السّلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ط2، الدار العربية للكتاب، طرابلس، تونس، 1982، ص62– 87.

وتتقلب وتتفرق من خلال العلاقة التخاطبية، متجهة شيئا فشيئا إلى تحصيل الاتفاق عليها بين المتكلم ونظيره المخاطب»[1].فأثناء عملية التخاطب يعمل دائما المتكلم على إرسال خطابه واضحا خاليا من التعقيد، وكل ما من شأنه أنْ يخل بإيصال الرسالة، فيستعمل لذلك صيغا مشتركة بين طرفي العملية التخاطبية. وحتى يتم الفهم ويأمن اللبس لا بد أنْ يسلك المتكلم استراتيجيات خطابية تمكنه من توصيل هذه الرسالة بطريقة واضحة تحدث تفاعلا بينهما. فكذلك هو الحال بالنسبة للنص، فتبليغ مقاصد ومرامي المتكلم يرجع بالأساس إلى مدى قدرة المتلقي على الفهم والتفكيك والتحليل والتفسير للوصول إلى الغرض المستهدف من النص.

الاستراتيجيات الخطابية إذن، هي« طرق محددة لتناول مشكلة ما، أو القيام بمهمة من المهمات، أو هي مجموعة عمليات تهدف إلى بلوغ غايات معينة أو هي تدابير مرسومة من أجل ضبط معلومات محددة والتحكم بها»[2]. ويعني هذا أنّ الإستراتيجية ما هي إلا طريقة يتبعها المخاطِب للوصول إلى أهدافه ومراميه، وهو ما نجده في خطاب القلقشندي في" صبح الأعشى" الذي استعمل فيه عدة استراتيجيات لإيصال مقاصده إلى مخاطبيه على اختلاف طبقاتهم، فنجد فيها: خطاب الفتيا، وخطاب الباعة في السوق، وخطاب المكاتبات، وخطاب رجال الدين والمذاهب، وخطاب أصحاب الملل والنّحل...

لقد تنوّعت هذه الاستراتيجيات في خطابات القلقشندي وفق مقامات ومواقف التواصل، فأحيانا ترد تصريحية، أو توجيهية، أو إقناعية، وأحيانا أخرى تلميحية خصوصا إذا تعلق الأمر بتلك الجوانب التي تتطلب عدم التصريح بالمراد.

إلا أننا أردنا أن نقف على منجزات الإستراتيجية التلميحية للكشف عن تلك المعاني المبطنة والمقاصد الخفية التي أراد القلقشندي تبليغها إلى مخاطَبه وتحقيق أهدافه الخطابية بطريقة غير مباشرة. ولا يعني عدم تناول بقية الاستراتيجيات بالتفصيل[3] انتقاصا من كلامه أو أنّها لا تحمل مقاصده، بل هي الأخرى كان لها دورها الفاعل في توجيه الخطاب وفق ما يريده القلقشندي.

---

[1]– طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2000، ص50.

[2]– عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب( مقاربة لغوية تداولية)، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان/ دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، 2004، ص53.

[3]– ستكون لنا وقفات عن كل الاستراتيجيات في المباحث الموالية.

## المبحث الثّاني

## إستراتيجية التّلميح واستلزام التّخاطب في" صبح الأعشى"

### أوّلًا: الإستراتيجية التّلميحية والاستلزام الحواري:

من البديهي أنّ العربي تكلّم بلغته التّي عبّرت عن جميع حاجياته اليومية وحتى الروحية، فعند كلامه مع إخوانه في الأسواق والأندية، كانت المواقف تختلف باختلاف المنجزات اللغوية التي ينطق بها لسانه. وفي كل حواراته اليومية وتواصله مع الآخرين، كان ينشدُ المعنى الذي يريده والحاجة التي يبتغيها.

إذن، كان للعربي لسان يسعفه في تقصّي المعنى، وكان هذا المعنى محكوم بعملية التواصل؛ أي أنه يقتضي: مرسل ومرسل إليه، بالإضافة إلى أنّ هذا المعنى هو محكومٌ بـ: سياقات عديدة ومختلفة. وهذا المعنى ذاته كان يتعدد بين:

- الصريح.
- الضمني.

فالتّداولية كذلك؛ تعدّ حلقة وصل بين المعنى الحرفي الصّريح والمعنى المتضمّن في القول( شكل الجملة) وهذا ما أُطلق عليه" الاستلزام الحواري"[1]،أحد أهم المفاهيم التي تقوم عليها التداولية، والذي وضعه الفيلسوف الأمريكي" غرايس P. Grice. وهو مفهوم يعني أن التواصل الكلامي محكوم بمبدأ عام هو: مبدأ التعاون Principe de coopération وبمسلمات حوارية، وسلامة القول وقبوله من قائله، وملاءمته مستوى الحوار. ومن هنا يمكننا التساؤل عن تجلياته في صبح الأعشى؟

### 1- الاستلزام الحواري في مدوّنة" صبح الأعشى":

يقول القلقشندي في الصنف الخامس من الرّسائل/ الضّرب الأول:« قد جرت عادة مشايخ الأدب وفضلاء الكُتّاب أنّهم يكتبون إلى الأفاضل بالمسائل يسألون عنها: إمّا على سبيل الاستفهام واستماحة ما عند المكتوب إليه في ذلك، وإمّا على سبيل الامتحان والتّعجيز، ثم تارة يجاب عن تلك الأسئلة بأجوبة فتكتبُ، وتارة لا يجاب عنها، بحسب ما تقتضيه الحال»[2].

لو تأمّلنا قوله جيّدا لوجدنا القضيّة الآتية:

---

[1]- وترجع نشأة البحث فيه إلى المحاضرات التّي ألقاها غرايس في جامعة هارفارد سنة 1967، وبيّن فيها الأسس المنهجية التّي يقوم عليها.

[2]- صبح الأعشى، ج14/ 240.

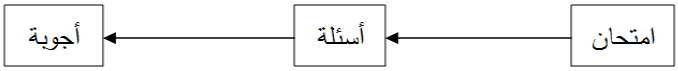


ثم لوجدنا القضية الثانية:

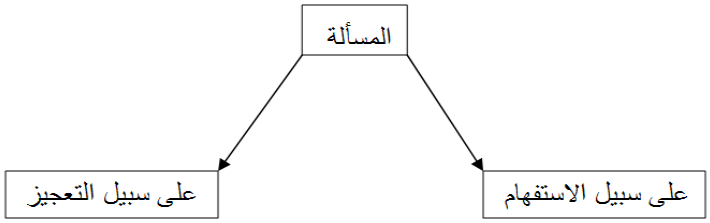


ثم لوجدنا القضية الثالثة:

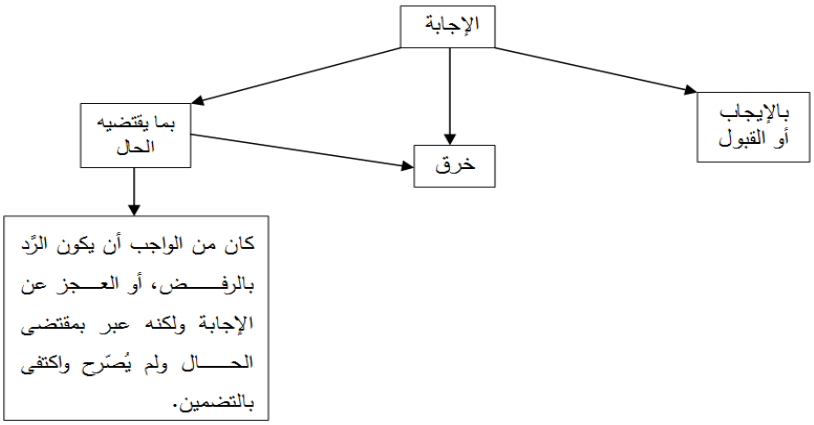


لو تأملنا هذا القول لوجدناه يحمل معنًى خفيّا في نفس القلقشندي بوصفه من ساق الشاهد، فعندنا في هذه القضية:

1- السائل: مشايخ الأدب وفضلاء الكتاب.

2- المجيب أو المعني: الأفاضل من أهل الفتوى.

3- المسألة وفيها مقاصد عدة:

أ- على سبيل الاستفهام.

ب- على سبيل الاستماحة.

ج- على سبيل الامتحان.

د- على سبيل التعجيز.

لدينا الآن: سائل يسأل ومجيب يرد، ولكننا نسجِّلُ خرقا لمبدأ من مبادئ الخطاب في هذه القضية، فالمعني أو المجيب عموما أجاب مرّة- في نظر القلقشندي- بالقول الصريح المباشر. وهو أنّ هؤلاء المشايخ لمّا سألوا الأفاضل أجابوهم مرة بالقبول فصرّحوا بذلك فجاءت الإجابة صريحة؛ أي إنها تحتمل:

أ- نعم ⟵ إثبات.

ب- لا ⟵ نفي.

ثم إن السؤال هو على حسب السياق يحتمل أن يكون:

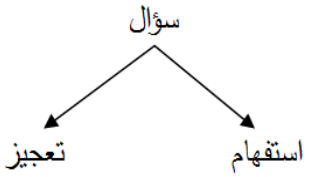


فينتج عنه:

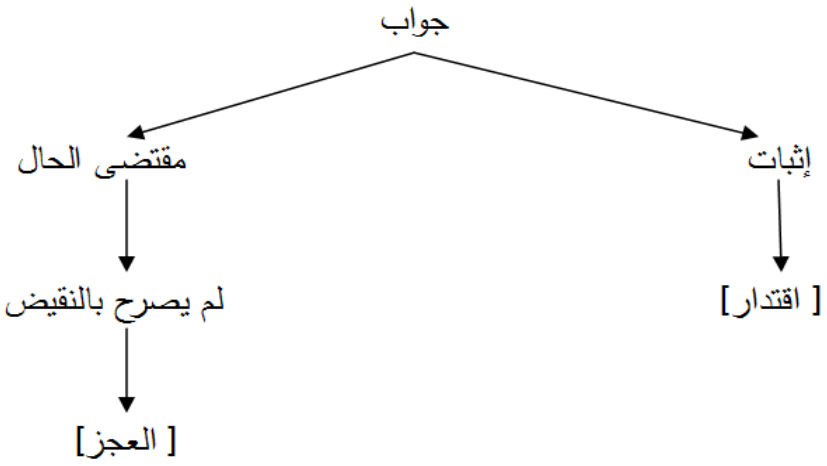


واكتفى بأن قال:" وتارة لا يُجاب عنها"[1] أي الأسئلة ولم يبيِّن العلة. وعبر عنها من خلال السياق بالبناء لما لم يسم فاعله( المجهول) فيفهم منه أنه:

- لا يُجابُ عنها لعدم وجود من يجيب.
- لا يُجابُ عنها لعدم القدرة على الإجابة.
- لا يُجابُ عنها للخشية من عواقب الإجابة.

[1]- صبح الأعشى، ج240/14.

وهذه الاحتمالات الثّلاث من السّياقات فرضها المقام أو ما تسميه البلاغة" مقتضى الحال" وهذا الأخير تراعى فيه أحوال المتكلم والسامع والمانع وغيرها من ملابسات الحال التي عليها المتكلمون( المتحاورون). فالدلالات الاستلزامية متغيرة دائما بحسب السياقات التي ترد فيها.

**ولمّا** نجيء إلى المثال الآخر الذي أورده القلقشندي وهو بيت من الشعر، وكثيرا ما يكون الشاهد الشعري وهو من اختيارات القلقشندي نفسه، يورده ليعضد به رأيا أو قضية أو قياسا:

شَخَصَ الأنامُ إلى كَمالِكَ فاستعذْ من شرِّ أعيُنِهم بعيبٍ واحد![1]

في هذا البيت؛ يبدو المعنى متّسقا ومنسجما، وتبدو الألفاظ حاملة لمعانيها الصّريحة والضّمنية، ولكن يوجد فيه خرق **لمبدأ المناسبة Relation** وهي كما يقول غرايس أن تجعل كلامك يناسب الموضوع من معظم أجزائه أو كلها. فالناس كلهم تطلعوا إلى كمال الممدوح، وإلى هذا الحد من العبارة يكون الكلام مفهوما وصريحا. وما يأتي بالفعل" استعذْ" الذي يشتمل على صيغة أمرية تفيد الطلب حتى ينكسر ذلك الكمال أو ذلك التصور عن فكرة الكمال التي يتمتع بها الممدوح. ثم يأتي الخرق مرة أخرى في قوله:« استعذ بعيب واحد»[2].

وكان من المنتظر والمتوقع أن يقول:" استعذ بالله". فالله هو الذي يُمثل الكمال المطلق وهو المستجار بجنابه من الشرور كلها، ولكنه أوْكَلَهُ إلى النقص فكسر أفق التوقع لدى القارئ فتولدت صورة في ذهن المتلقي عن الممدوح بأنه يعوزه الكمال، وأنه إنما حاز واحدة من الكمالات أو جهة من الكمالات.

كيف للعاقل أن يستجير بالعيوب، ومتى كانت العيوب سِترا وملاذا؟ بل إن الخلق كلّهم يتسترون من العيوب، ويأنفون أن تظهر عيوبهم للعلن؛ ولكن الشاعر أعطى انطباعا عن طريق التمويه فلم تتلاءم المعاني لوجود هذا الانزياح الذي انضوى تحت هذه المعاني المضمرة غير الصريحة التي استدعت استلزاما حواريا. ومن هذا المنطلق ألَّحت عبارة القلقشندي الشعرية على المُخاطب والمتلقي أن يفُك شفرة الخطاب من خلال الاستعانة بمجموعة القرائن الدالة التي تسهل عليه عملية التأويل والفهم والتفسير والقراءة الجيدة للخطاب ضمن التواصل الصحيح.

فالقرينة الدالة" استعذْ" تحمل القارئ على أن يستنتج أنّ المادح يخشى ممدوحه من العين، فطلب منه أن يتوقى من أعين الحساد ولو بعيبٍ واحدٍ، فدل السياق على أن الممدوح قد بلغ رتبة من الكمال

[1]– صبح الأعشى، ج242/14.

[2]– نفسه.

تنمحي أمامها النقائص مهما دقت، فراح يحثه على أن يجد لنفسه ولو عيبا واحدا، وهذا يحيل القارئ إلى أن يستنتج:

- أن المادح تناهى في الخشية على الممدوح.
- أن الممدوح تناهى في أوصاف الكمال.

وقد تضمنت عبارة القلقشندي معنى صريحا مباشرا، وآخر ضمنيا غير مباشر.

فالأول: رؤية الناس لكمالات الموصوف وهذا أمر مُشاهدٌ منوط بجارحة الحس كأن يرى الرائي:( ثروته، جاهه، مكانته، علمه، قوته، جماله...)، بالإضافة إلى كماله المعنوي:( حظوته، أدبه، حشمته، خُلقه...).

والثاني: تمثل في الأسلوب الإنشائي غير الصريح، والذي تمثل في أسلوب الأمر الذي يراد منه الطلب على سبيل النصح النابع من الشفقة على الممدوح من قِبل المادح.

وسنوضح هذه الفكرة عبر هذه الخطاطة:

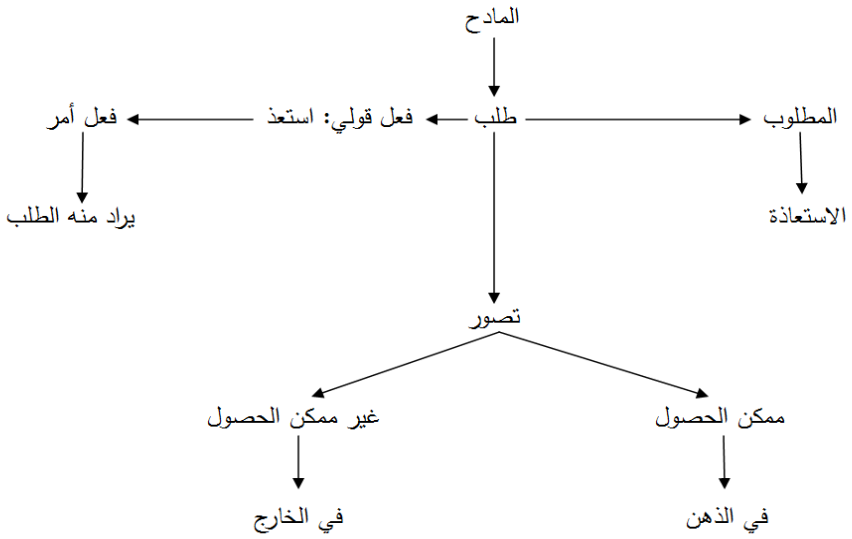


وبهذا تكون اللّغة مؤهلة للتّعبير عن الأشياء الحاصلة في عالم الموجودات، ومؤهلة للتعبير أيضا عن الأشياء التي يمكن حدوثها وهي لم تحدث بعد، وعن الأشياء التي ليست حاصلة في عالم الموجودات، ولا يمكن حصولها فيه ولكنها في عالم المجردات؛ أي في عالم الفرضيات الممكنة وغير الممكنة.

ففي قوله:" استعذ بعيب واحدٍ!" فيه إضمار أمرٍ مستحيلٍ على سائر البشر وهو أنّك لو ذهبت تبحث عن عيب في هذا الممدوح لما وجدت؛ وهذا الذّي يتعذّر على المتلقي تقبله طالما أن الحديث يجري

عن كائن يتلبس بالنقص والحوادث، فالعبارة من المبالغات التي تفتقر إلى الصدق وإن تضمنت معنًى جميلا. وقد قال علماء البلاغة قديما عن هذه الظاهرة" أعذب الشعر أكذبه" وقام بالمقابل آخرون فقالوا:" أعذب الشعر أصدقه" وقام بين الفريقين جِدالٌ لغوي وأدبيٌّ ماتع أدى إلى ظهور آراء جديدة في النقد، وظهور مؤلفات ككتاب:" نقد الشعر"[1].

ويظلّ الكلام يحمل في طياته معاني وفهومات تتغير بحسب المقام وحسب القائل والمتلقي. ولقد كانت نقطة البحث عند غرايس هي هذه العلاقة المعقدة بين المتكلمين في حواراتهم؛ فقد يقولون ما يقصدون وقد يقصدون أكثر مما يقولون، وقد يقصدون عكس ما يقولون، فجعل همَّه إيضاح الاختلاف بين ما يُقال، وما يقصد. فما يقال هو ما تعنيه الكلمات والعبارات بقيمها اللفظية، وما يقصد هو ما يريد المتكلم أن يبلغه السامع على نحو غير مباشر اعتمادا على أن السامع قادر على أنْ يصل إلى مراد المتكلم بما يُتاح له من أعراف الاستعمال ووسائل الاستدلال، فأراد أن يقيم معبرًا بين ما يحمله القول من معنى صريح، وما يحمله من معنى متضمن فنشأت عنده فكرة الاستلزام الحواري[1].

**2- من القوّة الحرفية إلى القوّة المستلزمة:**

للكلام قوة فاعلة في ألفاظه أو في التلفّظ أو في طريقة التلفّظ. وهذه القوة في إمكانها إحداث آثارٍ عنيفة وخلق مواقف قضوية متنوعة عبر صيغٍ لغوية منها: النبر والتنغيم والاستفهام والترجيع والتكرار. وكل صيغة ترصُد أو تستتبع حالة شعورية ونفسية لدى المتكلم والمتلقي.

يعمد الدرس التداولي إلى التنويه إلى قوتين إنشائيتين تواكبان العبارة اللغوية: قوة إنشائية حرفية، وأخرى مستلزمة متولدة عن السابقة طبقا لمقتضيات مقامات تداولية مخصوصة. وقد اصطلح على ظاهرة الانتقال من القوة الحرفية الطبيعية( ق ح) إلى القوة المستلزمة غير الطبيعية( ق م) بالاستلزام الحواري L'implication Conversationnelle.

واللافت للنظر في مدونة" صبح الأعشى" أنها قد توافرت على هذه القوة الإنشائية في جانب التّراسل أو فنّ الرّسالة: الإخوانية أو الدّيوانية، ولكن الإنشاء هو في الإخوانيات أكثر منه في الديوانيات لأنها- أي الإخوانيات- مليئة بالطُرف والمِلَحِ والحوارات ذات البعد التداولي والحجاجي.

إن هذه الرسائل قد حفلت بالإقناع من خلال ما تردد فيها من أخذٍ وردٍّ بين المتحاورين، بالإضافة إلى الأساليب الإنشائية التي طغت عليها:

[1]- ينظر: إحسان عباس، تاريخ النّقد الأدبي عند العرب، ط4، دار الثّقافة، بيروت، لبنان، 1983، ص29.

- الاستفهام.
- التّعجب.
- الطّلب.
- الأمر.
- النّهي.

وهذا ما أضفى عليها صبغة إنشائية محضة زادت في قوّة الخطاب وقوّة الاستلزام الحواري.

يقول القلقشندي على لسان بعض الحكماء:« من تمام كرم المُنْعم التغافل عن حُجَّته، والإقرار بالفضيلة لشاكر نعمته؛ لأن المحاجَّة مغالبة، ولا تتم مودة إلا مع المسامحة. ولذلك قال الرَّبعيُّ لناسٍ من العرب يختصمون: هل لكم في الحق أو خير منه؟ قالوا: قد عرفنا الحق، فما الذي هو خير منه؟ قال: التغافل فإنّ الحق مرٌّ»[2].

ثم ساق القلقشندي الحوار بين بنت هرم بن سنان وابنة زهير بن أبي سلمى:

- قالت بنت هرم: إنه ليُعجبني ما أرى من حسن شارتكم، ونقاء نفحتكم.
- قالت ابنة زهير: أما والله لئن قلتِ ما قلتِ فما ذلك إلا من فضول ما وهبتم، ومن بقايا ما أنعمتم.
- قالت بنت هرم: لا بل لكم الفضل، وعلينا الشكر، أعطيناكم ما بقي، وأعطيتمونا ما يبقى[3].

في هذا الكلام الذي ساقه القلقشندي نلمس فيه ما يأتي:

أولا: توطئة للكلام

ما من متكلم يريد أن يصل إلى مراده إلا ويستفتح كلامه بمقدماتٍ ولا يذهب إلى مقصوده مباشرة. وهذا من مستلزمات الخطاب أو قل هو من إفرازات الطبع والعادة، وهو ما حصل مع القلقشندي في رسالته. ويمثل قوة حرفية في صياغات مباشرة.

ثانيا: تطعيم الكلام بما يعضده

وتَمثَّل في الحوار الذي ساقه القلقشندي بين متحاورين، ويُمثّل القوة الحجاجية والإقناعية للمتلقي.

ففي المثال الأول أورد القلقشندي السؤال على لسان شخص واحدٍ:

- الرَّبعيّ ←—— السّائل.

---

[1]- ينظر: محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، مرجع سابق، ص33.

[2]- صبح الأعشى، ج174/14.

[3]- نفسه.

وجعل الجواب على أفواه مجموعة من الناس بوصفهم:[ مجيب].

ثالثا: الخلوص إلى محصلة القول

وهنا ينتهي القلقشندي إلى إيضاح وتوجيه الفرق بين المتحاجين عن فضل

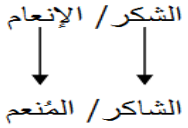


**القوّة الإنجازية الحرفية:** وهي القوة الدلالية التي وردت في الاستفهام الذي ساقه القلقشندي على لسان الرّبعي. وهذا السؤال ساقه السائل يتضمن استفهاما وزيادة:

قال الرّبعي: هل لكم في الحق أو خير منه؟.

فجاء الاستفهام بأداة تحمل العرض والحضّ على الأمر الذي يعرضه وهو[ الحق].

ثم أراد السائل أن يستفز المخاطب ويشد انتباهه ويُشركه في العملية التحاورية ويُشركه في الموقف القضوي، فخرق مبدأ الكم، فلم يكتف بكمية الإخبار الذي يجب أن تلتزم به المبادرة الكلامية وإنما أضاف إليه هذا المقدار الزّائد بعد( أو) التخييرية والتي تنطوي على استلزام حواري يتضمن مقاصد غير مباشرة. فالناس كلهم يجمعون على محبة الحق لكنهم يتفاوتون في إتباعه والعمل على مقتضاه، ولكنّهم لا يدرون على وجه التحديد، ما هو أفضل من الحق.

وهنا يصرح السائل بقصوداته التي تلبَّست في شكل حواري؛ فقال:" التغافل" الذي منحه صفة الخيرية. وأنّه مجرّبٌ في حياة الناس وأنه أجدى من الجدل والمماحكات اليومية التي تحدث في الأسواق والشوارع والأندية.

ولعلّ القلقشندي يبدي مطاوعة إزاء هذا الطرح الذي تم بين المتحاورين في هذا السجال الكلامي، وكأنه أراد أن يذكرنا بوصية الله لنبيه في القرآن الكريم وتوجيهه إيّاه إلى أفضل سبيل في معاملة الجاهلين والمكابرين: قال الله عز وجل:﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩ ﴾الأعراف: ١٩٩. فالإعراض هنا صنو ونظير التغافل هناك في حوار الربعي لناسٍ من العرب. ولهذا بدأ كلامه بالتوطئة فأفادنا بنتيجة عامّة:[ المحاجة مغالبة][1].

[1]– صبح الأعشى، ج174/14.

نلاحظ إذن؛ أنّ القصد لم يفهم من قبل المرسل إليه( ناس من العرب) فحدث خرق لمبدأ التعاون الذي يقوم على التشارك بين قصد المرسل والمرسل إليه بغية فهم الخطاب. ونجد أن هؤلاء( الناس من العرب) وقع عندهم تردد أو ما يشبه التردد النابع من الحيرة التي ولّدتها طريقة الاستفهام من المُرسل فقالوا إجابة على سؤاله:

قد عرفنا الحق←ـــ فكان هذا الجواب خرقا لمبدأ الكيف إذ إنّ الرد قام دون أية حجة، فكأنهم أرادوا أن يقولوا له في أسلوبِ الواثق:" الحق بيِّن" وأن هذا المعنى متعارف عليه بين الناس جميعًا فأنكروا أن يكون هناك شيء وراء الحق أو أفضل منه أو أكبر منه، ولم يجيء في أذهان هؤلاء المتلقين ما يرمي إليه السائل، فقالوا على البديهة:

[ فما الذي هو خير منه؟]

فأجاب القلقشندي على لسان الرّبعي بجاهزية محيرة وغير متوقعة قائلا:" التغافل". وهنا وضع القلقشندي القارئ أمام معضلة فكرية فأية علاقة بين:

الحق/ التغافل

وهنا نسجل خرقا لمبدأ الطريقة Modalité التي تنصب أساسا على التزام الوضوح في الكلام وتجنب الالتباس والغموض، إضافة إلى أنه خرج عن حيِّز المعنى الصريح إلى المعنى المتضمن في القول، فالرّبعي أشار إلى أنّ الحق هو في" التغافل والإعراض" فإنّ الناس أقرب إلى اللجاجة والإلحاح حين يتعلق الأمر بالمطالبة بالحقوق وحين تجيء حظوظ النفس غالبة تتخطى" الحق" و" الدين" و" الواجب" و" الحكمة" وحينئذ يصير الإنسان أشبه بالحيوان الذي يفتقر للعقل والإنصاف. ومنه فإنّ اقتراح القلقشندي على لسان الرّبعي يوافق الحكمة ورجحان العقل.

وفي الأخير، عمد القلقشندي على لسان الربعي إلى تبيان العلة وراء تفضيل:[ التغافل على الحق] وهي مفاضلة لها ما يبررها في منطق المتحاورين، وفي منطق الخطاب والدرس التداولي.

قال في آخر الحوار:[ إنّ الحق مرٌّ][1].

وهذا إخبار منه لمجاوزة" الحقّ" إلى ما هو أجدى منه وهو:" التغافل" لعلة مانعة هو[ أنّ الحق مرٌّ] وأنّ نفوسهم لا تطيقه وتأباه. وهذا الذي رمى إليه يخدم مقولة البلاغة القديمة:[ المقام/ مقتضى الحال]، ويصب في قول البلاغيين الذين أولوا المقام منزلة معتبرة في عملية التخاطب والسياق ومقتضياته.

[1]– صبح الأعشى، ج174/14.

في هذه المحاورة القصيرة، تحقّق مبدأ التعاون الذي دعا إليه غرايس وجعله أساسا في مبدأ الالتزام الحواري حيث أنّ القلقشندي قال على لسان المتحاورين ما كان يهدف إليه ويؤمن به؛ فهذه العبارات على قصرها تحمل فكر القلقشندي وتعكس جو المناظرات وسمة العصر.

وقد حدث أن وقع في أثناء كلام المتحاورين شيء من الانتهاك في طريقة عرض الأفكار من ناحية[ التقبل، الاستفهام الذي يراد منه معاني بعيدة...] وهذا هو الذي ولّد الاستلزام، مع العناية والحرص والمحافظة على عملية التبليغ[ تبليغ المخاطَب فحوى الرسالة]. وهنا لا نسجل أية صعوبة مصطلحية رُغم أنّ هذه المحادثة الصغيرة من منبع تراثي محض، ولكننا نجد أنفسنا وجها لوجه مع صعوبة في عملية الفهم والتأويل.

وقد سجّلت المحادثة بين المتحاورين عملية استدلال صحيحة سواء في المقدمات أو النّتائج. ومن المعلوم أن السبب في سوء الفهم يرجع غالبا إلى كذب مقدمة واحدة على الأقل من المقدمات المستخدمة مما يؤدي إلى كذب النتيجة. وفي حالة« الاستدلالات المضمنة في الاستلزامات الحوارية، لا يكون صدق المقدمات أو كذبها في حد ذاتها السبب في ذلك، بل إنّ مرده إلى أنَّ المتخاطبين يشتركون في هذه المقدمات ويسندون إليها قيمة الصدق نفسها»[1]، وهذا هو الحاصل في مقولة القلقشندي التي سنبينها من خلال هذه الخطاطة البسيطة:

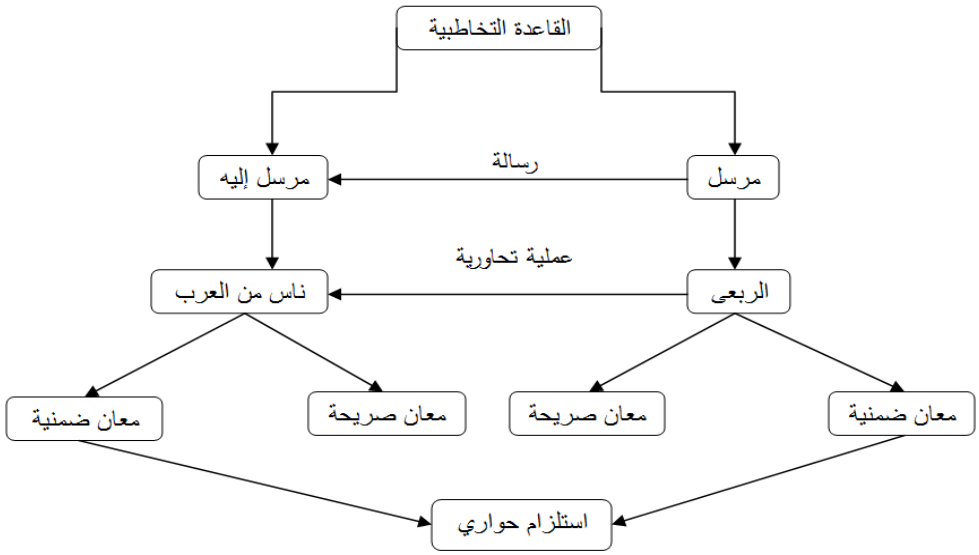


**مخطط يوضح: القاعدة التخاطبية بين المتحاورين**

[1]– آن روبول، جاك موشلار، التّداولية اليوم علم جديد في التواصل، مرجع سابق، ص63.

**3- مظاهر القوانين الغرايسية في" صبح الأعشى":**

توسع القلقشندي في إيراد الأمثلة من مختلف مراحل التاريخ العربي، ومن مختلف الثقافات المتاحة له. وقد عمد إلى تقديم آرائه على ألسنية" الذوات العميقة" حتى يعصم نفسه من التفسير المباشر كما فعل مع الأمثلة التي سقناها. والملاحظ أنّ مدونة" صبح الأعشى" حافلة بمظاهر القوانين التي سنَّها غرايس والتي أعاد النظر فيها مرارا حتى يجعلها فاعلة ويضفي عليها صفة الإيجابية. ومن المهم الإشارة إلى أن هذه النظرية التي ترمي إلى تفسير العلاقة بين المتكلمين والمتحاورين لها هدف يلتقي مع الطرح التراثي في البلاغة العربية والمتمثلة في الوصول إلى البيان أو التبيان عن المقاصد؛ فالبيان طريق ذات اتجاهين يسير فيها الناطق والمتلقي ليجتمعا عند نقطة التفاهم.

**3-1- قانون الإفادة:**

لا شك أن مدونة" صبح الأعشى" غنية بالخطابات ذات الحمولة الثقافية المفيدة للقارئ والسامع والمُخاطَب عموما. ولعلنا ونحن نقرأ الحوار الذي دار بين ابنة زهير وابنة هرم نلمس ذلك البعد الأخلاقي الراقي الدال على التفاهم والانسجام الاجتماعي بين الفتاتين، وقد حمل هذا الحوار شحنة دلالية عاطفية بيّنت منازل الرجال ورتبهم عند ذويهم وعند القبيلة:

- الحوار يعكس:[ الكلام]، وفضيلة[ المال].
- وأحدهما يتصف بـ:[ الفناء]، والآخر بـ[ البقاء].

وكان الحوار في غاية الرقة والرقي لأن المتحاوِرَيْن من أهل الفضل والأدب وليسا من السُّوقة والعوام.

وتستطيع القول؛ أن هذا الحوار هو الغاية في الفهم والبساطة، ولمْ تُحترم هذه الشروط والالتزامات بمبادئ المحادثة الصحيحة لَما وصل إلينا الخبر، ولَما أفاد هذه الفائدة ولَما جنينا نحن بوصفنا قُرّاء ومتلقين ثمار هذه المحاورة:

- قالت ابنة زهير: أما والله لئن قُلتِ ما قُلتِ، فما ذلك إلا من فضول ما وهبتم، ومن بقايا ما أنعمتم.
- قالت بنت هرم: لا، بل لكم الفضل وعلينا الشكر، أعطيناكم ما يفنى وأعطيتمونا ما يبقى[1].

[1]- صبح الأعشى، ج174/14.

فالفائدة التي جناها المتلقي هو أنّه شهد حوارا راقيا عن فضيلتين لهما شأنهما الخطير في حياة البشر:

**المـــــــــال/ الكلام**

والقصد من المحاورة أيضا هو بيان قيمة هاتين الخصلتين بالإضافة إلى نقطة التقاء بين المُتحاوِرِيْن وهي:[ التواضع].

ولا باس أن نشير إلى أطراف القصة كاملة عبر هذا المخطط:

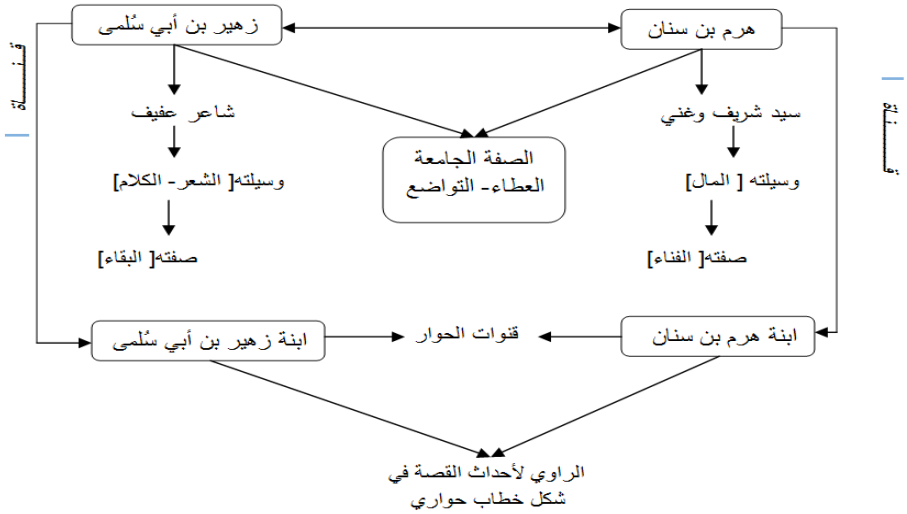


**مخطط يوضح: أطراف الحوار في القصة**

وبهذا الحوار تحقّق مبدأ الإفادة حيث حافظ كل طرفٍ على هويته وثقافته ومنزلته الاجتماعية دون أن نلمس أي خرق أو انزياح إلى جهة على حساب الأخرى، وقد توزعت بنية الخطاب بين الفتاتين بشكل متوازٍ ومتساوٍ فعندما تسأل الواحدة تجيب الأخرى والعكس صحيح.

**3-2- قانون الصّدق:**

يحظى" صبح الأعشى" بالمصداقية في النقل، ويتحلى القلقشندي بروح المؤرخ تارة، وروح الأديب تارة أخرى، والمتصفح لهذا الكتاب لا يجدُ فنًا واحدا وإنما يجد نفسه أمام مجموعة من العلوم والفنون التي تتسم بالروايات والإخبار من مصادر شتى:

- القرآن.
- الحديث.

- التاريخ.
- القِصص.
- السير والتراجم.
- الجغرافيا والفلك.

وبهذه اللغة الفصيحة الرفيعة، كتب القلقشندي كتابه ودلّنا على الحوادث وتواريخها ورجالاتها، كما أورد الصّنائع والمعايش التي كان يقتاتُ منها، ومن هذه الصنائع جاء على ذكر الكتابة في الدواوين، ولعلّها المعنية والسبب الرئيس في تأليف الكتاب[1].

يقول القلقشندي:« وقد كان، صلى الله عليه وسلم! يأتي من القصص والأخبار الماضية من غير مدارسة ولا نظر في كتاب بما لا يعلمه إلا نبي، كما رُوي أنّ قريشا بمكة وجهت إلى اليهود: أن عرِّفونا شيئا نسأله عنه، فبعثوا إليهم أن سلوه عن أنبياء أخذوا أحدهم فرموه في بئر وباعوه، فسألوا فنزلت سورة يوسف جملة واحدة بما عندهم في التوراة وزيادة»[2].

فكل ما أورده القلقشندي عن هذه الحادثة لا يمكن إنكاره ولا الزيادة عليه، فهذا من خطابات" صبح الأعشى" التي تتفق ومتون الحديث والأخبار الصادقة والصحيحة. وعلى هذا المبدأ- مبدأ الصدق- ألح غرايس على قول الحقيقة كما هي موجودة في الواقع أو كما حدثت في الحياة، وينبغي أن تحمل الملفوظات من صور الواقع ما يخدم هذا المبدأ ويعززه.

ويعد مفهوم الصدق والكذب مقياسا مُهمًا، ومقولة أساسية من مقولات الدرس العربي البلاغي والدرس التداولي الحديث لأنه يحدد العلاقة بين المتكلم واللغة والأشياء. ولكن ينبغي الإشارة إلى نقطة مهمة تتعلّق بالصدق وهي أنه لا يرقى إلى تلك المنزلة التي حظي بها الحديث النبوي من التحري ومعرفة أحوال الراوي فكثيرا ما يكون سوق الأخبار يتحلى بالصدق النسبي فقط. يقول السكاكي:« الخبر هو الكلام المحتمل للصدق والكذب أو التصديق والتكذيب، وكقولهم: هو الكلام المفيد بنفسه إضافة أمر من الأمور إلى أمرٍ من الأمور نفيا أو إثباتًا»[3]، فالعلم بالصادق والكاذب يتوقف على العلم بالخبر الصدق، والخبر الكذب بصريحهما نسبة معلوم إلى معلوم آخر بالنفي أو بالإثبات.

---

[1]- صبح الأعشى، ج42/1، وهو يتحدث فيه عن فضل الكتابة.

[2]- نفسه، ج42/1.

[3]- السكاكي أبو يعقوب يوسف ابن أبي بكر محمد بن علي، مفتاح العلوم، ضبط وتعليق: نعيم زرزور، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1983، ص252.

والذي نقره من أمر الصّدق وعَدمُه أنَّ هذه المدونة حافلة بما تواطأت الأخبار والمرويات على صدقه، وأنّ الخطابات والسياقات الواردة داخل المتن تحمل مصداقيتها في مدى مقبوليتها وتقبلها لدى المتلقي بصفته مستهدفا بالخطاب.

**3-3- قانون الإخبارية والشّمولية:**

يُمكن القول أنّ القلقشندي كان أديبا في مستوى العطاء الفكري والأدبي والفني، فلو لم يخُطّ كتابه" صبح الأعشى" لبقي حبيس صدره، ولم يعرف الناس هذا المؤَلَّف، ولكنْ نظرا لأنَّ القلقشندي كان يتمتع بقوة إخبارية فقد وصل إلينا هذا السِفر وفي طياته علم جمٌّ وفنون لا تُحصى.

لقد أراد القلقشندي أنْ يُزوِّد المتلقي[ القارئ- المُخاطَب] بكمٍّ من المعلومات التي لم يسبق معرفتها، وهو بهذا الصّنيع يُعدُّ واحدا من الإخباريين البارعين في إيصال المعلومة عن طريق الخطابات المفهومة الصريحة ذات القواعد والقوانين الحاملة لضروب الإثبات والنفي معًا، والإطناب والإيجاز جميعًا.

إن مدونة" صبح الأعشى" قادرة على منح القارئ تصورات وأفكار عن الإنسان والمجتمع والعِمران والسياسة، حتى إنّه ليستطيع أن يبني أحكاما وِفق ما يتركه الكِتاب من انطباع في نفس قارئه وذلك راجع إلى قانون الشمولية الذي ألمَّ وجمع وحوى أشتاتا متفرقة في هذا السِفر العظيم. ولا شك أنّ القلقشندي كان له حضور قويٌّ في المحافل الأدبية والأندية الثقافية أو بتعبير أصحّ: الجهاتُ التي كانت تُوصف بالنخبوية كأن يكون: السادة العلماء أو الفقهاء والمتأدبون من أصحاب الكتابة والقلم الرفيع، وذلك يبدو جليّا من خلال ما بات يُعرفُ عندنا بـ" الكُتّابُ الموسوعيين".

إذن؛ لقد تقاطعت عدة علومٍ وفنونٍ في شخص القلقشندي والذي انتشر صوته داخل متن" صبح الأعشى" لينعكس في الذوات العميقة التي وصفناها بالنخبوية. وعلى هذا الأساس جاءت خطاباته كلّها موسومة بأنّها نسيج من الحوارات والرّسائل والخطب والأشعار. إنّها مزيج من الفنون التي تتكلم بأمزجة مختلفة، وبهذا تتوالد الخطابات من الخطابات والسّياقات من السّياقات لدى القلقشندي الذّي يتّسم بالإخبار وبالشّمولية وعدم الاحتكار أو الغموض والتّرميز.

إنّ مدونة" صبح الأعشى" هي مدونة البَوح المُنغَّمِ في ظلِّ الأسجاع القديمة التي تحيلنا إلى العصر المملوكي، وقد صاغها القلقشندي ببراعة حيث إنها تتوالى في نمطية خاصة بكل خبرٍ عبر الأبواب والفصول. وعند كل محطةٍ يتجلى المُعطى التداولي في شكل حوارات عادية، وأقوال حكميّة وعبارات بوحيّة. وفي إطار هذه العلامات الحوامل لثقافة العصر المتمثلة في الذوات العميقة تتجلى لنا عبقرية القلقشندي الذي استطاع أن يتقمص دور كلّ النُخب وأنْ يغرِّد بأصواتها.

لقد نوَّه القلقشندي مرارا على فعل" اللسان" وفعل" البيان" وفعل" الكلام" في مدونة" صبح الأعشى"، ولا أدل على ذلك من افتتاحه لكتابه بهذا القول:« الحمد لله جاعل المرء بأصغريه: قلبه ولسانه، والمتكلم بأجمليه: فصاحته وبيانه، راقم حقائق المعاني بأقلام الإلهام على صفحات الأفكار. جامع اللسان والقلم على ترجمة ما في الضمائر: ذاك للأسماع وهذا للأبصار»[1].

وضمن قانون الإخبار والشمولية، فإن نص القلقشندي، وعبر لغته الواصفة ذات الطابع التفاعلي، فإنه يريد لنا أن نستشف جمالياته التي يختزنها في نفسه. تلك الجمالية القابعة في أثناء السطور داخل النص لا خارجه، وتلك الشُخوص التي توصف بالحياة الحقيقية والتي لها ميلاد حقيقي ومكان حقيقي وزمان حقيقي. فما على القارئ إلا أن يستنطق هذه المدونة التي تقول في صراحة وتشهد في يقين على أبوة القلقشندي لفن الموسوعية.

ينبغي الإشارة إلى أنّ أكثر حركات النفس وميولاتها يُعبرُ عنها من خلال اللغة، وبهذا تكتسي اللغة أهمية كبيرة في التعبير عمّا يجول في النفس من حاجات ورغبات. إنها- أي اللغة- تُجلي عن حقيقة النفس وتُبيّن مقاصدها بطرق مختلفة ومتباينة حسب الأحوال والمقامات. فالمتكلم إذا أراد أنْ يعبر عما بدخيلته من مدح أو وصف أو هجاء وتعجب ظهر ذلك جليا على لسانه. غير أنه قد يقول ما لا يقصد وقد يقصد ما يقول، وهنا يتولّد لدى المتكلم عبر لغته مستويان من مستويات الإنجاز اللغوي:

- لغة صريحة حقيقة ذات دلالات طبيعية.
- لغة تلميحية مجازية ذات أبعاد تأويلية بعيدة.

وعلى هذا ينشأ بين أطراف الخطاب[ المرسل، والمرسل إليه] تواصلا محكوما بثنائية: المجاز والحقيقة. وعبر هذه الثنائية إمّا يتحقق التداول الكلامي وتنجز أفعال الكلام، وإما أنْ ينقطع التواصل لوجود مانع فتتأثر لغة كليهما بسبب هذا المانع. فلا المرسل يستطيع أن يُبلغ مُحاوِرَه بما يريد، ولا السامع اقتنع بما يقول مُحدِّثه. وهنا تختل عملية التواصل لِما في اللغة[ لغة التحاور] من خروقات وانزياحات تحول دون تحقق الغرض المنشود. وهذا ما جعل البلاغيين العرب يُراعون أحوال المتكلم والسامع ويجعلون للكلام مراتب وطبقات.

ومن بين هذه الانزياحات والخروقات والانتهاكات التي تخرج إليها اللغة من معانيها الظاهرة إلى معانيها المستلزمة والتلميحية الصور البيانية، وما لها من دور في العملية التواصلية، وما لها أيضا من

[1]- صبح الأعشى، ج05/1.

دور في تغذية المعاني وتشفيرها، إضافة إلى كون هذه الآليات البلاغيةتساعد المتكلم على إيصال مقاصده وأغراضه التي يرمي إليها، وهذا ما سنحاول تبيانه في خطابات القلقشندي.

**ثانيًا: الاستلزام الحواري والصور البلاغية في"صبح الأعشى"**

يلجأ المتكلم إلى اللغة للتعبير عن أغراضه ومقاصده بطرق مختلفة، فإذا أراد أنْ يعبر مدح أو وصف، أو اشتكى أو تعجب...، إلا أنّ هذا التعبير قد يكون بلغة صريحة أو بطريقة تلميحية مجازية، تجعل من المتلقي يبذل جهدا بكل ما يملكه من كفاءة تداولية للوصول هذه المعاني الثواني المضمرة في الكلام التي يرمي إليها المتكلم من خلال استعماله لتلك الصور اللغوية بمختلف ما تنضويه من اشتقاقات واستلزامات واقتضاءات على سبيل المجاز أو الاستعارة أو الكناية، وكل ما تفنن فيه المتكلم من كلام، فهذا الخروج عن الدلالة الطبيعية إلى الدلالة غير الطبيعية هو ما أولاه كل من السكاكي والجرجاني أهمية كبيرة، وتناولاه ضمن قضية اللفظ والمعنى. فهناك ألفاظ يدل عليها ظاهر العبارة، وألفاظ أخرى يدل عليها السياق والمقام التواصلي.

**1- الكناية واستلزام التّلميح:**

اعتمد القلقشندي في" صبح الأعشى" على ظاهرة العدول من المعنى الحقيقي إلى المعنى المجازي عبر آلية التلميح. وهو في أثناء حديثه عن واقعة تاريخية أو حادثة دينية أو ظاهرة اجتماعية يسوقُ الكلام مُطعَّما بالبيان، فيقع المتلقي منه على أضربٍ عديدة من الانزياحات التي تتطلب تفسيرا وتأويلا.

يقول القلقشندي:«... ولكنَّ العجب العجيب، والنادر الغريب الذي تهيأ في عمر بين الخطاب رضي الله عنه واتسق له. وذلك أنّه غَبَرَ عشرَ حِججٍ: يفتح الفتوح ويُدوِّخُ البلاد... ويجبي الفيء وترمي إليه الأرضُ بأفلاذِ كبدِهَا، وأنواع زُخرفِها... ويحُلُّ ويعقِدُ، ويُولِّي ويعزل، ويضع ويرفع، وبلغت خيلُه إفريقية ودخلت خُرسانَ..»[1].

أراد القلقشندي أن يُجلي للمتلقي أعباء" الولاية" فساق هذا الشاهد والمثال، واختار حقبة تاريخية معينة:" عصر الخليفة عمر بن الخطاب". واختار فعلا من أفعال المسلمين ويتعلق الأمر بنشر الإسلام والاضطلاع بشؤون الرعيّة والتعامل مع غير أهل مِلَّةِ[ الإسلام].

[1]- صبح الأعشى، ج178/14.

وقد جاءت جمل القلقشندي ملبّسة بلبوس التلميح والرمز، ففي هذا السياق يقول:" غَبَرَ عشر حجج" وهي كناية عن إمضاء هذه السنوات العشر، وعبّر عنها بالقرينة" غَبَرَ" التي تتضمن في داخلها معانٍ غير التي يدل عليها الفعل" أمضى" الذي ينطوي على دلالة مباشرة صريحة.

ففي القرينة" غَبَرَ" معنى" الغُبار" وفيها معنى" الأغبر" الذي هو ملتصق بالغبار أو شابَهُ شيءٌ من الغبار.[ " غَبَرَ" الشيء بقي و غَبَرَ أيضا مضى وهو من الأضداد[1]]. فالعبارة تحمل معنى العبء والحمل والقرينة الدالة" غَبَرَ". ويُستفاد من هذا القول تحقق مقولة الدرس التداولي في إشارته إلى متضمنات القول ومستلزماته، وكذلك تحقق الخطاب الإيحائي عن طريق استخدام الصور البيانية المعروفة في تراثنا البلاغي.

أراد القلقشندي– كما قلنا آنفا– أن يلفت انتباه المتلقي إلى أعباء" الولاية" التي اضطلع بها الخليفة عمر بن الخطاب فلم يشأ لقارئه أن يمر علينا مرورا دون أنْ تستوقفه هذه الجهود المضنية. فكأن عمر بن الخطاب لم يبلغ هذه المنزلة حتى تعفر وجهه بالتراب واتسخ ثوبه وخاض الأرض مشرقا ومغربا وأثارها حتى ناله من غبارها. ولو أنّه قال:" أمضى" لم يُستفد منه هذه المعاني. وعلى الرغم من أنّ الدلالة كانت واضحة لدى المتلقي في ذلك العصر، غير أنّها في حاجة للتفسير والتبيين عندما يتعلق الأمر بغير الناطقين بالعربية، وعندما يكون المتلقي غير مؤهلٍ لفهم لغة التراث من أبناء زماننا الذي اتسعت الهوّة بينهم وبين لغة أجدادهم.

وكذلك استعمل القلقشندي قرينة أخرى:" حِجج" وهي جمع" حِجّة" بالكسر وهي السّنة. والملاحظ في عبارة القلقشندي لغتها القديمة أي إنه استعمل القاموس التراثي الذي يزخر بالعطاء والثراء. ولعل هذا قد يتنافى ولا يتماشى مع منجزات القول في الدرس التداولي، لأن هذا الأخير يعمِد بالأساس إلى" الفكرة" التي يحملها القول ويجعلها محل الدراسة والتحليل، بعكس البلاغة التي تراعي" تزيين الخطاب" وتقصد إلى ذلك بغية إخراج العبارة في أبهى سياق لتظل عالقة في ذهن المتلقي. فنظرية أفعال الكلام تعمل على أن يكون الخطاب من مشافهات الناس اليومية دون النظر إلى عبقرية اللغة وما تحمله من مفاجآت ومجازات وظِلال، وتقديم وتأخير وحذف وإضمارٍ.

ويعمل الاستلزام على مِحْوَرِي: القصدية وعدمها، أو القضية وما ينتج عنها من مواقف قضوية واستلزامات فرعية.

فكل كلام واردٍ إذاً؛ جاز حمل معناه على طريق الحقيقة المباشرة أو المجاز. وبهذا تتضمن الكناية معانٍ بعيدة قد لا يتأتى فهمُها إلا بعد إعمال فكر وطول نظرٍ وهذا مرجعه بالأساس إلى البِنْيات اللغوية وتجاورها في السياق.

وفي عبارة القلقشندي الأخرى:« يدوِّخُ البلاد»[2] كناية ومجاز عن استيلاء المسلمين على هذه الرقعة الجغرافية التي ملكوها وملكوا أهلها. وانظرْ كيف عبَّر عن هذه الحال:[ يدوِّخ البلاد] واللازم منها أنّه دوَّخ أهلها، وهي كناية عن الاستيلاء والهيمنة والمحاصرة والقدرة.

والحاصل أنّ الاستلزام في هذا المقام هو غير ما ترمي إليه العبارة فهو يقوم على« اعتبار أنّه في الكثير من الأحيان يُلاحظ أثناء عملية التخاطب أنّ معنى العديد من الجمل إذا روعي ارتباطها بمقامات إنجازها، لا ينحصر في ما تدل عليه صيغها الصورية»[3]، أي إنّ الجملة تدل على غير محتواها القضوي[ يدوّخُ البلاد] فاللازم منها أكثر من معنًى:

1- الخطاب المباشر: يستدعي السؤال الآتي:

أ- ما السبب وراء هذه الدوخة؟

ب- كيف يُمكن أنْ يتم هذا الفعل بغير العاقل[ البلاد].

فاللفظ أطلق ليُفهم منه لازم معناه، لا ليُفهم منه حرفية العبارة وبهذا يجيء الاستلزام ليصنع هذه المواءمة والانسجام بين وحدات العبارة، وبين كمية الملفوظ اللغوي، وكمية المعنى المحتوى في اللفظ لنخلص في الأخير إلى المواءمة بين مقدار الكم ومقدار الكيف والحاصل منهما هذه الكناية اللّطيفة والمجاز القوي الذي تمثل في عبارة القلقشندي المحتوية على معنى متضمن يُدرك بالتصور العقلي، فالذي يدوّخ هم ساكنة البلاد لا البلاد.

إنّ هذه العبارة بوحداتها غير المنسجمة في السياق تحيلنا إلى قول الله تعالى في سورة يوسف:﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾يوسف: ٨٢. فهنا تعبير قرآني يُوصف بالإعجاز ويُوصف بالإيجاز، وهو مُتعذِّرٌ على أهل البيان أن يأتوا بمثله، ولكن

---

[1]- ينظر: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، معجم مختار الصحاح، قراءة وضبط وشرح: محمد نبيل طريفي، ط1، دار صادر، بيروت، لبنان، 2008، ص292 باب الغين.

[2]- صبح الأعشى، ج178/14.

[3]- العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التّداول اللّساني، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، الجزائر، 2011، ص18.

الحاصل منه يتأتى في الأذهان والقلوب معًا؛ فالمخاطَب والذي هو" الناس" كلهم يفهم المراد من الآية" اسأل القرية" أي: اسأل أهل القرية لا جدرانها وحيوانها وسماءها وأرضها بل إنسانها وساكنها العاقل. وكذلك فعل الخليفة عمر بهذا المِصر الذي افتتحه[ دوّخ البلاد] وجعله تحت سلطانه، ويُفهم منه ما فُهم من الآية الكريمة.

وقوله:« وترمي إليه الأرضُ بأفلاذِ أكبادها»[1] كناية عن الخراج والفيء الذي يُجبى إلى بلاد المسلمين عن طريق أعمال الفتح المجيدة التي قام بها الخليفة العادل. وفي هذه العبارة نسجّل حضورا بلاغيا في غاية الجمال، ونسجّل استلزامات عديدة، وتأويلات شتى وبدائل كثيرة يُمكننا استخراجها من عبارة القلقشندي التي بين أيدينا:

**1-1- الخيال:** يحيلنا هذا الخطاب إلى لغة شعرية شفافة تقدم المعاني بصورة مختلفة عن لغة الخطابات العادية. ولغة القلقشندي في عبارته تتجاوز« مرتبة الإفهام إلى مرتبة التأثير»[2]، وهذه الصياغة الخاصة هي التي تشير حسب الاصطلاح التداولي إلى الأفعال الكلامية غير المباشرة، أي الأفعال الكلامية التي لا تحيل على معناه الحرفي بل تستدعي معانٍ أخرى يفرضها السياق وقصد المتكلم، وقدرات المتلقي اللغوية والثقافية. وهي أيضا تشير إلى فكرة الاستلزام الحواري التي جاء بها غرايس وما ينجرُّ عن الكلام من مواقف قضوية وانزياحات لغوية وتمثلات خيالية تجنح بأطراف التّخاطب إلى عالم الجمال والانفعال.

فالخيال إذاً؛ هو آلية من آليات الاستلزام الحواري والموجود بالقوة أثناء عملية التحاور والتواصل. إنه يكمن في اللغة، وهو الذي يولِّد الأثر لدى المتلقي ويُعين على الإيضاح، ويضفي طابعا جماليا على القول ويمنح قوة في الإبانة وجمالًا في التّصوير.

**1-2- الوضع:** ونقصد به ما تتمتع به العبارة من قوة إنجازية إخبارية وأخرى تأثيرية. فالعبارة بهذا الوضع تجمع بين الحقيقة والمجاز:« وترمي إليه الأرضُ بأفلاذِ أكبادها»[3]. فالمجاز في أنّه جعل الأرض" فاعلا" من شأنه أن ما يستبطنُ من أشياء[ نبات، كنوز، خيرات...] وجعل منها طرفًا في

---

[1]- صبح الأعشى، ج178/14.

[2]- جابر عصفور، الصّورة الفنيّة في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ط3، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 1992، ص321.

[3]- صبح الأعشى، ج178/14.

عملية:" الرَّمي" مع أنَّ المعروف لدى الناس أنّها موضع" البذر" وموضع" الوطء" وموضع" الدفن" وموضع" السقي" وموضع" السكن" فهي القرار.

ثم أشار القلقشندي أنّها:" ترمي أفلاذ كَبِدها" أي قِطَع والمراد: خيراتها. وبهذا يحصل عندنا من خلال هذا السياق ما يلي:

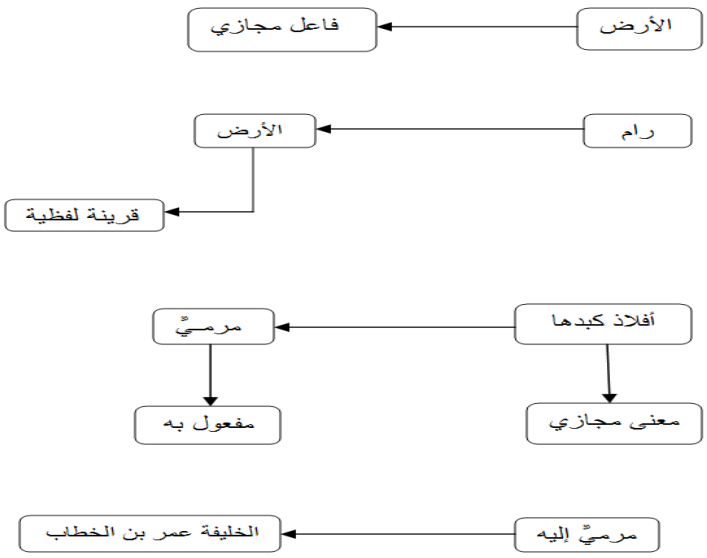


والتعبير بقوله:" أفلاذ كبدها" تعبير غير حقيقي، ولكنه من التعابير التي جرت على لسان العربي وخصَّ بها" الولد". ففلذة الكبد هو الولد وفيها من معنى الحنان والحنو ما لا يخفى على قارئ. ولمّا كانت الأرض شبيهة بالأم في هذا الجانب، استلزم هذا الوضع اللغوي وجود علاقة منطقية عقلية بين ما يمكن أنْ تُخبِئه الأم وما يمكن أن تخبئه الأرض، والعلاقة هنا علاقة مشاكلة ومماثلة. وبهذا يتضح أنّ هذا الوضع يُقصد به الحقيقة والمجاز معًا.

فالقلقشندي لم يخرج عن سَنن العرب في وضع كلامها واستعمالها، بل إنّه عبَّر كما عبَّروا، ولكن السياق والمقام فرض واستلزم أن يخرج الكلام من معناه الحقيقي إلى معاني بلاغية من قبيل المجاز والكناية، وهذا لا يعني أنّ اللغة تفرز عوالم المعنى بنفسها، وإنما هي تابعة لمقاصد قائلها، وخاضعة لمبدأ المواضعة( المجتمع) وبهذا لا يمكننا تصور فصل القصدية عن الملفوظية مع العلم أنّ ما تتيحه اللّغة من عوالم سحرية وبلاغية هو أمرٌ مسلّم به وهو الأمر الذي يعطي للغة خصوصيتها البشرية( فكرة المواضعة) وتفوقها على بقية الرموز والإشارات التي قد تُحقق تواصلا ولكنها قاصرة عن بلوغ مرتبة اللغة الواصفة الخلاقة.

في تعبير القلقشندي مسايرة للقول العربي السائد وإنْ نحا منحى بلاغيا، فهذه السيرورة جعلته بمثابة اليومي المستهلك الذي يقوله العاميُّ كما يقوله الخاصيُّ، وهذا مما لاكَتْهُ ألسنتهم وقبلته فِطرتهم وجرى على صبيانهم كما جرى على كهولهم واقترب من المثل السائر وهو من قبيل قولهم:" فلان تضرب إليه أكبادُ الإبل" والمعنى أنهم يقصدونه لمشاورته وأخذ رأيه أو علمه أو ما جعل منه ذا قيمة أَهَّلتهُ إلى رتبة الأفاضل.

**1-3- القرينة:** ويقصد بها الوحدة الدالة على مضمر، سواء أكان هذا المحذوف أو المضمر:" كلمة" أم" جملة" أم" نصا"، وهي من الحقائق اللغوية والعرفية التي تعارف عليها أهل البلاغة والبيان. وتَتَعَدَّدُ القرائن كما تتعدّدُ أنواعها فقد تكون هذه القرينة:

أ- ضميرا منفصلا يتكرر أثناء القول ليدل على الوجود والحضور مثلا...

ب- اسم إشارة: يدل على الزمان أو المكان...

جـ- ضميرا متصلا يدل على شخص أو بلد أو شيء...

د- فعلا: يدل على الحدوث والحركة...

هـ- اسما: يدل على الثبات...

و- حرفا: يدل على الظرفية أو غيرها من المعاني التي تدل عليها حروف المعاني، كما قد تكون ظرفا له أو متعلقاته...

وقد أورد القلقشندي في حديثه على هذه" الأرض" التي تم فتحها من قبل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب قرينة أفادت لفت انتباه المتلقي إلى تكرار هذا الحرف الحلقي" الهاء" وهو العائد على الأرض حتى لا يلجأ إلى التكرار الذي يبعث على السّأم، فبدل أنْ يكرر لفظ" الأرض" اكتفى بالقرينة الدالة عليها، وذلك في قوله:« أفلاذِ أكبادِها، وأنواع زخرفها، وأصناف كنوزها، ومكنون جوهرها، ويقتل ملوكها ويلي ممالكها...»[1].

فالقرائن هي من مستلزمات بناء الصّورة الفنية المنبثقة عن الصّور البيانية وهي أركان أساسية لا بد من حضورها في الخطاب الشفاهي؛ إنّها من مستلزمات القول ودعائمه التي بدونها لا يتم الفهم ولا التواصل.

[1]- صبح الأعشى، ج178/14.

ففي جملة القلقشندي" أفلاذِ أكبادِها، وأنواع زخرفها، وأصناف كنوزِها، ومكنون جوهرِها، ويقتل ملوكها ويلي ممالكها..." قامت هذه القرينة" الهاء" مقام الأرض ستّ مرات فلو كررنا" الاسم" بحرفيته لَنَبَا عن الذوق ومجَّته الأسماع وأدى إلى التكلّف.

وبالرجوع إلى ما أثبتناه سابقا؛ يتحقق لدينا الاستلزام الحواري والذي له علاقة وثيقة بالجانب الجمالي لدى المتكلمين، وذلك بقصد التأثير والإقناع، فكثيرا ما يلجأ المُخاطِب إلى استعمال قول دون قول، أو إقحام آية أو حديث أو مثل قصد الإقناع بصيغة بليغة.

إنّ الاستلزام الحواري ينشأ حينما نربط بين المعنى الصريح والمعنى الضمني وكل هذا متوافر في البلاغة العربية وهو حاضر في مدونة" صبح الأعشى" وحاضر في الأمثلة التي سقناها وجعلناها عيّنة للتحليل. وعبر مقولة البلاغة نجد خطابات القلقشندي لم تفتقر إلى الجانب الجمالي بل إنها تركزت بالأساس على هذه العناصر الثلاثة التي أوردناها سابقا:

1- الخيال.

2- الوضع.

3- القرينة.

وهي من مقومات الاستلزام الحواري في جانبه التأثيري والحجاجي الذي يسعى من خلاله المتكلم إلى الالتزام بمبدأ التعاون الذي أقرّه غرايس، والذي من خلاله تتم عملية التخاطب والتواصل.

**2- الاستعارة وتخطي حدود الحرفية:**

الاستعارة كما هو معلوم عند أهل البلاغة ضرب من المجاز الذي بني على التشبيه، وهي استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين المعنى المنقول عنه والمعنى المستعمل فيه، مع قرينة صارفة عن إرادة المعنى الأصلي. وهي ليست إلا تشبيها مختصرا ولكنّها أبلغ منه[1]. ويصطلح الجرجاني على تسمية هذا الضرب من المجاز بأنه: معنى المعنى[2].

[1]- ينظر: السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ط1، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2010، ص225.

[2]- ينظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص262.

لقد حفلت مدونة" صبح الأعشى في كتابة الإنشا" بالبيان والبديع خصوصا في بابي الخطب والرسائل. ولأنها تمتاز بالتقريرية فقد جاءت التقريريات مهيمنة في بقية الأبواب التي تمتاز بالأسلوب العلمي الإخباري.

يقول القلقشندي:« وترمي إليه الأرضُ بأفلاذ كبدها»[1].

نسجل في هذا الخطاب إنشاء متمثلا في الاستعارة حيث شبه الأرض بإنسان يرمي وحذف المشبه به( الإنسان) وأبقى على لازمه[ الفعل ترمي] على سبيل الاستعارة المكنية. وقد عمد القلقشندي إلى التلميح من خلال إنشاء تلك المقابلة اللطيفة بين الأرض والأم؛ وذلك أنّ كلا من الأرض والأم تشتركان في كونهما" رحما" والرّحم من شأنها أن تدفع وأن تحبل وأن تثمر. إنه عطاءٌ دلت عليه القرينة الحالية التي يستنبطها القارئ من خطاب القلقشندي؛ فالقارئ يفهم أنّ المتكلم يرمي إلى إيصال معنًى عبر معنًى؛ إنّه يريد أن يقول أنّ" عمر بن الخطاب" قد دانت له البلاد وانقادت له العباد. ولكنه عمد إلى التلميح دون التصريح. وهذا قريب مما حصل مع الخليفة العباسي الذي إذا مرّت السحابة برأسه يقول لها:[ أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك][2]، فهذا كلّه من باب المجاز الذي يُراد منه معنى غير المعنى المباشر. وهذه المعاني الخفية قد تلتبس على من أعوزه الفهم وافتقر إلى علوم البلاغة.

يمكن أن يحيلنا خطاب القلقشندي إلى فكرة الكفاية اللغوية، فالجملة على قصرها تسنبط الكثير من المعاني، فهي مكتفية البناء النحوي والتركيبي ولكنّها ذات معانٍ ثرّة. ويكاد يكون الغرض الكلامي منها الإقناع دون اللجوء إلى الإستراتيجيات الحجاجية التي تتكئ على التوكيد والتكرار. فنحن بوصفنا متلقيا يمكن أنْ نفهم منها أنّها تُلّمحُ إلى أمور منها:

- الفتح قد تمَّ بانتصار المسلمين.
- الدّولة المسلمة أضافت إقليما إلى أراضيها فاتسعت رقعتها الجغرافية.
- زيادة الفيء في بيت مال المسلمين.
- ثبات الخليفة عمر عشر حجج على هذا الحال من الأعاجيب.
- بيان فضيلة العزم.

---

[1]- صبح الأعشى، ج178/14.

[2]- هو الخليفة العباسي: هارون الرّشيد والقصّة مبسوطة في كتب الأدب.

يمكن إذن؛ أنْ نفهم من خطاب القلقشندي أنّه ذو فعاليات كلامية إعلانية وإفصاحية عن عظمة هذا الفتح الذي قام به الخليفة العادل وثباته فيه مدة عشر سنوات. وهذه المعاني المبطنة في الخطاب مردّها إلى إستراتيجية الاستعارة والتي في وُسعها أنْ تدّخر في القول الواحد: القضية ونقيضها وما ينتج عنهما من تقابلات ونتائج غير متوقعة لدى المتلقي.

فهذه الاستعارة التي أصلها التشبيه لا تنفك من أفواه النّاس في خطاباتهم وإن لم يريدوها لذاتها، والمعنى أنّها تحملمقاصد تقع وراء البنية المنجزة للملفوظ أو الجملة، وبهذا فإنّ الاستعارة هي إحدى الآليات القوية والفاعلة في التحليل التداولي لأنها بالتلميح الذي فيها تنشئ لنا قصودات عديدة وتحيلنا إلى التأويل وإقامة البدائل:

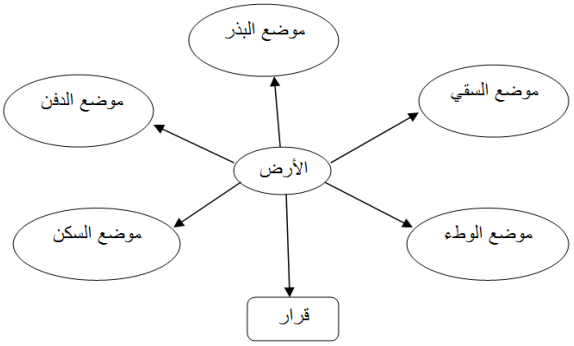


**شكل يوضح: آلية التأويل والانتقال عن طرق التلميح**

هذه الإحالات العديدة للفظ" الأرض" هي من إفرازات" التلميح" الذي جاءت به الاستعارة، وجاءت به البلاغة عموما وأقرته التداولية في نظرتها للأشياء والعوالم، ونظرتها للإنسان والنّص باعتبارها أنساقا تختزن الذاكرة والتاريخ. وليس على المتلقي إلا أنْ يقرأ المعاني البعيدة المتولّدة عن القول وأنْ يضع يده على المقاصد من محاورات المتكلمين ثم يقيم العلاقة بين المقام والقول حتى يستبين متضمنات الخطاب الذي يُراد فهمهُ وتحليله.

### 2-1- مقدار الصّدق في الاستعارة:

شبّه القلقشندي" الأرض" بإنسان يقيء، ولكنّها لا تقيء- ما يرجعُه الإنسان من بطنه- بل ما تقيئه من ظاهرها؛ وهذا خرق لسنن التعبير فالذي يقيء عادة يسترجع محتوى أحشائه وبطنه ويفلته من فِيهِ. أمّا الأرض فتقيء أفلاذ كبدها أي تخرج كنوزها التي في باطنها. ولكن في عبارة القلقشندي" الكنوز" على ظهرها وليست بداخلها لأننا إزاء عملٍ جليلٍ تمثّل في" الفتوحات" التي في صدر دولة الإسلام.

وخطاب القلقشندي هذا فيه نوع من الإلغاز الذي يوهم بالتضليل ولكنّه منوط بالصّدق لأن الغالب والمنتصر في الحرب يأخذ الغنائم ومعها الأرض التي تم فتحها، فإذا توهم متوهم أنّ هذه" الأفلاذ" هي مما في بطن الأرض فقد قصر نظره عمّا أراد أن يقول القلقشندي:

| أركان الاستعارة | الملفوظات | الاستلزام والمعاني المحتملة |
|---|---|---|
| المشبه | الأرض | – أرض المعركة<br>– رحم |
| المشبه به | الإنسان | – عاطفة أمومة<br>– الأم[ الرحم] |
| القرينة | ترمي | – قرينة لفظية<br>– قرينة حالية[ العطاء] |
| وجه الشبه | أفلاذ كبدها | – الغنائم [ الفيء] |

**جدول يوضح: الاستلزام والمعاني المحتملة**

من خلال" مبدأ التأدب" الذي صاغته" روبين لاكوف" والذي ركّزت فيه على ضرورة:« الاهتمام بسياق التلفظ، بما في ذلك من افتراضات منطقية وأخرى تداولية...»[1]. فإن خطاب القلقشندي السابق يقتضي واحدة من القواعد التي ينطوي عليها" مبدأ التأدب" وهي قاعدة:" التشكك" وربّما يقتضي مجموعة من القواعد لأن في عبارته المجازية ما يفتح الباب على التأويل.

**2-2- قاعدة التشكّك:**

وهي أنْ تضع المتلقي حيال خيرات مفتوحة. والمتلقي لخطابات القلقشندي يجد نفسه يفترض وجود أكثر من تفسير وتأويل لهذا المعطى اللغوي الحامل لهذه الحمولات الدلالية. فهو أمام مقروء وحيال مُستنبط من المقروء لأن مجموع الملفوظات في الاستعارة تحيل إلى معاني لطيفة نوضح بعضا منها في الخطاطة أدناه:

[1]– آمنة بلعلى، " المنطق التداولي عند طه عبد الرحمن وتطبيقاته" ملتقى علم النص، مجلة اللغة والأدب، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات، جامعة الجزائر، العدد 17، 2006، ص281.

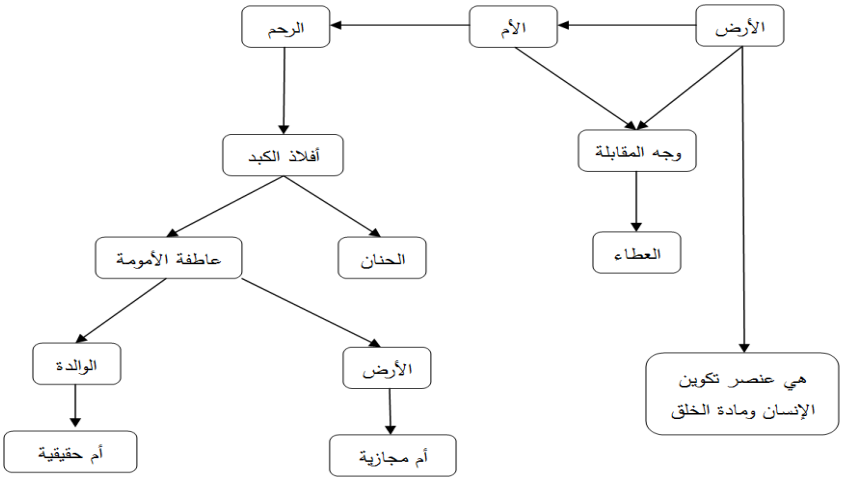


**مخطط يوضح: استنباط متضمنات القول وفق قاعدة التشكك**

فمجموع الملفوظات لم تُصرِّح بعلاقة الأرض بالأم، ولكنّ القرينة الحالية التي هي استنباط المتلقي لمتضمنات القول تنبئ عن هذه العلاقة وفق قاعدة التشكك التي تتيح للقارئ أن يستنبط ما وراء اللفظ أو ما لم تُصرّح به العبارة. وهذا الضرب من التعريض يترك للمستمع فرصة أنْ يتخير الأوجه المحتملة للعبارة.

### 2-3- قاعدة الاستحسان:

تنبئ جملة القلقشندي في إحدى ملفوظاتها عن مدح الخليفة العادل عمر بن الخطاب وذلك عند قوله:« ترمي له أفلاذ كبدها»[1].

وهذا الضمير المتصل على ضآلته يعود على الخليفة عمر بن الخطاب وليس يعود على أحدٍ سواه لأنه رَمْزُ العدل ورمز الأمة. فهذه" الهاء" هي عمرُ ذاته. وإنْ تعجبْ لهذا الحرف على ضآلته يحمل هذه المعاني في شخص هذا العظيم الذي تهابه الإنس كما تهابه الجنُّ.

فالعبارة تقول في صراحة أيضا أنّها ليست:

- ترمي به.
- ترمي فيه.
- ترمي عليه.
- ترمي عنه.
- ترمي إليه.

[1]- صبح الأعشى، ج178/14.

وليس هذه الاحتمالات الملفوظية غير ممكنات الاستلزام الحواري الذي جاء به غرايس، فكل قول قد تنجر عنه قوة إنجازية للفعل كما تنجز عنه جملة من الاحتمالات التي قد يعضدها القول أو ينافيها. فمجموع هذه الاحتمالات التي انفرزت عن القول الأول مرجوحة وتبقى جملة القلقشندي الراجحة:

" ترمي له ولا ترمي لغيره".

وهذا يتماشى مع قاعدة الاستحسان وقاعدة التواضع المنضويتين تحت" مبدأ التأدب الأقصى" الذي أورده" جورج ليتش" في كتابه:" مبدأ التداوليات" والذي كمّل من خلاله مبدأ التعاون الذي جاء به غرايس.

وللوقوف أكثر على المعاني المستلزمة التي تخرج إليها الاستعارة ندرج أمثلة من المدونة لتكون دليلا على ما جاء به علماء البلاغة العرب في باب الاستعارة، وما جاء به" سيرل" الذي وقف طويلا عند متضمنات القول واعتبرها عائقا ومشكلة لغوية ينبغي بحثها بجدية والنظر إليها نظرة علمية محضة.

يقول القلقشندي:«... ومن لبس ثوب العفاف والتقى فكان خير ثوب لبسه»[1].

فجملة( لبس ثوب العفاف) استعارة لا تستجيب وجود طرفين تعقد بينهما المشابهة والتقى. ولكنّه يرمي إلى أنّ العفاف إنْ أُنزل منزلة الثوب الساتر فهو خير لباس يرتديه الإنسان. فاستعار قيمة معنوية قابعة في الطبع والنفس والذهن. وأقامها مقام الزيِّ فمن كانت فيه خصلة من خصال العفة فقد تزيّن بخير ثوبٍ. وهذا هو المعنى الذي رمى إليه المتكلم وقصده وعضده بالشاهد المعنوي والحسِّي معا.

وإذا جئنا إلى موقف سيرل من الاستعارة، وجدناه يقتصر على المعنى الحرفي للجملة بوصفه المعنى الوحيد لها، وهذا يعني أنّه رفض المعنى الثاني للجملة أي المعنى الاستعاري المتولد من المقام، وهذا الأمر يؤدي إلى إلغـــاء تعدد المعنى داخل اللغة والخطـــاب[2]، وهذا ما جعلـه يتوقف عن دراســـة اللّغة في مستواها العادي.

وبما أنّ الاستعارة تتحدّد وتتوقّف على مقصدية المتكلّم عند سيرل، ففي هذا إلغاء لدور المتلقي في عملية التأويل، فالمعنى الذي يقصده المتكلم قد لا يفهمه المتلقي أحيانا، وقد يؤوله تأويلا يتنافى ومقصدية المتكلم في القول الاستعاري، فالتأويل يتمخض عن التفاعل بين المؤول والنّص. إلا أنّ النتيجة المنبثقة عن هذا التأويل تفرضها طبيعة النص وطبيعة الإطار العام للمعارف الموسوعية التي تحكمها ثقافة ما في

[1]– صبح الأعشى، ج22/12.

[2]– ينظر: أمبرتو إيكو، التّأويل بين السيميائيات والتفكيكية، تر: سعيد بنكراد، ط2، المركز الثقافي العربي، 2004، ص160.

كل الحالات، وبهذا يكون التأويل ونتيجته لا علاقة له بقصدية المتكلم، إذ يمكن للمؤول أن ينظر إلى أيّ ملفوظ ما نظرة استعارية شريطة أن تسعفه في ذلك موسوعته الثقافية[1] التي يمتلكها.

على الرغم من كلِّ ما قدمه سيرل حول الاستعارة وتهربه من علاقة المشابهة بين طرفي الاستعارة إلا أنه لم يتحرر منها، وبقيت لصيقة بطبيعة تفكيره، وأثناء تحليلاته على الرغم من دحضه لها كليا.

من هذه النقطة الأخيرة؛ نتوقف قليلا عن إبداعات علمائنا العرب في مجال علاقة المشابهة وكيف جعلوا منها فيصلا يميزها عن كل من التشبيه والمجاز المرسل، إضافة إلى أنها الضامن للانتقال من المعاني ذات الدلالة الطبيعية المباشرة إلى المعاني ذات الدلالة غير الطبيعة المستلزمة المتولدة عن السياق التواصلي وما يتعلق به من ظروف وأحوال.

يقول القلقشندي في إطار حديثه على أصول الرياح«... وقد قال الله تعالى في قصة عاد:﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ ﴾»[2]. من خلال هذا الكلام يتبين لنا أن المستعار منه هو المرأة والمستعار له هو الريح، والجامع بين الطرفين هو منع ظهور الأثر والنتيجة، فالطرفان حسيان وجامعهما عقلي، أي استعارة محسوس لمحسوس بوجه عقلي، لأن العقم صفة للمرأة لا اسم لها، وكذلك جعلت صفة للريح لا اسما لها، والحق أن المستعار منه ما في المرأة من الصفة التي تمنع الحمل، والمستعار له ما في الريح من الصفة التي تمنع من إنشاء المطر وإلقاح الشجر[3]، ومن هنا فالاستعارة مكنية تم الاعتماد فيها على عنصري المشابهة والانتقال من المعنى الظاهري إلى المعنى المستلزم هو: المنع.

يقول القلقشندي عن فتح القدس الشريف وإنقاذه من يد الكفر:«... وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة وبدل الله مكان السيئة الحسنة»[4]. ففي قوله:" ضربت عليهم الذلة والمسكنة" استعارتان الأولى" ضربت عليهم الذلة" حيث تم فيها جعل الذلة تحيط بالكفار وتشتمل عليهم، فهم كما يكون في الضّرب على الشّيء أو هي لصيقة به لازمة، أو كما يضرب الإسمنت أو الطين على الحائط فيلزمه ويلتصق به، فالمستعار منه إما الضرب على الشيء أو على الشخص، وإما ضرب الإسمنت أو الطين على الحائط، فهما حسيان، والمستعار له حال الكفار مع الذلة، والجامع بينهما الإحاطة واللزوم، وهما عقليان، وهذا نوع من استعارة المحسوس لمعقول، وكذلك هو الحال بالنسبة للاستعارة الثانية" ضربت عليهم المسكنة". ففي

---

[1]– ينظر: أمبرتو إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، مرجع سابق، ص160.

[2]– صبح الأعشى، ج168/2.

[3]– عبد المتعال الصعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، ج3، ط 4، مكتبة الآدب، مصر، د ت، ص132.

[4]– صبح الأعشى، ج284/8.

كلا الاستعارتين تم فيهما توضيح تصور للمشابهة وعقد طرفيها، أي بين ما هو موجود محسوس في الواقع وبين تصور لا وجود له إلا المفهوم منه وهما الذلة والمسكنة، وهذا ما تحدث عنه سيرل كما وضحنا سابقا. أما الدلالة الإنجازية المستلزمة فتتمثل في التحقير من شأن الكفار، والشق الثاني المدح للمسلمين بفتح القدس.

وفي موضع آخر يقول القلقشندي:«... قلت فما الجيزة؟ قال طغى الماء حتى علا قناطرها وتجسر، ووقع بها القصب من قامته حين علا عليه الماء وتكسر»[1].ففي قوله" طغى الماء" يكمن المجاز الاستعاري، فالمستعار له هوكثرة الماء وغمرته وعلوه، وهذا أمر حسي، أما المستعار منه صفة التكبر التي للإنسان، والجامع هو الاستعلاء المفرط والزائد وهما عقليان، وبهذا فهي استعارة معقول لمحسوس، توصلنا إليها عن طريق المشابهة والانتقال وعن طريق القرائن الحالية والمقامية والتي دلت على معنى مستلزم يتمثل في التعظيم من شأن الجيزة.

وردت في باب الاستشهاد عن الماء الأرضية وتحديد الماء العذب فقال فيه القلقشندي:« وذهب آخرون إلى أن الذي نبع من الأرض غير الذي نزل من السماء محتجين بقوله:﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾»[2]. يتجلى في الآية الكريمة التي ساقها القلقشندي﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴾ أي: كثير، وهنا ورد حذف معناه فاستجبنا الدعاء ففتحنا أبواب السماء أي أجرينا الماء من السماء كجريانه إذا فتح عنه باب كان مانعا له وذلك من صنع الله الذي لا يقدر عليه سواه وجاز ذلك على طريق البلاغة" بماء منهمر" أي منصب انصبابا شديدا لا ينقطع[3]. أما في قوله تعالى:﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾، أي شققنا الأرض بالماء عيونا حتى جرى الماء على وجه الأرض، وفيه استعارة تمثيلية حيث تم تشبيه تدفق المطر وانصبابه من السحاب بانصباب الأنهار التي انفتحت لها أبواب السماء، وانشق لها أديم الأرض، فالتفجير للعيون في المعنى، ولكنه أوقع في اللفظ على الأرض، ليفيد بالكلية على أنّ الأرض صارت عيونا[4]، وهذا النوع هو استعارة محسوس لمحسوس بوجه حسي، تم الانتقال فيها

---

[1]– صبح الأعشى، ج277/14.

[2]– م. ن، ج179/2.

[3]– ينظر: https://almerja.com/reading.php?idm=87769 ، بتاريخ: 2021/08/23، السّاعة: 20:57.

[4]– ينظر: الرّازي فخر الدّين محمّد بن عمر بن الحسين، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، ط1، دار صادر، بيروت، لبنان، 2004، ص156.

إلى معناها المستلزم الذي أبان عليه السياق والمتمثل في الاستجابة لدعاء سيدنا نوح عليه السلام حين دعا على قومه بالهلاك، وما دعا نبي على قومه إلا بإذن الله عز وجل[1].

ومما تقدم يتضح أنّ هذه المدونة التراثية قد تضمنت القيم التداولية وأبعادها التي سجلها الدرس اللساني الحديث في عملية التواصل مع المتلقي خصوصا في تلك الفقرات التي احتوت على المحاورات وعلى اللحظات التخاطبية بين شخوص المدونة.

**3- قوّة التّمثيل لمسوغات الاستحسان والتّلميح:**

استطاع القلقشندي من خلال عمله الكبير" صبح الأعشى" أن يحقق غايات بلاغية وخطابية عن طريق تخيُّره للمفردات بعناية، وتخيّره للتراكيب الملائمة التي تخدم القضايا السياسية والاجتماعية. فكل حقلٍ معرفي يقتضي خطابات معينة بغرض التبليغ تارة والإقناع تارة أخرى.

وقد كان القلقشندي يعمد أحيانا إلى التمثيل من الواقع وأحيانا يُمثّل من التاريخ فيستعير أقوال الحكماء والخلفاء والقادة ويسوقها كشاهدٍ على ما يقول. وبهذا صارت هذه الأقوال جملة من الخطابات جاءت في سياق معين وباتت تمثل" المركز" الذي يرجع إليه القلقشندي في التمثيل للقضايا، وسواء تعلق الأمر باستحسان القضية أو ردها ورفضها، فالمرجع دائما هو هذا" المركز" الذي تُغذّيه حيوات عدة داخل مدونة" صبح الأعشى"، ومن خلال هذه الخطابات المتباينة بين الإخبار والإنشاء كان ينبثق رأي القلقشندي بالتصريح تارة وبالتلميح تارة أخرى.

وإذا عدنا إلى الخطاب الذي ساقه القلقشندي عن الخليفة عمر بن الخطاب نجده يُعْربُ عن اندهاشه حيال شخصية الخليفة وهو الذي سلخ من عمره عشرة أعوام دون أن يتزعزع أو يتغير وأرجع القلقشندي هذه الصلابة في شخصية عمر إلى" قوة العزم" التي عُرف بها:« ونحن وإنْ كنّا لا نستجيز أنْ نلحق أحدا بطباع عمر ومذهبه وفضل قوته وتام عزمه، فإنّا لا نجد بُدًّا من معرفة فضل كل من استقامت طريقته ودامت خليقته فلم يتغير عند تتابع النعم... وكيف يلحق به أحدٌ مع قوله:" لو أنّ الصبر والشكر بعيران ما باليت أيهما ركبت"»[2]. فالسياق هنا ينبئ عن نفسية القلقشندي ويكشف عن تلك المنزلة الرفيعة لعمر بن الخطاب في قلب القلقشندي.

وبهذا يكون النّص أو الخطاب صورة عن نفس قائله لأنّه يجلو عن مكنونات صدره، ويجلي عن فكره وطبعه. ولقد أراد القلقشندي أنْ يصرف ذهن القارئ عن الخطاب ويتجاوزه إلى قائله فأورد لنا مقولة

---

[1]- ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ج20، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 2006، ص81.

[2]- صبح الأعشى، ج179/14.

عمر التي حققت فكرة خصبت خالدة، وهي الهدف من سوق القلقشندي للمقولة، ونعني بها فكرة" الثبات" التي اتصف بها الخليفة عمر قبل توليه الخلافة وبعدها.

فهذه العبارة هي خير ما يُدلّلُ على قوة التمثيل لمسوغات الاستحسان والتلميح، فهذا الرجل يتساوى لديه مفهومي" الصبر" و" الشكر" وهما فضيلتان قلَّما أدى الناس حقهما، حيث شبههما بالبعير، وهنا نكتة لطيفة تتعلق بالبعير الذي ضرب العرب به المثل في الصبر فكأنهما[ الجمل والصبر] تجمع بينهما علاقة الكل بالجزء أو النظير.

هذا المعنى النفسي تحول عند القلقشندي إلى قوة إنجازية قولية وإلى علاقة استلزام وحجة خطابية فاعلة من شأنها أن تحمل رسالة إلى القارئ وتبلغها إياه في سياق يتسم بالتلميح البلاغي الرائق. ففي قوله: « ما باليت أيهما ركبت»[1] استلزام بتساوي المنزلة والرتبة وهذا أيضا يستلزم أمرا آخرا هو" الثبات" وهذا الأخير يستلزم " قوة العزم" في هذا الرجل الذي أهّلته الأقدار أن يكون عنوانا على:" العدل".

إن هذه الأحوال التي ساقها القلقشندي عن" عمر" قد جعلت من الخطاب الإخباري مؤشرا عن الاستتباع، فكل قضية تستلزم وجود أخرى:

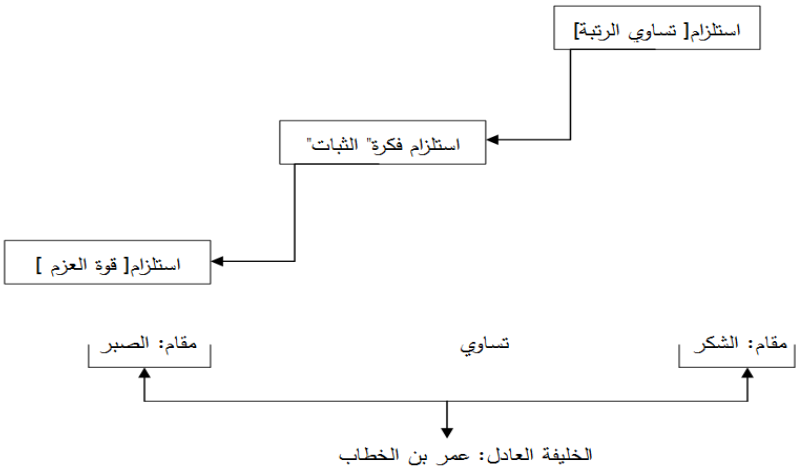


**مخطط يوضح: الاستتباع الاستلزامي**

علّة[ تساوي الرتبة] ← الثبات ← وعلّة[ الثبات] ← قوة العزم

ولكنّ هذا الاستتباع لا يمكن المحافظة عليه دائما في جميع القضايا إلا إذا توافرت بعض المعطيات من قبيل:

– قوّة الاستتباع الحواري.

[1]– صبح الأعشى، ج179/14.

– قوّة إنجازية الملفوظات.

– عدم خرق مبدأ الأسلوب/ الكيفية.

– إمكانية التواصل بين المرسل والمرسل إليه عبر آلية الاستفهام

– الطّلب والأخذ والرد.

وبالرّجوع إلى مقولة القلقشندي التي أخذها عن عمر:

[ لو أنّ الصبر والشكر بعيران ما باليتُ أيهما ركبتُ].

يمكن أن نكشف عن دلالة الكلام على هذا النّحو:

– إجلاء منزلة عمر في نفس القلقشندي.

– عدم التصريح بالإعجاب.

– تنطوي العبارة على معانٍ نفسية[ قوة الخليفة في الحق].

– توطين النفس على الثبات والعزم.

– سَوْقُ القلقشندي للعبارة يعكس إعجابه وإنْ لم تُصرِّح العبارة بالإعجاب وليس فيها ما يتعلق بالإعجاب، ولكنّ إيرادها فيه تلميح لذلك.

تنطوي العبارة على مجازٍ وتشبيه واستعارة، فالصبر والشكر مفهومان مجردان وإنْ كان لهما صورة حسية تتمثّل في:[ التحمل – الصبر] و[ حركة اللسان بالشكر والإحسان إلى خلق الله]، غير أنهما تجسّدا في صورة حسية واحدة في مقولة عمر فقال: أنهما بعيران، ولكن هذا القول جاء في صيغة الافتراض وليس في صورة الحقيقة واستعمل القرينة[ لو] الدالة على الامتناع.

لقد أولى الدرس التداولي أهمية قصوى لمستويات الكلام وأشار إلى الانتهاكات التي من الممكن أن تتخلل عملية التواصل. وبالرجوع إلى جهود البلاغيين العرب أمثال الجرجاني والسكاكي وجدنا هذه المقولات راسخة وأصيلة عندنا في تراثنا البلاغي، بل حتى إنهم بوَّبوها وقسموها إلى أقسام عديدة.

فمدونة" صبح الأعشى" غنية جدا بمثل هذا الاستعمال الرمزي ولا ندري إنْ كان ذلك مقصودا من لإحداث نوع من التفاعل والتواصل مع المتلقي من طرف القلقشندي أو يرجع ذلك إلى الواقع السياسي غير المستقر في الديار المصرية، أو خيفة من العصر الذي كان كان مليئا بالمكائد. ولا بأس أن نشير إلى عينة من هذه الانتهاكات عبر آلية المجاز، وكيف استطاع القلقشندي أن يوصل رسائله المشفّرة عن طريقه.

**4- انزياحات المجاز وخروقاته:**

يقول القلقشندي:«... وهل تظنُّ السّماءُ أنَّ يدًا تَصِلُ إليها؟»[1].

فهذا الخطابُ ينطوي على استفهامٍ غريبٍ غرضه التعجيز. والجميل في هذا الخطاب أنّه في صورة مجازٍ راقٍ يروق للمتلقي، ويؤنس الأذن ويطربها ويشرح النفس ويُبهجها. فقد أقام القلقشندي السّماء مقام العقلاء الذين من شأنهم أنْ يفكروا وينسوا وينطقوا ويظنوا بالإضافة إلى رفعة مقامها وبعد مرامها. ومتى كانت السماء تظنُّ؟ ومن هذا الأحمق الذي تحدثه نفسه بالوصول إليها؟ وليس من غاية وراء سوق القلقشندي لهذا المثال إلا التأكيد على فضيلة الإنصاف والعدل، وأنها متعذرة عند البشر تعذر وصول يد أحدهم إلى السماء. إنها عبارة غير متشاكلة وغير منسجمة، بل إنها صادمة لأفق توقع القارئ حيث إنّه أَوْكلَ" الظن" للسماء باعتبار أنّ" الظنّ" أحد خصائص الإنسان العاقل الذي من شأنه أن يظن، والسماء أفق رحبٌ من شأنها العلوية والرحابة وهي مما لايَعْقل ولا يظنّ. وبهذا البناء الفني غير المتجانس بين أجزاء ووحدات خطـــاب القلقشنـدي انزاحت العبـــارة عبـر هذا الخــرق إلى مدلـولات أخرى غير ما يظنُّه المتلقي.

فهذا الخرق الذي أحدثه المجاز جعل الخطاب يندرج ضمن إحدى صور الأفعال الإنجازية غير المباشرة التي تم فيها خرق مبدأ الحوار الغرايسي والتي تتطلب كفاءة مقامية تداولية للوصول إلى ما أراده القلقشندي من عبارته وهو تبيان:

- فضل الإنصاف والعدل.
- فضل العقل.
- فضل الأصل.

وفي حديثه عن النفاسة والأصالة يقول:«... والذهب محروسٌ لا يصدأ جِرْمُه...»[2].

والقلقشندي هنا يرمي إلى شيء يريدهُ فأوضح لنا بالمثال:" فضل الأصل" حتى وإنْ علاه التراب سيبقى الذهب ذهبا والتراب ترابا ولن يحدث أنْ يعلوه الصدأ لأن هذا مُتعذِّرٌ في المعدن النفيس.

وههنا استلزام وإسقاط على البشر وأنسابهم وأعمالهم، فمن كان منهم صاحب نفسٍ حرّةٍ فهو كالمعدن النفيس لن يصدأ وإن تعاقبت عليه العوارض:[ المرض- الفقر- الهوان- الأسر...]. ومن كان

---

[1]- صبح الأعشى، ج245/14.

[2]- نفسه.

منهم خسيسا يبقى خسيسا وإنْ تقلّد الرُّتب. وهو الحاصل زمن القلقشندي خصوصا إذا تعلق الأمر بهؤلاء الدخلاء على كتبة الدواوين الإنشائية.

يقول القلقشندي على لسان أبي إسحاق الصّابي:« وأن يقوم بما يعقده الرجل من عرض المسلمين، فإنّ ذمّته ذمة جميع المؤمنين، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" المسلمون يسعى بذمّتهم أدناهم وهم يدٌ على من سواهم"»[1].

يُظهر الاستعمال هنا طريقة الانتقال من المعنى الحرفي إلى المعنى المستلزم، في قوله صلى الله عليه وسلم:" وهم يد على من سواهم"، فكلمة **يد** وردت بمعنى القوة، فكأنّه صلى الله عليه وسلم قال:" وهم قوة على من سواهم"، لأن **القوة** أحد المعاني التي يعبر عنها باسم اليد، وبالتالي فاستخدام كلمة **يد** استعمال مجازي بلاغي، يتجاوز حدود أصل وضع الكلمة، إلا أن السياق يتحدد من خلاله المقصود الذي هو **القوة**، فمنها تم الانتقال من اللازم" هم يد على من سواهم" إلى الملزوم" هم قوة على من سواهم" وهو المعنى المستلزم[2]، فدلالته الحرفية إذن لا تستجيب لمعطيات السياق بل تحددت وفق علاقة الجزئية. والجدول التالي يوضح آلية الانتقال من الملزوم إلى اللازم:

| البنية | المثال | القوة الإنجازية | من حيث اللزوم | النوع |
|---|---|---|---|---|
| سطحية | هم يد على من سواهم | حرفية | ملزوم | مجاز |
| عميقة | هم قوة على من سواهم | مستلزمة | لازم | حقيقة |

**جدول يوضح: كيفية الانتقال من المعنى الحرفي إلى المستلزم**

ويورد القلقشندي على لسان أم الخير بنت الحُرَيش البارقية يوم صفين في الانتصار لعلي رضي الله عنه هذا القول:« إن الله قد أوضح الحقَّ، وأبان الدليل، ونّور السبيل، ورفع العلم، فلم يدعكم في عمياء مبهمة، ولا سوداء مدلهِمّة فإلى أين تريدون رحمكم الله. أفرارا عن أمير المؤمنين، أم فرارا من الزحف، أم رغبة عن الإسلام، أم ارتدادا عن الحق. أَمَا سمعتم الله عز وجل يقول: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾»[3].

---

[1]– صبح الأعشى، ج106/1.

[2]– طهراوي موسى، كاهنة دحمون، "الاستلزام الحواري في صبح الأعشى – المقالة الأولى أنموذجا–"، مجلة المفكر، جامعة الجزائر2، الجزائر، مج5، ع2، 2021، ص140.

[3]– صبح الأعشى، ج250/1.

لقد ضربت أم الخير لأنصار علي كرم الله وجهه مثلا فائقا يتمثل في استشهادها بقول الله سبحانه وتعالى على وجه المجاز المرسل يقينا منها أنّ كلام الله لا اعتراض عليه، فجاء في شرح هذه الآية أن البلاء هو السّبب والنّتيجة هي المعرفة، فأطلق سبحانه وتعالى السبب ويراد به النتيجة، كأنه قال: نعرف أخباركم[1]، فالعلم والمعرفة عن طريق الاختبار الذي تحصل عن طريقه المعرفة المجازية، فأم الخير أرادت من خلال كلامها أن البلاء المحدق بهم وبدينهم هو معاوية بن أبي سفيان والنتيجة هي أن تختبر أنصار علي وأتباعه وتكشفهم عن حقيقتهم، فأطلقت السبب وهو مقاتلة معاوية بن أبي سفيان، ويراد معرفة حقيقة أنصاره، ومن هنا تكون علاقة المجاز المرسل هي **السببية**.

وفي ذات السّياق ساق القلقشندي خطابا مفاده:«... قال الخليل عليه السلام:"واجْعَلْ لي لِسَانَ صِدْقٍ في الآخِرِينَ"، وأولى الناس باقتناء ذخائر الحمد وافتراض فرض الشكر من عرّض الله تعالى جاهه، وطوَّل يده...»[2].يدخل هذا الكلام في إطار ما ذكره القلقشندي في فصل آداب الكتاب، وبالضبط ضمن حسن السيرة وشرف المذهب الذي لابد لمن يطرق هذا الباب أن يتحلى ببعض الشروط كالصدق والأمانة وغيرها واستدل على صحة كلامه بقوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام حين دعا ربه أن يجعل له لسان صدق فمنها ما يتصل بالحياة الدنيا مثل الحكمة والصلاح، ومنها ما يتصل بما بعد الموت وقبل النشور فيمن يأتي بعده من الأجيال، ولا معنى لأن يبقى لسانه الناطق بعد موته فيمن يعقبه من الناس، وإنما يراد به الذكر الحسن الذي يتوارثونه جيلا عن جيل، وبهذا يكون قد أطلق اللسان وهو الآلة التي يحدث بها الذكر وينشأ عنها، وأريد به الذكر نفسه[3] على سبيل المجاز المرسل وفق علاقة **الآلية**، ومثل هذا النهج يبين ما للسان من أهمية في حدوث الذكر والدعوة إلى نقاوته فلا يصدر منه إلا ما هو حسن وهو ما أراده القلقشندي من هذا الاقتباس القرآني، وما يجب أن يتحلى به الكتّاب من باب مبدأ التأدب مع الآخرين.

وكما ذكر القلقشندي أنه يجوز أن يكون المراد باللسان الذي هو جارحة الكلام، ويكون المعنى آلتهم للكلام كما أن اللسان آلة الكلام بالنسبة للمتكلم، ويجوز أيضا أن يكون من اللسان بمعنى اللغة واستدل

---

[1]– ينظر: صلاح الدين صالح حسنين، الدلالة والنحو، ط1، مكتبة الآداب، دب، دس، ص89.

[2]– صبح الأعشى، ج72/1.

[3]– ينظر: http://islamport.com/k/adb/5679/200.htm بتاريخ: 2021/08/21. الساعة: 21:50.

بقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ ﴾إبراهيم: ٤، ويكون المعنى أنه المترجم عنهم والمتكلم بلغاتهم المختلفة[1].

كما تجدر الإشارة إلى المجاز بالزيادة أو النقصان بالحروف وهو نوع من المجاز المرسل، وهناك من عده ضمن المجاز العقلي، وهناك من يرى أنه لا من هذا ولا من ذاك، إلا أن الذي يهمنا في هذا الباب هو آلية الانتقال من المعنى الأصلي إلى المعنى المستلزم. فمن أمثلة الزيادة قول القلقشندي:« الحمد لله الذي ليس كمثله شيء وهو خالق كل شيء»[2]، فالجر في لفظة مثله مجاز لأن أصله النصب على أساس أنه خبر ليس مقدم، والجر حكم عرض من أجل زيادة الكاف، فلو لم يعمل الكاف لما كان لحديث المجاز سبيل، وفي هذا استعمال تم من خلاله الانتقال إلى المعنى المستلزم بمجرد زيادة حرف الكاف. وأما عن المجاز بالنقصان يتجلى ذلك فيما نقله القلقشندي من مكاتبات ومنها:«... اقتضى حسن الرأي الشريف أن يجمِّل إحسان الدولة القاهرة له عملا...، إذ هو صاحب العصا كما اختار موسى قومَه سبعين رجلا»[3]، فمن خلال هذا المثال نلاحظ أن لفظة قومَه وردت منصوبة والأصل أن يقال من قومِه بالجر، فالاستعمال على النصب يعد مجازا، عن طريق حذف حرف الجر من.

أمّا في سياق ما جاء على صورةالمجاز العقليوالذي هو إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة الإسناد الحقيقي. أما الإسناد المجازي فيكون إلى سبب الفعل أو زمانه أو مكانه أو مصدره أو بإسناد المبني للفاعل إلى المفعول أو المبني للمفعول للفاعل[4].

يسوق القلقشندي خطابا فيقول:«... ولا تاجرٌ إلا وقد خسِرت تجارته فما ربحت»[5]. والمقصود ههنا: خسر التاجر، وما ربح التاجر في تجارته، حيث أسند الفعل إلى غير فاعله في المثالين( تجارته، والضمير العائد عليها" هي" في قوله: ما ربحت) بينما الفاعل الحقيقي هو التاجر، فهذه ملابسة تعلق فيها الفعل بكل منهما.

لقد عبّرت هذه الآليات البلاغية عن معانٍ مستلزمة خرجت إليها من معانيها الخطية الظّاهرة، وذلك من خلال تحليل كيفية تحول الدلالة من الصريح إلى المعنى الضمني المستهدف من طرف المتكلم، فقد

---

[1]- ينظر: صبح الأعشى، ج67/6.

[2]- نفسه، ج355/6.

[3]- نفسه، ج170/13.

[4]- ينظر: https://ar.wikipedia.org/wiki/مجاز_(بلاغة) ، التّاريخ:2021/08/21، السّاعة: 23:33.

[5]- صبح الأعشى، ج122/10.

عمدنا إلى التحليل البلاغي بعض الشيء، كونه الأقرب للممارسة التداولية من حيث آلية الانتقال والتحوّل الدّلالي، والذي يتماشى ومتطلّبات الاستلزام الحواري، ولنبرز أيضا مدى استعاب مدونة" صبح الأعشى" لكل الظواهر البلاغية على اختلاف أنواعها وتعدد أشكالها، ومدى تضمنها واحتوائها لهذه الآلية التداولية وما حققته من منجزات قولية لها تأثيرها على المتلقي.

ومن هذا فقد كانت لغة القلقشندي تحمل مقاصد المتكلمين بداخلها مُحدثَةً لدى القارئ تأويلات عديدة، لأنّ القلقشندي كان يتحدث عن المكاتبات بين أطياف عديدة من المجتمع، فكانت كل وجهة نظر تفترض وجهة نظر أخرى ممكنة، فهذه المكاتبات هي عبارة عن ممكنات تتفاوت حسب المرسِل والمرسَل إليه وحسب كل مقصدية وهدف، فلا« سبيل إلى درك مقاصد اللغة إلا بردِّ أوَّلِها على آخرها، وآخرها على أولها، لأنّ معرفة مقاصد كلام العرب[ كما يرى الشاطبي صاحب الموافقات] إنّما مداره على معرفة مقتضيات الأحوال وهذا ما يفضي إلى الوقوف على المقاصد العامة للخطاب..»[1]، فالوصول إلى المقاصد وما يرمي إليه المتكلم يتطلب المعرفة بمقتضيات الحال والتفتيش والتنقيب في خبايا اللغة.

ومن أجل هذه الخصيصة التي يتمتع بها كتاب القلقشندي وهي **الإمتاع والتأثير** عبر آلية التفسير تارة وآلية الاستفهام والتساؤل مرة أخرى؛ بمعنى أنّه مزج في خطابه بين التقريريات والأبعاد الجمالية التي تحدثها البلاغة بالتقديم والتأخير والحذف والإضمار، ولهذا فإنّ جاذبية خطابه تكمن في الاستهلال والخاتمة مما يجعل الخطاب ملائما لكثير من المواقف والمواضيع، ومما يفسر تنوع المادة اللغوية في" صبح الأعشى" وتنوع المضامين في كل باب وفصل، إضافة إلى توظيفه لمختلف العناصر الإشارية من مخاطبين ومعطيات زمانية وأخرى مكانية، ورفع الإبهام عنها بتوظيفها في سياقاتها اللغوية المختلفة قصد نجاح العملية التواصلية وإحداث نوع من التأثير في المخاطَبين( المتلقين).

[1]– محمود عكاشة، النظرية البراجماتية اللسانية، مرجع سابق، ص32.

## المبحث الثّالث

## الإشاريات الخطابية وفاعلية التواصل في" صبح الأعشى"

**توطئة:**

لقد كان للباحث السيميائي Ch. S. Peirce[1] اليد الطولى في استحداث الإشاريات التي تمثل أحد أهم جوانب الدرس التداولي، في حين عدّ الكثير من الباحثين التداوليين الإشاريات ضمن تداولية الدرجة الأولى( النظرية التلفظية): التي تهتم بمقاربة الرموز، وكل ما يتعلق بما هو غامض ومبهم من أدوات تعبيرية ضمن سياقها الاستعمالي الوجودي، الذي يتمثل في المخاطبين والمعطيات الزمانية والمكانية[2].

ومن بين فلاسفة اللغة الذين اهتموا بمثل هكذا دراسة نذكر: بيرس، روسل، قيومين، كودمان، بارهييل... وبعضا مما قدمه" بنفنست" حول حديثه عن البعد الإشاري للزمن[3].

**أولا- الإشاريات وتداولية الخطاب:**

تعد الإشاريات من أبرز العلامات اللغوية التي لا يمكن« القبض على مرجعها الذي تحيل إليه إلا من خلال القبض على مجال سياق الخطاب التداولي على أساس أنها لا تشتمل على أي معنى في ذاتها»[4]، أي أن الإشاريات تبقى غامضة غير محددة المعالم حتى وإن تعلقت بمرجع ما، ويرجع هذا إلى كون المرجع يبقى غير مستقر في غالب الأحيان. ومن هذا يمكننا القول بأن المنحى التداولي وما يتضمنه من ملابسات وظروف خطابية لكفيلة برفع الإبهام واللبس عن هذه الأدوات والعلاقات اللغوية المبهمة.

إنّ مهمّة الإشاريات ضمن سياقها التّداولي لا تنحصر ضمن نطاق الإشاريات الظّاهرة فحسب، بل تتعداه إلى الإشاريات الباطنة التي تقبع في البنية العميقة للخطاب، على اعتبار أن هذا الخطاب صادر عن متكلم ما وفي زمكان معينين، أي أن الخطاب مشكل( داخليا وخارجيا) من ثلاث إشاريات: " الأنا، الهنا، الآن"[5] فالأنا لأنها متعلقة بالمتكلم أي الذات المتلفظة للخطاب ضمن سياق تداولي محدد. أما(

---

[1]- ينظر: محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، مرجع سابق، ص16.

[2]- ينظر: خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، مرجع سابق، ص79.

[3]- ينظر: المرجع نفسه، ص79. وينظر: فرنسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، مرجع سابق، ص41 وما بعدها.

[4]- واضح أحمد، الخطاب التداولي في الموروث البلاغي العربي( من القرن الثالث الهجري إلى القرن السابع الهجري)، رسالة دكتوراه، جامعة السانيا وهران، الجزائر، 2012/2011، ص134.

[5]- ينظر: الشهري، استراتيجيات الخطاب، مرجع سابق، ص80

الهنا) فهي تتعلق بكل ما له علاقة بمكان التلفظ. أما( الآن) فهي متعلقة بالزمن الذي أطلقت فيه مجموعة الأفعال الكلامية التي على أساسها يبنى الخطاب، وبناء على هذا فالإشاريات هي« تلك الأشكال الإحالية التي ترتبط بأشكال المتكلم مع التفريق الأساس بين التعبيرات الإشارية القريبة من المتكلم مقابل التعبيرات الإشارية البعيدة عنه»[1]، أيّ أنّ الإشارة شكل من أشكال الإحالة المرتبطة بنوع خطاب المتكلم، فمنها ماهي قريبة منه ومنها ماهو بعيد عنه.

تلعب الإشاريات دورا مهما في عمليتي الفهم والإفهام التي يُعتمد عليها في توجيه الخطاب والعمل على تأويله، وبالتالي فالإشاريات لها وظيفة تداولية كونها تهتم بطريقة مباشرة بالعلاقة القائمة بين تراكيب اللغات والسياق الذي تستخدم فيه[2]. أي أنّها على ارتباط مباشر بالعملية التبليغية والخطاب[3]. كما أنّها تقوم على دراسة العناصر المشكلة والمنتجة للخطاب انطلاقا من أنواعها الخمس التي اتفق عليها أغلب الباحثين( شخصية، زمانية، مكانية، اجتماعية، خطابية( نصية)) إلا أن بعضهم قد اقتصر على الثلاثة الأُولى. فإلى أيِّ مدى تتجلى أبعادها التداولية من خلال مدونة صبح الأعشى؟

**ثانيًا: أنواع الإشاريات في" صبح الأعشى":**

**1- الإشاريات الشّخصية: personal deictics**

وتمثّلها الضّمائر الدّالة على المتكلّم وحده مثل: أنا، أو المتكلم ومعه غيره مثل: نحن، إضافة إلى الضّمائر الدّالة على المخاطب سواء كان مفردا أم مثنى، جمعا مذكرا أم مؤنثا. فالضمائر الدالة على الحاضر هي دائما عناصر إشارية، ويرجع ذلك إلى كون اعتماد مرجعها على السياق الذي تستعمل فيه دائما. أما ضمائر الغائب فتندرج ضمن الإشاريات إذا لم يُعرف مرجعها من السياق اللغوي، وهنا يتكفل السياق التداولي بمعرفة إشارة هذه الضمائر إلى مرجعها، كما تَحدث فلاسفة اللغة عن شرط الصدق باعتباره بعدا في الإشاريات الشخصية، فإذا قال رجل( أنا والد الطفل) فالضمير" أنا" ليس بكاف أن يكون مرجعا لذلك الرجل، دون التحقق من مطابقة المرجع للواقع، وهو أن يكون هذا الرجل والد الطفل فعلا، مع مراعاة الظروف التاريخيـــة المناسبة التي قيلت فيها الجملة، فإن عدم تحقق شرط الصـدق يجعل من الجملة كاذبة[4].

---

[1]- الشهري، استراتجيات الخطاب، مرجع سابق، ص81.

[2]- ينظر: المرجع نفسه، ص82.

[3]- ينظر: عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي، مرجع سابق، ص68.

[4]- ينظر: محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، مرجع سابق، ص17-18.

**1-1- ضمير المتكلّم:**

يعدّ ضمير المتكلّم أكثر الضّمائر حضورا سواء كان متلفّظا به أو كان ضمن البنية الدّاخلية العميقة للخطاب نظرا لكونه عائدا إلى منتج الخطاب، ومعبرا عن ذاتيته، فهو مركز المقام الإشاري، فقد كان هذا الضمير كنقطة ارتكاز يبسط من خلالها المتكلم ذاتيته في هذه الموسوعة، ويدرك من خلاله المتلقي مدى سلطة المتكلم، فقد تمكن القلقشندي من خلال استعماله لضمير المتكلم المفرد أن يصنع جسرا يعبر من خلاله عما يجول في خاطره من رغبات وميولات ومعتقدات وتصورات... وبالتالي فهذه الذاتية قد اكتسبت تعددها، وهو ما يعكس لنا شخصيته في هذا الكتاب منذ بداية تأليفه فيقول في ذلك:« وكنتُ في حدود سنة إحدى وتسعين وسبعمائة عند استقراري في كتابة الإنشاء بالأبواب الشريفة السلطانية...»[1].

تُحيل الأنا الإشارية في هذا المقطع إلى المتلفظ ألا وهو القلقشندي، بل تعد هي محور الخطاب من المنظور التداولي، فقد انطلق الكاتب من ذاته ليجعل نفسه أعلى هرم العملية التواصلية، فأشار إلى نفسه بالضميرين المتصلين التاء في كلمة( كنت)، وياء الملكية في( استقراري)، ليؤكد للمتلقين في عصره أن موسوعته هي بداية التغيير في مجال الكتابة الإنشائية، فهي تشمل أبعادا مختلفة الأطوار، وبهذا ستكون بمثابة المصباح الذي ينير الطريق أمام دارسي هذا الفن الذي اعتبره القلقشندي بمثابة الحرفة أو الصنعة التي يكتسب من خلالها الإنسان قوته. فقد أبان عن ذلك من خلال مقامته التي بناها فقال:« أنشأتُ مقامة بنيتـُها على أنه لا بد للإنسان من حرفة يتعلق بها، ومعيشة يتمسك بها. وأن الكتابة هي الصناعة التي لا يليق بطالب العلم من المكاسب سواها، ولا يجوز له العدول عنها إلى ما عداها...»[2]. فضمير المتكلم( التاء) المتصل بالفعلين( أنشأت، بنيتها) يحيل إلى القلقشندي الذي أقر من خلاله أن الكتابة الإنشائية هي بمثابة الصنعة التي لا غنى عنها بالنسبة لطالب العلم، ولا يجوز له بأيِّ حالٍ العدول عنها.

ليواصل القلقشندي كلامه عن الكتابة الإنشائية مبينا سبب تفضيله وجنوحه إليها، متوقفا عند الأمور التي يحتاجها إليها كاتب الإنشاء فيقول:« وجنحتُ فيها إلى تفضيل كتابة الإنشاء وترجيحها...

---

[1]- صبح الأعشى، ج1/08.

[2]- م. ن، ج1/09.

ونبهتُ فيها إلى ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من مواد... وضمنتُها من أصول الصنعة... وأودعتُها من قوانين الكتابة ما استولت به على جميع مقاصدها أو كادت»[1].

لقد كرر القلقشندي الضمير المتصل( التاء) في هذا الخطاب( جنحت، نبهت، ضمنت، أودعتها) للدلالة على التأكيد على ذاتيته وفضله في بروز هذا النوع من الكتابات، وما يترتب عنها لدى الآخرين، فهذا التكرار قد أكسب الخطاب تفردا وخصوصية في هذا المجال، فقال في ذلك:«... وأشرتُ فيها إلى وجه تعلقي بحبال هذه الصنعة وإن لم أكن بمطلـوبها مليا، وانتســـابي إلى أهلــها وإن كنت في النسبة إليها دعيّا»[2].

فقد أحالت الضّمائر المتّصلة كالتاء في( أشرت، كنت) والياء في( تعلقي، انتسابي)، والضمير المستتر في( أكن) إلى شخص القلقشندي وأكدت على تفرده وتميزه، رغم أنه لم يكن من منتسبي أصحاب الكتابة الإنشائية، إلا أنه حرص على هذه الصنعة نظرا لتعلقه بها، فهو يدعو دائما إلى اتخاذها حرفة تمتهن كباقي الحرف، وهو ما جعله ينشأ مصنفه" صبح الأعشى" فقال في ذلك مستعملا عناصر إشارية شخصية:« أن أتبعها بمصنف مبسوط يشتمل على أصولها وقواعدها...»[3]، فالإحالة بواسطة الضمير المستتر( أنا) في الفعل( أتبعها) للدلالة على الذاتية وقوة الشخصية في هذا المجال على الرغم من أنه ليس من أهل هذه الصنعة، إلا أن نزعته ورغبته لم تسمحا له بالبقاء عاجزا أمامها، بل لاحت له بوارق الفتح، وبلغت النفس أملها فكانت بداية لظهور موسوعة ضخمة عبّر عنها من خلال العناصر الإشارية الشخصية التي اتضحت من خلال السياق التداولي، فقال:« فشرعت في ذلك بعد أن استخرت الله... وراجعت أهل المشورة... مستوعبا من المصطلح... متبرعا بأمور زائدة على المصطلح الشريف... متنقلا من توجيه المقاصد، وتبيين الشواهد آتيا من معالم الكتابة بكل معنى غريب، ناقلا الناظر في هذا المصنف عن رتبة أن يسأل... منبها على ما يحتاج إليه الكاتب من الفنون... ذاكرا من أحوال الممالك المكاتبة عن هذه المملكة... مبينا جهة قاعدتها... معرفا الطريق الموصل إليها... ذاكرا كل قاعدة مشاهير بلدانها... ضابطا لأسمائها»[4]. وفيما يلي مخطط لإنجازية التلفظ وفاعلية التكلم:

---

[1]– صبح الأعشى، ج1/09 بتصرف.

[2]– نفسه.

[3]– نفسه.

[4]– م. ن، ج1/10 بتصرف.

| الملفوظ | نوعه | زمنه | الدلالة | المتلفظ | نوع استراتيجية الخطاب |
|---|---|---|---|---|---|
| شرعت | فعل | الماضي | الحدث | الضمير المتصل (التاء) المضمومة الدالة على المتكلم العائدة على القلقشندي | إخبارية مباشرة |
| استخرت الله | فعل | الماضي | الحدث | | "" |
| راجعت أهل المشورة | فعل | الماضي | الحدث | | "" |
| مستوعبا | اسم فاعل | الحال (المضارعية) | الحدث لأنه يدل على الفاعلية | اسم الفاعل الدال على المتكلم (القلقشندي) | "" |
| موضحا | "" | "" | "" | | "" |
| متبرعا | "" | "" | "" | | "" |
| متنقلا | "" | "" | "" | | "" |
| آتيا | "" | "" | "" | | "" |
| ناقلا | "" | "" | "" | | "" |
| منبها | "" | "" | "" | | "" |
| ذاكرا | "" | "" | "" | | "" |
| معرفا | "" | "" | "" | | "" |
| ضابطا | "" | "" | "" | | "" |

ارتبط ضمير المتكلّم المتّصل بكلمة( شرعت) الذي يعود مرجعه من خلال السياق إلى القلقشندي الذي صور من خلاله كيفية شروعه في إنجاز مدونته، وما عاناه في جمع مادتها حتى تصل إلى المتلقي بأبسط صورة. أما عن الضمير المستتر( أنا) الذي نلمسه ضمن أسماء الفاعلين( مستوعبا، متبرعا، متنقلا، آتيا، ناقلا، منبها، ذاكرا، ضابطا)، فهو بمثابة فاعل لاسم الفاعل، فقد أحال هو الآخر إلى شخص القلقشندي. أما بالنسبة للإكثار منه فهو للدلالة على التمكن والقدرة على الاستيعاب والتوضيح، ومدى تمكنه من العلوم بمختلف أنواعها وتعدد أشكالها، إضافة إلى القدرة على التنقل والتعرف على المناطق والممالك المختلفة اتجاهاتها والمتنوعة طرقها والمتشعبة أسماؤها وأسماء أعلامها ومشاهيرها.

أمّا عن ضمير المتكلّم" نحن" فقد أشار القلقشندي إليه في عدة مواضع من المدونة وكان استعماله في باب ما يؤسس للعلاقات الاجتماعية خصوصا إذا كان المرسل إليه أعلى مرتبة من المرسل فقال في ذلك:« وإن كان المكتوب عنه ملكا، فقد جرت العادة أن يعبر عنه بنون الجمع للتعظيم: فقلنا كذا، وأمرنا بكذا، واقتضت آراؤنا الشريفة كذا... وفي معنى الملوك في ذلك سائر الرؤساء من الأمراء والوزراء

والعلماء والكُتّاب، ونحوهم من ذوي الأقدار العالية، والأخطار الجليلة... إذا كتبوا إلى أتباعهم ومأموريهم، إذ كانت هذه النون مما يختص بذوي التعظيم دون غيرهم»[1].

فمن خلال هذا الخطاب نلمس بعدا تداوليا يتمثل في التعظيم والتوقير لذوي الجاه والرفعة والمنصب العالي، فكان استعمال الضمير" نحن" الأكثر تأثيرا ووقعا في النفس، لما فيه من إجلال وإكبار لهؤلاء العلماء والأمراء، حتى أننا نجد القلقشندي استعان في هذا الباب بكلام الله عز وجل في قوله:﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا ﴾[2] للدلالة على المعنى المستلزم وهو العظمة والقدرة والقوة.

**1-2- ضمائر المخاطب:**

تعدّ ضمائر المخاطب هي الأخرى أحد أهم العناصر الإشارية، والتي تأخذ بعدا تداوليا، بالنظر إلى اهتمام المتكلم بها، كونها تمثل له الملاذ والمقصد الذي يتوجه إليه بخطابه، فحضور مثل هذا النوع من الضمائر ضروري لأنه يشارك في عملية إنجاز الخطاب وتوجيهه الوجهة التي يريد، إذ أن ما يتلفظه المتكلم يستمد معناه بفضل نيته في إحداث تأثير معين لدى المخاطب، وبتبليغ مقصد محدد[3]. أما ضمن الدائرة التواصلية فضمائر المخاطب تقابل المرسل إليه أثناء التخاطب إذ يقوم المرسل إليه بعملية تفكيكية لكل أجزاء الرسالة سواء كانت عبارة عن كلمة أم جملة أم نصا[4].

إن استعمال ضمائر المخاطبة المنفصلة السياق لا يقف عند الإحالة على المرجع فقط، بل يتجاوزه ليصبح دليلا على غرض تداولي، ومن هذا فإنه يتوفر لدى المرسل عند التفاعل ثلاثة نماذج في الاستعمال: أنت التعاونية أو المتبادلة، أنتم التعاونية أو المتبادلة أو الاستعمال المختلف، فاستعمال( أنت) يشير إلى أن المشاركين في الخطاب يعتبرون أنفسهم ذوي علاقة حميمة[5] من النّاحية الاجتماعية.

---

[1]- صبح الأعشى، ج301/6.

[2]- نفسه.

[3]- ينظر: مهدي مشتة، نعيمة سعدية،" البعد التداولي للإشاريات الشخصية في ديوان' الكبريت في يدي دويلاتكم من ورق' لنزارقباني"، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة قسنطينة، الجزائر، ع51، 2007، ص25.

[4]- ينظر: الطاهر بومزبر، التواصل اللساني والشعرية- مقاربة تحليلية لنظرية رومان جاكبسون- ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2007، ص25.

[5]- ينظر: الشهري، استراتيجيات الخطاب، مرجع سابق، ص288.

استعمل القلقشندي فعل الأمر( اعلم) في الكثير من المواضع من موسوعته، قصد إيفاد مخاطبه( أنت) معلومة يجهلها، فهذا الأسلوب كان شائعا في العصر العباسي على غرار نصوص ابن خلدون، التي كثيرا ما كان يفتتحها بصيغة الأمر( اعلم)، ومن بين الخطابات الواردة على هذا الشكل في المدونة:

- « اعلم أن الشعر وإن كان له فضيلة تخصه، ومزية لا يشاركه فيها غيره من حيث تفرده باعتدال أقسامه...»[1].
- « واعلم أن اللحن قد فشا في الناس، والألسنة قد تغيرت حتى صار التكلم بالإعراب عيبا...»[2].
- « واعلم أن الكاتب يحتاج إلى النظر في كتب الأمثال الواردة عن العرب نثرا ونظما...»[3].
- « واعلم أن كل ما بعد عن أقصى العمارة في المغرب إلى جهة المشرق...»[4].

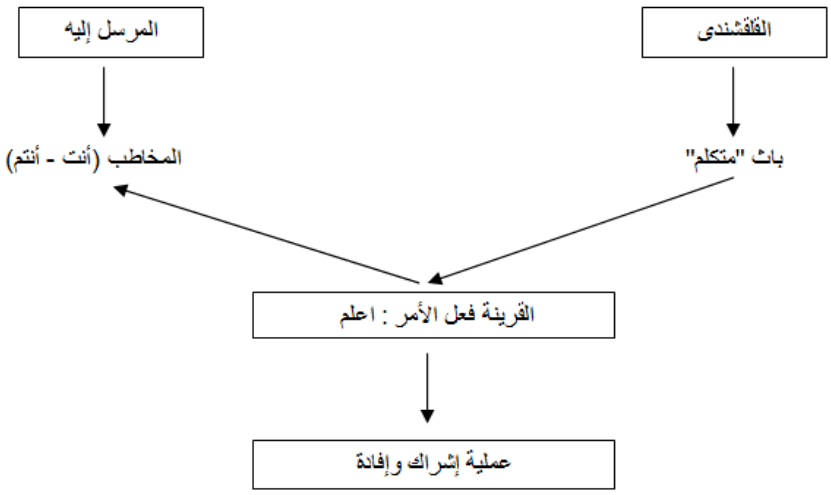


**مخطط يوضح: عملية الإشراك والإفادة بين المتكلم والمخاطب**

في المقاطع السّابقة نجد ضمير المخاطب في شكله المستتر" أنت" في الفعل( اعلم)، فدلالته المرجعية اقترنت تحديدا بالمتلقي، فقد خاطبه بنبرة غايتها لفت الانتباه واستحضار ذهنه من أجل الإصغاء

[1]- صبح الأعشى، ج58/1.

[2]- م. ن، ج173/1.

[3]- م. ن، ج290/1.

[4]- م. ن، ج229/3.

لأهمية ما سيقوله، كحديثه عن الشعر، واللحن، وإلى ما يحتاجه الكاتب من أمور تعنيه في الكتابة، إضافة إلى التعريف بالمناطق وغيرها من الأمور الكثيرة الواردة في المدونة.

إن مثل هذا الاستعمال يشير إلى مبدأ تداولي تمثل في مبدأ الإخلاص الذي يقتضي من المتكلم أن يقوم بتقديم حقوق المخاطب على حقوقه، ولا يعني هذا التقديم أنّه حطٌ من قدر المتكلم، ولا إضاعة أو هدر لحقوقه[1].

وفي إطار حديث القلقشندي عن معرفة الأبعاد الواقعة بين البلدان قال:« فإذا أردت أن تعرف كم بين البلد الذي أنت فيه وبين بلد آخر على الخط المستقيم فلك حالتان:

الحالة الأولى: أن يكون ذلك البلد على سمت بلدك الذي فيه في الطول أو العرض، فانظر كم درجة بينهما بالزيادة والنقص فاضربه... فاعتبره بما شئت من المراحل ...

الحالة الثانية: فطريقك أن تقابل بين عرض بلدك وطوله، وتنظر كم... فتضرب كلا... فتجمع الحاصل من الضربين فما كان خذ جذره، وهو القدر الذي ضربته في مثله حصل عنه ذلك العدد»[1].

في هذا المقطع توجّه القلقشندي بكلامه لمخاطبه وهو ما دل عليه مرجع ضمير المخاطب المذكر المتصل( أردت، بلدك، فلك، اضربه، اعتبره، شئت، طريقك، ضربته)، أو المستتر( فانظر، اضربه، اعتبره، تنظر، فتضرب، فتجمع، خذ، اضربه). من خلال السياق في المقطع اتخذ القلقشندي من المخاطب ذاتا مركزية يعود إليها الخطاب، فالكاتب من خلال كلامه هو أعلى مرتبة من مخاطبه نظرا لطول الشرح والتفصيل وضرب الأمثلة، فهو بهذا يحاول توجيه الخطاب وجهة ما، والملاحظ في هذا الخطاب أن القلقشندي نوّع من الضمائر المتصلة ككاف الخطاب( بلدك، لك، طريقك)، والأفعال المضارعة الدالة على الحركية والاستمرار والتجدد( تضرب، تجمع، تعرف، تقابل، تنظر)، أما الأفعال الماضية فقد استعملها للتذكير( أردت، ضربته)، أما استعماله لأفعال الأمر فذلك للدلالة على التشديد على مخاطبه للقيام بما يأمره من أمور ضرورية في الحساب مثل( فانظر، فاضربه، فاعتبره، خذ)، فأفعال الأمر هذه تحمل قيمة تداولية ممثلة في الالتزام بالفعل لتحقيق الإنجاز المطلوب، وبهذا يكون التواصل ناجحا وبشكل إيجابي. لهذا كان خطاب القلقشندي يتسم بنوع من الجدلية في الطرح، بحيث نجده يحمل بعدا تداوليا ذات طابع تعليمي، يتعلم من خلالها المخاطب كيفية الحساب والقياس بين بلد وبلد آخر وفق علاقات رياضية يقينية لا يمكن الاعتراض عليها.

[1]– ينظر: طه عبد الرّحمن، اللّسان والميزان أو التكوثر العقلي، مرجع سابق، ص 252.

*** ضمير جمع المخاطب:**

يُخاطب بالضّميران" أنتم، أنتن" عادة المجموعة، إلّا أّنه قد يستعمل لمخاطبة المرسل إليه المفرد إذا كان ذا مرتبة مرموقة تعلو المتكلم، فهو على درجة من الاحترام والتقدير، أو الصفة الرسمية، وهنا تقل درجة التضامن، وعندما لا يكون طرفي الخطاب على معرفة، فهنا قد يستعمل المرسل" أنتم" مكان" أنت" لأنها الأعلى رتبة في السياق التداولي، فهي تؤدي وظيفة الإخبار المتضمن لمعنى الاحترام، مع مراعاة الفارق بين الطرفين، إذ يعبر من خلال" أنتم" استعدادا للتقارب الخطابي مع المرسل إليه باستعمال الإستراتيجية التي تؤسس العلاقات الاجتماعية[2].

ينبغي الإشارة إلى أنّ المخاطب قد تتساوى منزلته مع المتكلّم، فيخرج الخطاب حينئذ عار من التفخيم، وهنا يمكنُ أنْ يكون "كاف" الخطاب جديرا بأداء الخطاب بين المتكلمين. والملاحظ أنّ هذا الأمر كان شائعا في أساليب العربية، وكان القلقشندي على دراية تامة بهذا فنبّه عليه في كتابه:«يجب على الكاتب أنْ يتنقل في استعمال الألفاظ على حسب ما تقتضيه رتب الخطاب والمتخاطبين، وتوجبه الأحوال المتغايرة، والأوقات المختلفة: ليكون كلامه مشاكلا لكل منها، فإنّ أحكام الكلام تتغير بحكم تغيّر الأزمنة والأمكنة ومنازل المخاطبين والمتكلّمين»[3]. ومنه يُفهم لماذا يلجأ المتكلم في بعض خطاباته إلى استعمال الضمير" أنتم" بدلا من الضمير" أنت"، وذلك لرتبة المخاطب ومكانته الاجتماعية. أو إلى الكلفة التي بينهما، أو إلى المكان الذي يتواجدان فيه، أو إلى غيرها من الظروف والملابسات، كما هو موضح في المخطط الآتي:

---

[1]– صبح الأعشى، ج252/3

[2]– ينظر: الشهري، استراتيجيات الخطاب، مرجع سابق، 290. وينظر: ريمة لعبادلية، تداولية الخطاب الشعري– ديوان الإمام الشافعي نموذجا– رسالة ماجيستير، جامعة قالمة، الجزائر، 2014/2015، ص52.

[3]- صبح الأعشى ج297/6

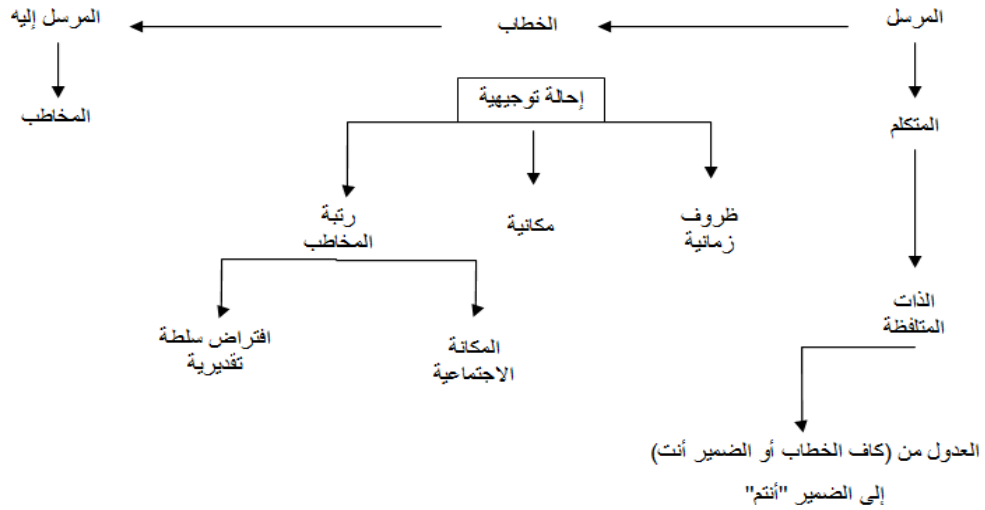


**مخطط يوضح: تحقق وانجاز الفعل التداولي بين أطراف الخطاب عن طريق الإشاريات المتضمنة معنى" التفخيم والوقار".**

لقد أشار القلقشندي إلى هذا البعد التّداولي الذّي يؤسّس للعلاقات الاجتماعية حين لجأ إلى استعمال الضمير" أنتم" بدلا من" أنت" للتعبير عن الاحترام والتوقير وفي هذا الصدد قال:« وقد أخذ كُتّاب المغرب مع ولاة أمورهم في الجمع بالميم فخاطبوا الواحد مخاطبة الجمع مثل: أنتم، وفعلتم، وأمرتم، وما أشبه ذلك»[1]. وبهذا يكون القلقشندي قد أعطى اعتبارا وسن قاعدة تتمثل في أن المرسل لابد أن« يعرف مقدار فهم كل طبقة من المخاطبين في المكاتبات في اللسان فيخاطب كل أحد بما يناسبه في اللفظ، وما يصل إليه فهمه من الخطاب»[2]، وهنا نلمس عناية القلقشندي بالمرسل إليه، فلا بد أنْ يتخير المرسل الخطاب بحسب الموقف والحال ومقدار كل طبقة وقدرتها على الفهم، أي أنّه يجب أنْ يخاطب كلا بما يناسبه من اللفظ.

### 1-3- ضمائر الغائب:

يعدّ ضمير الغائب القسم الثّاني بعد ضمائر الحضور، غير معروف ولا مشاهد، لذا وجب إيجاد ما يفسره« والأصل فيه أن يكون متقدما على ضمير مذكور قبله ليبين معناه، ويكشف المقصود منه، ويتبيّن

[1]- صبح الأعشى، ج6/301.

[2]- م. ن، ج6/ 296.

مرجعه»[1]. كما اعتبر البعض أن ضمير الغائب الشّخصية الثّالثة في الخطاب، إذ تعدّ هذه الشّخصية من العناصر الأساسية فيه، ميزتها البارزة أنّها« تبتعد عن الإبهام، ويدعوها جون سيرفوني j. cervoni باللا: شخص non: personne، ولكن لا يمكن للضمير أن يعبر عن اللا شخص بحيث لا يظهر إلا إذا أراد المتكلم ذلك...، إنه يمكن أن يطلق على( هو) الضمير الغيبي، ولا يختلف عن( أنا) و( أنت)، ولا يمكن تحديد وظيفة( هو) خارج أفعال الكلام Acte de parole حسب مانغونو D. Maingueneau فالسياق اللغوي هو الذي يسمح بترجمة( هو) وربطه بسياقه، يقدم له مدلولا، والشيء نفسه بالنسبة لـ ( أنا) و( أنت) اللذان يفتقدان للمرجعية في حالة فقدان الاستعمال الواقعي لهما»[2].

فالشخصية الثالثة حاضرة بقوة إذ لم نقل هي الأكثر حضورا في موسوعة القلقشندي" صبح الأعشى" ومن أمثلة ذلك قوله:« قلت: عن تمام آداب الكاتب وكمالها أن يعرف حقوق مشايخ الصناعة وأئمتها اللذين فتحوا أبوابها، وسهلوا طرقها، ويعاملهم بالإنصاف فيما أعملوا فيه خواطرهم، و أتعبوا فيه رویاتهم فينزلهم منازلهم ولا يبخسهم حقوقهم...»[3].

ما يلاحظ على هذا المقطع أنه يحتوى على مجموعة من الضمائر المتصلة والمستترة افتتحها القلقشندي بالضمير المتصل( ها) ليدل على المرجع( الآداب، الصناعة) وذلك لتعزيز الصفة، أما عن استعمال الضمير المستتر( هو) للمفرد المذكر فقد جاء بغرض تقديم بعض الشروط التي يجب توفرها في الكاتب، فقد أشار هذا الضمير للمرجع الذي سبقه( الكاتب) الذي قام بالتفصيل في الشروط والصفات التي يتطلب حضورها في الشخص حتى يصلح أن نسميه كاتبا، وذلك بأن يعرف حقوق مشايخ الصناعة، وأن يعاملهم بالإنصاف، وأن لا يبخسهم حقوقهم، وأن ينزلهم منازلهم...

أما عن ضمير الغائب الجمعي" هم" و" واو" الجماعة الدال على الغائب، فقد ارتبط مرجعه بفئة من المثقفين المشايخ، الذين يعملون من أجل رسم الطريق الذي على دربه يسير غيرهم كالتأدب بآداب أئمة الصناعة الإنشائية، فهم الذين فتحو أبوابها، وسهلوا طرقها، وأعملوا فيه خواطرهم، وأتعبوا فيه رویاتهم...،

---

[1]– مهدي مشتة، نعيمة سعدية، البعد التداولي للإشاريات الشخصية في ديوان" الكبريت في يدي دويلاتكم من ورق" لنزار قباني، مرجع سابق، ص527.

[2]– حمو الحاج ذهيبة، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، طبعة ثانية مزيدة ومنقحة، الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، تيزي وزو، الجزائر، 2012، ص 114/113.

[3]– صبح الأعشى، ج84/1.

فتسليط الكاتب الضّوء على مثل هذه الأمور، ما كان إلا حرصا منه على جعل الكاتب ضمن هذه الصناعة، بل كاتبا نموذجيا يحتذى به.

أمّا في مجال ما يتصرّف فيه صاحب هذا الدّيوان بتدبيره، ويصرفه بقلمه التّوقيع والتّعيين فقال فيه القلقشندي:« أما التوقيع فهو الكتابة على الرقاع والقصص بما يعتمده الكاتب من أمر الولايات والمكاتبات في الأمور المتعلقة بالمملكة، والتحدث في المظالم، وهو أمر جليل، ومنصب حفيل، إذ هو سبيل الإطلاق والمنع، والوصل والقطع،... واعلم أن التوقيع كان يتولاه في ابتداء الأمر الخلفاء، فكان الخليفة هو الذي يوقع في الأمور السلطانية»[1].

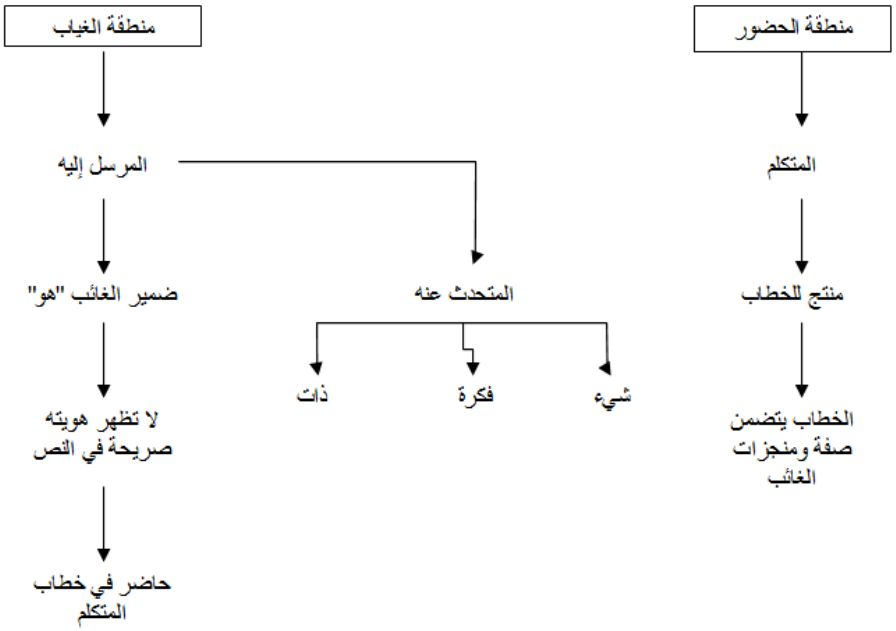


**مخطط يوضح: مجموع الإشاريات الواردة في الخطاب تتضمن ملفوظات منطقتي الحضور والغياب.**

استعمل القلقشندي الضّمير المفرد المذكر الغائب( هو) منفصلا في هذا الخطاب من أجل تقديم تعريف لكل من التوقيع والخليفة، فقد أحال للمرجع بـ( التوقيع، الخليفة)، ثم جاء بعده الضمير( هو)، فالكاتب حسب القلقشندي هو الذي يحمل على عاتقة كل الأمور المتعلقة بالمملكة، وذلك حين يتحدث عن كل ما يتعلق بأمور الولايات والمكاتبات، فهذا المنصب الذي يحتله كاتب التوقيع جليل، ومنصب حفيل كونه السبيل إلى كل الأمور، ونظرا لأهمية التوقيع كان الخليفة هو الذي يوقع بنفسه خصوصا إذا تعلق الأمر بالأمور السّلطانية.

[1]– صبح الأعشى، ج111/1.

**1-4- أسماء الإشارة:**

أسماء الإشارة صنف من أصناف الإشاريات الدالة على الحضور، ويرجع ذلك إلى أنها تحيل على حاضر وقت الكلام، كما أنّها تدل على استحضار الذوات الغائبة أثناء الخطاب، وتكون بإحدى الطريقتين[1]:

- حسية: مثل الإشارة باليد إلى شخص أو شيء حاضر.
- قولية: مثل الإشارة بأسماء مخصوصة وتكون لما هو حاضر أو غائب أو لمعنى مجرد.

وقد تكون الإشاريات القولية والحسية معا. أما الإشارة القولية فهي الأكثر قصدا في هذه الموسوعة، والموضوعة لأداء معنى معين مثل:

- هذا رجل كريم ..... إشارة إلى رجل كريم حاضر أمامك.
- هذا إفك عظيم ..... إشارة إلى معنى.
- هذا القلقشندي جمع من كل العلوم وصنّفها... إشارة إلى غائب.

لقد أشار القلقشندي في مصنفه لهذا الصنف من الإشاريات في إطار حديثه عن العلوم. فهو يرى أنّ جميع العلوم إنما تعرف بالدلالة عليها:« بالإشارة، أو اللفظ أو الخط، والإشارة تتوقف على المشاهدة، واللفظ يتوقف على حضور المخاطب سماعه...»[2].

المدونة التي بين أيدينا غنية جدا بأسماء الإشارة على اختلاف أنواعها، إلا أننا سنذكر بعض الأمثلة قصد توضيح أبعادها التداولية، ومن ذلك نذكر:

- ✓ « واعلم أن الناثر الماهر والشاعر المفلق قد يأتي بكلام سبقه إليه غيره، فيأتي بالبيت من الشعر أو القرينة من النثر أو أكثر من **ذلك** بلفظ الأول من غير زيادة ولا نقصان، أو بتغيير لفظ يسير، **هذا** هو الذي يسميه أهل **هذه** الصناعة وقوع الحافر على الحافر»[3].
- ✓ « اعلم أنه لما كانت صناعة الكتابة مبنية على سلوك سبل الفصاحة واقتفاء سَنَن البلاغة، وكانت **هذه** العلوم هي قاعدة عمود الفصاحة ومسقط حجر البلاغة، اضطر الكاتب إلى معرفتها، والإحاطة بمقاصدها: ليتوصل بذلك إلى فهم الخطاب»[4].
- ✓ « أما الكلام الموجز فإنه يصلح لمخاطبة الملوك، و**ذوي** الأخطار العالية، والهمم المستقيمة...»[1].

---

[1]- ينظر: ريمة لعبادلية، تداولية الخطاب الشعري، مرجع سابق، ص54.

[2]- صبح الأعشى، ج08/3.

[3]- م. ن، ج284/2.

[4]- م. ن، ج181/1.

في إطار حديث القلقشندي عن الناثر الماهر والشاعر المجيد الذي يحسن كيفية التعامل مع الكلام الذي سبقه إليه غيره، وذلك من خلال ما يقوم به من مطابقة بين كلامه وكلام سابقيه، إذ استعمل القلقشندي في ذلك إشارة المفرد المذكر( ذا) الدال على القريب والمقترنة بهاء التنبيه، حيث عبر عن هذه المطابقة بما أطلقه أهل هذه الصناعة بـ" وقوع الحافر على الحافر".

أما في خطابه الأخير جاءت الإشارة تخصيصا لمن يتصف بالمكانة العالية والرفيعة، خصوصا إذا كان من الملوك، فقد أشار القلقشندي إلى هذه الفئة بـ( ذوي)، فأصحاب الأخطار العالية والهمم المستقيمة واجب مخاطبتهم بكلام موجز، وذلك بالنظر لما يمتلكونه من مكانة وسلطة تتوجب عدم إكثار الكلام في حضرتهم، فالغالب عند استعمال اسم الإشارة( ذوي) فإنه يدل على علو منزلة المشار إليه وعظمته بين قومه.

استعمل القلقشندي اسم الإشارة( ذا) مقرونا بالكاف التي للخطاب ليشير بها إلى معنى، وفي هذا دلالة على عزوفه عن تكرار ما سبق ذكره والإشارة إليه، فقد يأتي الناثر أو الشاعر بالبيت من الشعر أو القرينة من النثر أو أكثر من ذلك، فاسم الإشارة( ذلك) يدل أنهما- الشاعر والناثر- قد يأخذان ما يشاءان ولكن بأمانة. وفي هذا الخطاب إحالة إلى قضية الصدق في التعبير الذي يجب أن يتوخاه الشاعر أو الناثر.

أما عن اسم الإشارة" هذي" المكسورة الدالة على المؤنث نتيجة لتغير صوتي في حركتها والذي يمثل قيمة دلالية فارقة بين المذكر والمؤنث، كما أن" هذي" صارت في الوقف" هذه" وبقي هذا الاستعمال متداولا إلى يومنا هذا[2].

أحال القلقشندي باسم الإشارة المرفوق بحرف التنبيه( هذه) في الخطاب الأول( وكانت **هذه** العلوم هي قاعدة...) إلى علوم المعاني والبيان والبديع، في إشارة منه إلى أهمية الكتابة وصناعتها وما تتطلبه من شروط حتى يتمكن الكاتب في هذا المجال أن يحسن إذا كتب وأن يعبر إذا عبر، فالفصاحة والبلاغة لا يتأتيان إلا عن طريق الإلمام بقواعد تلك العلوم التي يُتوصل من خلالها إلى فهم الخطاب.

أما الخطاب الثاني فهي تشير في قوله:« هذه الصناعة» إلى الكتابة الإنشائية( أي صناعة أهل النثر) التي شبهها القلقشندي، بالحرفة( الصناعة) التي تمتهن، إذ يعتمد من خلالها الكاتب على ما رتَّبه غيره من الكُتَّاب، وأنشأه أهل صناعة النثر قبله، أي أنه يعمد إلى الكلام الذي أنشأه أفاضل الكتّاب وقام بترتيبه علماء الصناعة سواء كان نثرا أم نظما، فيأخذه برمته، ويأتي عليه بصيغته، والهدف من ذلك أن يكون ناسخا ناقلا الكلام غير حاكيا له[3]، وفي هذا إشارة إلى الاتفاق على اللفظ والمعنى الواحد.

---

[1]- صبح الأعشى، ج326/2.

[2]- ينظر: صفية مطهري، الدلالة الإيمائية في الصيغة الإفرادية، د ط، إتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2003، ص20.

[3]- ينظر: صبح الأعشى، ج283/2.

وجاء في المدوّنة قوله في الكلام أنه إذا« صحبه التصحيف والتحريف فتلك الطامة الكبرى، والمصيبة العظمى، ثم لا يكتفي بذلك حتى يتبجح به، ويعتقد أن ذلك عين الإنشاء وحقيقته»[1].

أشار القلقشندي في هذا الخطاب إلى نقطة خطيرة جدا وهي التصحيف والتحريف أي التبديل والتغيير، فقد أشار إلى هذه الظاهرة عن طريق اسم الإشارة( تلك) التي قدم من خلالها أوصافا للمشار إليه فيها ووصفها بأنها طامة كبرى حاصلة، ومصيبة عظمى، ويرجع هذا إلى أن بعض الكتّاب يحرفون الكلام عن مواضعه فيغيرون ما شاؤوا وقت ما شاؤوا بعيدا عن القوانين والضوابط وأصول النقل، فكلامهم كما قال القلقشندي:« بعيد عن الصنعة، يعاد من النسخ إلى المسخ، وأخرج الكلام عن موضعه، وأفسده في وضعه وتركيبه»[2]. والمشكل الآخر الذي طرحه هنا هو أن هؤلاء الكتّاب يتبجحون ويتباهون بفعلتهم اعتقادا منهم أن هذا المنحى هو عين الصواب، وهو الإنشاء بعينه محتجين بقول الحريري:« إن صناعة الحساب موضوعة على التحقيق، وصناعة الإنشاء مبنية على التلفيق»[3].

إن الغاية من هذا الخطاب الذي يسعى القلقشندي إيصاله إلى مخاطبه هو العمل على جعله كاتبا نموذجيا له من المقومات التي تأهله لذلك، كالابتعاد عن التصحيف والتحريف، والمعرفة بعلوم البلاغة والفصاحة، فعين الإنشاء وحقيقته ليست مجرد لملمة لكلام من هنا وهناك كما يدعي البعض.

وخلاصة القول في الإشاريات الشخصية أن القلقشندي اعتمد في موسوعته على استعمال ضمائر الحضور والغياب، لكن الملاحظ هو غلبة ضمائر الغائب خصوصا في تلك النصوص التي تبناها عن الآخرين. ومما هو جدير بالذكر هو أن خطابه موجه بالدرجة الأولى إلى كُتَّاب عصره الذين عرفوا بالجمع والتحشية دون إنتاج يذكر. إلا أننا نلمس في موسوعته استعمالات مختلفة للضمائر متصلة ومنفصلة، ظاهرة أم مضمرة، كاستعمال" نحن" للدلالة على المفرد وفي هذا تعظيم وتبجيل يحمل قيمة تداولية اجتماعية.

### 2- الإشاريات الزّمانية: Tomporal deictics

لكلّ خطاب زمان يرتبط به، فالزّمان عنصر مهم يدرك من خلاله المخاطب المعنى كاملا، وهذا ما أكده الأستاذ خليفة بوجادي حينما رأى أن دور الإشاريات الزمانية يكمن في تحقيقها المعنى وإنجازيته.[4]

---

[1]- صبح الأعشى، ج283/2.

[2]- نفسه.

[3]- نفسه.

[4]- ينظر: خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مقاربة بين التّداولية والشّعر- دراسة تطبيقية- ط2، بيت الحكمة، العلمة، الجزائر، 2012، ص57.

أمّا الشهري فقد أكّد أنّ لحظة التلفظ هي المرجع، لذا وجب ربط الزمن بالفعل ربطا قويا في مرحلة أولى، إضافة إلى ربط الزمن والفاعل وذلك بالنظر لأهميته الكبرى في مرحلة ثانية[1].

كما ميز" بنفنست" بين زمنين: زمن فيزيائي استمراري منتظم يتميز بالخطية واللانهاية، والآخر تاريخي يتعلق بشكل مباشر بحياة الإنسان، إنها متتالية من الأحداث منذ ولادته، فالإنسان يمكنه أن يسير بفكره في اتجاهين مختلفين متعاكسين من محور الزمان، من الماضي مثلا إلى الحاضر والعكس، عن طريق الذاكرة[2]. وبمختصر شديد فالإشاريات الزمانية هي جميع ظروف الزمان التي يمكن أن تكون ظاهرة أم مضمرة.

أمّا في" صبح الأعشى" فقد أفرد القلقشندي لعنصر الزمان بابا كاملا من" المقالة الأولى" الذي تحدث فيه عن المعرفة بالأزمنة والأوقات من الأيام والشهور والسنين على اختلاف الأمم فيها، وذلك بالتفصيل في أجزائها والطرق الموصلة إليها إضافة إلى التعريف بأعياد الأمم وغيرها من الأمور المتعلقة بالزمن.

أمّا توظيف العناصر الإشارية الدالة على الزمن في المدونة مثل اليوم، الليل، النهار، فهي كثيرة جدا، إلا أنّ الدارس لكتاب "صبح الأعشى" يلمس فيه الإشارات الزمانية الدالة على المقارنة بين زمانين أو مكانين، وهذا ما سنحاول أن نقف عنده، وعند دلالته محاولين الكشف عما تحمله هذه المقارنة من مقاصد وأبعاد تداولية.

أكثر القلقشندي من المقارنة بين زمانين، فالزمن الماضي عبّر عنه بالعنصر الإشاري" الزمن المتقدم"، أما الذي يُعاصره فقد فأشار إليه بظرف الزمان" الآن"، ومن ذلك قوله:« كانوا يسمون في الزمن المتقدم الفداوية، وكبيرهم شيخ الفداوية... أما الآن فقد سموا أنفسهم بالمجاهدين وكبيرهم بأتابك المجاهدين»[3].وقوله أيضا عن لباس الحرب:« واعلم أن لباس العرب في الحرب كان الزرد أما الآن فقد غلب عمل الفرقلات من الصفائح المتخذة من الحديد المتواصل بعضها على بعض»[4].

جاءت عبارة" الزّمن المتقدّم" لتدلّ على زمن سبق، ومركز الإشارة يفهم من خلال السياق الذي يتكلم عن المجاهدين الذين كانوا يسمون أنفسهم الفداوية، وكبيرهم بشيخ الفداوية، أما عن ظرف الزمان"

---

[1]– ينظر: الشهري، استراتيجيات الخطاب، مرجع سابق، ص83.

[2]– ينظر: ريمة لعبادلية، تداولية الخطاب الشعري، مرجع سابق، ص71.

[3]– صبح الأعشى، ج122/1.

[4]– م. ن، ج143/2.

الآن" فقد أشار إلى الزّمن الحاضر الذي عاصره وعايشه القلقشندي، فالسياق الخطابي تغير من حال إلى حال أخرى فقد أطلقوا على أنفسهم اسم المجاهدين، وكبيرهم بأتابك المجاهدين، فَسِرُّ التسمية بين" المجاهدين" و" الفداويين" حد فاصل بين زمنين الماضي والحاضر بالنسبة لزمن المتكلم، ويعني هذا أن دلالة" الزمن المتقدم" تشير إلى ما قبل القلقشندي. فلو خلا الخطاب من عنصر الزمان لفقد معناه وزال تركيبه، فقد كان لهذين العنصرين الإشارين دور في تجلية المعنى بالنسبة لمتلقي الخطاب.

أما في الخطاب الأول، فقد استعمل القلقشندي إشاريتين زمانيتين، الأولى تدل على الزمن الماضي في عبارة" كان الزرد"، أما الثانية فتدل على الزمن الحاضر" الآن"، فمرجع هذين العبارتين يتحدد من خلال السياق الذي يتكلم فيه الكاتب، فمرجع الإشارة في عبارة" كان..." هو كل أيام السنة بجميع أيامها ولياليها التي مضت، فقد كان العرب يلبسون في حروبهم الزرد وهو الدرع، أما في إشارته بـ" الآن" فهي دلالة على تغيير اللباس في عصر القلقشندي إلى الفرقلان المصنوعة في الصفائح الحديدة المتواصلة، فاستعمال القلقشندي لهذه الإشاريات الدالة على المقارنة، والتي لم تكن تشير إلى زمن محدد مضبوط معين من السنة للمرسل إليه.

إنّ البحث والتقصي في مدونة " صبح الأعشى"، يفضي بنا إلى أن القلقشندي أثناء مقارنته، فإنه يعقدها غالبا بين ما آلت إليه الأمور في عصره كونه شاهدا على أحداثه ومعاصرا لها، وبين الماضي، إلا أننا نلمس أثناء حديثه عن عصر ما مشاعر الحسرة والأسى والألم لما آل إليه حال الأمة العربية والإسلامية، خصوصا ما تعلق بالجوانب الدينية و الأخلاقية وتلاشيها، وانتهاك القيم والعادات المتوازنة، كقوله:« وهو قليل لقلة الاعتناء بأمر الدين »[1]، فالقلقشندي من خلال هذه المقارنة يحاول أن يقدم للمخاطب صورة حية تجعل منه غيورا على دينه وما فُعل به، إضافة إلى دعوته إلى الاهتمام بعادته وتقاليده والمحافظة على موروثه الديني والثقافي.

ومن بين وجوه المقارنة عند القلقشندي بيانه للمتغيرات الواقعة بين عهدين في مرحلة تاريخية ما، كمقارنته لولايات القدس أيام الناصر محمد قلاوون، وأيام دولة الظاهر برقوق، ومن ذلك نأخذ:« وقد تقدم أنها كانت في الزمن المتقدم ولاية صغيرة، وأن النيابة استحدثت فيها سنة( 777هـ)... أما ولاياتها:

- فالأولى- ( ولاية الرملة)- وكانت في الأيام الناصرية محمد بن قلاوون من الولايات الصغار بها جندي، ثم استقر بها الزمن في دولة الظاهر برقوق كاشف أمير طبلخاناه...

[1]- صبح الأعشى، ج11/13.

- والثّانية- (ولاية لدٍّ)- وكانت في الأيام الناصرية ابن قلاوون ولاية صغيرة بها جندي، ثم أضيفت إلى الرملة حين استقر بها الكاشف المقدم ذكره»[1].

أبان هذا الخطاب على مدى اهتمام القلقشندي بالأطر التاريخية، لولايات القدس بين فترتين زمنين مختلفتين، فقد أشار لذلك عن طريق مجموعة من الظروف ممثلة في( الأيام، حين، عند)، فالأيام إشارة زمنية يقصد بها الأيام التي كانت تحت حكم الناصر محمد بن قلاوون، والذي كشف عن ذلك سياق الخطاب في إشارة منه إلى زمن مضى بدلالة عبارة( وكانت في الأيام)، لتدل على الحكي أنّ هذه الولايات كانت صغيرة لعدم اهتمام الحاكم الناصر بن قلاوون بها. أما عن استعماله للظرفين( عند وحين) فقد أشار بهما للزمن الحاضر وهو زمن استقرار ولايات القدس في عهد الظاهر برقوق، ليدل هذا على الاهتمام والتغير والتوسع زمنه. فكانت هذه المقارنة التي عقدها القلقشندي بمثابة إشادة للظاهر برقوق، ولوم وعتاب إن للناصر بن قلاوون.

اتسع كتاب" صبح الأعشى" لنماذج كثيرة من المقارنات التي لا يسمح لنا الوقوف عليها جميعا، كما أشار القلقشندي إلى متغيرات أخرى كالتي طرأت على بعض الشعائر والممارسات الطقوسية عند الأمة الإسلامية، ومن أمثلتها كسوة الكعبـــة الشريفة ونوع القمـــاش وجودته ولونه، وكل ما يتعلق به منذ عصر الإسلام إلى زمانه[2].

كما تجدر الإشارة إلى ذكر نوع آخر من الإشاريات الزّمانية استخدمه القلقشندي للدّلالة على الزّمن الماضي كلمة" العرف"، مثل ما جاء في قوله:« إن العرف فيما تقدّم من الزّمان قد خصّ...»[3]. أمّا عن عصره فغالبا ما يستعمل عبارة" غلب في زماننا..." ، وأحيانا يشير كما سبق وأن أشرنا بـ" في الزمن المتقدم... أما الآن"، أمّا عن كِتاب عصره فقد أشار إليه باستخدام « كتاب الزمان...»[4].

ما يلاحظ من خلال ما سبق أنَّ الإشاريات الزمانية في" صبح الأعشى" قد انقسمت عموما بين الماضي والحاضر والمستقبل، وقد غلبت عليها المقارنة بين الماضي والحاضر، وهذا ما يشي بقوة القلقشندي الأدبية ومقدرته على الصناعة الإنشائية، فقد طغى أسلوب المقارنة على المدونة تقريبا فاستعمل عبارات مثل" في الزمن المتقدم، أما الآن، غلب في زماننا، ما تقدم من أيام، الآن، حين، عند..."، ونظير ذلك كثير في المدوّنة، فكلّ هذه الإشاريات الزّمانية تداولية حيث أشارت في مواضع

---

[1]- صبح الأعشى، ج199/4.

[2]- ينظر: المصدر نفسه، ج154/8، 168، 181، 183، 205، 245، 247، 210، 214، 364، ج210/6، 212، ج337/10. وينظر في مجال كسوة الكعبة إلى: ج178،282/4.

[3]- م. ن، ج52،138/1، ج83/6.

[4]- م. ن، ج34/6، 342، 344، 356 بتصرف.

كثيرة لأحوال المجد والعزة والافتخار، وأحيانا أخرى إلى زمن الخوف والفزع والمعاناة والدمار لما آلت إليه الأوضاع في عصره.

**3- الإشاريات المكانية Spatial deictics:**

وهي تلك العناصر الإشارية التي تحيل إلى أماكن يعتمد استعمالها وتفسيرها على معرفة مكان التكلم في زمن التلفظ، أو مكان آخر معروف للمخاطب أو المتلقي، ويكون لتحديد المكان وأثره في اختيار العناصر التي تشير إليه من جهة القرب أو البعد أو الجهة.

أمّا ليفنسون N. Levinson فيرى بأن الإشاريات تختص بتحديد« المواقع بالانتساب إلى نقاط مرجعية في الحدث الكلامي، وتقاس أهمية التحديد المكاني بشكل عام انطلاقا من الحقيقة القائلة أن هناك طريقتان رئيسيتان للإشارة إلى الأشياء هما: إما بالتسمية أو الوصف من جهة أولى، وإما بتحديد أماكنها من جهة أخرى»[1].

وبرجوعنا إلى المدوّنة من أجل البحث عن الإشاريات المكانية التي استعملها القلقشندي من أجل الكشف عن أبعادها التداولية، فهي كثيرة جدا لا حصر لها، فقد أفرد لها أبوابا وفصولا من مقالاته، إلا أننا سنحاول في هذه الورقة البحثية أن نقف عند مقارنته بين مكانين خصوصا مصر، وبين الدول الأخرى التي ارتبطت معها بعلاقات متنوعة، فقد استخدم القلقشندي مصطلحات تدل على الأماكن تعكس مدى ثقافته الموسوعية والجغرافية وشمولية الموضوعات التي يتحدث عنها. ومثل ذلك مقارنته بين أهل المشرق وأهل المغرب( مصر وبلاد المغرب والأندلس)، وما قام به من تفصيل حول ديوان الإنشاء مثل: مقادير قطع الورق في المشرق والمغرب كقوله:« هذه مقادير قطع الورق بالديار المصرية والبلاد الشامية، أما غير مملكة الديار المصرية من الممالك، فالحال فيها يختلف في مقادير الورق المستعمل بدواوينها. أما بلاد المشرق فعلى نحو المقادير المتقدمة. أما بلاد المغرب والسودان وبلاد الفرنج، فعادة كتابهم في طومار واحد»[2].

قدّم القلقشندي مقارنة بين الديار المصرية وما كان عليها من أمور حول قطع الورق وبين بلاد المشرق وبين بلاد المغرب والسودان وبلاد الفرنج، فقد أشار لهذه الأماكن وكيفية تعاملهم مع الورق وقطعه بالأماكن السالفة الذكر، وحتى يتوصل المتلقي إلى فهم المقصود من هذا الكلام لا بد عليه أن يكون على دراية بالمكان المقصود حتى يتم لديه الفهم، وإلا عجز عن فهم مرامي الخطاب، فالقلقشندي

[1]- ينظر: الشهري، استراتيجيات الخطاب، مرجع سابق، ص84.

[2]- صبح الأعشى، ج193/6.

يحاول أن يوصل للمتلقي أن ما عُرف في مصر عن الورق يختلف عن باقي المناطق الأخرى التي ذكرها، وفي هذا نوع من الافتخار والاعتزاز وهو المعنى المستلزم مقاميا.

أشار القلقشندي إلى الاختلاف الحاصل في استعمال بعض الكلمات بين مصر والمغرب، كاستخدام مصطلح" سيدنا ومولانا" عند المغاربة، فهي إشارة تخص السلطان وبعض أصحاب المراتب الدينية والديوانية، بينما يحيل مصطلح" السادة" عند المصريين على أولاد الملوك[1]، ومثال ذلك:« على أن ذلك مخالف لمذهب المغاربة: فإنهم يعبرون عن ولاة أمورهم بالسادة، ويعبرون عن صاحب الأمر بسيدنا، وكأن هذا كان في زمانه وإلا فالمعروف عند أهل المغرب والأندلس الآن التعبير عن السلطان بالمولى، يقول أحدهم مولانا فلان، وأهل مصر الآن يطلقون السادة على أولاد الملوك».

يشير القلقشندي في هذا المقطع إلى ثلاثة أماكن مكان قريب وهو مصر، والآخران بعيدان وهما المغرب والأندلس، فالكاتب يذكر بمميزات كل منطقة في كيفية استعمال الألفاظ السلطانية والمراتب الدينية والديوانية، وفي هذا دعوة من القلقشندي إلى كل متكلم بأنْ لا« يخرج المعنى لكل مخاطب على صيغة واحـدة من اللفظ، بل ينبغـي أن يخـرج في الصيـغة المشـاكلة للمـخاطب اللائقة بقدره ورتبته...»[2]، مهما اختلفت المنطقة.

والملفت للنظر في مدونة" صبح الأعشى" أن القلقشندي أكثر من المقارنة بين ما كانت عليه الحواضر الإسلامية من نهضة وبناء وعمران، وبين ما آلت إليه من خراب ودمار في مناطق أخرى[3]، ومن أمثلة ذلك كقوله:« وكانت حلب قد عظمت في أيام بني حمدان، وتاهت بهم شرفا على كيوان. جاءت دولة الأتابكة فزادت فخارا... ويأبى أهلها في الفضل عليها لدمشق التسليم، حتى نزل هولاكو بحوافر خيله فهُدمت أسوارها وخربت حواضرها...»[4].

الإشاريات المكانية التي استعملت في هذا المقطع( حلب، بني حمدان، كيوان، الأتابكة، دمشق)، ومرجعها يعود إلى المتكلم حيث يوجد التلفظ، فقد أشار القلقشندي إلى حلب في عهد بني حمدان ودلالتها في السياق هي العظمة وعلو الشأن في ذلك الزمان، والتي ازدادت في عهد دولة الأتابكة التي قامت

[1]– ينظر: ظيماء السامرائي، المنهج التاريخي عند القلقشندي، مرجع سابق، ص167.

[2]– صبح الأعشى، ج305/6.

[3]– ينظر: م. ن، ج115/4، 117، 118، 124، 134، 140، 347...

[4]– م. ن، ج117/4.

بتحصين المدينة، حتّى أصبح يشار إليها بالعظمة، إلى أن دمرت على يد القائد المغولي هولاكو مع عدة أماكن كدمشق وغيرها.

ومما جاء في المدونة قوله:« أسعد المنازل وأشرف المواطن ما استوطنه أيده الله وتبَوَّاه وتخيره لنفسه وارتضاه، فغذا بشخصه وطن الإقبال، وبفضائل كرمه حرم الآمال، وبشرفه للسؤدد معقلا، وبنبله للرياسة منزلا، فعرَّفه الله يُمنٌ هذه الديار المعمورة بحلول البركات...»[1].

يشير القلقشندي في خطابه هذا إلى ذكر المكان دون ذكر اسمه المعين( المنازل، المواطن، وطن، معقل، منزلا)، ودلالتها في السياق المنزلة العالية والمكان المرموق الذي يحتله سيده الذي له الفضل واليمن والبركات، ففي أي مكان حل فيه إلا وتسعد به المنازل وتشرق به المواطن، فذو المنزلة العالية يُرفعُ ومن دونه يُوضعُ، حتى بين البقاع والأمصار.

ذِكْرُ القلقشندي لأماكن مخصّصة دون أخرى- حتّى وإن قلنا أنه جمع في موسوعته أماكن لا حصر لها من كل أنحاء المعمورة- راجع بالدرجة الأولى لثقافته الموسوعية والجغرافية. أما بالنسبة لحديثه المفصل عن العرب فيرجع ذلك لجذوره العربية وحبه للنهوض بهم وبحضارتهم خصوصا مصر، مهد الحضارة العربية، فتارة نجد نبرة الاعتزاز والفخر بهم، وتارة نجد نبرة التحسر والألم على ما آل إليه حالهم من دمار وخراب.

**4- الإشاريات الاجتماعية Social deictics:**

وهي ألفاظ وتراكيب تحيل إلى تلك العلاقة الاجتماعية بين المتكلّمين والمخاطبين من حيث هي علاقة رسمية تشمل ألفاظ التّبجيل لأصحاب المنزلة والمقام العالي، وأخرى غير رسمية وتشمل التّحايا والمحاباة وكلّ ما يتّصل بالجانب الحميمي، فمثال الأولى استعمالك لفظ" أنتم" للدلالة على المفرد، ونحن للدلالة على المفرد وهذا من باب التعظيم أو كقولك: جلالة الملك، فضيلة الشيخ، حضرتك،... أما مثال الثانية قولك: صباح الخير، مساء النور..

جاء في" صبح الأعشى" إشاريات تؤسس للعلاقات الاجتماعية إذ أفرد لها القلقشندي بابا في موسوعته تحدث فيه عن التحية وأصحابها، وفيما يُكتب في افتتاح المكاتبات والرسائل الصادرة أو الواردة عن الملوك أو الكُتّاب إلى الديار المصرية أو غيرها، وعن هذه العلاقات التي تؤسس للعلاقات الاجتماعية يقول:« وربما خاطبو الواحد بميم الجمع تعظيما للمكتوب إليه، كما يعبر عن المتكلم الواحد

[1]- صبح الأعشى، ج72/9.

بنون الجمع تعظيما له»[1]. ومن المواقف التي لفتت انتباه القلقشندي وتبناها نذكر:« يا مولاي، وسيدي، العظيم شأنه وأمره، العالي صيته وذكره، ومن أبقاه الله في عز لا تنفصم عراه، وحرز لا يستباح حماه، لم أزل- أبقى الله سيدي ومولاي- تسمو بي إلى الكتابة هِمَّةُ»[2].

استعمل صاحب الخطاب إشاريات اجتماعية يعود مرجعها إلى سيده الذي لم يذكره في خطابه في ألفاظ مولاي، سيدي، أبقاه الله، أبقى الله سيدي ومولاي، فاستعمال هذه الألقاب دلالتها التعظيم، والذي كشف على ذلك هو السياق من باب مبدأ" التأدب الأقصى" مع المخاطب فهذا المبدأ من أهم المبادئ لدى اللسانين التداوليين، كونه يحافظ ويدعو إلى العلاقات الاجتماعية.

وجاء في خطاب آخر« السلام الكريم العميم، على الشيخ الذي أثبت وده فلا أتحول، وأطنب في حمده فلا أستعير ولا أتأول»[3].

يحيل هذا الخطاب على عنصر إشاري مهم وهو" السّلام" الذي يعد مبدأ من مبادئ الدين الإسلامي والذي يجعل المخاطب أكثر راحة وطمأنينة لما يتلقاه من كلام، أما عن العنصر الإشاري الآخر فهو" الشيخ" فدلالته التبجيل والتعظيم لما له من مكانة رفيعة في نفسه وفي مجتمعه فلا يمكن ذكره دون ذكر فضله وأحسن الألقاب له، حيث نسب إليه لفظة" الشيخ" التي ترمز للحكمة والفطنة والعلم.

كما تجدر الإشارة إلى أن الإشاريات الاجتماعية كثيرة جدا في هذه الموسوعة، خصوصا أن القلقشندي يتحدث عن المكاتبات والمراسلات إلى جميع الأقطار العربية وغير العربية، وهذا ما يتوجب أن يسلك الكاتب سبيل هذه التراكيب الدالة على الاحترام والتقدير، إضافة إلى تنوع المراتب الاجتماعية في عصر القلقشندي وتكونها من مجموعة من الطبقات فمنها الفقير والغني والمتوسط، ومنها الملوك والسلاطين والقواد، ومنها العبيد والرق، ومنها المتكسبون من وراء كلامهم...، وذلك مراعاة لحال السامع أو المرسل إليه ومختلف الظروف المحيطة بالعملية التخاطبية.

**5- الإشاريات الخطابية discourse deictics:**

أسقط الكثير من الباحثين الإشاريات الخطابية كونها تلتبس بالإحالة الشخصية كما سبق وأن أشرنا في مقدمة المبحث، إلا أن هناك من فَرّقَ بينهما، فرأى أن الإحالة الشخصية يتحدد فيها المرجع بين ضمير الإحالة وما يشير إليه، أما إشاريات الخطاب فهي لا تحيل إلى ذات المرجع، بل تخلق المرجع.

---

[1]- صبح الأعشى، ج148/8.

[2]- م. ن، ج155/8.

[3]- م. ن، ج156/8.

هذا وقد تستعير إشاريات الخطاب بعض الإشاريات الزمانية أو المكانية مثل: الزمن الماضي الأسبوع الفارط، الرأي السابق،... فهي بمثابة فواصل نصية تتمظهر في النصوص الروائية على وجه الخصوص، أمّا الإشاريات الخاصة بالخطاب والتي نجدها مذكورة في النص، فهي تشير إلى موقف المتكلم فيها، فقد يتحير في ترجيح رأي عن رأي آخر أو الوصول إلى النتيجة بعد مناقشتها[1]. ومن أمثلته:[ لكن، بل، من ثمَّ، فضلا عن ذلك، مهما يكن، إضافة إلى ذلك،...] وهذه كلها إشاريات خطابية.

ومن الأمثلة التي استعملها القلقشندي في موسوعته كثيرة نذكر قوله حول الكاتب الذي كان:« ينشئ لكل واقعة مقالا وقد كان هذا الديوان في الزمن المتقدم يعبر عنه بديوان الرسائل تسمية له بأشهر الأنواع التي تصدر عنه لأن الرسائل أكثرُ أنواع كتابة الإنشاء وأعمُّها»[2].

تتجلّى الإشارة الخطابية في عبارة" في الزمن المتقدم" فهي تحيل إلى زمن سابق كان فيه الديوان يسمى بديوان الرسائل على اعتبار أنها أشهر الأنواع الصادرة عنه، إضافة إلى أن الرسائل هي الكتابات الإنشائية الواردة في ذلك الزمان، والغاية من ذلك التعريف به على أنّ ديوان الإنشاء كان يكتسي أهمية كبيرة حتى في أزمان سبقت، ومثل هذا الطرح يندرج ضمن الأبحاث التداولية.

ممّا استعمله القلقشندي من إشاريات خطابة تحمل بعدا تداوليا لفظ" قيل" التي تفيد الاستدراك لكلام سبق مثل قوله:« فقد قيل إن الجن تنقل الأخبار وتفشي ما تطلع عليه من الأسرار»[3]، فقد أحال عن طريق العبارة السابقة إلى ما سبق ذكره وذلك أن السر إذا خرج من عند صاحبه، فإنه يصبح سجين غيره، فإن كانت الجن تفشي السر فما بلك بالبشر.

وكم هي كثيرة العبارات والحروف التي تحمل في طياتها أبعادا تداولية استعملها القلقشندي في موسوعته لإيصال مقاصده.

**- خاتمة الفصل:**

ممّا سبق يتضح أنّ مدوّنة" صبح الأعشى" تتضمن قيما تداولية سجلها الدرس اللساني الحديث في إطار العملية التواصلية بين المتكلم والمتلقي من أجل تبليغ المقاصد وجعل المتلقي يتبع ما سنَّهُ القلقشندي من مبادئ وشروط تُعتبر بمثابة قوانين يبني من خلالها كاتب الإنشاء أفكاره ويعمل على تعديلها من

[1]- ينظر: ريمة لعبادلية ، تداولية الخطاب، مرجع سابق، ص 86- 87.

[2]- صبح الأعشى، ج90/1.

[3]- م. ن، ج108/1.

خلال ما أورده القلقشندي من خطب ومكاتبات ورسائل ونصوص يرقى بها إلى تلك المنزلة الشريفة؛ أي الكتابة الديوانية. ومن بين النتائج المتوصل إليها في هذا الفصل نذكر:

– اتساع وقابلية مدونة" صبح الأعشى" للقيم والأبعاد التداولية خصوصا تلك الخطابات التي ترد في الاستعمالات اليوميةوفي النصوص الأدبية.

– تتضح القيم التداولية في اللحظة الخطابية أكثر منها في لحظة القراءة أو لحظة الكتابة.

– تتوفر مدونة" صبح الأعشى" على الكثير من الأساليب الإنشائية والخبرية والتي تطابق إلى حد بعيد نظرية أفعال الكلام التي جاء بها أوستين وسيرل.

– يعد القصد عند العلماء العرب حدا فاصلا بين الخبر والإنشاء يتقاطع مع المنحى التداولي في رؤيتهم لارتباط أغراض الأفعال ارتباطا وثيقا بمقصدية المتكلم، وهو ما يساعد على التمييز بين فعل كلامي وفعل كلامي آخر.

– تعد العناصر[ مخاطَب– مخاطِب– خطاب...] قرائن مساعدة لتحقيق الغرض من الفعل الكلامي كما يحدث مع الأمر والنهي.

– خطاب القلقشندي في المدونة حافل بجميع أصناف الأفعال الكلامية إلا أنّ للتقريريات الحظ الأوفر منها كون القلقشندي في مقام الإخبار.

– تتغيّرُ المعاني بتغيرِ القول من مقام إلى مقام آخر، وعلاقة تلك المعاني بقائلها وهذا ما نلمسه كثيرا في مدونة" صبح الأعشى"، ففيها التنبيه وفيها النصح وفيها التوجيه وفيها الإغراء وغيرها، وهذا ما يعرف في لغة المعاصرين بأفعال الكلام التي يُراد بها تخصيص أو تضمين الخطاب غاية تواصلية معينة.

– يمكن أن نؤكد بالقول أنّ" صبح الأعشى" كتابٌ غنيٌّ بمواضيع عديدة أهّلته لأن يستوعب الوافد الغربي في جانبه النقدي وأدواته الإجرائية، وأن يكون هذا الكتابدليلا يدعم الدرس التداولي ويرسخ مفاهيمه الحديثة من: استلزام حواري، حجاج وأفعال كلام وغيرها من مقولات التداولية.

– بشواهدها الثرية، تمثل مدونة" صبح الأعشى" النسق الملائم الذي يمكن أنْ يكون محل دراسة بلاغية محضة، تنطبق عليه تنظيرات علماء البلاغة العرب.

– الباحث في النظرية اللغوية العربية يلاحظ أنّ القدماء سبقوا إلى ظاهرة الاستلزام الحواري، فلم يغفلوا عن التمثيل للمعاني المقامية الثواني التي تخرج عن أصل الوضع، وتتولد من امتناع إجراء الكلام على الأصل بدليل قرائن الأحوال، وهي التي يدعوها عبد القاهر الجرجاني بمعنى المعنى.

– في مدونة" صبح الأعشى" تتعدّى المقاصد الصريحة إلى الضمنية وذلك حسب الدواعي والظروف التي ميّزت عصر القلقشندي.

– عجت الآليات البلاغية( استعارة، كناية ، مجاز) في" صبح الأعشى" بالكثير من المعاني الضمنية والتلميحية التي تعرف في العرف التداولي بالاستلزام الحواري.

– نوع القلقشندي من الإشاريات المكانية والزمانية إلا أن الزمان والمكان كانا مبهمين في أغلب موسوعته، وهذا ما جعل كلامه صالحا لكل مكان وزمان، والسياق الذي قيلت فيه هو الذي يحدد دلالتها. أمّا الإشاريات الاجتماعية فاستعملت لتصنيف مختلف الشخصيات والمراتب الاجتماعية، فكان منها ما هو للتبجيل والتقدير، ومنها ما هو للتحقير والإذلال. أمّا الإشاريات الخطابية كثيرة ومتنوعة وغالبا ما استعملت للاستدراك. في حين نجد الإشاريات الشخصية أكثر حضورا في المدونة عن طريق استعمال الضمائر منفصلة أو متصلة غيبا أو حضورا ساعدت القلقشندي على التّعبير عن القضايا التي يُعالجها.

## الفصـــــل الثـــّالث

## الاستدراج التّداولي والبعد اللّغوي في" صبح الأعشى"

**- تمهيد:**

**المبحث الأول: الحجاج البلاغي في" صبح الأعشى".**

1- البعد الحجاجي للتشبيه في" صبح الأعشى".

2- القيم التداولية في استعارات" صبح الأعشى".

3- أثر الكناية في توجيه الخطاب في" صبح الأعشى".

**المبحث الثاني: الحجاج اللغوي في" صبح الأعشى".**

1- الحجاجبالتقنيات الاتصالية والانفصالية.

2- الحجاج بوصفه منجز كلامي.

3- فاعلية التناص في الحجاج.

4- بنية السجع وأثرها في توجيه خطابات" صبح الأعشى".

**المبحث الثالث: الروابط والعوامل الحجاجية في صبح الأعشى**

أولا: الروابط الحجاجية في" صبح الأعشى".

1- الروابط السببية.

2- روابط العطف.

3- روابط الاستنتاج.

4- رابط التساوق الحجاجي( حتى).

ثانيا: العوامل الحجاجية في" صبح الأعشى".

1- العامل كاد.

2- العامل إنما.

3- عاملية النفي.

ثالثا: السلم الحجاجي في" صبح الأعشى".

**تمهيد:**

يحتاج المتكلّم أثناء إنجاز أقواله إلى جملة من الأساليب والتقنياتالتي تعمل على خلق نوع من التأثير في محاوره أو سامعه، ولا يكون ذلك متاحا إلا باستصحاب بعض الآليات البلاغية، والتي تكونُ عادة من صميم العملية التخاطبية على اختلاف أنواعها وتعدد أنماطها( تشبيه ، واستعارة، كناية، ومجاز مرسل...) وأخرى لغوية كالاعتماد على الروابط العوامل الحجاجية إضافة إلى بعض منجزات التناص وفاعليتهعن طريق الاستشهاد بالنصوص المقدسة والنصوص النبوية الشريفة، وأقوال الشعراءوالبلغاء، والعلماء والمفسرين، وبعض الصيغ التأكيدية كالقسم والتعجب والتكرار وغيرها،والتي تهدف إلى إقناع المتلقي أو العمل على تأييده أو رفضه لخطاب المتكلم، وهذا ما يجعل الخطاب الحجاجي البلاغي واللغوي مساعدين على توجيه كل من العقل والقلب والعمل على إقناعهما بتضافر مجمـوعة من الحجج العقليـة المـزيلة للشـك والمحققـة للإقنـاع وذلك هـو صلـب ما ترمـي إليه البلاغة الجديدة[1].

لقد سلك القلقشندي في مصنفه مسلكا حجاجيا وذلك في مواضع مختلفة من المدونة خصوصا تلك التي تطلبت منه التوجيه سواء من الناحية المنطقية الجدلية أو من الناحية اللغوية البلاغية، فما قام به القلقشندي في هذا الباب يعكس مدى الجهد الذي بذله. فالعمل على هذا الكتاب صعب متدرج يرجع إلى:

- كونه عبارة عن جمع وتحشية وتصنيف.
- أغلب النصوص والخطب والمكاتبات الواردة فيه من كلام غيره.
- ضخامة الموسوعة وصعوبة البحث فيها.
- أغلب كلامه عبارة عن نتائج ومقدمات.

والذي يعنينا من هذه المدونة، التي اعتمدت الجمع والتأريخ بالأساس، هو الجانب التداولي الذي يُعنَى بالتواصل بين المتخاطبين، ويُعنَى بالإقناع والبرهنة والإنجاز، ويعمل على أنْ تكونَ اللغة جسرا بين عالَم الأقوال وعالم الأشياء، وأنه بالإمكان تحقيق عالم توافقي بين ما يريده المتكلم وبين ما يسمعه السامع ويقتنع به في نهاية المطاف أو يرفضه.

وبما أنّ مدونة" صبح الأعشى" حافلةبالآليات البلاغية واللغوية، وهو حال الموسوعات الإنشائية في مجملها، فالذي يتبادر إلى الأذهان سؤال يطرح نفسه عن دورها الحجاجي الذي من أجلها سيقت؟أم أنها تعمل على لفت انتباه المتلقي وتحريك خياله؟أم أنّها لا تتوقف عند الكشف عن الحدود الخارجية، بل

تتعداه إلى الكشف والعمل على تحويل الخطاب إلى بناء حجاجي يتخطى المعنى الأول إلى المعنى الثاني المقصود؛ اعتمادا على ما تكتسبه العملية الحجاجية من مقومات( متكلم، سامع، مقتضيات تداولية). من أجل إحداث الإقناع والتأثير لدى متلقي الخطاب.

[1]– حسين بوبلوطة، الحجاج في الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي، رسالة ماجستير، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 2010/2009، ص77.

## المبحث الأوّل

## الحجاج البلاغي في" صبح الأعشى"

**توطئة:**

تظهر الصّور البلاغية جلية في باب المفاخرات، وخصوصا تلك المفاخرة القائمة على السجال والتي أنشأها– القلقشندي– بين العلوم المختلفة بادئا بعلم اللغة، خاتما بفن التاريخ، ذاكرا فخر كل علم على الذي سبقه، محتجا عليه بما يمتلكه من فضائل دون الآخر، هذا ويمكن القول أن جميع العلوم مشتركة في أصل التفضيل؛ وإن تفاوتت فيه، فلا شيء من العلم بضار، ولا شيء من الجهل بنافع.

لقد كانت بداية هذا السجال بادعاء كل علم من العلوم بأن بحره طاميٌّ، وفضله ناميٌّ، وجواده طامح، وسماكه رامح، زعما منه أن حسامه قاطع، وعَضْبَه قاضب، وقِدحَه مُعلى وسهمه صائب، ونجمه ساري وشهابه ثاقب، وأن نَشْر الثناء على مَجامره موقوف، وخطيب المحامد بمنابره معروف...، إن اجتماع هذه العلوم معنى لا صورة، أدى بها إلى التفاخر والجدال والتفاوض والتخاطب والتحاور في أيّها أشرف، وأخذ كل منها يعمل على نصرة مذهبه وتحقيق مطلبه بكل أنواع الحجج والاستدلالات والبراهين والأمارات، وما يتوجه على ذلك من الأسئلة والاعتراضات[1].

يقول القلقشندي حول السجال الواقع بين علم الصرف وعلم النحو بعدما أرجع علم الصرف الفضل له كله في قيام علم اللغة:« فعندما غضب علم النحو واكفهر، وزمجر واشمخر، وقال: يا لله!" استنَّت الفِصالُ حتى القرعا"، و" واستنسرت البُغاثُ" فكان أشدّ ثُلمةً وأعظم صدعا؛ لقد ادعيت ما ليس لك ففاتك الحُبُور، و" من تَشبَّعَ بما لم ينل فهو كلابس ثوبي زور"؛ ... لم يزل علمك بابا من أبوابي، جملتك داخلة في حسابي؛ حتى ميزك" المازنيّ"... وتلاه" ابن جنِّي"،... وأحسن بك" ابن الحاجب"؛... أنا ملح الكلام، ومسك الختام؛ لا يستغني عني متكلم، ولا يليق جهلي بعالم ولا متعلم... فلو أتى المتكلم في لفظه بأجل معنًى ولحن لذهبت حلاوتُهُ، وزالت طلاوته، وعيب على قائله وتغيرت دِلالته. وقد كانت الخلفاء تحثُّ على النحو وترشد إليه، وتَحْذَرُ اللحن وتعاقب عليه:

وإذا طلبتَ من العلوم أجلّها فأجلُّها عندي مُقيمُ الألسُنِ»[2].

---

[1]– صبح الأعشى، ج205/14.

[2]– م. ن، ج208/14 بتصرف.

## 1- البعد الحجاجي للتّشبيه في" صبح الأعشى"

يعتبر التّشبيه أحد آليات الحجاج البلاغي الذّي لا يتوقف عند البعد الجمالي للعلاقة القائمة على المشابهة بين أركان التشبيه، التي تجذب المتلقي وتجعله يتلذذ ويتمتع، إلا أن هذه اللذة والمتعة لا يكتملان إلا إذا تم الكشف عن العبارات الغامضة، والحقائق المبطنة، فالتشبيه يهدف إلى التأسيس لأفكار جديدة ينبغي إيصالها إلى المخاطَب، وبهذا يكون الربط حاضرا بين العنصرين" الجمالي التأثيري" و" الدلالي الإقناعي"، الذي سيق الخطاب من أجله.

وإذا أخذنا من الخطاب السابق هذا القول:« لقد ادعيت ما ليس لك ففاتك الحبور، و" من تشَبَّعَ بما لم ينل فهو كلابس ثوبي زور"»[1]. فإننا نحلل هذا التشبيه حجاجيا وفق مراحل متنوعة للوصول إلى النتائج التي من المفترض كان يرمي إليها القلقشندي ضمنيا من خلال التشبيه وما يحمله من أبعاد حجاجية على مختلف المستويات الشكلية والضمنية والتفاعلية والاستبدالية[2]:

### 1-1- حجاجية التّشبيه من خلال شكله:

وتظهر هذه الخاصية من خلال تبيين العلاقة القائمة بين المشبه والمشبه به، فالشكل يمثل ذلك البناء الذي من خلاله تتشكل مادة تلك الصورة تشكلا حجاجيا مؤداه الإقناع[3]، لتحقيق المقاصد والغايات التبليغية.

وفي إطار حديث" عبد الله صولة" عن الصورة الحجاجية؛ نجده يذكر أشكالا أسلوبية كثيرة، ولعل الشكل التالي ينطبق على التشبيه السابق[4]:

**(أ) يمثّل: المشبّه= وهو الدّليل.**

**يشبه**

**(ب) يمثّل: المشبّه به= وهو المدلول.**

---

[1]- صبح الأعشى، ج208/14.

[2]- ينظر: رابح أمودان، بهجة أمودان، " حجاجية الصورة التشبيهية في الحديث النّبوي الشريف"، مجلة بدايات، جامعة الأغواط، الجزائر، مج1، ع2، 2019، ص32 وما بعدها. وينظر: عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، مرجع سابق، ص128 وما بعدها.

[3]- ينظر: عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم من خلالأهم خصائصه الأسلوبية، ط1، عن منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات، منوبة، تونس، 2001، ص496.

[4]- ينظر: رابح أمودان، بهجة أمودان، " حجاجية الصورة التشبيهية في الحديث النّبوي الشريف"، السابق، ص32.

إذ ينطبق هذا الشّكل على العيّنة السّابقة فيصبح الشّكل كما يلي:

المتشبّع( المتظاهر) بما لم ينل تظاهر علم الصرف بفضله على علم اللغة

(أ) (أ')

**يشبه أي يشبه**

لابس ثوبي زور لابس ثوبي زور

(ب) (ب')

فتكون صورة المتظاهر( المتشبع) بما ليس له كلابس ثوبي زور. وثوب الزور هو ثوب الكذب والبطلان والبهتان، فقد شبهه( علم الصرف) بذلك الذي لبس وارتدى ثوبين من زورٍ. والثوب قد يكون على حقيقته إذا اعتبرنا أن القلقشندي يريد إيصال رسالته المشفرة، فالإنسان قد يتحلى بثوبين ليسا له، وإنما أخذهما استعارة أو غصبا أو سرقة، فهما في حقه زورٌ.

واستعمال التشبيه على التثنية لوجود طرفين، أحدهما الأخذ والثاني الإبداء، فهو مزور في أخذه بمعنى أنه أخذ هذا الثوب بغير وجه حق، وهو مزور في إبدائه، إذ أظهر نفسه للعيان كأن هذا الثوب ملكه؛ وهو ليس له.

وعلى هذا الأساس يمكننا أن نسوق أمثلة مشابهة له مثل:

إذا كان هناك أستاذ لا يحسن تعليم علمٍ يعلمه، فهو مزور لأنه يتحدث بشيء لم يتعلمه ولم يتلقنه، وهو مزور إذ يحدث بشيء يلقيه، فهو في الطرفين تحمل وأداء مزور، فحق التشبيه بالتثنية. والخطاطة التالية توضح ذلك:

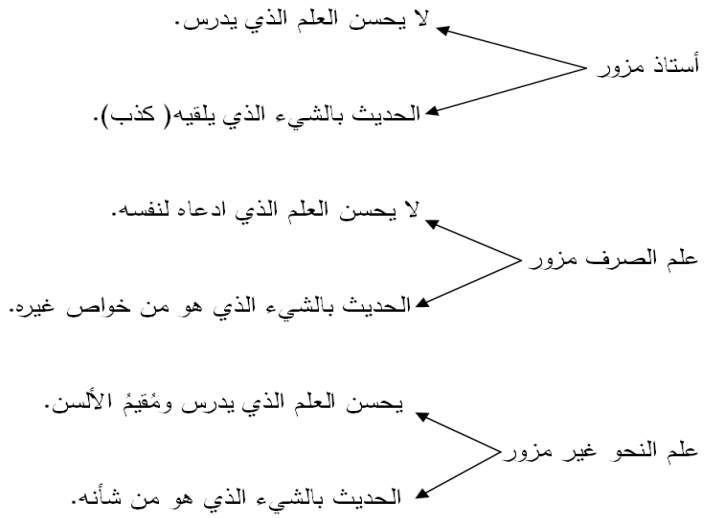

إنّ عقد القلقشندي لمثل هذه المحاجة التّشبيهية السّجالية بين العلمين- الصّرف والنّحو- يتضمّن رسالة منطقية، فالمدعّي على الشّيء فاقده ولم يسعد به، إذ قدّم علم النّحو أدلته وبراهينه التّي أراد لأنه يفحم بها خصمه، فهذه المشابهة حجاجية بامتياز، فقد استند علم النحو إلى تقديم كل ما يملك من حجج لإقناع علم الصرف، على غرار التضمين من كلام النبي صلى الله عليه وسلم:« المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور»[1]، وذلك لزيادة الإقناع واستمالة مخاطبه إلى حد الإذعان والتسليم المطلق. فقد صاغ الحجة ظاهريا كالآتي:

ح1: المتشبع بما لم ينل.

ر.ح: الفاء.

ن: كلابس ثوبي زور.

وكاستثمارٍ لهذا التشبيه وما يريد القلقشندي إيصاله لمخاطبه عن طريق هذا السجال:

- تظاهر الإنسان بما ليس فيه يجعله من المزورين والكذابين
- ضرورة موافقة الظاهر للباطن ما أمكن الأمر ذلك.

وعلى هذا الأساس يقوم بناء التشبيه- حسب النقاد العرب- على بنيتين شكليتين: تفاعلية واستبدالية.

**أ- شكل البنية التّفاعلية:**

ويحدث ذلك على مستوى التفاعل بين طرفي التشبيه(مشبه/ مشبه به) فينتج عنهما دلالات تكون بمثابة المقاصد المضمرة والتي من أجلها وضع؛ وتم بينهما التفاعل:

- صورة الذي يتظاهر بما ليس فيه، وصورة لابس ثوبي الزور الذي عن طريقه تصنع الإيحاءات وتفهم من خلاله المعاني المقصودة.

**أ-1- التّشبيه التّفاعلي:**

قدّم التّشبيه في السّجال السّابق بعدا تداوليّا حجاجيّا يعمل على التّدليل على نتيجة محدّدة، فقد ورد على شكل حجج خادمة لها؛ وهذه النتيجة هي التي يرمي إليها القلقشندي ويريد إيصالها إلى مخاطبه ضمنيا؛ فتكون الحجج كالتالي:

- ح1: المتشبّع بما لم ينل.

[1]- ينظر الموقع: https://binbaz.org.sa/audios/2671/61 بتاريخ: 2022/03/22. السّاعة: 17:33

- ر.ح: الفاء.
- ح2: كلابس ثوبي زور.
- ن: عدم موافقة الظاهر للباطن.

وبالتالي فإنّ النتيجة تكون أكثر تأثيرا نظرا لعدم الإفصاح عنها عن طريق الصورة التشبيهية، وبناء على هذا يمكننا أن نرتب هذه الحجج وفق السلم الحجاجي الذي يعمل على تنظيمها وتوجيهها بناء على قوة أو ضعف الحجة، فالأقوال المثبتة للمدلول الواحد« لا تتعدد فحسب، بل إنّها تتفاوت في قوتها التدليلية أو قل في حجيتها بحيث يعلو بعضها على بعض، منشئة بذلك ما يدعى بالسلم الحجاجي»[1]. ويمكننا تمثيل التشبيه وفق السلم الحجاجي التالي:

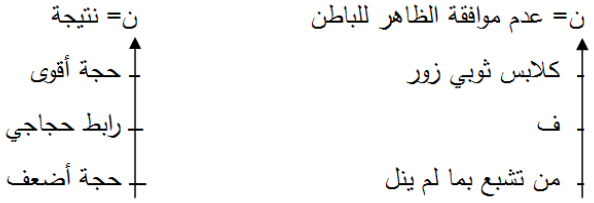


سلم حجاجي يوضح: تسلسل الحجج من الأضعف إلى الأقوى للتشبيه.

أبان هذا السلم الحجاجي على خاصيتين:

- يمثل استخدام التشبيه دليلا قويا مؤداه نتيجة مقصودة؛ وهي الاقتناع بضرورة أن يوافق الظاهر الباطن.
- التفاعل بين طرفي التشبيه أدى إلى تحقيق نتيجة أقوى، وذلك عن طريق إعمال ذهن المتلقي بالبحث عن السمات المناسبة لهذا التشبيه والتي تجعله يتصور في مخيلته شكل ثوبي الزور، ثم يقوم بمقارنتهما من حيث التوافق بين الظاهر والباطن فيما تم الإدعاء به، ومن هذا فإنه يقتنع بهذه الحجة المطروحة أولا، ثم إنّها متضمنة لحديث نبوي شريف من جهة ثانية.

ومن هنا فمتلقي الخطاب يجد نفسه أمام صورتين في آن واحد:

- صورة المتظاهر( المتشبع) بما ليس له يجعله من الكذابين والمزورين( علم الصرف).
- صورة الذي يوافق ظاهره باطنه( علم النحو).

[1]– طه عبد الرّحمن، اللّسان والميزان أو التّكوثر العقلي، مرجع سابق، ص276.

وبهذا فقد تم استبدال المعنى المصرح به، بمعنى آخر ضمني يظهر من خلال التشبيه وسياقه.

**ب- شكل البنية الاستبدالية:**

يقوم التّشبيه على خاصية استبدال المعنى الضّمني من المصرح به، فمنهم من قال أنّه« يُثبتُ للمشبه حكما من أحكام المشبه به، وقال قوم حده الدلالة على اشتراك شيئين في معنى من المعاني، وأنّ أحدهما يسدّ مسدّ الآخر وينوب منابه سواء كان ذلك حقيقة أو مجازا»[1].

**ب-1- التّشبيه الاستبدالي:**

تعتمد الصّورة التّشبيهية على التّرابط المنطقي بين المصرح به وبين ما هو مضمر، وهذا ما أقره" عبد الله صولة" حين رأى أن البلاغيين العرب القدماء ربطوا بين الاستبدال والاستدلال، وهذا فعلا ما نجده في التشبيه، وبهذا يكون الحجاج الاستدلالي يعتمد على البرهنة والعقل[2]، وعليه يكون التشبيه السابق كما في الشكل الآتي:

علم الصرف

المتظاهر بما ليس له ⟵ كلابس ثوبي زور.

علم النحو

المتظـــاهر بما له ⟵ كلابس ثوبي حرير.

شكل: يوضح التشبيه الاستبدالي.

**1-2- المتضمّن في القول التّشبيهي:**

الانتقال من الكلام المؤكّد( المصرّح به) عبر الصّورة التشبيهية إلى الكلام الضمني( غير المصرح به)، يتم عن طريق آلية غير مباشرة تحمل طاقة هي بمثابة عمل كلامي غير مباشر يجعل من المتقلي يعمل ذهنه للوصول إلى ذلك، فالصّورة التّشبيهية نفهم منها:

- يجب أن يطابق ظاهرك باطنك فيما تقول.

---

[1]- رابح أمودان، بهجة أمودان، " حجاجية الصورة التشبيهية في الحديث النبوي الشريف"، مرجع سابق، ص34 وما بعدها. وينظر: ابن قيم الجوزية، كتاب الفوائد( المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان)، تصحيح: بدر الدين النعساني، مطبعة السادة، مصر، ط1، 1327هـ، ص55.

[2]- نفسه، ص36-37.

فالتمعّن الجيّد في القول التّشبيهي بصورته الصّريحة لا يفضي بنا إلى أمر صريح( يجب، عليك...)، بل يتضمن دعوة غير مباشرة عبر القناة التشبيهية، وذلك قصد نجاعة المحاججة به، وحفاظا على نجاح الدعوة فلا بد من إقامة« الدليل على وجوب الشيء دون إيجابه يكون ألزم بالحجة من صريح الدعوة إلى وجوبه بواسطة الأمر، فالأمر لا طاقة حجاجية له عكس ما قد يتبادر إلى الذهن»[1].

**1-3- خاصيات الإقناع التّشبيهي:**

اعتمد علم النحو على خاصيّات حجاجية أساسية هدفها إقناع المتلقي- علم الصرف- والتأثير عليه عن طريق الصورة التشبيهية، وهي ضرورة الابتعاد عن التظاهر بما ليس له؛ ومن هذه الخاصيات نذكر:

**1-3-1- خاصية البناء:**

لما أرسل القلقشندي خطابه التشبيهي كان أكثر توجيها للعقل وإثارة للعاطفة، وذلك من خلال إمداده بمجموعة من الاختيارت( أخلاقية، قيمية..) المتعالقة مع اختيارات نفعية تجعل المتلقي يذعن لما يطرح عليه حتى يتم الاقتناع، ويكون بناء الحجج الموصلة للإقناع:

- ح1: المتشبع بما لم ينل.
- ر.ح: الفاء.
- ح2: كلابس ثوبي زور.
- ن: عدم موافقة الظاهر للباطن.

يتم الإقناع عن طريق مثل هذه الآليات البنائية.

**1-3-2- خاصية الاعتقاد:**

يرتبط الاعتقاد في الغالب ببعض القيم الإنسانية( محبة، مساعدة، شجاعة، عدل...)، والتي تمثل المحور الذي يدور عليه الحجاج، ويجزم المتكلم بنجاعته في جعل المتلقي يسلم بما يطرح عليه من دعاوى ومواقف[2]، وهذا ما نلمسه في هذا التشبيه الذي يحث على نبذ الأخذ والإبداء؛ أي نبذ الزور والكذب في مقابل الدعوة إلى التحلي بالأخلاق الفاضلة كالأمانة والصدق في صحة القول والفعل. فهذا التشبيه يرتبط ارتباطا وثيقا بالجانب الأخلاقي؛ وهو ما يزيد المتلقي إلا تأثيرا وامتثالا وعملا.

---

[1]- عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص496.

[2]- ينظر: عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، مرجع سابق، ص133. وينظر: رابح أمودان، بهجة أمودان، " حجاجية الصورة التشبيهية في الحديث النّبوي الشريف"، مرجع سابق، ص42.

**1-3-3- خاصية الإنتهاض إلى العمل:**

يكتسي القول الحجاجي بعدا تأثيريا، فغالبا ما يدفع« المتلقي إلى رد فعل معين، فقد يكون عملا أو كفا عن عمل أو عدولا عنه أو تحويلا لمساره... وهذا العمل هو الذي يؤكد بالملموس حصول اقتناع مُعيّن، ولكن حصول الاقتناع لدى المستمع لا يكون إلا بعد مطابقة القول الحجاجي لفعل صاحبه»[1]. وهذه الخاصية أطلق عليها طه عبد الرحمن" مبدأ الإنتهاض للعمل"، وهذا ما سعى إليه علم النحو في مخاطبته لعلم الصرف عن طريق التشبيه.

فالقلقشندي من خلال تقديمه لهذه الصورة التشبيهية المبطنة والكامنة في ظلال المعنى أراد أن يوصل رسالته إلى مخاطبه والتي هي أخلاقية بالدرجة الأولى تتمثل في ضرورة التحلي بما لك وترك ما لغيرك، أي لا بد أن يطابق ظاهرك باطنك، وهو ما ينتظره القلقشندي من مخاطَبه، خصوصا وأنّ عصر القلقشندي قد عرف الكثير من المظاهر التي يخاف ظاهرها باطنها، فحتى الكتابة الإنشائية لم تسلم منها، بأن دخل في دواوينها من هم ليسوا أهلها.

**2- القيم التّداولية في استعارات صبح الأعشى:**

لقيت الاستعارة في البلاغة العربية المعاصرة اهتماما كبيرا لما تقدمه من أدوار فعّالة، مهمتها تفعيل سبل التواصل بين الطرفين( مُحاج/ محاجَج)، أي أنها تربط بين المستعار منه والمستعار له، مع إبعاد الاختلاف بينهما، حتى يعتقد المتلقي أنهما شيء واحد. فالمتكلم يستخدمها للوصول إلى أهدافه الحجاجية[2]، التي تجذب المتلقي وتأثر فيه تجعله يتماشى أو يعارض طرح المتكلم المُحاجِج، وهذا ما من شأنه أن يشرك المتلقي في عملية المحاججة من خلال ما يقوم به من شرح وتفكيك للوصول إلى المقصود منها، وذلك طبعا حسب ما يمليه السياق العام للخطاب.

وبالرجوع إلى خطاب القلقشندي السابق- السجال- في إطار حديثنا عن حجاجية التشبيه، فقد تضمن ذلك الخطاب العديد من الاستعارات التي تحمل أبعادا حجاجية في عبارات:« غضب علم النحو واكفهر، وزمجر واشمخر...، وقال يا لله!...، استنسرت البُغاثُ، فكان أشد ثُلمة وأعظم صدعا،... لقد ادعيت ففاتك الحبورُ،... فلو أتى المتكلم في لفظة بأجلِّ معنى ولحن لذهبت حلاوته، وزالت طلاوته»[3].

---

[1]- عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، مرجع سابق، ص134.

[2]- ينظر: أبو بكر العزاوي، " نحو مقاربة حجاجية للاستعارة"، مجلة المناظرة، المغرب، ع4، 1411هـ/1991، ص81.

[3]- صبح الأعشى، ج208/14 بتصرف.

هذه مجموعة من الاستعارات ساقها القلقشندي على لسان علم النحو، فقد افتتح هذا السجال بعبارة" غضب علم النحو" وذلك أنّ الغضب صفة من صفات الإنسان، والنحو ليس من هذا الجنس؛ بل يعد شيئا معنويا، فقد تم تشبيه النحو بنحو الإنسان، ثم حذف المشبه به، فحذف هذا الأخير هو من مقوّمات الاستعارة التّي يُشترط فيها حذف أحد طرفي التّشبيه، مُدّعيا دخول المشبّه في جنس المشبّه به(الإنسان) على حقيقته، أمّا الجامع وهو وجه الشبه بينهما وهو( الغضب)، وهذا ما يجعل الخطاب يأخذ مسارا تأويليا آخر وهو عدم الرضا على علم الصرف الذي ادعى لنفسه ما هو لغيره، وهذا ما يوحي بشدة وحدة السجال بين العلمين، وهو الحال نفسه في باقي الاستعارات، فقد استعار القلقشندي في هذا السجال لعلم النحو مجموعة من الصفات( الاكفهرار، والزمجرة، والاشمخرار) الدالة على محذوف وهو المستعار منه( الإنسان) للمستعار له وهو( النحو).

فالاكفهرار يوحي بالعبوسة والحزن، والزمجرة توحي بتلك التمتمة الناتجة عن الغضب والتي تحز النفس، والاشمخرار يوحي بشدة الغضب الذي يهز النفس ويحرك من المكان، فالجامع بين هذه الاستعارات هو السخط وعدم الرضا على تلك الفعلة التي قام بها علم الصرف، وأنه تصرف لا يصدر إلا عن مزور خادع بادعاء فضله على علم اللغة وحده دون غيره. والسلم الحجاجي التالي يوضح ترتيب الحجج وفق قوتها:

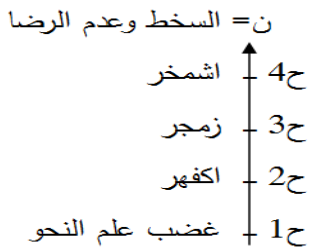


**سلم حجاجي يوضح: قوة حجج الاستعارة**

لا تتوقّف الاستعارات عند هذا الحد بل زادت حدة وتوترا نتيجة التفاعل والتلاسن والتعارض والتّحاجج، فنلمس في قول علم النحو:" استنسرت البُغاثُ" مثلا شعبيا عربيا قديما ضربه علم النحو قصد المحاججة والاستشهاد، فقد استعمل الفعل" استنسر" للدلالة الضعف، فقد شبه هذا الطائر( البغاث[1]) الضعيف الذي صار كالنسر؛ وما هو بنسر أي أن:" البغاث كالنسر"، فقد حذف المستعار منه( النسر)؛

[1]– البغاث: طائر أصغر من الرخم، بطيء الطّيران.

وأبقي على ما يدل عليه وهو القرينة( استنسرت)، الوجه الجامع بينهما هو:( ادعاء القوة)، وفي الاستعمال تصغير من شأن علم الصرف واحتقار في حقه.

أمّا في عبارة" كان أشد ثلمة وأعظم صدعا"، فإننا نلمس فيهما استعارتين مكنيتين؛ إذ تم في الأولى تشبيه علم الصرف بالبناء المهترئ الذي أصابته التشققات بجامع( الهشاشة والرثة)، ثم عطف عن هذه الاستعارة استعارة أخرى أقوى منها وأكثرها تدليلا وإقناعا، وذلك حين استعمل صيغة" أعظم" على وزن" أفعل" للدلالة على أن شيئين اشتركا في صفة واحدة وزاد أحدهما فيها على الآخر، فالتشقق يتولد عنه الصدع، والصدع أعظم من التشقق، فالتشقق يكون للجدار، الصدع يكون للأرض، والجامع بين الطرفين هو( عدم الصلاح)، ويوحي هذا أن علم الصرف غير قادر على حمل منظومة كلامية بأكملها قوامها اللغة العربية دون علم النحو.

تعدّ الاستعارة الواردة في عبارة" لقد ادّعيت..." مركز الحوار الدائر بين العلمين ومناطه، فالادعاء صفة من صفات الإنسان، وإذا أرجعنا أصل الكلام على التشبيه صار" علم الصرف كالإنسان يدعي ويتظاهر"، فقد تم حذف المستعار منه وهو( الإنسان)، على أن تتخيل أن( الصرف) تمثل في صورة إنسان، وأبقي على لازم من لوازمه وهو( ادعيت) على سبيل الاستعارة المكنية؛ التي تحمل بين ثناياها قوة مستلزمة مقاميا تتمثل في النبذ القذف والمقت لِما ادعاه هذا العلم، وفي هذا تأثير على سلوك المتلقي وتوجيهه، وهذه طاقة حجاجية.

أمّا ما جاء في قوله:" فلو أتى المتكلّم في لفظة بأجلِّ معنى ولحن لذهبت حلاوته، وزالت طلاوته". فقد تم تشبيه الكلام بالشيء المرِّ المذاق من الطعام، فقد حذف المستعار منه( الطعام المر المذاق)، وترك ما يدل عليه كقرينة وهي صفة( ذهبت حلاوته)، والجامع بين الطرفين وهو وجه الشبه بين الكلام والطعام وهو( المرارة) ، وذلك أن الكلام إذا خلا من النحو صار كالطعام المر الذي لا طعم له ويقصد بذلك اللحن، أما الطلاوة فهي للشيء العذب كالماء مثلا، وقوله:" زالت طلاوته" فقد حُذف المشبه به وهو( الماء العكر) واللازم الذي يدل على ذلك هو( زالت طلاوة) والجامع بين طرفي الاستعارة هو( العكر غير الصافي) والذي يدل على فساد اللفظ ورداءته بسبب فشو اللحن وعدم استقامة الألسن.

إن ما توصل إليه المتلقي من دعاوى وأطروحات من هذا الخطاب، لا يتأتى إلا عن طريق ملء المحل الشاغر الذي تركه المتكلم، فهو يحاول أن يحلل ويفكك أجزاءه انطلاقا من عناصره البارزة التي أرسلها المتكلم، التي تعد بالنسبة للمتلقي معلومة قديمة مسلم بها من طرفه. فالقلقشندي أراد من خلال هذه

المحاورة الشيقة بين العلوم أن يضع المتلقي في وسط علمي قائم على الجدل والمحاورة بين تلك العلوم التي جمعها القلقشندي، والتي هدفها بالأساس الأول هو التعليم والتلقين والتعريف بخواص كل علم.

**3- أثر الكناية في توجيه الخطاب في صبح الأعشى:**

إنّ المتكلّم على وجه الكناية يقوم بنقل المعنى إلى أحد لوازمه، فهذا اللازم يتخذ منه المتلقي كوضعية انطلاق ليقوم من خلالها بتحليله من أجل الوصول إلى المعنى الكنائي المراد الذّي قصده المتكلّم، وهذا يعني أن يسير تحليل المتلقي للازم عكس ما قاله المتكلم، فالمتلفظ إذًا بالقول الكنائي« يجعل أتباعه يستبعدون تماما المعاني الظاهرة لمفرداتها، ليسلكوا مسارا استدلاليا حجاجيا يؤدي بهم إلى اكتشاف معانيه الخفية»[1]، وما يتوصلون إليه من نتائج بأنفسهم لا يمكنهم الاعتراض عليها.

وهذا ما نجده عند القلقشندي عندما يكون في مقام الإثبات والإقناع، فمدونة" صبح الأعشى" تتم بالكثير من الصور الكنائية ذات الطابع الحجاجي. يقول القلقشندي ضمن السجال السابق على لسان علم النحو:«... يا لله! "استنت الفصال حتى القرعا"... أنا ملح الكلام، ومِسْك الختام"...»[2].

نقرأ من هذا:

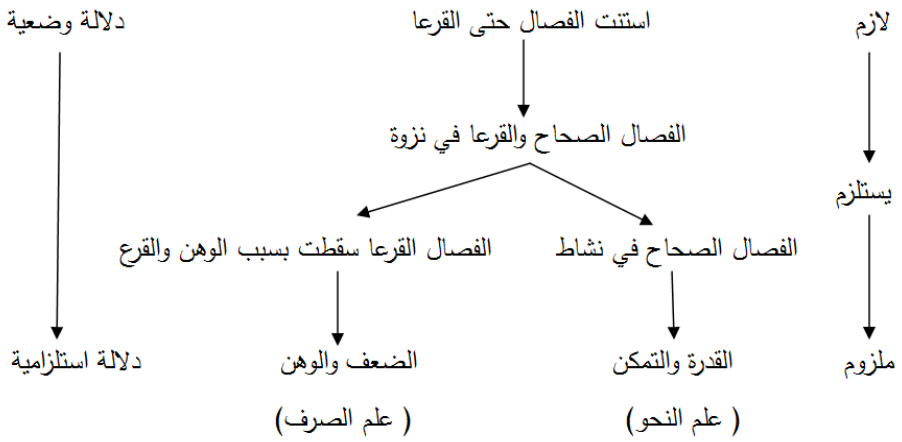


**مخطط يوضح: آلية الانتقال من اللازم إلى الملزوم**

[1]- الزماني كمال،" حجاجية الصورة البلاغية في الخطابة السياسية لدى الإمام علي رضي الله عنه"، ضمن كتاب التحليل الحجاجي للخطاب، إشراف وتقديم: أحمد قادم، سعيد العوادي، ط1، دار كنوز المعرفة لنشر والتوزيع، عمان، 2016، ص482.

[2]- صبح الأعشى، ج208/14.

صور لنا هذا المسار الحجاجي الذي ينبغي للمخاطَب أن يسلكه من أجل الوصول إلى الغاية المقصودة من إطلاق الكلام. وهذا الخطاب كان مقصودا من القلقشندي على لسان علم النحو، خصوصا وأن السجال يتطلب مثل هذه الاستعمالات الحجاجية التي من خلالها يثب علم النحو أنه الأقدر على علم اللغة من جميع أنحائها، فهو كالفصيل الصحيح القادر المتمكن، أما علم الصرف فهو كما قال مثل الفصيل الضعيف الذي أصابه القرع والوهن، فعدم التصريح بالمراد مباشرة يجعل المخاطَب يستبعد معانيه الظاهرة، وهو بذلك ينخرط في ذلك المسار الحجاجي المؤدي إلى اكتشاف المقصود. أمّا عن القصد الكامن وراء هذا السّجال والذّي توصّل إليه المخاطبين من خلال متضمنات القول فهو: لا تفعل ولا تدعي ما لست أهلا له.

وفي موضع آخر، ساق القلقشندي هذا الخطاب الحواري:«... قال وما كان ربيعة؟ قال: كان يطيل النجاد، ويعول العباد، ويضرب ببقاع الأرض العماد»[1].

يتضمن هذا المثال كنايات عن صفات يتميز بها الموصوف( ربيعة)، ففي قوله" يطيل النجاد" يعني أنّ حمالة السيف طويلة، فيستلزم ذلك أن الرجل طويل القامة، وطول القامة يدل على الشجاعة والقدرة على القتال، لأن من عادات العرب الجمع بين الطول والشجاعة. أما في قوله" يعول العباد" يعني أنه كريم جواد يساعد كل محتاج ويمده بكل ما يملك. وإذا جئنا إلى قوله" يضرب ببقاع الأرض العماد" فإنه يوحي بشدة البطش والقوة والمنزلة التي يحتلها بين قومه والتي خولت له أن يضرب حتى أصحاب المنزلة العالية وذوي العماد الرفيعة في كل مكان من الأرض، وذلك دلالة على القدرة والمكانة.

وعليه يكون:

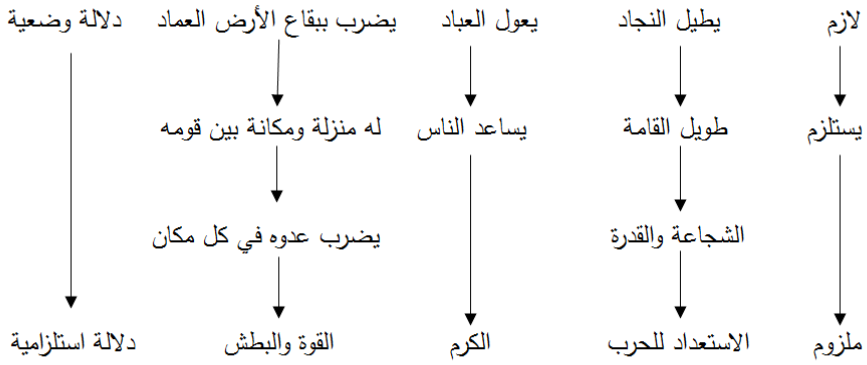


**شكل يوضح: آلية الانتقال من اللازم إلى الملزوم**

[1]– صبح الأعشى، ج255/1.

إنّ الوصول إلى مثل هذه المعاني المستلزمة لا يكون إلا بعد إعمال عقل وتفكير، وعبر مسار حجاجي يجعله يكتشف ويستنبط المقصود من وراء الكلام، فهذا الاكتشاف هو« مكمن قوة وحجاجية الصّورة في هذا المسار، وذلك لأنّ المتلقي إذ يعمد إلى تفكيك أجزاء الصورة وتأويلها جزءا جزءا»[1]، وما توصّل إليه المتلقي بنفسه فإنه لا يمكن أن يعترض عليه. وفي هذا الخطاب إهانة غير مباشرة لمعاوية بن أبي سفيان.

لقد استعمل القلقشندي في هذا السجال القائم بين علمي" النحو والصرف" آليات إقناعية كثيرة هدفها إذعان الخصم وإفحامه، وهذا هو صلب الحجاج ومناطه، والذي يعد ممارسة اجتماعية ونشاطا لغويا معرفيا يرتبط ارتباطا وثيقا بالجانب التواصلي للخطاب. فعن طريق تلك الآليات البلاغية يتمكن القارئ من الوصول إلى مقاصد القلقشندي التي يرمي إليها من خلال سجال العلوم، والذي كان مقصده الأول تعليمي تلقيني، وفي مواضع أخرى تلميحية ساخرة من عصره وما آل إليه حال أمته ولغته بالدرجة الأولى، فهذه الآليات كان لها دورها الحجاجي الفعّال الذي من أجلها سيقت، فهي تعمل زيادة إذعان المتلقي وتحريك خياله، للكشف عن المقاصد، وتحويل الخطاب إلى بناء حجاجي يتخطى الحدود الحرفية والبلاغية؛ وفق ما يمليه السياق والمقام التّواصلي.

[1]– الزماني كمال،" حجاجية الصورة البلاغية في الخطابة السياسية لدى الإمام علي رضي الله عنه"، مرجع سابق، ص485.

## المبحث الثّاني

## الحجاج اللّغوي في" صبح الأعشى"

### 1- الحجاج بالتّقنيات الاتّصالية والانفصالية:

وهي تلك الحجج التّي جاء بها كل من بيرلمان وتيتيكا Ch. Perelman et L. O. tyteca في مصنفهما الموسوم بـ" البلاغة الجديدة"، فقد حصرا هذه التقنيات الحجاجية في فرعين أحدهما قائم على الوصل أو الاتصال، والآخر على الانفصال أو الفصل.

وعلى هذا الأساس نجد في هذا الباب بعضا مما أنشأه القلقشندي من حجج بهذه التقنيات الموظفة في الخطاب الحجاجي بتصرف واختصار:

**1-1- الحجاج بالتعارض والتناقض** Incomptabilité : عندما أراد القلقشندي أنْ يُصوِّر من خلال اللغة بعضا مما كان يحدثُ في بيئته ومجتمعه؛ خصوصا تلك الشعائر التعبدية المجسدة في صور سلوكية تصحبها تراتيل وأقوال يرادُ منها التقرب والتّبرك:«... وتلك الأنصاب قد نصبت آلهة تتخذ من دون الله تعظم وتفخم»[1].

ففي هذه المقطوعة النثرية بُعدٌ حجاجيٌّ يتمثل في الجانب الضمني منها، والذي مفاده:

- الزجر والإنكار.

وكذلك تنطوي هذه الجملة النثرية رغم قصر متنها على المضمر من القول والذي مفاده:

- الإنخراط في التواصل.
- التأثر من الواقع الحاصل.
- إبداء ردة الفعل من القلقشندي نفسه.

وقد انطوى هذا المثال على، فالتّناقض يتّضح من خلال اعترافهم بوجود الله عز وجل ووجوب عبادته، إلا أنهم ينصبون الأصنام ويعبدونها تقربا بها لله جل جلاله وهو لم يأمر بذلك. أما التّعارض فيتبين أن هذه الآلهة التي يعظمونها ويفخمونها ويقدسونها، إنما هي من صنع أيديهم تتعرض لتغيرات الزمن من أمطار ورياح وغيرها، فالخطيب أراد أن يميط اللثام عن التعارض فيما طرحه عن مصر وما لحقها من سوء تدبير وفساد نظام الحكم...، والقضية الرئيسية هي النزاع حول من هو أحق بالخلافة بين المسلمين على مصر ومن يعيد لها هيبتها التي كانت عليها.

---

[1]- صبح الأعشى، ج83/13.

فتلك الأنصاب لا تستحق العبادة، وهؤلاء السلاطين لا يستحقون السلطنة ولا الإمارة، فكأنّ المعنى المراد من الخطاب هو: إدانة الحكم، وإدانة السلوك الماثل للعيان من طقوس لا تمت للدين بصلة؛ وهذا يحيلُ إلى مقولة" المقتضى" التي جاء بها ديكرو أو ما يُعرفُ بالمضمرات؛ وعلى هذا فإنّ:« للمضمرات عملا أكثر ضمنيا وأبرز تداوليا. فالمضمر هو ما نقوله زائدا عن الملفوظ بمجرد قولنا للملفوظ. وتشتغل الأعمال غير المباشرة على المضمرات»[1]. فتأويل تلك العبارة مبني على دلالة الإضمار وإنْ بدا أنها تحتمل التعارض والتناقض. ويمكن أنْ نجلوَ هذا المعنى المضمر في الترسيمة الآتية:

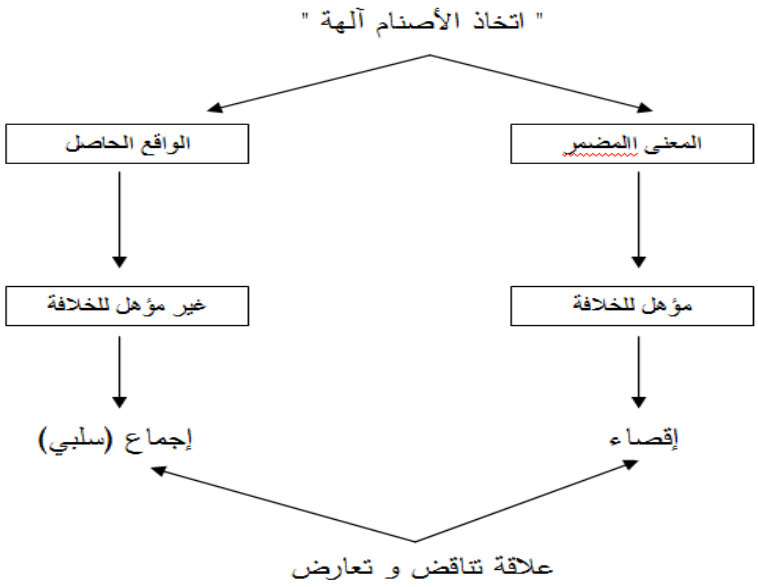


**مخطط يوضح: المعنى المضمر**

إن التعارض والتناقض الذي أبان عليه الخطيب في عبادة الناس، يبين أنه رغم إصرار الناس على رفض الدين وتمسكهم بما كان يعبد آباؤهم، إلا أن هناك من يظلون يتسابقون نحو الإصلاح ويدعون إلى نبذ الشرك، فحال هؤلاء كحال الحكام المصلحين الذين أرادوا بمصر خيرا فتحدوا كل الصعاب من حروب ودمار وخراب، فاستحقوا هم كذلك القرب من الله سبحانه وتعالى، وهذا الحديث يدخل في باب المقارنة بين فضل الحكام المتداولين على السلطة في مصر.

[1]– فيليب بلانشيه: التّداولية من أوستين إلى غوفمان ترجمة: صابر الحباشة، ط1، دار الحوار، اللاذقية، دمشق، سورية، 2007، ص165.

**1-2- حجة التّعدية Arguments de transitivité**: التّعدية خاصية صورية لبعض العلاقات، والتي تسمح بالانتقال من إثبات العلاقة بين( أ) و( ب) وبين( ب) و( ج) إلى استنتاج العلاقة نفسها مع( أ) و(ج) . فمبدأ التعدية يطبق صوريا في القياس، وهو يُصاغ رياضيا لأنه ينبني على العلاقات المنطقيّة للقضايا، ومثاله من" صبح الأعشى" ما أورده القلقشندي عند ذكره لرسالة النبي صلى الله عليه وسلم لوائل بن حُجْر وأهل حضرموت حيث أمرهم بجملة من الأوامر وهذا شيء منها:« من محمد رسول الله إلى الأقيال العباهلة من أهل حضرموت، ..[ وأمرهم] بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة... ومن أجبى فقد أربى، وكل مسكر حرام»[1]. فمن خلال هذا التوجيه النبوي يتبن لنا أنه يمكننا الانتقال وفق علاقات تعدية، فما دام أن كل مسكر حرام، فإن الخمر من المسكرات، وما دام الخمر من المسكرات، فهو محرم استنادا إلى قوله صلى الله عليه وسلم، وبهذا نكون قد وصلنا إلى استنتاج العلاقة بين" أ" و" ج".

وينبغي الإشارة إلى أنّ المتكلم هنا هو المشرّع المعصوم، وهذا يقتضي أنه مرجع أساس ومنتج لخطاب يتميّز عن بقيّة الخطابات البشرية بما يأتي:

- يتّسم بالشمولية.
- غير قابل للنقض.
- منزلة وسطى: بين السماوي والأرضي، لا هو قرآن ولا هو مما يتداوله الناس فيما بينهم ويخوضون فيه.
- القابلية: كل الأحكام والأقوال( التشريعات النبوية) تجدُ لها ما يبررها في حياة الناس؛ ومن أجل ذلك فهو يتّسم بالقابليّة.

وحتى تلك الرسائل التي كانت تُبعثُ إلى الكفّار، كانت تجد القابلية والإصغاء مما يجعل هذا الكلام يحقق ميزة التواصل، وميزة الإخبار، وميزة التوجيه؛ والسبب في ذلك: أنها تتميز ببنائها المنطقي والعقلي والوجداني وبعدها الإنساني. والمثال الذي ساقه القلقشندي يتميّز بكل هذه الأبعاد المنطقية مما جعلها ميدانا خصبا لمقولة المحاججة المؤسّسة على الإقناع والبرهنة، والتي نعرضها على هذا النحو الذي يرتكز بالأساس على مقولة ديكرو التي تتعلّق بالمضمرات:

- فلو ادّعى مدّع بأنّ الخمر ليس بشربه بأس.
- وأكّد آخر بأنّه عنبٌ معصور، وأنّ مقولة التحريم مغالطة كونها لا ترتكزُ على دليل علمي.

[1]- صبح الأعشى، ج371/6.

– وزعم ثالثٌ بأنّ هذا الاستنباط قائم على النظرية الريّاضية والتجريد ومبدأ العلة والمعلول.

– وأضاف رابع بأنّ العقل لا يذهبُ معه إلا بكثيره.

فلن تكون هذه التّحليلات والتّصورات والتّخمينات لتجابه هذه الصيغة المنطقية التي تمنحنا إيّاها القواعد الكلّيّة:

– الخمر مسكّر.

– المسكّر حرام.

– الخمر حرام.

– كل مسكّر خمر.

– كل خمر حرام.

– الخمر قليله وكثيره حرام.

فهذه الكلّيات تعتمد الحجاج المنطقي المؤسّس على العقل، والقائم على التّشريع الذي أصله الوحي. والمتكلّم في هذا الخطاب قد جمع الكمالات، وبالتالي فلا سبيل إلى دحض الحكم لأنّ أجزاء هذه القضيّة يكمّل أحدها الآخر، ويسند بعضها البعض الأخر. ولأنها صادرة عن المشرّع الذي يتلقى الوحي من مصدر فوقي، ولكنْ ينبغي هنا الإشارة إلى أمر في غاية الأهمية، ويتعلّق بلغة نصوص التشريع؛ فههنا باب التأويل والمساءلة والجدل والنقاش؛ لأنّ الكلام هو مناط التبليغ والإخبار ووسيلة التواصل والتفاهم والتحاور.

فقول الرّسول صلى الله عليه وسلّم: [...، وكل مسكر حرام] هو الكلام الصريح المباشر. والمضمر غير المصرح به لفظا هو ما تقديره وتأويله:

[ ابتعدوا عن الخمر.] ـــــــــــ أمر.

[ لا تعاقروا الخمر: أي لا تشربوها ولا تتداووا بها.] ـــــــــــ نهي.

ومن هذا المنطلق العقلي، نلمسُ الاستجابة الواقعية والاجتماعية لمثل هذه القضايا القائمة على الحجاج والبرهنة، غير أنّ التّداول الكلامي كثيرا ما يكونُ محفوفا بالمغالطات والخروقات التي يصنعها سياق القول ومقام المتكلم وتأويل السامع.

يقول جون سيرل بهذا الصّدد:«...، حين تتحدّث عن مزايا نظرية معيّنة...، لابدّ لك أنْ تسلّم بوجود طريقة معيّنة توجدُ فيها الأشياء واقعيا فعلا، وإلا فلن يبدأ النقاش. وأطرافه نفسها غير معقولة...،

وهذا هو السّبب في كون"السّجالات" تبدو دائما غير حاسمة»[1]. وبهذا التوصيف يكونُ من الضروري مراعاة معيار استنباط النتائج من المقدمات، وعدم القول بصميمية الأحكام لأنّ السامع قد يفهم خلاف ما قال المتكلّم، وقد يقصد المتكلّم أمرا ويفهم السامع منه شيئا غير الذي أراده المتكلم، وهنا يكون من الضروري أيضا مراعاة المواضعات الاجتماعية، لأنّ اللغة تتلبّسُ بلبوس اجتماعي، فالمواضعة قد تكون وسيلة من وسائل بناء الحجاج اللغوي الذي يحظى بالقبول والاستجابة لدى المتكلّمين.

**1-3- حجة التّفريع أو تقسيم الكلّ إلى أجزائه المكوّنة لــه:** وهذه الحجة لها ما يعضدها في مدوّنات الفقه الإسلامي، وفي مدوّنات الأصول والفروع.يرى الشهري أن هذه الحجة تتمثل في« ذكر المرسل حجته كليا في أول الأمر، ثم يعود إلى تعداد أجزائها، إن كانت ذات أجزاء، وذلك ليحافظ على قوتها الحجاجية، فكل جزء منها بمثابة دليل على دعواه»[2]. والناظر في نصوص صبح الأعشى، سيجد القلقشندي قد ساق الكثير من النصوص والخطابات التي تصلح أنْ تكون مثالا مناسبا لهذه الحجة؛ ومن ذلك ما ذكره عند قوله :« الملك إذا مَلَكَ زهده الله جل وعز فيما عنده، ورغَّبه فيما في يدي غيره، انتقصه شطر أجله، وأشرب قلبه الإشفاق، وإذا وجبت نفسه، ونضب عمره وضحا ظِلّه، حاسبه الله جل ثناؤه وأشد حسابه، وأقل عفوه...»[3].

في مثل هذا الخطاب حجة كلية تتمثّل في( ثمرة الملك)، أو من قبيل(ما يترتّب عن الملك من نتائج)، وغيرها من الحجج، التي تم تقسيمها إلى أجزاء مكونة لها، لتكون بمثابة حجج متفرعة عنها ومقوية لها:

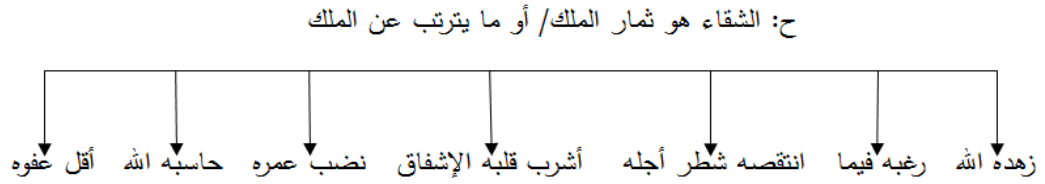


[1]- جون سيرل، العقل واللغة والمجتمع، ترجمة سعيد الغانمي، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، الجزائر/ المركز الثقافي العربي، المغرب/ الدار العربية، بيروت، لبنان، 2006، ص57 بتصرف.

[2]- الشهري، استراتيجيات الخطاب، مرجع سابق، ص494.

[3]- صبح الأعشى، ج214/1.

وبالتّالي ف(ح) تمثل الحجة الكبرى التي تفرعت إلى حجج جزئية(ح1+ح2+ح3+ح4+ح5+ح6+ح7) خدمة لما يترتب عن الحكم من ثمار مرة، وشقاء في الدارين الدنيا والآخرة.

وعلى هذا الأساس جعل القلقشندي ملمح التفريع بمثابة الإثبات للدعوى التي هو بصدد الدفاع عنها. وحتى يكون لمسألة" المُلك" صدى عند المتلقي، ساق لها القلقشندي الخطاب المناسب الذي ينبني على فروع عديدة ومتنوعة، وهي كلّها بمثابة النتيجة الواحدة التي قد يُنظرُ إليها من زوايا متعددة، ويُتطرَّقُ إليها من طرق كثيرة.

**2- الحجاج بوصفه منجزا كلاميا:**

تمنح اللّغة للمتكلّمين مساحات واسعة للقول، وذلك بما يمنحه النظام اللساني من تغيّرات في بنيّة الخطاب اللغوي وفق ما يقتضيه المقام؛ فالتقديم والتأخير في عناصر الجملة، وأسماء الأصوات والأفعال وغيرها من ممكنات اللغة النحوية والصرفية والسماعية هي بمثابة مقومات الخطاب الإنساني الذي يمكن من خلاله أنْ يتعايش الكائن اللغوي مع الآخرين ويتواصل معهم، ويحدثُ ذلك الانسجام والتفاعل الاجتماعي، ويحقق تلك القابلية على التأقلم التي يرجع للغة الفضلُ في إحداثها وإيجادها.

ومن شأن اللغة أنْ تُحدث ذلك النوع من التواءم بين المتكلمين، فتربط السبب بنتيجته، وتجعل المتكلم أكثر ثقة وانسجاما مع محيطه الاجتماعي الناطق بنفس اللغة، فيكون بوسع المتكلم أنْ يمارس حياته اليومية وفق متتالية من الخطابات ذات البعد التداولي، فيقصد الجامعة وهو مزوّد بحقل دلالي خاص، ويقصد السوق فيحدثُ لديه انسجام مع الباعة وفق تداول لغوي معهود، ويمارسُ السياسة ويُعِدُّ لها مصنّفها اللغوي الذي يصب في حقلها. فاللغة تتفرّع لتقضي حاجات الإنسان كلّها دون أنْ يختلّ توازن نظامها؛ لأنها مبنيّة بناء منطقيّا.

وهذا التداول اللغوي نلمسه في" صبح الأعشى"، خصوصا في تلك النصوص التي تقوم على المحاورة. فالمتصفح لها يلمسُ استراتيجيّة الإقناع عبر تلك الأساليب التراثية القائمة على البلاغةوالإيجاز، وكذلك نسجل توافر نصوص القلقشندي على ما يُسمّى في الدرس التداولي بحجة التتابع أو حجة الوصل السببي، ويعني هذا ربط الخطاب ربطا منطقيا وسببيا بين حدثين متتابعين أو أكثر، واستكشاف أسباب وقوع حدث ما من وقائع الحدث نفسها، كما أنه قد يتنبأ بالنتائج المترتبة على حدث ما.وتهدف الحجة السببية إلى إقناع الجمهور برد النتائج إلى أسبابها الحقيقية كإرجاع قاضي التحقيق جريمة المتهم لأسبابها ودوافعها الحقيقية والموضوعية وربط النتائج بأسبابها وعللها، وفي هذا الإطار يُوردُ القلقشندي حواراتضمن الحجاج القائم على الإقناع، وعلى الحضور الشخصي للمُتحاورَيْنِ وإنْ تباينتْ منزلة كل منهما:

أ)- المحاور 1ـــــــــــ الجنس(أو النوع) ـــ امرأة(أنثى): الدارميَّة.

الرتبة الاجتماعية ـــــ لاشيء.

ب)-المحاور 2ـــــــــــ الجنس(أو النوع) ـــ رجل(ذكر): معاوية بن أبي سفيان.

الرتبة الاجتماعية ـــــ الأمير.

ينقل القلقشندي هذه المحاورة في كتابه" صبح الأعشى" ليُبَيِّنَ للمتلقي كيف أنّ المكاتبات كانت تشتملُ على المحاورة والمراجعة، وهذا الأمر هو من صميم البراجماتية التي تولي أهميّة للمتكلم والسامع وتراعي مقام كل منهما.

يقول القلقشندي:« ومن ذلك ما روي أنّ معاوية حج فسأل امرأة من بني كنانة، كانت تنزلُ الحَجُون، يقال لها الدارميَّة، وكانت سوداء كثيرة اللحم، فأخبر بسلامتها فجيء بها:

قال: ما حالك يا ابنة حامٍ؟

قالت: لستُ لحام أدعى، إنْ عبتني أنا امرأة من بني كنانة.

قال: صدقت. أتدرين لم أرسلت إليك؟

قالت: لا يعلم الغيب إلا الله.

قال: بعثت إليك لأسألك علام أحببت عليا وأبغضتني، ووالليته وعاديتني؟ قالت: أَوَ تعفيني يا أمير المؤمنين؟

قال: لا أعفيك.

قالت: أمَّا إذا أبيت، فإني أحببت عليا على عدله في الرّعية، وقسمته بالسوية، وأبغضتك على قتالك من هو أولى بالأمر منك، وطلبك ما ليس لك بحق، ووالليت عليا على ما عقد له من الولاية، وعلى حبه المساكين... وعاديتك على سفكك الدماء وجورك في القضاء وحكمك بالهوى»[1].

لقد بررت المرسلة سبب بغضها لمعاوية بن أبي سفيان لأنه شخص قاتَل من هو أولى منه بالخلافة، وأخذ ما ليس له حق، أما عن سبب عدائها له فقد بررت ذلك بأن معاوية سفاك للدماء جائر في القضاء، لا يحكم إلا بالهوى، فهذا القول يرمي إلى إقناع المرسل إليه بالسبب الذي جعلها تبغضه وتعاديه، وفي الجهة المقابلة كانت مبررات الدارمية واضحة لمحبتها وموالاتها لعلي رضي الله عنه، فمن هنا كان الربط تعليليا ضمنيا.

[1]- ينظر: صبح الأعشى، ج260/1 بتصرف.

وفي هذا النص القائم على الحوار نسجل مدار الكلام على تقنية السؤال والجواب. كأنه استجواب في مخفر الشرطة، غير أنّ لغته لغة المجالس المتأدبة التي يغلب عليها الحلم والأدب، بعكس ما يحدث أثنا جلسة المساءلة من تعنيف واستهزاء واستفزاز.

يتوزع خطاب هذه المحاورة بين بعدين تداوليين:

– الإفهام والتواصل.

– الالتزام ومراعاة المقام.

إذا نحن بحثنا عن مقاصد المتكلّمين في هذا الخطاب التناوبي، وجدنا أنّ معاوية أراد أنْ يحمل المرأة على القول فيه بمثل ما تقول في عليّ، ولكنّ المرأة لها رأيٌ مغايرٌ وهي متشبثة به لأنّ قناعتها تصدرُ عن اعتقاد راسخ في خيرية عليّ وعلو منزلته واستحقاقه للخلافة، وبهذا يكون الحجاج كما يقول محمد الولي:« توجيه خطاب إلى متلق لأجل تعديل رأيه أو سلوكه أو هما معا»[1]. وانطلاقا من هذا التعريف للحجاج، يكونُ المتلفظ قد أراد أنْ يثنيَ المرأة عن رأيها ويُعدّلَ سلوكها؛ وذلك بأنْ يحظى عندها بالمحبة والميل والتوقير كما هو حاصل من موقفها ووجهة نظرها في عليّ رضي الله عنه.

لقد احتج القلقشندي في هذا الباب بالكثير من الخطب والرسائل والمكاتبات المتضمنة للبنية الحوارية، وذلك لفضلها وأهميتها بالنسبة لكاتب الإنشاء وكيفية توظيفه لها، فحجة الشخص وعمله تتجلى من خلال الخطابات الدالة على حاجة المتكلم للدليل والحجّة بقصد إقناع محاوره، والتأثير فيه، وتغيير سلوكه وفكره؛ ومن أجل هذا السبب عمدالقلقشندي إلى إستراتيجية الحوار والاقتباس، ليكون كلامه مشبّعا بآلية الإقناع كما فعل في أحد الخطب والتي جاءت على لسان عثمان بن عفان رضي الله عنه أثناء توليه خلافة المسلمين، فقد حكم على بني أمية بالإنكارلحكمه من خلال أعمالهم، فهم قوم عيابون كثيرو القيل والقال، طعانون يتصفون بالنفاق، كونهم نقموا عليه أشياء كانوا قد أقروا بمثلها لعمر بن الخطاب[2].وفي هذا الخطاب دلالة على تقبيح أفعالهم وصنيع أعمالهم، فحجة الشخص لا تقتصر على تحسين المظهر فقط، وإنما تسعى أيضا إلى تقبيحه. وهكذا يتواصل الاقتباس في" صبح الأعشى" قصد تبليغ قصود المتكلّمين إلى أنْ يؤول إلى حجج تعضد مراد المتكلّمين؛ فهذا التناص مع النصوص السابقة لعصر القلقشندي هو بمثابة السّند الحجاجي الذي يحتاجُ إليه المتكلّمون في كل أحوالهم.

[1]– حافظ إسماعيل علوي، الحجاج مفهومه ومجالاته، ط1، دار ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص61 .

[2]– صبح الأعشى، ج214/1.

كم هي كثيرة تلك الحجج التي يؤتى بها للاحتجاج على فكرة أو لصالح رأي أو غيرها، إذ يستند صاحبها على سلطة كقيمة المحتج أو مكانته أو سطوته المعرفية، فالحجة الحجاجية غالبا ما لا تكون هي الحجة الوحيدة بل هي المكملة لحجج أخرى.

**2-1- سلطة الاعتقاد:**

المتتبّع للمدوّنة يتوقف عند توجيه القلقشندي للكثير من الخطابات والنصوص على تلك الخلفية الاعتقادية له؛ فهو يستدلّ على الكثير من القضايا وبما يمليه عليه معتقده الإسلامي، بل نجد سلطة الاحتجاج عنده من سلطة اعتقاده الإسلامي، ومثال ذلك ما ذكره القلقشندي عن تحليف أهل البيعة فقال:« وأشهدوا عليهم بذلك من حضر مجلس العقد من الأئمة الأعلام، والشهود الحُكّام، وجعلوا الله على ما يقولون وكيلا، فاستحق عليهم الوفاء بقوله تعالى:﴿ وَلَا نَقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًا ﴾»[1]، فهذه الحجة استمدت قوتها من قوة الاعتقاد وقداستها، فالحلف عند المسلمين معتقد ديني له قداسته التي لا يمكن المساس بها أو تدنيسها. إضافة إلى معتقده الشافعي، بل أنّ سلطة الاحتجاج عنده في توجيه خطابه من سلطة الاعتقاد الشافعي. فالقلقشندي لما يأخذ المسألة يستدل بقول الشافعي فمثلا لمّا تحدث عن اليمين الغموس قال:« أمّا معناها فقال الإمام الشافعي رضي الله عنه: هي أن يكون الحالف في خبره كاذبا»[2]. أي نفي الشك في الاختلاف في معناها.

**2-2- سلطة المنهج:**

إنّ الخوض فيما اختاره القلقشندي من نصوص وخطب يلمس ذلك المنهج المتبع في طريقة الكتابة، والذي لم يَحِدْ عنه من بداية الكتاب إلى نهايته، فقد وضع شروطا لكاتب الإنشاء بأن يتبعها، إذ نجد القلقشندي يدرسها كحجة في تخريج نصوصه، والظاهر أنه لما كان هدفه من إنشاء موسوعته هو توجيه كاتب الإنشاء ألزم نفسه إتباع نفس المنهج المسطر من البداية إلى النهاية.

إن استدعاء هيبة المتكلم وقوة نفوذه في المجتمع تمثل مركز حجة السلطة، فقد تكون هذه الحجة ذات طابع علمي أو سياسي أو أدبي...، ومثال هذه السلطة الشخصية متمظهرة في كلام القلقشندي من خلال تلك الخطب الدالة على الحزم والعزم وقوة النفوذ، خصوصا إذا انتشرت الفتن، وعم الفساد، ومثاله من المدونة قوله على لسان الحجّاج بن يوسف الثقفي وهو يتوعد أهل العراق ويهددهم:« يا أهل الكوفة،

[1]- صبح الأعشى، ج196/1.

[2]- نفسه، ج208/13.

أهل الشقاق والنفاق، ومساوئ الأخلاق... وأيم الله لألحونكم لحو العود، ولأقرعنكم قرع المروة، ولأعصبنكم عصب السلمة ولأضربنكم ضرب غريبة الإبل...»[1]. فهذا الخطاب دليل واضح على السلطة والقوة التي كان يتمتع بها المتكلم، ودليل على قوة الخطاب وأثره في نفسية السامع؛ فقوة الخطاب من قوة قائله ومن قوة حجته وقوة مقامه وسطوته.

**3- فاعلية التناص في الحجاج:**

**3-1- الاستشهاد Illustration:**

إنّ مجموع الأحداث الكلامية في صبح الأعشى تستندُ إلى الشواهد القرآنية والحديثيّة، ومرجع ذلك إلى عامل ثقافة القلقشندي نفسه. فإنّ مصادره اللغوية والبلاغية كلها ذات بعد ديني محض؛ فهو خرّيج القرآن والسنة النبويّة، وتتلمذ للفقه الشافعي، واكتوى بفتنة التتار، وشهد التفاوت الاجتماعي الذي عرفه عصره. وليس بالغريب أنْ تحتشد هذه التواريخ والأحداث في هذه المدوّنة لتسجل ما كان حاصلا يومئذ.

وقد حرص القلقشندي على أنْ تكون مصادره مقنعة، فجاءت لغته ذات بنية سجعية، وهذا أول مظهر من مظاهر التناص الثقافي؛ فهو لم يخرج عما كان مألوفا لدى الكتّاب، وحرص على الاقتباس ليعضد أقواله ويعزّزها ويمنحها صفة الفاعلية والانفعالية لأنه يؤمن أنّ:« الاستشهاد يؤدي دور التوضيح»[2]، أي أن الشاهد الحجاجي يعمل على الرغبة في زيادة درجة التصديق أو الحجة بقاعدة معينة، كما أنه يعمل على توضيح القول وتقوية حضوره في الذهن.

ومن هنا فقد استعان القلقشندي بالكثير من الشّواهد في تخريج نصوصه، وهو ما يقوي خطابه، من أجل حصول الإذعان وتسليم الأذهان ومضاعفة مراتب التصديق ودرجاته، ومثل هذه الآلية نجدها موظفة بطرق متنوعة وفي مواضع مختلفة من المدونة أهمها:

- **الاستشهاد بالقرآن:** أورد القلقشندي في مصنفه عديد الآيات القرآنية الكريمة، وذلك بحسب المقام الذي يتطلبه الخطاب، وهذا ما يجعل المتلقي يذعن لما يلقى إليه من كلام، فتوظيف النصوص الدينية في الخطاب يمثل« حججا لها تأثيرها في نفس المخاطب لما تتمتع به من مكانة في توظيف المنظومة الفكرية والاجتماعية، ولوظيفتها الإحالية التّي تحملها حيث أنها تحيل إلى شروط أخرى للتواصل ينبغي أن

[1]- صبح الأعشى، ج219/1.

[2]- رشيد لولو، حجاجية المثل في القرآن الكريم، ط1، منشورات حمداوي الثقافية، مطبعة الخليج العربي، تطوان، المغرب، 2017، ص104.

يخضع لها الطرفان، لاسيما النصوص الدينية»[1]، فالمعتقد الديني يمثل أقوى الحجج وأعلاها سلطة في مختلف الخطابات، فهي وسيلة لا يمكن بأيٍّ حال من الأحوال أنْ يعترض عليها متلقي الخطاب، خصوصا إذا كان النص قرآنيا.

إن استعمال القلقشندي للنصوص الدينية عموما والقرآنية خصوصا لينم على مدى تأثره بالقرآن الكريم، ولا نعني هنا ذلك التأثر المعروف عند بعض الكتاب والخطباء في استشهادهم بالآيات اقتباسا أو تضمينا، بل نعني ذلك الامتزاج بين آيِ القرآن وتراكيب الجملة، مع مراعاة الترادف من الناحية الصوتية، والتوازن بين الجمل، دون إغفال الجوانب النحوية والصرفية والبلاغية، وهو ما من شأنه أن يحدث إقناعا لدى المتلقي وجعله يستجيب إلى ما يرمي إليه الخطيب ومن أمثلة ذلك في المدونة قول القلقشندي في الكلام على فضل الكتابة:« فقد نطق القرآن الكريم بفضلها، وجاءت السنة الغراء بتقديم أهلها، فقال جل ثناؤه، وتقدست أسماؤه ﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥ ﴾»[2].

في هذا الخطاب احتج القلقشندي بالقرآن الكريم على إثبات ادعائه، مبينا بذلك أن الله عز وجل أخبر أنه علّم بالقلم، إذ وصف نفسه بالكرم، في إشارة منه إلى أن تعليمها من جزيل نعمه، وإيذانا بأن منحها من أوفر جوده وفائض ديمه. ليواصل القلقشندي احتجاجه بكلامه عز وجل عن القلم الذي أقسم به في دليل قاطع منه فكان أعظم قسم عن الأقلام وما تسطره فقال:﴿ نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢ ﴾[3]. أما عن جعله الكتابة من وصف الكرام فاحتج بقوله تعالى:﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١ ﴾[4]. وفي جانب آخر في باب احتجاج القلقشندي بالقرآن الكريم عن منع الكتابة عن النبي صلى الله عليه وسلم معجزة قد بين الله تعالى سببها، حيث ذكر أخبارهم بقوله:﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا ﴾[5].

ونذكر في هذا المقام أيضا مثالين آخرين لمزيد من التوضيح:

---

[1]– خليفة بوجادي، في اللّسانيات التّداولية" مقاربة بين التداولية والشعر دراسة تطبيقية"، ط1، بيت الحكمة، العلمة، الجزائر، 2009، ص126.

[2]– صبح الأعشى، ج195/1.

[3]– نفسه.

[4]– نفسه.

[5]– نفسه.

- ✓ يقول القلقشندي في إحدى بيعاته:« والله يجعل انتقالهم من أدنى إلى أعلى، ومن يسرى إلى يمنى، ويحقق لهم بمن استخلفه عليهم وعده الصادق بقوله تعالى ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾»[1].
- ✓ وممّا رواه القلقشندي في باب استشهاد الآخرين بالنص القرآني نذكر: يُقال أن ملكا من ملوك الروم كتب يوما إلى المعتصم يتوعده ويتهدده، فأمر الكتّاب أن يكتبوا جوابه، فلم يعجبه ما كتبوا شيء، فقال لبعضهم اكتب« بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد: فقد قرأت كتابك، وفهمت خطابك، والجواب ما ترى لا ما تسمع﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ ﴾»[2].

إن استحضار الشواهد القرآنية في الخطاب كما في هذين المثالين يعمل على تعزيز القوة التعبيرية، وتوجيه رأي السامعصوب وجهة محددة يريدها المتكلم، فاستناد القلقشندي على النص القرآني مردّهلقداسته عند العرب. وهكذا فالخطاب الذي يحتوي على الشاهد القرآني تكون حججه أكثر قوة لأنها مستمدة من قوة الاعتقاد، وقوة درجة التصديق فيهما.

– **الاستشهاد بالحديث:** لا يقل الحديث النبوي الشريف أهمية عن النص القرآني لما يمتلكه من دلالات سياقية وحجاجية لها أثرها الإقناعي، خصوصا إذا كان الخطاب صادرا عن أفصح من نطق بالضاد، وحديثه على درجة من القداسة والحظوة البلاغية، وهذا ما خول له أن يكون النص الثاني بعد القرآن الكريم، فالنبي صلى الله عليه وسلم كان فصيح اللسان بليغ القول، فقد كان من ذلك:« بالمحل الأفضل والموضع الذي لا يجهل سلاسة طبع، وبراعة منزع، وإيجاز مقطع، ونصاعة لفظ وجزالة قول وصحة معان وقلة تكلف، أوتي جوامع الكلم، وخص ببدائع الحكم وعلم ألسنة العرب[3]. فالنبي صلى الله عليه وسلم هو أفصل من نطق بهذه اللغة العربية على الإطلاق بعد كتاب الله عز وجل، وفي هذا يقول

---

[1]– صبح الأعشى، ج196/1.

[2]– م. ن، ج192/1. ووردت كلمة" الكفار" على الجمع، بينما كلمة" الكافر": فهي قراءة كل من نافع وابن كثير وأبي عمرو.

[3]– القاضي ابن الفضل عياض اليحصبي، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ج1، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، ص70.

القلقشندي أنه صلى الله عليه وسلم قال:« أنا أفصح من نطق بالضاد»[1]. وبهذا يكون النبي عليه الصلاة والسلام قد أوتي جوامع الكلم التي عجز ويعجز عنها البشر.

وبناء على هذا يعد الشاهد الحديثي الوارد في الخطب التي استقاها القلقشندي في مصنفه أحد أهم الروافد التي تكسب الخطاب طاقة حجاجية تعمل على توجيه الخطاب وجهة يراها الخطيب أنها الأصوب من أجل الدفع بمتلقي الخطاب تجاه إلى الإذعان والتسليم إذا كان يريد أو الترك والابتعاد إذا كان يكره.

يقول القلقشندي في المفاخرة بين السيف والقلم:« وبدأ القلم فتكلم، ومضى في الكلام بصدق عزم فما توقف ولا تلعثم، فقال باسم الله تعالى أستفتح، وبحمده أتيّمنُ وأستنجد...، وكل أمرٍ ذي بال لا يبدأُ فيه باسم الله تعالى فهو أجذم، وكل كلام لا يفتتح بحمد الله فأساسه غير مُحْكَم»[2].

في هذا الخطاب نجد أن الخطيب قد استند على الشاهد الحديثي في خطابه، ليبين أهمية بـ" اسم الله" أو" الحمد لله" في كل الأمور، فالمكاتبة أو المخاطبة يشترط فيهما الاستفتاح بأحدهما– بسم الله أو الحمد لله– بدليل نص الحديث النبوي الذي ساقه القلقشندي من قوله صلى الله عليه وسلم:« كل أمرٍ ذي بال لا يبدأ فيه باسم الله أو بحمد الله فهو أجذم»[3].

ومما جاء في المدونة وصفا لبعض بلاد الوخمة قوله:« ومن صفاتها أنها مدرة مستوبلة الطينة، مجموع لها بين حرّ مكة ولأواء المدينة، إلا أنها لم يؤمن حرُّها من الخطفة، ولا نقلت حماها للجحفة»[4].

يتضمن هذا الخطاب حديثين شريفين للنبي صلى الله عليه وسلم ساقهما لتدعيم طرحه وتوجيه مخاطبه وجهة تتماشى مع الحديث النبوي[5]:

**الأول:** من قوله صلى الله عليه وسلم:" من صبر على حرِّ مكة ولأواء المدينة ضمنت له على الله الجنة".

**والثاني:** من قوله عليه الصلاة والسلام:" اللهم حببها إلينا كما حببت إلينا مكة وانقل حمّاها إلى الجحفة".

---

[1]– صبح الأعشى، ج202/1.

[2]– نفسه، ج208/1.

[3]– نفسه.

[4]– نفسه.

[5]– نفسه.

إن تضمين الكلام بمعاني مأخوذة من السنة النبوية لا يزيده إلا قوة وجزالة، تجعل من المتلقي يقتنع بما يلقى إليه من أطروحات ودعاوى، فالقلقشندي أراد أنْ يثبت صحة حجته بالتدليل عليها عن طريق السلطة الحديثية، حين وصف البلاد الوخمة بأنها صعبة المراس، مستوخمة لا توافق من يتواجد بها، فحالها كحال الأرض الشديدة الحر، لا يصبر عليها إلا من قهر نفسه، ولا يحبها إلا من جاهدها كذلك.

– **الاستشهاد بالشعر**: ينطوي الشعر على وظيفة تداولية، لما له من دور بارز في زيادة إقناع المخاطَب، وذلك بإكساب الخطاب طاقة حجاجية إضافية، كما أنه يمثل انعكاسا للجانبين المعرفي والثقافي للخطيب. ولعل أوضح دليل على حضور الشعر في حياة العربي هو مدونة الشعر العربي الغنيّةبالنّصوص التراثية، والأمثال والحكم والقصص.. كالأصمعيات، والمفضليات، ودواوين الحماسة وغيرها... وقد طعّم القلقشندي كتابه بهذا الزاد الشعري الثمين ليكون حجّة وبرهانا على مراده الذي يرمي إليه. وآية ذلك أنه نبّه على دورها الفاعل، ودعا إلى فهم معانيها، واستكشاف غوامضها وشروحها، إضافة إلى شعر المولدين كما هو الحال عند جرير والفرزدق والأخطل، وشعر المفلقين من المحدثين كأبي تمام، المتنبي، البحتري وغيرهم[1].

وعلى هذا الأساس؛ وظف القلقشندي أبياتا شعرية بغرض الاستشهاد بها كما فعل عند كلامه عن الكتابة الإنشائية:« فلما كانت الكتابة من أشرف الصنائع وأرفعها، وأربح البضائع وأنفعها، وأفضل المآثر وأعلاها، وآثر الفضائل وأغلاها، لاسيما كتابة الإنشاء التي هي منها بمنزلة سلطانها، وإنسان عينها، بل عين إنسانها. لا تلتفت الملوك إلا إليها. ولا تعول في المهمات إلا عليها، يعظمون أصحابها ويقربون كتّابها، فحليفها أبدا خليق بالتقديم، جدير بالتبجيل والتكريم»[2].

وقد استند إلى الشاهد الشعري للاحتجاج به فقال:

تسر مجانيها إذا ما جنى الظما وتروي مجاريها إذا بخل القطر

إن المعرفة بالشعر والشعراء لا يزيد الكلام إلا قوة ورصانة، وحجة وبيانا، ولا يزيد المتلقي إلا إذعانا وإتباعا، فحديث القلقشندي عن الكتابة الإنشائية وفضلها على سائر الناس، بل واحتلالها مكانة مرموقة ومنزلة عالية في حضرة الملوك والسلاطين، جعلها من أربح البضائع وأنفعها، وأنفع المآثر وأعلاها، وآثر الفضائل وأغلاها، ولم يتوقف القلقشندي عند هذا الحد في حديثه التأثيري على المتلقي بل

[1]– ينظر: صبح الأعشى، ج271/1.

[2]– م. ن، ج06/1.

صورها له على أنها( الصناعة الإنشائية) في صورة العين التي يُسقى منها الماء في حال الجفاف، والذي لا يرتوي منها فهو بعيد المرام، فقير الحظ، بائس السعد.

فاستعمال المشترك اللفظي" عين" التي قد تدل على عين الماء أو على عين الإنسان أو غيرهما يعزز مكانة الكتابة ويبيّنُ فضلها؛ ومن أجل ذلك قام القلقشندي بعقد مماثلة بين العين والكتابة، فبدون الكتابة فلا عين للإنسان، وبدون العين لا حياة للإنسان. فهذا تلازم منطقي يتقاطع مع ملفوظ القاضي الفاضل في فكرة واحدة:

تسر مجانيها إذا ما جنى الظما وتروي مجاريها إذا بخل القطر

فالمجاني الجميلة المسرة التي ذكرها الشاعر لا تكون إلا بالماء، ولا يكون الماء إلا إذا كان هناك قطر، وإذا لم يكن هناك قطر، فلا بد من عين نابعة من الأرض، سائلة المجاري، ساقية للحقول، سارة مُرْتِعة للناظر كارعا منها، فهكذا هو حال الكتابة الإنشائية فهي بمثابة العين التي تنظر للجمال( تسر مجانيها)، وتروي العطشان بنور العلم الذي به ترتقي الأمم( تروي مجاريها).

وبهذا يكون القلقشندي أعطى ملازمة منطقية لا مناص منها، فالبساتين لا تخضر ولا تسر ولا تروى إلا بالقطر أو بعين نابعة جارية، فلجوؤه إلى مثل هذا الشاهد وبهذه القوة اليقينية يجعل من المتلقي يسلم تسليما كليا مطلقا لما يلقى إليه من أطروحات، فالكتابة الإنشائية منزلتها عالية، وصاحبها مقرب مقدم مبجل مكرم.

– **الاستشهاد بالخرافة:** وذلك بما أورده القلقشندي في مدونته عندما تحدّث عن ذلك السلوك الساذج المتوارث عن الجدّات والعجائز، والذي حاصله فعل الاستشفاء برجل الأرنب، ودرء العين وفك السحر؛ وهذا كله من إفرازات العصر الذي خيّم عليه الجهل وغلبت عليه الخرافة، حتى صارت هذه الأخيرة الملاذ والمهرب ممن فقدوا العزم والحزم في حياتهم، وتشبثوا بالأوهام والأساطير.

ومن الجدير بالذكر؛ أنّ مثل هذه المرويات تخدم الدرس التداولي؛ وذلك باستثمار تلك الملفوظات التي تنتمي إلى حقل دلالي معين في عملية التخاطب بالتقنيات الإنفصالية، والتي يتم استخدامها لغرض« إحداث القطيعة وإفساد اللحمة الموجودة بين عناصر تشكل عادة كلاً لا يتجزأ أو على الأقل كلا متضامنة أجزاؤه في نطاق نظام فكري واحد. فَوِفق هذه الطرائق يحدث فصل داخل المفهوم الواحد بملاحظة انعدام

الانسجام بين العناصر المكونة له، وبحمل أعراضه على جوهره، ومحاكمة ظاهره في ضوء حقيقته»[1]، أي أنّ هذا النوع من الطرائق يقوم على الفصل بين عناصر تقتضي وجود وحدة بينها ومفهوم واحد لها، فهذا الانفصال وقع لأسباب دعا إليها الحجاج ومرده إلى زوج الظاهر/ الواقع، بمعنى أن الأشياء يمكن أن يكون لها حدان ظاهر زائف وواقع حقيقي، وهذا ما يُدعى بالأزواج الفلسفية التي تستمد مظهرها الحجاجي من فصلها داخل المفهوم الواحد.

ومن طرائق الفصل في الأقوال والخطابات بعض الجمل الاعتراضية مثل: يزعم أو يتوهم[2]، ونجد مثاله في قول القلقشندي حول تعليق الإنسان لكعب الأرنب فقال:« كانوا يعلقونه على أنفسهم، ويزعمون أنه وقاية من العين والسحر، قائلين إن الجن تنفر من الأرنب لكونها تحيض»[3]، فتوظيف الفعل" يزعمون" تم من خلاله فصل المفهوم الواحد(كعب الأرنب وقاية من العين والسحر)، فبهذا الفعل صار المفهوم الظاهري( وقاية من العين والسحر) والواقعي( ليس واقيا من العين والسحر)، وهنا يتمثل دور الفصل الحجاجي بواسطة الطرائق اللغوية والكتابية في جعل السامع يتمثل مظهرين: ظاهري زائف، وحقيقي واقعي[4]، والخطاطة التالية توضح ذلك:

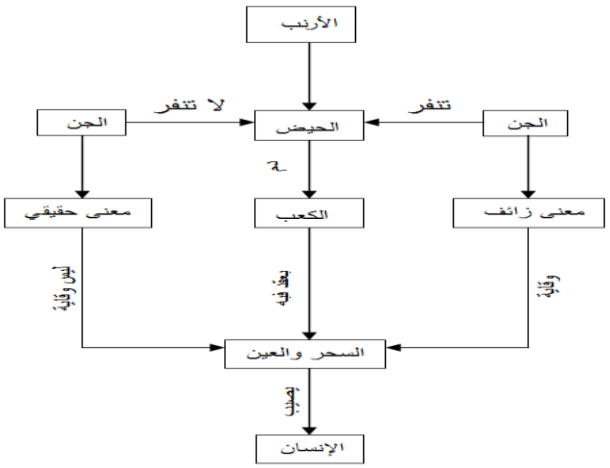


مخطط يوضح: الفصل الحجاجي بين المعنيين الحقيقي والزائف

[1]– عبد صولة، الحجاج: أطره وتقنياته من خلال" مصنف في الحجاج– الخطابة الجديدة" لبيرلمان وتيتيكا، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف: حمادي صمود، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، كلية الآداب منوبة، تونس، ص324. وينظر: جميل حمداوي، شاييم بيرلمان رائد البلاغة الجديدة، مرجع سابق، ص 44.

[2]– ينظر: أبا علال مولود، أقصاصي عبد القادر،"الحجاج في الخطابة السياسية عند أبي بكر الصديق"، مجلة آفاق علمية، جامعة تامنغست، مج13، ع1، الجزائر، 2021، ص291.

[3]– صبح الأعشى، ج463/1.

[4]– ينظر: عبد صولة، الحجاج: أطره وتقنياته، مرجع سابق، ص346.

**4- بنية السّجع وأثرها في توجيه خطابات" صبح الأعشى":**

يجد القارئ في مدونة" صبح الأعشى" أنَّ البنية السجعيّة بنية محورية وعميقة؛ وهو أمرٌ مقصود وليس وليد العفوية لأنّ القلقشندي لم يستطع أنْ يَخرُجَ عن عرف التعبير السائد وقتذاك؛ فأكثر ما كان يميز الأدب خصوصا في شقه النثري هو حضور السجع، فمن لم يسجع فقد فاته التأليف والإبداع، ولمّا كان أول مفاتيح النفس هي الآذان المدركة، فقد حرص القلقشندي على توليفة" البديع"، وهنا نسجل للقلقشندي اهتمامه بالسامع( المتلقي):«... حتى لا يدع من العناية فنّا إلا جلبه إليه، ولا مقادة فخر إلا جعلها في يديه، ولا حُلّة عزٍّ إلا أضفى ملابسها عليه»[1]. فموضع السجعة في هذا المقطع هو" الهاء"، وهو حرف حلقي، وهذا أنسب في موضع الثناء، فكان القلقشندي يتخيّر لكل مناسبة ما يشاكلها من الصوائت والصوامت.

وتعدّ هذه الكتابات من القدماء محاولة عربية أصيلة، موغلة في القدم للتدليل على فهمهم لمقتضيات الخطاب، وما يتطلبه السياق من مقدرة وكفاية لغوية على لفت الانتباه وجذب الأنفس وتحصيل الاستجابة.

يرى القلقشندي أنّ العبارات القصار:« تدلّ على قوة التمكن، وإحكام الصنعة، لا سيما القصيرة منها للغاية، وأقل ما يكون من لفظتين»[2].

فالأسجاع المتساوية الأطوال هي أشرف أنواع السجع منزلة، وكلّما كانت أقصر كانت أوقع في النفس وأبلغ دلالة، ويسهل على اللسان ترديدها وعلى الذاكرة استيعابها. وإلى هذا الرأي تقريبا، كان قد ذهب الجاحظ حيث يرى:« أنّ الكلام إذا قل وقع وقوعا لا يجوز تغييره، وإذا طال الكلام وجدت في القوافي ما يكون مجتلبا ومطلوبا مستكرها..»[3].

وهذه الأحكام التي أطلقها القدماء بخصوص" الإيقاع" عموما تمثل قيمة جمالية لها ارتباط بنفس الإنسان التّي تميل ميلا غريزيا إلى الاتساق والهارموني، وهي أحكام تنم عن ذوق رفيع وقدرة علمية فذة.

---

[1]- صبح الأعشى، ج16/11.

[2]- م. ن، ج276/2.

[3]- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق وشرح: عبد السّلام محمّد هارون، ج1، د.ط، دار الجيل، بيروت، د.ت، ص288.

من خلال هذا الرّأي النّقدي من القلقشندي بخصوص مقادير السّجعات في الطول والقِصر، نفهم مقدرة المؤلف على الكتابة والإنشاء، وبهذا الصدد، نسجل هنا ملمحا وبعدا تداوليا بخصوص مسألة التشكيل المسافي بين السّجعات لدى القلقشندي، فقد راعى فيها:

- المتكلّم.
- السّامع.
- الكلام( المقام).

فهو قصّر من مسافة السّجع حتى يشدّ ذهن السامع، وحتى يُخرج الكلام مخرج الإقناع( الحجاج)، بالإضافة إلى منح فرصة للتداول بين طرفي الخطاب[ المتكلم والسامع]، فليس على المتكلم أنْ ينفرد بالكلام لمدة أطول. وهنا نسجل أثر نظرية أفعال الكلام التي تمتد إلى منطقتين من مناطق التحليل التداولي، منطقة التلفظ، ومنطقة الحجاج.

وبالرّجوع إلى مسألة طغيان الخطاب السّجعي المُنغَّم في مدونة" صبح الأعشى"، فإننا نقول إنّها سمة العصر برُمَّته خصوصا في جانب الكتابة والإنشاء، وقد أبان القلقشندي على أنّ الخطاب اللغوي الذي يغلب عليه السّجع لا يُستكره إلا إذا كان مُتكلَّفا:« أما ما ورد من أنّه صلى الله عليه وسلم حين قضى على رجل في الجنين بغرة عبدٍ أو أمةٍ، فقال الرجل: أأدِي من لا شرب ولا أكل، ولا نطق ولا استهل، ومثل ذلك يُطَل. فقال النبي صلى الله عليه وسلم:" أسجعًا كسجع الكُهّان" فليس فيه دلالة على كراهة السجع في الكلام وإن تمسك به بعض من نبا عن السجع طبعُه، ونفرت منه قريحته، إذ يحتمل أنّه صلى الله عليه وسلم إنّما كره السجع من ذلك الرجل لمشابهة سجعه حينئذ سجع الكهان، لما في سجعهم من التكلف والتعسف كما وجهه أبو هلال العسكري...»[1].

في المثال الذي ساقه القلقشندي نجد آلية الاعتراض من الأعرابي متمثلة في الاستفهام الإنكاري عن طريق حرف الاستفهام:" الهمزة" ونجد هذه الآلية نفسها (الاعتراض) في الإجابة وبنفس الحرف:" الهمزة" من طرف الرسول صلى الله عليه وسلم:

- خطاب الأعرابي: أأدي من لا شرب ولا أكل؟
- خطاب النبي صلى الله عليه وسلم: أسجعا كسجع الكهان؟

[1]- صبح الأعشى، ج271/2.

لقد حدّد الدكتور طه عبد الرحمن الحجاج بمحددين هما: الاستدلال والمجاز، وقال إنّ الاستدلال يتجلى من خلال آليتي الاعتراض والإدعاء، ويتصور طه عبد الرحمن: أنّ كل خطابٍ يضام قصودا أربعة، قصد التوجه إلى الغير، وقصد إفهامه ثم قصد الإدعاء وقصد الاعتراض[1].

ولكن الخطاب الذي صدر من الأعرابي لا يحمل حجاجا في نفسه، بل جدلا واعتراضا وهو من ممكنات التداول، ولكن إذا نحن راعيْنا مقام المُتكلَم إليه( مقام النبوة) رفضنا هذا النوع من الخطاب لأنه يخلو من الهيبة والأدب والوقار والاحترام لمكانة النبي صلى الله عليه وسلم، إلا أنّنا حين نستحضر الخطاب القرآني في سياق ذمّه للأعرابي، نفهم أنّه من ممكنات القول في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم إذا كان المحاوِرُ من الأعراب الذين نزل فيهم قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ الحجرات: ٤ .

وبالرّجوع إلى بنية السّجع المنطوية على الحجاج، يتبيّن أنّ تقنية الخطاب تُراعى فيها أطراف التّخاطب الثلاثة[ المتكلم– المقام– السامع]، بالإضافة إلى أنّه عملية معقدة أشبه بالبناء لأنها تتطلب مهارة في القول وإعمالا للذهن والعقل، أيْ أنّها لا تكون إلا وفق شروط تقتضيها صناعة الكلام:« اعلم أنّ فواصل الأسجاع موضوعة على أنْ تكون ساكنة الأسجاع، موقوفا عليها، لأنّ الغرض أنْ يُزاوج بينها ولا يتم ذلك في كل صورة إلا بالوقف..»[2]، فالأسجاع المتقاربة والساكنة الموقوف عليها تكون أحسن سبكا وأشد وقعا في النفس وأكثر تأثيرا من غيرها.

في هذا السياق الزاهي والمدبَّج بالبديع كانت ترِدُ تجربة القلقشندي في أثناء نصوص" صبح الأعشى". ولقد كان يَصدرُ عن العفوية والبداهة وإنْ بدا أنّه متنٌ يغزوه" السجع" تارة و" الجناس" تارة أخرى. والمهم أنّ ألفاظه وملفوظاته وإخباریاته كانت تحتضن المعنى احتضانا وتعانقه معانقة. وإنّ الدربة الفنية والموهبة الأدبية التي صدر عنها القلقشندي كانت تظهر دائما في تلك الهيئات التعبيرية واللفظية والإيقاعية والبيانية ذات الحمولة الجمالية وذات الإقناع الذي يسري في عموم خطابات المتن بكُلِّيته.

---

[1]– ينظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1998، ص225.

[2]– الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، شرح: عبد المنعم خفاجي، ج3، دط، دار الفكر، بيروت، لبنان، دت، ص549.

## المبحث الثّالث

## الرّوابط والعوامل الحجاجية في صبح الأعشى

### أوّلًا: الرّوابط الحجاجية في صبح الأعشى

تناول العلماء العرب القدامى والمحدثون قضية الروابط بالدراسة والتحليل والشرح والتفسير مركزين على مختلف جوانبها الدلالية وطبيعتها الصرفية، ووظيفتها الإعرابية، ودورها في اتساق النص وانسجامه، حيث قاموا بتقسيمها إلى طبقات كلٌ حسب رؤيته الخاصة، فمنهم من اتفقوا ومنهم من اختلفوا حول نوعية الرابط ووظيفته. إلا أن الدراسات اللسانية التداولية نظرت إليها نظرة تختلف عن سابقتها، فهي تنظر إليها على أساس أن هذه الروابط تكتسي بعدا تداوليا وحجــاجيا عند كل من ديكرو O. Ducrot وأنسكومبر J. C. Anscombre، حين أعادا النظر في العلاقة بين المكونين اللساني والبلاغي، فدراسة الحجاج عندهما ينبغي أن تنظر إلى البنية الداخلية للغة بعين الاعتبار[1].

هذا ولوظيفة الربط وظائف أخرى تؤديها مثل:

- توجيه التعليمات بطريقة التأليف بين الوحدات.
- استخلاص بعض النتائج التي لا نصل إليها عن طريق تلك الروابط.
- التأليف بين فعلين كلاميين مختلفين، أو بين مجموعة قضايا تجمع بينهما علاقة معينة، مثل: العلاقة السببية، أو الاستنتاج أو الإضافة أو الإضراب، أو التعارض وغيرها.

ويرى" فان ديك" أنالعبارات يمكن أن تترابط وتتسلسل دون أن تحصل فائدة من فحوى هذا الخطاب المتسق لفظا المختل معنًى، يعنيهذا أن الربط يجوز أن يكون شرطا ضروريا ولكنه ليس كافيا لقبول الخطاب، لأن من شروط الخطاب حصول الإفادة[2].

هناك تقسيمات عديدة للروابط الحجاجية، أهمها ما تم الاعتماد فيه على الوظيفة، والتي من خلالها يمكن تقسيم هذه الروابط الحجاجية Les connecteurs argumentatifs إلى أنواع مختلفة ندرج منها[3]:

---

[1] – ينظر: جواد ختام، التداولية أصولها واتجاهاتها، مرجع سابق، ص 151.

[2] – ينظر: فان دايك، النص والسياق، تر: عبد القادر قنيني، دط، أفريقيا الشرق، المغرب، 2000، ص 73-77.

[3]– ينظر: أبو بكر العزاوي، الحجاج واللغة، مرجع سابق، ص55 وما بعدها.

**1- الرّوابط السّببية:** وتتمثّل في:( لأنّ، بسبب، وذلك، لام التّعليل، الواو...)، وهي من نوع نتيجة سابقة لحجة.

والشّكل التّالي يوضّحها:

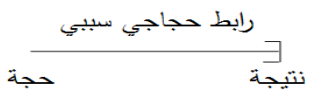


أي أنّ النّتيجة موجودة في ذهن المتلقي قبل استقباله للحجة، وهذا ما يزيدها طاقة حجاجية، إضافة إلى ما تملكه الحجة من طاقة في حد ذاتها.

**1-1- الرّابط الحجاجي (لأنّ):**

يمثّل هذا الرّابط أحد أهم الألفاظ المستعملة في التعليل والتفسير، فهو يستعمل لتبرير الفعل، كما يستعمل لتبرير عدمه[1]، وقد ورد هذا الرابط في مواضع مختلفة من المدونة خصوصا ما تعلق الأمر بمواضع ومقامات تتطلب منهجا يستدعي التعليل والتفسير والتبرير بهدف الإقناع والتأثير في المخاطَب.

ومثالها قول القلقشندي لما تعجب من قول المقرّ الشهابي وما أتى به في نسخة يمينٍ:« فإن كان فرّ في قوله: وكلُّ زوجةٍ في نكاحه خوفا من أن يقول في نكاحي فتَطْلُقَ زوجتُه هو، فلا وجه له: لأن الحاكي لا يقع عليه الطلاق»[2].

لقد أبان هذا الرابط( لأن) على سبب يراه القلقشندي غير مقنع ولا معقولٍ، وهو أن الحاكي لا يقع عليه فعل الطلاق، وبالتالي فقد برر القلقشندي تهرب المقر الشهابي لمَّا تلفظ بذلك القسم«... أني والله العظيم...، فكل ما أملكه: من صامتٍ وناطقٍ صدقةٌ على الفقراء والمساكين، وكلّ زوجةٍ في عقد نكاحه أو يتزوّجها في المستقبل فهي طالق ثلاثا بتاتا على سائر المذاهب»[3]. فالعدول عن التكلّم إلى الغيبة؛ أي كان الأجدى به أن يقول:" نكاحي، أو أتزوجها"، في زمن التكلم، لا أن ينتقل إلى الغائب خوفا منه من أن يطلق الزوجة التي في حُرمته وهذا نوع من الالتفات. ولهذا جاء الربط بين النتيجة والسبب بواسطة الرابط السببي( لأن)، ويمكن تحليل ذلك حجاجيا كما يلي:

- الحجّة: الحاكي لا يقع عليه الطّلاق.

---

[1]- ينظر: محمد أمعيط،" الرّوابط والعوامل الحجاجية في المناظرة السياسية- مناظرة علي للخوارج نموذجا-"، مجلة إحالات، المركز الجامعي مغنية، الجزائر، ع7، 2021، ص65.

[2]- صبح الأعشى، ج218/13.

[3]- م. ن، ج217/13.

- الرّابط الحجاجي: لأن.
- النّتيجة: لا وجه له.

**1-2- لام التّعليل:**

تعدّ لام التّعليل أحد أهم الرّوابط الحجاجية التي تربط بين النتيجة والحجة، مضيفة دعما وتبريرا لهذه النتيجة وتأخذ الشكل التالي:

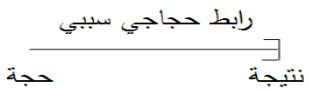


ومن أمثلته في المدونة قوله:« إذ أبيتم إلا الطعن على الأمراء والعتب على السلف والخلفاء، فوالله لأقطعَنَّ بطون السياط على ظهوركم...»[1].

تحلل هذه العينة حجاجيا وفق ما يلي:

- الحجة: الطعن على الأمراء والعتب على السلف والخلفاء.
- الرابط الحجاجي: لام التعليل
- النتيجة: أقطعنَّ بطون السياط على ظهوركم.

**2- روابط العطف:**

تكتسي حروف العطف أهمية حجاجية وذلك لما تقوم به من ربط بين الحجج لتوضيح نتيجة واحدة معينة، ومن بين هذه الحروف( الواو، الفاء، ثم...)، فهي تساهم إن تم استغلالها فيما وضعت له من مقام مناسب في العمل فإنها تعمل على تنظيم الخطاب واتساقه وانسجامه من جهة، وإثبات المعنى من جهة أخرى[2].

**2-1- الرّابط الحجاجي( الواو):**

يفيد هذا الرّابط الجمع بين حجّتين، إذ يعمل على ربط وترتيب الحجج بعضها ببعض عن طريق العطف، فهو يقوم برص مجموعة من الحجج، وجعلها أكثر تماسكا وتأكيدا، إضافة إلى التدرج في ترتيبها، ومما جاء كدليل على ذلك في المدونة ما ساقه القلقشندي من كلام الحجاج بن يوسف:«...

---

[1]- صبح الأعشى، ج216/1.

[2]- ينظر: محمد أمعيط،" الروابط والعوامل الحجاجية في المناظرة السياسية"، مرجع سابق، ص65.

فوجهني إليكم ورماكم بي لأنكم طالما أوضعتم في الفتنة، واضطجعتم في منام الضلال، وسننتم سنن العيِّ...»[1].

فلو عدنا إلى المثال السّابق- الرّابط لأن- فحرف (الواو) قام بربط ووصل بين مجموعة من الحجج وعمل على ترتيبها بما يضمّن تقوية النّتيجة( وجهني إليكم ورماكم بي)، من الحجة الأضعف إلى الحجة الأقوى وفق السلم التالي:

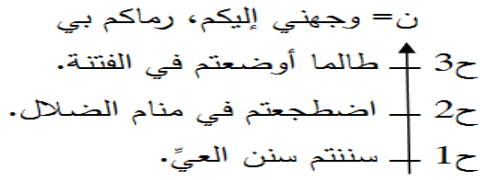


**سلم حجاجي يوضح: ترتيب الحجج**

فمن خلال هذا السلم يتضح أن الحجة الثالثة هي الأقوى إذا تمت مقارنتها بالحجتين الثانية والأولى.

**2-2- الرّابط الحجاجي( ثمّ):**

من حروف العطف كذلك( ثمّ) الذي يفيد التراخي والترتيب، كما أنّه ذو وظيفة حجاجية تجمع بين قضيتين متباعدتين. ومثل هذا في المدونة ما ساقه القلقشندي من خطاب الغيرية:«... إني أنذر ثم لا أُنظِر، وأحذر ثم لا أعذر، وأتوعد ثم لا أعفو»[2].

المتمعن لهذا الخطاب يتبن له استعمال رابطين حجاجيين ممثلين في حرفي( ثم، الواو)، فقد دلت( ثم) على التراخي الزمني في ربطها بين المعطوف والمعطوف عليه رغم زيادة حرف النفي الذي هو للتأكيد، غير أن هذا التراخي الذي اقتضاه القول قد لا يرتبط بزمن الفعل الحقيقي، بل يرتبط بزمن نفسي قد يطول وقد يقصر بحسب واقع الحال[3]، فما يأتي بعدها يكون الأقوى من ناحية المعنى، والأبلغ من ناحية الحجة التي لا تترك للطرف الآخر فرصة ليحاجج بها( أهل البصرة)، فالرابط أقام ربطا بين فعلين كلاميين. أما الرابط( الواو) فإنه ربط بين جملتين وهذا ما سنوضحه لاحقا.

---

[1]- صبح الأعشى، ج219/1.

[2]- نفسه، ج220/1.

[3]- ينظر: محمد أمعيط،" الروابط والعوامل الحجاجية في المناظرة السياسية"، مرجع سابق، ص67.

**3- روابط الاستنتاج:** وتكون باستنتاج نتيجة من حجة مقدمة، ومنها: إذن، هكذا، وبالتالي، ومنه، الفاء... وبنيتها من الشكل:

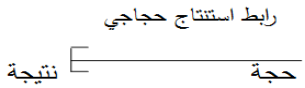


**3-1- الرّابط الحجاجي( الفاء):**

يضطلع حرف العطف( الفاء) بوظيفة حجاجية، إذ يقوم بربط الحجة والنتيجة بغية التعليل والتفسير، فهي تفيد الربط والاستنتاج في الخطاب الحجاجي، وتجمع بين حجتين غير متباعدتين في الدلالة على التقارب بين الأحداث، إضافة على دلالتها على الترتيب والاتصال، وأكثر ورودا كون ما بعدها أو المعطوف بها متسببا عما قبله[1].

ومثالها في المدونة في باب الاستشهاد بالخطب:« إنما أنتم أهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله، فأتاها وعيد القرى من ربها»[2].

الملاحظ على الفاء أنها ربطت بين النتيجة وحجتين، فزوال الأمن والإطمئنان وذهاب الرزق كان بسبب كفر النعم، وكفر النعم يؤدي إلى الهلاك، فحرف الفاء أفاد الترتيب والتسارع. وعليه يكون:

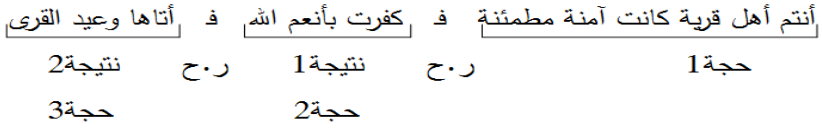


فما قبل الفاء سبب وحجة لما بعدها.

**4- رابط التّساوق الحجاجي( حتّى):**

تربط(حتى) بين حجّتين لتصل إلى تأكيد إحداهما والتي تخدمالنتيجة التي يقصدها المتكلم، ولا يكون هذا الربط إلا بثلاثة شروط[3]:

- أن ما قبلها يشكل حجة تخدم نتيجة معينة.

---

[1]- ينظر: محمد أمعيط،" الروابط والعوامل الحجاجية في المناظرة السياسية"، مرجع سابق، ص66.

[2]- صبح الأعشى، ج219/1.

[3]- ينظر: سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، ط2، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2011، ص335.

– أن الحجة السابقة واللاحقة لـ(حتى) يشتركان في الوجهة الحجاجية، أي نفس النتيجة.

– أن الحجة التي بعدها تضيف طاقة حجاجية للحجة التي قبل الرابط( حتى).

ومثالها ما ساقه القلقشندي:« وإنما تقاصرت الهمم عن التوغل في صناعة الكتابة والأخذ منها بالحظ الأوفى لاستيلاء الأعاجم على الأمر، وتوسيد الأمر لمن لا يفرق بين البليغ والأنوك لعدم إلمامه بالعربية والمعرفة بمقاصدها ، **حتّى** صار الفصيح لديهم أعجم، والبليغ في مخاطبتهم أبكم»[1].

جاء هذا الرّابط ليحقق غايات حجاجية تهدف إلى إقناع المخاطَب بالانصياع لما يقوله، فأهل هذه الصناعة– الإنشائية– لما كثرت فتنهم، واستولت الأعاجم على أمرهم ضعفت لغتهم وتقاصرت هممهم إضافة إلى توسيد الأمر لمن لا يفرق بين البليغ والأنوك حتى صار الفصيح عندهم أعجم والبليغ مخاطباتهم أبكم، فاستعمال القلقشندي للرابط الحجاجي( حتى) الذي يفيد أن ما قبله سبب لحصول ما بعده، فالتقصير في حق التوغل في الصناعة الإنشائية وتوسيد الأمر لمن لا دراية لهم بالعربية، كان نتيجته عدم التفريق حتى بين الفصيح والبليغ. ومنه يكون تحليل ما سبق كما يلي:

– الحجة1: تقاصرت الهمم عن التوغل في صناعة الكتابة... لاستيلاء الأعاجم على الأمر.

– الحجة2: توسيد الأمر لمن لا يفرق بين البليغ والأنوك.

– رابط حجاجي: حتى

– الحجة3: صار الفصيح أعجم، والبليغ في مخاطباتهم أبكم.

**ثانيًا: العوامل الحجاجية في" صبح الأعشى"**

تكمن وظيفة العوامل الحجاجية Les opérateurs argumentatifs في الربط بين وحدتين دلالتين داخل الفعل الكلامي نفسه أو القضية الواحدة، كما أن هذه العوامل تتصف بدورها في توجيه دلالة الملفوظ وجهة دون أخرى انسجاما مع النتائج التي يريد المتكلم التعبير عنها[2]. ومن العوامل الحجاجية نذكر: كاد، ربما، ما...إلا، تقريبا، كثيرا...، وكل أدوات القصر.

**1– العامل( كاد):**

ونجده مثاله في قول القلقشندي في باب المكاتبات الصادة عن ملوك الديار المصرية إلى الخلفاء مذ صارت دار الخلافة بالديار المصرية فقال:«... والظاهر أنه لم تجر مكاتبة عن السلطان إلى الخليفة،

[1]– صبح الأعشى، ج49/1.

[2] – ينظر: جواد ختام، التداولية أصولها واتجاهاتها، مرجع سابق، ص 152.

لأن الخليفة لا يكاد يفارق السلطان سَفرا ولا حضرا مفارقة توجب المكاتبة إليه»[1].

فإذا حلّلنا هذا القول حجاجيا فإننا نتوقف عند العامل يكاد الذي دخل على" يفارق السلطان سفرا"، فلو قلنا مثلا" يكاد يفارق السلطان سفرا" فإنَّ فَهْمَ هذا القول لم يحصل والملفوظ يقتضي ذلك، لكن بدخول النفي عليه تغيرت الوجهة الحجاجية، وعند حذف العامل يصبح المثال بالشكل التالي:" لا يفارق السلطان سفرا" وهنا تحقق النفي مطلقا، وعند دخول العامل يكاد عليه، فإن الوجهة الحجاجيةلـ" لا يفارق السلطان سفرا" هي نفسها" لا يكاد يفارق السلطان سفرا".

**2- العامل( إنّما):**

إنّما أداة مكونة من" إنَّ" و"ما" الكافة الزائدة، فتصبح كافة ومكفوفة أي أنها غيرت وظيفتها وأصبح تمتلك معنى جديدا فتغيرت من التوكيد العادي إلى توكيد القصر والحصر، فمجيئها على هذه الصورة يأتي مصححا لظن أو شك أو معتقد يسير في وجهة معاكسة للمفهوم، واستعمال الاستثناء بـ"إنما" لا يقال لمن يجهل ذلك، ويدفع صحته، ولكن لمن يعلمه ويقر به إلا أنه يريد منك أن تنبهه[2]، ومن هنا يمكننا القول أنّ دلالة( إنما) هي القصر ولكن دلالة وضعية، وهذا ما أشار إليه البلاغيون العرب حين رأوا أنها تدل على القصر، وذلك لأنها تتضمن معنى( ما...إلا)، وهذا الطرح ليس دائما لأن هناك آيات في القرآن الكريم لا تقبل مثل هذا الكلام على غرار قوله تعالى:﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾آل عمران: ٦٢، وكقولك:" ما أحد إلا وهو يقول ذاك" إذ لو قلت:" إنما أحد وهو يقول ذاك" فهذا لا يكون له معنى[3].

ومثالها في المدونة يتجلى في تلك الخطبة التي احتج بها القلقشندي ليعضد من خلالها طرحه، قول الحجاج في أهل الشام:« أنتم البطانة والعشيرة! والله لريحكم أطيب من ريح المسك الأذفر، وإنما أنتم كما قال الله تعالى:﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾»[4]، وقال في أهل العراق:« والله لريحكم أنْتنُ من ريح الأبخر، وإنما أنتم كما قال الله﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾»[5].

---

[1]- صبح الأعشى، ج126/7.

[2]- ينظر: محمد أمعيط،" الروابط والعوامل الحجاجية في المناظرة السياسية"، مرجع سابق، ص68.67.

[3]- ينظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز، مرجع سابق، ص329.

[4]- صبح الأعشى، ج220/1.

[5]- نفسه.

من خلال الملفوظ الأول نلمس توجها حجاجيا في" إنما أنتم كما قال الله تعالى" ضرب الله مثلا كلمة طيبة"، وذلك بتوجيه الملفوظ نحو وجهة محددة ومحصورة تتمثل في" الاقتداء بصنيعهم من قول وفعل" دون أي غرض آخر، وذلك حين وصف أهل الشام بالكلام الطيب الصادر عن عمل طيب، وهذا ما يقوي الحجّة المطروحة لذلك استعمل الحجاج أداة الحصر(إنّما) من أجل إيصال فكرته. وكما سبق وأشرنا أنه يمكن تأويلها بـ( ما... إلّا)، فيصبح القول:" وما أنتم إلا كما قال الله تعالى..."، حيث قصر الكلام الطيب الدّال على الفعل الطيب على أهل الشام، واستثنى غيرهم، وفي ذلك إشارة لأهل العراق.

أمّا في الشق الثاني من الملفوظ:" وإنما أنتم كما قال الله" ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة"، فإنّه يمكن توجيه هذا الخطاب صوب وجهة معينة محصورة نتيجتها:" عدم الاقتداء بأقوالهم ولا بأفعالهم"، وذلك بسبب ما يتميزون به من خبث وعصيان، وهذا ما يريد المتكلم نقله إليهم.

ومن هذا يمكننا القول بأن استعمال هذه المفارقة الحجاجية كان هدفه عقد مقارنة بين أهل الشام وأهل العراق، وفي الطرفين تم استعمال الرابط الحجاجي( إنما)، الذي قصر الموالاة والطاعة على أهل الشام للاقتداء بهم وبأفعالهم، بينما اقتصر الخبث والمعصية وعدم الموالاة على أهل العراق لعدم الاقتداء بهم وبأفعالهم ولا حتى أقوالهم. والغرض الحجاجي من كل هذا هو الإقناع والتأثير في المتلقي، حيث أراد المتكلم من خلال خطابه هذا استزادة محبة أهل الشام حتى يقتدي بهم أهل العـراق ويحــذوا حذوهم ويتركوا ما كانوا عليه.

ومن هنا تكمن القيمة الحجاجية لأسلوب القصر التي أبان عليها الرابط الحجاجي( إنما) في هذا المثال، إضافة إلى الاستدلال من كتاب الله عز وجل وهو ما أكسب الكلام جدية وحسن تمثيل وتصوير تشبيهي بليغ، وهذا الأخير هو أكثر التشبيهات إقناعا عند المتلقي فما يستجليه بنفسه من مكامن لوجه الشبه تجعله يقتنع بما يلقي إليه من دعاوى وأطروحات.

**3- عاملية النّفي:**

إذا كان النّفي في عرف المناطقة هو« العامل الذي يحول القضية الصحيحة إلى قضية خاطئة والخاطئة إلى صحيحة وهو عامل أحادي»[1]، فإنه في الدرس اللغوي الحديث يعد أحد أهم العوامل حجاجية، تجعل المتلقي يذعن ويسلم عبر توجيه الملفوظ إلى نتيجة معينة. ومن بين هذه العوامل نذكر:( لا، لن، ما، لم...).

**3-1- العامل( لا... إلّا):**

ومثاله ما جاء على لسان القلقشندي أنه صلى الله عليه وسلم كان:« يأتي من القصص والأخبار الماضية من غير مدارسة ولا نظر في كتاب بما لا يعلمه إلا نبي»[2].

وردت" لا" هنا نافية، و" إلّا" للقصر. وعلى هذا الأساس يمكننا أن نعتبرها عاملا حجاجيا، فالحجة" لا يعلمه إلا نبي" في هذا الموضع تسير في الاتجاه نفسه للحجة" العلم للنبي صلى الله عليه وسلم" والحجة تخدم نتيجة ضمنية من قبيل" المعرفة بالقصص وأخبار الماضين يعرفها كلها النبي عليه الصلاة والسلام"، فالعامل" لا...إلا" لديه قوة حجاجية عن طريق النفي والقصر أعطت طاقة حجاجية إضافية للحجة المعطاة.

**ثالثًا: السلّم الحجاجي في صبح الأعشى**

بما أنّ" ديكرو Ducrot وأنسكومبر Anscombre" قد اعتبرا الحجاج توجيها بمؤيدات ومثبتات ذات طبيعة لسانية، وكان ذلك عبر نظرية السلالم الحجاجية، التي خصها ديكرو بمصنف كامل عنوانه السلالم الحجاجية Les échelles argumentatives، حيث رسم من خلاله معالم النظرية السلمية والتراتبية في اللغة[3]، وهذا ما يدل على برهنة مقولة التوجيه الحجاجي وهيكله الملفوظ الحجاجي وذلك عن طريق مراحل يخضع لها الملفوظ، وذلك بتقوية" العامل" لمداه وطاقته الحجاجية.

تُكون الصلات العلائقية المتبادلة بين الألفاظ في مجملها سلما قائما على علاقة تراتبية بين الألفاظ، يقتضي فيها وجود الضعيف القوي والأعلى الأسفل وهكذا دواليك، إلا أنَّ ما ينبغي أخذه بعين الاعتبار هو أن هذه السلمية قائمة في اللغة بجميع مستوياتها؛ أي الجهاز والإنجاز، اللغة والخطاب[4]. ومن أمثلته في مدونة" صبح الأعشى" كثير نذكر بعضا منها باختصار. كهذا الخطاب:«... لا أكرمهم إذ أهانهم الله، ولا أعزهم إذ أذلهم الله، ولا أدنيهم إذ أقصاهم الله»[5].

يتوفر هذا الخطاب سلم حجاجي يمثل له بالشكل التالي:

---

[1]- عز الدين الناجح، العوامل الحجاجية في اللغة العربية، مكتبة علاء الدين للنشر والتوزيع، صفاقس، تونس، 2011، ص48.

[2]- صبح الأعشى، ج42/1.

[3]- ينظر: عز الدين الناجح، العوامل الحجاجية في اللغة العربية، مرجع سابق، ص121- 122.

[4]- م. ن، ص122- 123.

[5]- صبح الأعشى، ج386/13.

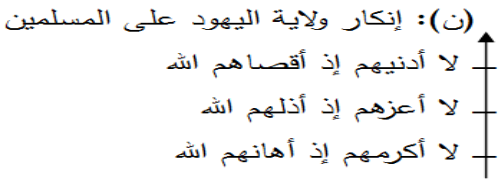


**سلم حجاجي يوضح: ترتيب الحجج**

فهنا إنكارٌ لولاية اليهود على المسلمين حتى في مجال الكتابة لا ينبغي للمسلم أن يتخذ من اليهودي كاتبا له، فقد استعملت من أجل ذلك مجموعة من الحجج مقرونة بنتائجها مرتبة ترتيبا عموديا، فقد بدأ بالحجة الأضعف" لا أكرمهم إذ أهانهم الله" في المرتبة السفلى، فلما كانت الإهانة لهم ربانية وجب على العبد أن يمتثل لأمر ربه بعدم إكرامهم، في حين جاءت الحجة الثانية" لا أعزهم إذ أذلهم الله " داعية إلى عدم كسب عز اليهود حتى وإن أظهروا لك الولاء لأنهم أهل نفاق وخداع ومكر وخيانة لذا أذلهم الله سبحانه وتعالى لافترائهم واجترائهم على كتابه العزيز في مواضع عدة، أما في الحجة الثالثة" لا أدنيهم إذ أقصاهم الله" فهي الأقوى على السلم وذلك بعدم تقريبهم لأنهم لا يصلحون أن يكونوا على الأعمال أمنة، ولا للأموال خزنة، لقوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ﴾ الممتحنة: ١٣ ، ولقوله عليه الصلاة والسلام:« اليهود والنصارى خونة»[1].

ومما أورده القلقشندي أنّ النبي صلى الله عليه وسلم وجه معاذ بن جبل إلى اليمن فقال له:« إنّك سترد على قوم معظمهم أهلُ كتابٍ فاعرض عليهم الإسلام، فإن امتنعوا فاعرض عليهم الجزية وخذْ من كل حالم دينارا، فإن امتنعوا فاقتلهم»[2].

يتمظهر السلم الحجاجي من خلال هذا المثال وفق الشكل التالي:

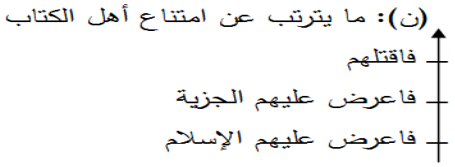


**سلم حجاجي يوضح: ترتيب الحجج حسب قوتها**

[1]– صبح الأعشى، ج386/13.

[2]– م. ن، ج357/13.

لقد جاءت هذه الحجج مرتبة من الحلقة الأضعف إلى الحلقة الأقوى خدمة لنتيجة من قبيل" مخلفات امتناع أهل الكتاب لأوامر النبي صلى الله عليه وسلم"، فالحجة الأولى هي الأضعف من ناحية القوة الدلالية لأن أهل الكتاب معروف عليهم العناد والجدال خصوصا إذا تعلق الأمر بالإسلام، فامتناعهم عنه أوجب على النبي عليه الصلاة والسلام أن يقوي كلامه بحجة ثانية يدعم بها الحجة الأولى لعلها ترغم عدوّ الدين في قوله:" فاعرض عليهم الجزية"، أما من امتنع كذلك عن الانصياع لهذه الحجة، فإن النبي عليه الصلاة والسلام قد استباح هدر دمه كَحجة أخيرة، وبهذا تكون أقوى الحجج بالنسبة لأوامره التي سينفذها عنه معاذ بن جبل.

**- خاتمة الفصل:**

- رمى القلقشندي إلى مجموعة من المقاصد تبعا للسّياقات التي وردت فيها الخطابات، فقد كانت القصدية موائمة لمختلف الألفاظ والتراكيب التي تشكل منها خطاب القلقشندي، وذلك حرصا منه على توصيل ما يريد من مقاصد وغايات للمتلقي بأيسر صورة وأبسط لغة، وأسلس معنى، كونه في الكثير من المواضع من المدونة كان غرضه النصح والإرشاد والتوجيه والتعليم، بغية التأثير في مُخاطبِه والعمل على إقناعه.

- لقد استعمل القلقشندي في هذا السجال الذيسقناه بين علمي" النحو والصرف" آليات إقناعية كثيرة هدفها إذعان الخصم وإفحامه، وهذا هو صلب الحجاج الذي يعد ممارسة اجتماعية ونشاطا لغويا معرفيا يرتبط ارتباطا وثيقا بالجانب التواصلي للخطاب.

- لعبت الآليات البلاغية واللغوية في صبح الأعشى دورها الحجاجي الفعّال الذي من أجلها سيقت، فهي تعمل على لفت انتباه المتلقي وتحريك خياله، فالصور لا تتوقف عند الكشف عن الحدود الخارجية، وإنما تعمل على تحويل الخطاب إلى بناء حجاجي يتخطى المعنى الأول إلى المعنى الثاني المقصود؛ اعتمادا على ما تكتسبه العملية الحجاجية من مقومات (متكلّم، سامع، مقتضيات تداولية).

- ارتبطت الاستعارة الحجاجية في" صبح الأعشى" بمقاصد القلقشندي، وبالسياق التخاطبي والتواصلي الذي وردت فيه. فهي من أهم الآليات البلاغية التي سيطرت على المدونة إلى جانب الكناية، فقد استخدامهما لتوجيها الخطاب نحو أهدافه الحجاجية.

- بما أنّ الحجاج أحد أهم المفاهيم الإجرائية التّداولية، فإنّ له القدرة على دفع المتلقّي إلى الإذعان والتّسليم، لِما يمتلكه من تقنيات حجاجية كطرائق الفصل والوصل أو ما يُعرف بـ" الطرائق الاتصالية

والانفصالية"– حسب ما جاء في مصنف" بيرلمان وتيتكاه"– فقد كان لها دورها في تعزيز حجاجية الخطاب عند القلقشندي.

– لجأ القلقشندي إلى الاستدلال الحجاجي القائم على الاستشهاد بالقرآن الكريم أو الحديث الشريف أو الشّعر العربي أو أقوال الحكماء والبلغاء أو غيره، كان تكريسا ودعما لمنطلقاته ومقاصده التي يرمي إليها. فهو بهذا يؤسس لها في شكل قواعد حياتية ثابتة عن طريق عضد أفكاره بها.

– لقد كانت طرق الفصل شبه غائبة في مدونة" صبح الأعشى" كون القلقشندي لم يعمد إلى الفصل، بل كان غرضه الترابط بين الخطابات وتواصلها، لذا كان القلقشندي تداوليا إذْ تكشّفت المدونة عن أبعاد تداولية كما أقرها علماؤها الغرب.

– حملت مدونة" صبح الأعشى" أبعادا حجاجية أخرى أراد من خلالها القلقشندي أن يؤثر في مخاطَبيه عن طريق الآليات الحجاجية بين ما هو لغوي مثل: الروابط الحجاجية، والعوامل الحجاجية، وبين ما هو بلاغي كالاستعارة الحجاجية والتشبيه والمجاز المرسل والكناية... إذْ كان لهذه الآليات تأثير ووقع في عقل المخاطَب.

– لعبت السلالم الحجاجية دورا أساسيا في إخراج قيم الأقوال من طابعها الخبري إلى طابعها الحجاجي لأنه لا يمكن الحكم على القيمة الحجاجية بمعيار الصدق والكذب، لأنها غير خاضعة لشروط.

– كان للسياق فضل كبير في تحويله الملفوظ إلى حجة، بل إنّه يساهم في معرفة الملفوظ أإذا كان حجة أم نتيجة، سواء كانتا ظاهرتين أم مضمرتين. وهو الحال نفسه مع الرابط الحجاجي.

– ترجع القيمة الأدبية لمدونة" صبح الأعشى" في أنها ذات أبعاد ومرجعيات اجتماعية وثقافية ودينية؛ فهي تمتح من مصادر شتّى بالإضافة إلى بنية لغتها ذات الترانيم الموسيقية التي تحقق إيقاعا وانسجاما لدى متلقيها من خلال الصنعة اللفظية– سجع، جناس، طباق.. – التي طغت على العصر.

– مدونة" صبح الأعشى" طافحة ببنية السجع وذلك نظرا لمجريات العصر الذي غلبت عليه الصنعة اللفظية، فمن لم يسجع فقد فاته التأليف. إضافة إلى ما تتمتع به من قوة حجاجية وجرس موسيقي تجعل المتلقي يذعن لما يلقى عليه من أطروحات؛ تصل به حد الامتاع والتّأثير.

# خاتمـــة

**خاتمة:**

عُنيت هذه الدّراسة الوصفية بتتبّع إشكالية نقدية تمحورت حول توافر نصوص وخطابات القلقشندي على ملامح تداولية وذلك في كتابه الموسوم بـ" صبح الأعشى في كتابة الإنشا".

وكما جاء في مدخل هذه الدّراسة، فإنّ مدونة" صبح الأعشى" نص تراثي سجّل مختلف التحولات الفكرية والاجتماعية والسياسية التي طرأت على المجتمع المصري إبّان عصر الضعف، غير أنّه جعل فكرة الإنشاء نواة كتابه وأساس دراسته.

ومن المهمّ أن نشير إلى أنّ هذه المدونة لم تحظ من طرف الباحثين والنقّاد بالدّراسة الموسّعة؛ وذلك راجع إلى طبيعة الكتاب وكثرة أجزائه. فمنهم من يرى أنّه يتلخص في نقطة واحدة، وهي وليدة انطباع حرّ وشكليّ يضع القارئ في خانة ضيقة. وهذه النقطة تتمثل في الحكم على كتاب" صبح الأعشى" أنّه تعليميٌّ محض. والناظر فيه بعينٍ متفحصةٍ يجد أنّه كتاب معانٍ وبلاغة ودين وتفسير، وأنّه لا يخلو من الفن والمتعة، وأنّه يحقق غايات جمالية ونفعية وخلقية من شأنها أنْ توجه سلوك الإنسان والمجتمع.

وبعد سرد أطوار فصول هذه الدّراسة التّي اهتمت باللّغة والكلام وتداولهما بين أطراف التّخاطب، واهتمت بقصود المؤلّف وأثارت العديد من المفاهيم اللّسانية والأبعاد التّداولية، يمكننا تلخيص محتوى هذه الدراسة في النقاط التالية:

– "صبح الأعشى" مدوّنة تتّسم بالموسوعية وإليها يرجع الفضل في احتوائها لمجموعة من العلوم والفنون، تتسم بفصاحة اللفظ وبلاغة المعنى، وغلبت الصنعة اللفظية، تقول عصرها بصورة صادقة. فعصر الضعف هو عصرُ اختزال العلوم والفنون عبر منظومات كلامية تسمى" المتون". وهو عصر الموسوعات بامتياز.

– تقوم الموسوعات والمتون الكلامية في عصر الضّعف على حسن التّبويب والتّرتيب وفي عرض المادة، فهي لا تخرج عن طرق النّظم السّائد في العصر، كلجوئهم للسّجعات القصار التّي توحي ببراعة صاحبها، فكلما كانت السجعات متقاربة زادت المعنى حسنا وبلاغة، وهو ما نلمسه في الكثير من المواضع من مدونة صبح الأعشى إنْ لم نقل جلّها. يقول القلقشندي:" كانت الكتابة من أشرف الصنائع وأرفعها، وأربح البضائع وأنفعها...".

– السّجع بنية حجاجية بامتياز نظرا لما تتمتع به من قِصر العبارة وما تمتاز به من إيقاع وموسيقى تسترعي الانتباه وتحقيق التواصل.

– توافرت في مدونة" صبح الأعشى" للقلقشندي ملامح تداولية من قبيل: الحجاج وبعض آلياته، وكذلك تعاقب بعض مقولات نظرية أفعال الكلام كدور المتكلم وطريقة تلقي الخطاب وكيفية الرد والإقناع، وهذا ما سمح بالتقاء النّص التّراثي مع المقولة النّقدية المعاصرة الوافدة من عند الغرب بكل تنظيراتها وشروطها.

– تعنى نظرية أفعال الكلام بكل أطراف الخطاب المشاركين في عملية التواصل والتخاطب والتفاعل فيما بينها، والقلقشندي واحد من الذين أولوا أهمية قصوى لفعل الكلام عبر مُؤلَّفه" صبح الأعشى"، إذ تقوم رؤيته على إشراك قارئه عبر" ذوات النص" في استلهام المقولات الأدبية والسياسية من خلال عمليات التفسير والتبرير التي كان يقوم بها القلقشندي في كل باب أو فصل يشرع في الحديث فيه بغية الإقناع والتبليغ. يقول القلقشندي:" وقد ثبت في العقول أن البناء لا يقوم على غير أساس. والفرع لا ينبت إلا على أصل، والثمر لا يُجتنى من غير غراس..". فهذه العبارة تندرج ضمن الأفعال الدالة على الحكم( Verdictifs)، ولا يجد المتلقي إزاءها إلا أن يسلِّم بصحتها لأنها متولدة عن المنطق وعن التجربة والمشاهدة.

– مثّل الجانب البياني في مدونة" صبح الأعشى" بشقيه الحقيقي والمجازي مواقف كلامية ومنجزات فعلية عكست المواقف الفكرية والحالات الوجدانية للمتلقي، مثل قوله:"ومن لبس ثوب العفاف والتقى فكان خير ثوب لبسه". فهذه الصورة لا تستدعي وجود طرفين لعقد المشابهة بل ترمي إلى أنّ العفاف إنْ أُنزل منزلة الثوب الساتر فهو خير لباس يرتديه الإنسان. فاستعار قيمة معنوية قابعة في الطبع والنفس والذهن. وأقامها مقام الزيِّ فمن كانت فيه خصلة من خصال العفة فقد تزيّن بخير ثوبٍ. وهذا هو المعنى الذي رمى إليه التكلم وقصده وعضده بالشاهد المعنوي والحسِّي معا.

– مدونة" صبح الأعشى" اعتمدت" الرّمز" في تغيير الواقع وهي بهذه الصفة الرمزية تُجلي عن جوانب من المحاذير التي استدعتها حقبة القلقشندي وواقع العالم الإسلامي السياسي الذي كان مليئا بالدسائس والمكائد. وبهذه الخصيصة الإيحائية استطاعت خطابات" صبح الأعشى" أن تكون بمثابة أفعال كلامية إنجازية وتأثيرية وهي فضاء رحبٌ احتوى مجموعة من المستويات اللغوية ذات الفاعلية التأثيرية التي من شأنها التوجيه والكشف والبوح.

– الاتكاء على سياقات دينية وأخرى تاريخية وثقافية عززّ البنية الكلامية لدى القلقشندي وجعلها ذات إقناع قويّ وحضور كثيف.

– يعتبر التّلميح ومتضمّنات القول من مقولات الدّرس التّداولي وهي حاضرة في خطب القلقشندي إذ هي ترفع من درجة الحجّة في السّلم الحجاجي نظرا لقوتها التّأثيرية والتّوجيهية، كالتّوجيه إلى فضل الكتابة وشرفها، فاستعمل من أجل ذلك كل الاستراتيجيات الخطابية فكانت التلميحية أكثرها حضورا.

– كلّ قاعدة خطابية يتفرع عنها معنى صريح وآخر ضمني، فالصريح يحمل قيمة لفظية، وأما المعنى الضمني فيستدعي استلزاما حواريا وهذا ما نلمسه في بعض خطابات مدونة" صبح الأعشى".

– حقّقت مدوّنة" صبح الأعشى" تأثيرها لدى القرّاء بإستراتيجية الحجاج وآلياته الفاعلة في إيصال محتوى الرسائل، بحيث اتخذ القلقشندي آلية التفسير كأداة داعمة لآرائه ولذلك كثيرا ما يُطنبُ ويُسهبُ عن إيراده الشواهد على تثبيت قضية ما فيسوق قول الشاعر والحكيم والفقيه والفيلسوف حتى يُجلي المسألة كما أرادها.

– توافر التّناص بين السّردي والتّداولي ميزة حاضرة في المدونة، فقد لجأ القلقشندي إلى ظاهرة الاستشهاد بالقرآن والحديث والشعر العربي والخرافة وغيرها، ليعضد به طرحه ويؤكد على صحة ما يقول، وحتى يجد القبول في نفس قارئه، وليحدث لديه الإمتاع والتأثير.

– حقّقت الروابط والعوامل الحجاجية دورها الفاعل في إحداث الاتساق والانسجام بين ثنايا الفقرات والنصوص، إضافة إلى توجيه الملفوظ وجهة حجاجية معينة.

– ركّزت الدراسة على مقاصد القلقشندي عبر خطاباته والتي لم تكن مباشرة في أغلبها لأنّ تجلّي أصوات المتن كان أكثر بروزا من صوت المؤلف نفسه، وهذا ما عبرنا عنه بـ:" الصدى".

– تجّلت عناصر العملية التخاطبية في المدونة، وذلك من خلال قدرة القلقشندي على خلق إستراتيجية حوار وفعل اتصال بين جميع أطرافها.

– حقّقت مدوّنة" صبح الأعشى" الإمتاع والتأثير في المتلقي وذلك نظرا لبراعة القلقشندي في سرد الوقائع ووصف الأحداث، واستنطاق الآخر، وهذا ليس من باب تغليب الذوات العميقة داخل نصه، بل جعل لها الأوّلية والأولوية ومنحها صفة المرجعية، من أجل غايته الرئيسية: وهي تبيين شرف الكتابة الإنشائية، فأراد القلقشندي أنْ يبلغ عن طريق لغته مقاصده إلى مخاطبه، بل كان حريصا على وضوحها لتحقيق غاية التأثير والإقناع.

– الإشاريات علامات لغوية لا يتّضح مرجعها إلّا من خلال سياق الخطاب المخصّص لها، فقد وردت في" صبح الأعشى" بأنواعها الخمس: الشّخصية، الزّمانية، المكانية، الاجتماعية، والخطابية، حيث وظّف القلقشندي الإشاريات الشّخصية بنوعيها: ضمائر الغائب، وضمائر الحضور التي وردت منفصلة [ أنا،

نحن]، ومتّصلة[ تاء، ياء المتكلم، نون الجماعة] والتي أشارت مرّات عدّة إلى ذات القلقشندي، وأحيانا استعملها ليتكلّم بلسان الغيرية.

أمّا ضمائر الغائب فقد استعملها القلقشندي مفردة وجمعا منفصلة ومتصلة، وكانت في أغلبها إشارة إلى من يريد أنْ يتجنّبهم مثل الدّخلاء على الكتابة الإنشائية على وجه الخصوص.

بينما تمثّلت ضمائر المخاطب المذكّر المنفصل[ أنت، أنتم...]، والمتّصل[ تُم، كُم، كاف الخطاب]، وهي التي استعملها القلقشندي بكثرة في المدونة، للإشارة إلى مخاطبه أو سامعه، إضافة إلى أسماء الإشارة وأدوات النداء.

– أمّا الإشاريات الزّمانية فقد نَوَّعَ القلقشندي منها على اختلافها، فكان أبرزها: في الزّمن الماضي، الزمن المتقدّم، القرون ...، أمّا الإشاريات المكانية فقد قُسّمت بين ما هو للمكان[ فوق، تحت، هناك] وبين ما هو الديار[ الديار المصرية، المملكة المصرية، المملكة اليوسفية، أرض، وطن، البلاد...]. بينما الإشاريات الاجتماعية فقد أسّست لتلك العلاقات الاجتماعية تقديرا للمقام المبجل مثل: آل النبي صلى الله عليه وسلّم، آل البيت، أئمة...، أمّا الإشاريات الخطابية كاستعماله لصيغ التّعريض" قيل، لكن، بل..." لتذكير المتلقّي بما سبق ذكره، أو لتنبيهه لشيء مهمّ.

وفي نهاية هذا البحث، ما يسعني إلّا التّقدم بالشّكر الجزيل للدّكتورة المشرفة" رشيدة بودالية" التي ينتمي إليها بحثي هذا. وفائق الشّكر والتّقدير والامتنان للسّادة الدّكاترة أعضاء لجنة المناقشة على تفضّلهم بقراءة البحث، والعمل على تصويب ما فيه من أخطاء وهفوات، ولكل من ساعد في إنجاز هذا البحث من قريب أو من بعيد.

# قائمة المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم:** بروايتي حفص عن عاصم، وورش عن نافع.

**أوّلًا- قائمة المصادر والمراجع بالعربية:**

**1- المصادر:**

- **أبو العباس أحمد القلقشندي:** صبح الأعشى في كتابة الإنشا، الأجزاء:
  * ج1: د ط، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1922.
  * ج2: د ط، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1913.
  * ج3، ج4: د ط، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1914.
  * ج5، ج6، ج7، ج8: د ط، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1915.
  * ج9، ج10: د ط، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1916.
  * ج11: د ط، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1917.
  * ج12، ج13: د ط، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1918.
  * ج14: د ط، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1919.

**2- المراجع العربية والمترجمة إليها:**

1- **إبراهيم عبد المنعم إبراهيم:** بلاغة الحجاج في الشعر العربي( شعر ابن الرومي أنموذجا)، دط، مكتبة الآداب، القاهرة، 2007.

2- **ابن حجر العسقلاني:** إنباء الغُمر بأنباء العُمر، تحقيق وتعليق: حسن حبشي، ج2، دط، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية( لجنة إحياء التراث الإسلامي)، جمهورية مصر العربية، 1392هـ/ 1972م.

3- **ابن خلكان:** وفيات الأعيان وأنباء ابناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، ج7، دط، دار صادر، بيروت، دس.

4- **ابن قيم الجوزية:** كتاب الفوائد( المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان)، تصحيح: بدر الدين النعساني، د.ط، مطبعة السادة، مصر، 1327هـ.

5- **أبو الفتح عثمان بن جني:** الخصائص، تح: محمد علي النجار، ج1، دط، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1952.

6- **أبو بكر العزاوي:** اللغة والحجاج، ط1، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، المغرب، 2006.

7- **أبو حامد الغزالي:** إحياء علوم الدين، تحقيق: الإمام حافظ العراقي، ج3، دط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، منشورات محمد علي بيضون، دس.

8- **أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف ابن حيان:** تفسير البحر المحيط، ج2، دط، بيروت، لبنان، 1982.

9- **أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ:** البيان والتبيين، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، ج1، د.ط، دار الجيل، بيروت، د.ت.

10- **أبو هلال العسكري:** كتاب الصناعتين، تح: علي محمد البجاوي/ محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، لبنان، 1952.

11- **أبو يعقوب يوسف ابن أبي بكر محمد بن علي السكاكي:** مفتاح العلوم، ضبط وتعليق: نعيم زرزور، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1983.

12- **إحسان عباس:** تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ط4، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1983.

13- **أحمد المتوكل:** اللسانيات الوظيفية( مدخل نظري)، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، 1987.

14- **أحمد يوسف:** القراءة النسقية( سلطة البنية ووهم المحايثة)، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، الجزائر، دس.

15- **أحمد يوسف:** سيميائية التواصل وفعالية الحوار: المفاهيم والآليات، ط1، مخبر السيميائيات وتحليل الخطاب، جامعة وهران، الجزائر، 2004.

16- **إدريس سرحان:** التأويل الدلالي، التداولي للملفوظات وأنواع الكفايات المطلوبة في المؤول، ضمن كتاب التداوليات علم استعمال للغة، تنسق وتقديم: حافظ إسماعيلي علوي، ط2، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2014.

17- **أدونيس:** زمن الشعر( الشعرية العربية)، ط3، دار العودة، بيروت، لبنان، 1973.

18- **أدونيس:** زمن الشعر، ط3، دار العودة، بيروت، لبنان، 1983.

19- **أريك غريلو:** فلسفة اللغة، تر: عفيف عثمان، ط1، دار ومكتبة البصائر، بيروت، لبنان، 2012.

20- **إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم الباباني البغدادي:** هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، ج1، دط، طبع وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية، استانبول، 1951.

21- **الخطيب القزويني:** الإيضاح في علوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع)، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2003، ص 20.

22- **الخطيب القزويني:** الإيضاح في علوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع)، شرح: عبد المنعم خفاجي، ج3، دط، دار الفكر، بيروت، لبنان، دس.

23- **السيد أحمد الهاشمي:** جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ط1، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2010.

24- **الطاهر بومزبر**: التواصل اللساني والشعرية- مقاربة تحليلية لنظرية رومان جاكبسون- ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2007.

25- **العياشي أدراوي**: الاستلزام الحواري في التداول اللساني، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، الجزائر، 2011.

26- **القاضي ابن الفضل عياض اليحصبي**: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ج1، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، دس.

27- **اليامين بن تومي**: مرجعيات القراءة والتأويل عند نصر حامد أبو زيد، دط، دار أمان، الرباط، 2012.

28- **أمبرتو إيكو**: التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، تر: سعيد بنكراد، ط2، المركز الثقافي العربي، 2004.

29- **أمبرتو إيكو**: القارئ في الحكاية، ترجمة: أنطوان أبو زيد، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب/ بيروت، لبنان، 1996.

30- **أنروبول، جاك موشلار**: التداولية اليوم علم جديد في التواصل، تر: سيف الدين دغفوس، محمد الشيباني، ط1، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 2003.

31- **أوستين**: كيف نتحدث: بعض الطرق المبسطة في كتابه: أوراق فلسفية، أوكسفورد، 1979.

32- **أوستين**: نظرية أفعال الكلام العامة( كيف ننجز الأشياء بالكلام)، ترجمة: عبد القادر قينيني، دط، مطابع إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1991.

33- **بول ريكور**: الوجود والزمان والسرد، ترجمة: سعيد الغانمي، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/ بيروت، لبنان، 1999.

34- **بول ريكور**: من النص إلى الفعل، ترجمة: محمد برادة/ حسان بورقبة، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، مصر، 2001.

35- **تمام حسان**: الأصول: دراسة إبستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب( النحو- فقه اللغة- البلاغة)، دط، عالم الكتب، القاهرة، 2000.

36- **تمام حسان**: اللغة العربية معناها ومبناها، ط3، عالم الكتب، القاهرة، 1998.

37- **جابر عصفور**: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ط3، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 1992.

38- **جابر عصفور**: مفهوم الشعر( دراسة في التراث النقدي)، ط5، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 1995.

39-**جميل حمداوي**: التداوليات وتحليل الخطاب، ط1، شبكة الألوكة، المغرب، 2015.

40- **جميل حمداوي:** شاييم بيرلمان رائد البلاغة الجديدة، ط1، دار الريف للطبع والنشر الالكتروني، الناظور- تطوان، المملكة المغربية، 2019.

41- **جواد ختام:** التداولية أصولها واتجاهاتها، ط1، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، 2016.

42- **جون سيرل:** العقل واللغة والمجتمع (الفلسفة في العالم الواقعي)، تر: سعيد الغانمي، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، الجزائر/ المركز الثقافي العربي، المغرب/ الدار العربية للعلوم، بيروت، لبنان، 2006.

43- **جيرار جينيت:** خطاب الحكاية، ترجمة: محمد معتصم وآخرون، ط2، المجلس الأعلى للثقافة، الهيئة العامة للمطابع الأميرية، 1997.

44-**حافظ إسماعيل علوي:** الحجاج مفهومه ومجالاته، ط1، دار ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013.

45- **حسام البهنساوي:** أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي الحديث، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، 1994.

46- **حصة عبد الله سعيد الباري:** التناص في الشعر العربي الحديث: البرغوثي نموذجا، ط1، دار كنوز المعرفة العلمية للتوزيع والنشر، عمان، 2009.

47-**حمادي صمود:** التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، دط، منشورات الجامعة التونسية، تونس، 1981.

48- **حمو الحاج ذهيبة:** لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، طبعة ثانية مزيدة ومنقحة، الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، تيزي وزو، الجزائر، 2012.

49- **حنا الفاخوري:** الجامع في تاريخ الأدب العربي: الأدب القديم، دط، دار الجيل، بيروت، لبنان، دس.

50- **خليفة بوجادي:** اللسانيات التداولية محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ط1، بيت الحكمة، الجزائر، 2009.

51- **خليفة بوجادي:** في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ط1، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.

52- **خليفة بوجادي:** في اللسانيات التداولية مقاربة بين التداولية والشعر- دراسة تطبيقية- ط2، بيت الحكمة، العلمة، الجزائر، 2012.

53- **خليفة بوجادي:** في اللسانيات التداولية" مقاربة بين التداولية والشعر دراسة تطبيقية"، ط1، بيت الحكمة، العلمة، الجزائر، 2009.

54- **رشيد لولو:** حجاجية المثل في القرآن الكريم، ط1، منشورات حمداوي الثقافية، مطبعة الخليج العربي، تطوان، المغرب، 2017.

55-**روديجر بوبنر:** الفلسفة الألمانية الحديثة، تر: فؤاد كامل، دط، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، دس.

56- **رولان بارت:** مبادئ علم الدلالة، ترجمة: محمد البكري، دط، دار الحوار، اللاذقية، سورية، 1990.

57- **زتسيسلاف وأورزنياك:** مدخل إلى علم لغة النص مشكلات بناء النص، تر: سعيد حسن بحيري، ط1، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، 2003.

58- **سامية الدريدي:** الحجاج في الشعر العربي القديم، من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، بنياته وأساليبه، ط1، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2001.

59- **شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي:** الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج1، دط، دار الجيل، بيروت، دس.

60- **صابر الحباشة:** التداولية والحجاج( مداخل ونصوص)، ط1، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، سورية، 2008.

61- **صفية مطهري:** الدلالة الإيمائية في الصيغة الإفرادية، دط، إتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2003.

62- **صلاح إسماعيل عبد الحق:** نظرية المعنى في فلسفة بول غرايس، دط، الدار المصرية السعودية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة،2005.

63- **صلاح الدين صالح حسنين:** الدلالة والنحو، ط1، مكتبة الآداب، دب، دس.

64- **طالب سيد هاشم الطبطبائي:** نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب، دط، مطبوعات جامعة الكويت، الكويت، 1994.

65- **ظيماء محمد عباس السامرائي:** المنهج التأريخي عند القلقشندي- دراسة تحليلية-، ط1، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، 2001.

66- **عبد الرحمن طه:** في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2000.

67- **عبد الرحمن طه:** اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 1998.

68- **عبد السلام المسدي:** الأسلوبية والأسلوب، ط2، الدار العربية للكتاب، طرابلس، تونس، 1982.

69- **عبد الفتاح كليطو**: الكتابة والتناسخ: مفهوم المؤلف في الثقافة العربية، ترجمة: عبد السلام بنعيد العالي، ط1، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان/ الدار البيضاء، المغرب، 1985.

70- **عبد القاهر الجرجاني**: دلائل الإعجاز في علم المعاني، مراجعة وتصحيح الإمام الشيخ: محمد عبده، دط، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1981.

71- **عبد الكريم شرفي**: من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة- دراسة تحليلية نقدية في النظريات الغربية الحديثة- ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر، دس.

72- **عبد اللطيف عادل**: بلاغة الإقناع في المناظرة، ط1، منشورات ضفاف، بيروت، لبنان، 2013.

73- **عبد الله الغذامي**: الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية: قراءة نقدية لنموذج معاصر، ط4، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998.

74- **عبد الله صولة**: الحجاج أطره وتقنياته من خلال" مصنف في الحجاج- الخطابة الجديدة" لبيرلمان وتيتيكا، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، كلية الآداب، منوبة، تونس، دس.

75- **عبد الله صولة**: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ط1، دار الفارابي، بيروت، لبنان، 2001.

76- **عبد المتعال الصعيدي**: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، ج1، ج3، ط 4، مكتبة الآدب، مصر، دس

77- **عبد الهادي بن ظافر الشهري**: استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، 2004.

78- **عز الدين الناجح**: العوامل الحجاجية في اللغة العربية، مكتبة علاء الدين للنشر والتوزيع، صفاقس، تونس، 2011.

79- **عماد الدين أبي الفداء إسماعيل ابن كثير الدمشقي**: تفسير القرآن العظيم، علق عليه وخرج أحاديثه: هاني الحاج، المجلد2، دط، القاهرة، مصر، 2008.

80- **عمر بلخير**: تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2003.

81- **فاضل مصطفى الساقي**: أقسام الكلام العربي، تقديم: تمام حسان، ط2، مكتبة الخانجي، الشركة الدولية للطباعة، القاهرةن مصر، 2008.

82- **فان دايك**: النص والسياق، تر: عبد القادر قنيني، دط، أفريقيا الشرق، المغرب، 2000

83- **فرانز روزنتال**: مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي، ترجمة: أنيس فريحة، دط، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1961.

84- **فرانسواز أرمينكو:** المقاربة التداولية، ترجمة: سعيد علوش، دط، مركز الإنماء القومي، الرباط، 1986.

85- **فيليب بلانشيه:** التداولية من أوستن الى غوفمان، تر: صابر الحباشة، ط1، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، 2007.

86- **كمال الزماني:** " حجاجية الصورة البلاغية في الخطابة السياسية لدى الإمام علي رضي الله عنه"، ضمن كتاب التحليل الحجاجي للخطاب، إشراف وتقديم: أحمد قادم، سعيد العوادي، ط1، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، 1437هـ/2016م.

87- **لودفيغ فيتغنشتاين:** تحقيقات فلسفية، تر: عبد الرزاق بنور، ط1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2007.

88- **محمد بن أحمد القرطبي:** الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ج20، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 2006.

89- **محمد بن عمر بن الحسين، فخر الدين الرازي:** المحصول في أصول الفقه، ج1، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1988.

90- **محمد بن عمر بن الحسين، فخر الدين الرازي:** نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، ط1، دار صادر، بيروت، لبنان، 2004.

91- **محمد سالم محمد الأمين الطلبة:** الحجاج في البلاغة العربية المعاصرة، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2008.

92- **محمد شوقي الزين:** تأويلات وتفكيكات: فصول في الفكر الغربي المعاصر، ط1، المركز الثقافي العربي، لبنان، 2002.

93- **محمد ولد سالم الأمين:** حجاجية التأويل في البلاغة المعاصرة، ط1، المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، طرابلس، الجماهيرية العظمى، 2004.

94- **محمود أحمد نحلة:** آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دط، دار لمعرفة الجامعية، جامعة الإسكندرية، 2002.

95- **محمود طرشونة:** مدخل إلى الأدب المقارن، ط3، عالم الكتب، تونس، 1997.

96- **محمود عكاشة:** النظرية البراغماتية اللسانية( التداولية)" دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ"، ط1، مكتبة الآداب، القاهرة، 2013.

97- **محمود فهمي زيدان:** في فلسفة اللغة، دط، دار النهضة العربية، بيروت، 1985.

98- **مخائيل باختين:** الخطاب الروائي، ترجمة: محمد برادة، ط1، دار الفكر للدراسات والتوزيع، القاهرة- باريس، 1987.

99- **مسعود صحراوي:** التداولية عند العلماء العرب، ط1، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 2005.

100- **منذر عياشي:** الكتابة الثانية وفاتحة المتعة، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب/ بيروت، لبنان، 1998.

101- **ميجان الرويلي، سعد البازعي:** دليل الناقد الأدبي، ط3، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب/ بيروت، لبنان، 2002.

102- **نبيل راغب:** موسوعة النظريات الأدبية، ط1، الشركة المصرية العالمية للنشر، مصر، 2003.

103- **نخبة من المؤلفين:** اللغة والخطاب الأدبي، ترجمة: سعيد الغانمي، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 1993.

104- **نخبة من المؤلفين:** مقدمة في اللغويات المعاصرة، ط3، دار وائل للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2006

105- **نظرية المنهج الشكلي:** نصوص الشكلانيين الروس، ترجمة: إبراهيم الخطيب، ط1، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، الرباط/ مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1982.

106- **نعمان بوقرة:** المدارس اللسانية المعاصرة، دط، مكتبة الآداب، القاهرة، 2003.

107- **ولاس مارتن:** نظريات السرد الحديثة، ترجمة: حياة جاسم محمد، دط، المجلس الأعلى للثقافة، الإسكندرية، مصر، 1998.

108- **يوسف تغزاوي:** نماذج تداولية، د ط، مكتبة ووراقة العمران، جامعة محمد الأول، الناظور، 2017/2016.

**3- المعاجم والقواميس:**

109- **عمر توفيق آغا- محمد بنيس:** المعجم في الإعراب، ط1، دار المعرفة، الدار البيضاء، المغرب، 2013.

110- **محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي:** معجم مختار الصحاح، قراءة وضبط وشرح: محمد نبيل طريفي، ط1، دار صادر، بيروت، لبنان، 2008.

**ثانيًا: قائمة المراجع الأجنبية:**

111- **Jean Dubois:** Dictionnaire de linguistique et des siences du langage, Larousse 2eme Edition,1999.

112- **Gerard Ggenette:** Seuil, édition seuil- France, 1987.

113- **H. P. Grice:**" Logique et conversation", in: L' information grammaticale, Traduit par: Frederick Berthet et Michel Bozen( Paris), n: 66, 1995.

114- **H. P. Grice:** Studies in the way of words, Harvard University Press, 1 st Ed, 1991.

115- **Dominique Mainguneau:** "Eléments de linguistique pour le texte littéraire", Bordas, Paris, 1986.

116- **Michel Meyer:** Logique, Langage et argumentation, édition: Hachette Université,Paris, 2éme édition, 1993.

117- **Chaim Perelman. et Olbrechts Tyteca:** la nouvelle rhétorique-traité de l'argumentation-T1, Paris, P.U.F, 1958.

118- **John Searle/ Daniel Vanderveken:** Foundations of illocutionaryLogic, Cambridge UniversityPress, 1985.

119- **John Searle/ Daniel Vanderveken:** Translation from the philosophical Works of Frege, by P. Geach and M.Black, Oxford, 1960.

120- **Gotlib Frege**: Ecrits logiques et philosophiques, Paris, Seuil, 1971.

**ثالثًا: المجلات والرسائل الجامعية**

**أ- الأطروحات:**

121- **أحمد واضح:** الخطاب التداولي في الموروث البلاغي العربي( من القرن الثالث الهجري إلى القرن السابع الهجري)، رسالة دكتوراه، جامعة السانيا وهران، الجزائر، 2012/2011.

122- **حسين بوبلوطة:** الحجاج في الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي، دراسة ماجستير، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 2010/2009.

123- **ريمة لعبادلية:** تداولية الخطاب الشعري- ديوان الإمام الشافعي نموذجا- رسالة ماجيستير، جامعة قالمة، الجزائر، 2014/2015.

124- **عبد العزيز بنعيش:** التواصل بين القصد والاستقصاد مقاربة تداولية لفاعليتي التدليل والتأويل، أطروحة دكتوراه، جامعة سيدي محمد بن عبد الله ظهر المهراز، فاس، المغرب،1424-1425هـ/2003-2004.

125- **كاهنة دحمون:** تداولية الخطاب السردي بين القديم والحديث، أطروحة دكتوراه، جامعة تيزي وزو، الجزائر، 2014.

126- **مسعود صحراوي:** الأفعال المتضمنة في القول بين الفكر المعاصر والتراث العربي، أطروحة دكتوراه، جامعة باتنة، الجزائر، 2003.

**ب- المقالات:**

127- مجلة المناظرة، المغرب، ع4، 1411هـ/1991.

128- مجلة اللغة والأدب، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات، جامعة الجزائر، العدد 17، جانفي 2006.

129- مجلة بدايات، جامعة الأغواط، الجزائر، مج1، ع2، 2019.

130- مجلة إحالات، المركز الجامعي مغنية، الجزائر، ع7، 2021.

131- مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مج: 28، ع:03، 2000.

132- مجلة العلوم الإنسانية، جامعة قسنطينة، الجزائر، ع51، 2007.

133- مجلة المفكر، جامعة الجزائر2، الجزائر، مج5، ع2، 2022.

134- مجلة آفاق علمية، جامعة تامنغست، مج13، ع1، الجزائر، 2021.

135- مجلة قراءات، مج:03، ع:01، جامعة بسكرة، الجزائر، 2011.

**خامسا: المواقع الإلكترونية:**

136. https://ar.wikipedia.org/wiki/مجاز_(بلاغة) بتاريخ: 2021/08/21. سا: 21:50

137. http://islamport.com/k/adb/5679/200.htm بتاريخ: 2021/08/21. سا: 23:33

138. https://almerja.com/reading.php?idm=87769 بتاريخ:2021/08/23. سا: 20:57

139. https://binbaz.org.sa/audios/2671/61 بتاريخ : 2022/03/22. سا: 17:33

# فهرس الموضوعات

## فهرس الموضوعات:

**مقدّمة:**..... **1**

**مدخل:**..... **6**

**الفصل الأوّل**

**إشكاليّة آلات الصّناعة الرّوحانية وأثرها على التّواصل اللّساني**

- **تمهيد:**..... 31

المبحث الأول: المعارف وأثرها على صناعة الإنشا..... 32

1- ترجمة القلقشندي..... 32

2- المكونات المعرفية والإرث الثقافي ..... 34

3- العصر وتأثيره في صناعة الإنشا..... 37

4- القلقشندي: المواقف الشخصية والأشكال التعبيرية.....39

المبحث الثاني: منهجية وبنية صبح الأعشى في كتابة الإنشا ..... 45

1- منهج وبنية الكتاب..... 45

2- طريقة عرض المادة ومحتويات الكتاب وروافده..... 48

3- ماهية صناعة الإنشا( الكتابة) لدى القلقشندي..... 50

4- تقنيات صناعة الإنشاء عند القلقشندي..... 54

المبحث الثالث: المداعبة اللغوية وآليات التواصل في" صبح الأعشى" ..... 58

أولا: المداعبة اللغوية في صناعة الإنشا ..... 58

1- الخصائص الفنية في صناعة الإنشا..... 58

2- اللغة من الوصفية إلى المقصدية..... 61

3- القلقشندي وتعدد الفهومات ..... 64

4- " صبح الأعشى": نسق تداولي بين منتجه ومتلقيه..... 67

ثانيا: آليات التخاطب والتواصل في" صبح الأعشى" ..... 71

1- إستراتيجية الحوار وفعل الاتصال..... 73

2- القصد في مدونة" صبح الأعشى"..... 77

3- الملاءمة المقامية..... 80

4- الإمتاع والتأثير في خطاب القلقشندي..... 82

## الفصل الثّاني
## الالتزام التّداولي وعقبات المعرفة والتّخاطب في" صبح الأعشى"


- **تمهيد**..... 89
المبحث الأول: البعد التداولي للفعل الكلامي في" صبح الأعشى"..... 91
أولا: أفعال الكلام في خطاب القلقشندي..... 91
1- التجليات والتمظهرات ..... 91
2- الأفعال الكلامية التقريرية في عينات من" صبح الأعشى"..... 93
3- الأفعال الإنجازية الإثباتية..... 95
4- الأفعال الكلامية الإنجازية والتأثيرية ..... 98
5- الأفعال الكلامية غير المباشرة..... 102
ثانيا: البعد البلاغي ومنجزات القول في خطاب القلقشندي..... 109
1- الاستراتيجيات التوجيهية في" صبح الأعشى"..... 111
2- منطقية الأفعال بين الوظيفة النفعية للغة والمواضعة الاجتماعية..... 116
المبحث الثاني: إستراتيجية التلميح واستلزام التخاطب في" صبح الأعشى"..... 126
أولا: الإستراتيجية التلميحية والاستلزام الحواري..... 126
1- الاستلزام الحواري في مدونة" صبح الأعشى"..... 126
2- من القوة الحرفية إلى القوة المستلزمة..... 131
3- مظاهر القوانين الغرايسية في" صبح الأعشى"..... 136
ثانيا: الاستلزام الحواري والصور البلاغية في" صبح الأعشى"..... 141
1- الكناية واستلزام التلميح..... 141
2- الاستعارة وتخطي حدود الحرفية..... 147
3- قوة التمثيل لمسوغات الاستحسان والتلميح..... 155
4- انزياحات المجاز وخروقاته ..... 158
المبحث الثالث: الإشاريات الخطابية وفاعلية التواصل في" صبح الأعشى"..... 163
أولا: الإشاريات وتداولية الخطاب..... 163
ثانيا: أنواع الإشاريات الخطابية في" صبح الأعشى" ..... 164

## الفصل الثّالث
## الاستدراج التّداولي والبعد اللّغوي في" صبح الأعشى"


- **تمهيد:**..... 189
المبحث الأول: الحجاج البلاغي في" صبح الأعشى" ..... 191
1- البعد الحجاجي للتشبيه في" صبح الأعشى"..... 192
2- القيم التداولية في استعارات" صبح الأعشى"..... 198
3- أثر الكناية في توجيه الخطاب في" صبح الأعشى"..... 201
المبحث الثاني: الحجاج اللغوي في" صبح الأعشى" ..... 204
1- الحجاج بالتقنيات الاتصالية والانفصالية..... 204
2- الحجاج بوصفه منجز كلامي ..... 209
3- فاعلية التناص في الحجاج في" صبح الأعشى"..... 213
4- بنية السجع وأثرها في توجيه خطابات" صبح الأعشى"..... 220
المبحث الثالث: الروابط والعوامل الحجاجية في" صبح الأعشى"..... 223
أولا: الروابط الحجاجية في" صبح الأعشى"..... 223
1- الروابط السببية ..... 223
2- روابط العطف ..... 225
3- روابط الاستنتاج..... 226
4- رابط التساوق الحجاجي( حتى)..... 227
ثانيا: العوامل الحجاجية في" صبح الأعشى"..... 228
1- العامل كاد ..... 228
2- العامل إنّما..... 229
3- عاملية النفي..... 230
ثالثا: السلم الحجاجي في" صبح الأعشى" ..... 231
**خاتمة البحث**..... **236**
**قائمة المصادر والمراجع**..... **241**
**فهرس الموضوعات** ..... **252**
**ملحق: صفحات من كتاب صبح الأعشى** ..... **1- 5**

# صفحات من كتاب صبح الأعشى

1- صفحة من أول المخطوط:

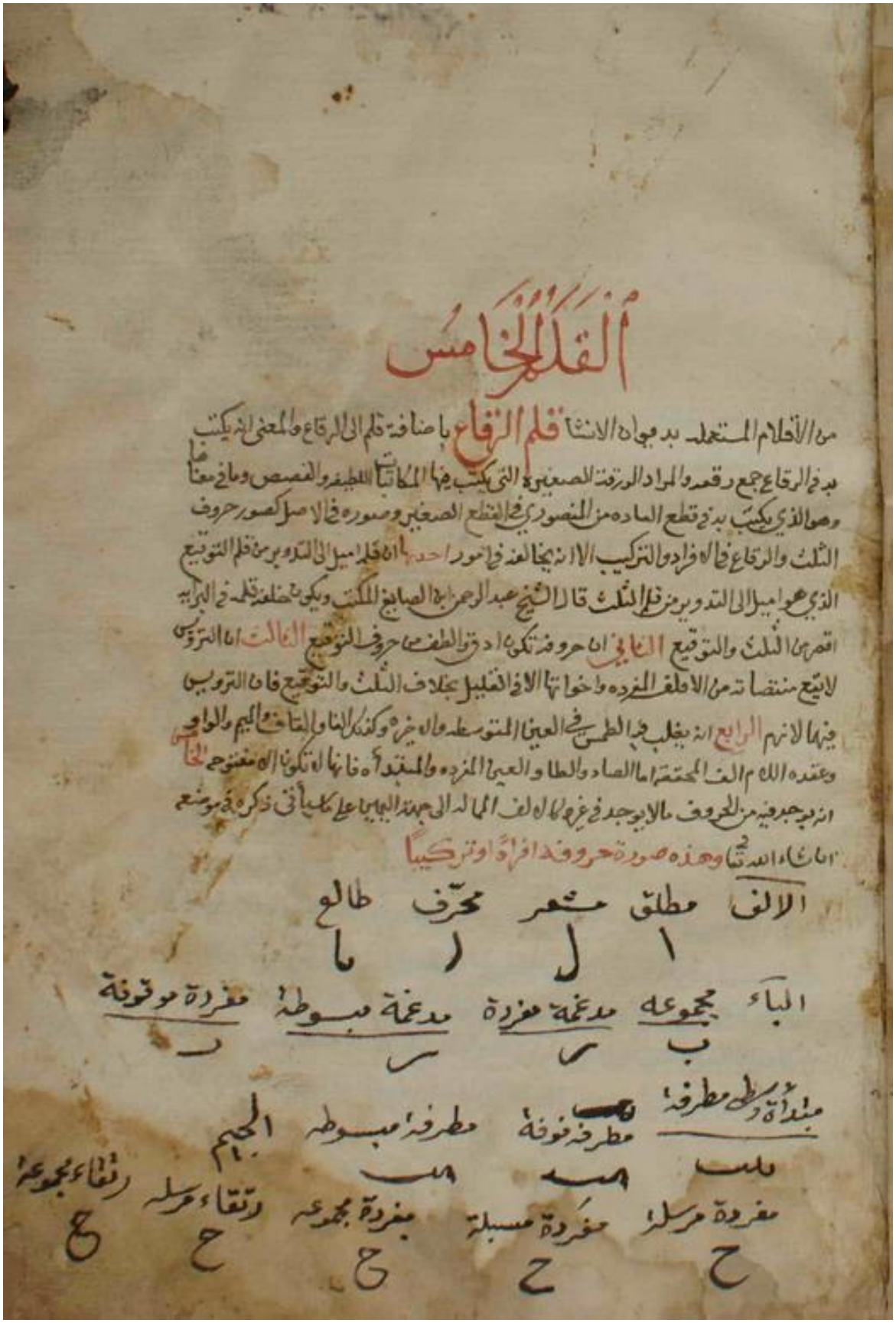



الْقَلَمُ الْخَامِسُ

من الأقلام المستعملة بديوان الانشا قلم الرقاع باضافة قلم الى الرقاع والمعنى انه يكتب
به في الرقاع جمع رقعة والمراد الورقة الصغيرة التي يكتب فيها المكاتبات اللطيفة والقصص وما في معناها
وهو الذي يكتب به في قطع العادة من المنصوري في القطع الصغير وصورته في الاصل كصورة حروف
الثلث والرقاع في الافراد والتركيب الا انه يخالفه في امور احدها ان قلم اميل الى التدوير من قلم التوقيع
الذي هو اميل الى التدوير من قلم الثلث قال الشيخ عبد الرحمن ابن الصايغ المكتب ويكون خلفة قلمه في التربيع
اقصر من الثلث والتوقيع الثاني ان حروفه تكون ادق والطف من حروف التوقيع الثالث ان الترويس
لا يقع منه شيء من الالف المفرده واخواتها الا في القليل بخلاف الثلث والتوقيع فان الترويس
فيهما لازم الرابع انه يغلب فيه الطمس في العين المتوسطة والاخيرة وكذلك الفاء والقاف والميم والواو
وعقدة اللام الف المحققة اما الصاد والطاء والعين المفرده والمبتدأة فانها لا تكون الا مفتوحة الخامس
انه يوجد فيه من الحروف ما لا يوجد في غيره كاللام الف المائلة الى جهة اليمين على ما سيأتي ذكره في موضعه
ان شاء الله تعالى وهذه صورة حروفه افرادا وتركيبا

الالف مطلق مشعر محرف طالع

الباء مجموعة مدغمة مفردة مدغمة مبسوطة مفردة موقوفة

مبتدأة وسطى مطرفة مطرفة مفتوحة مطرفة مبسوطة

الجيم مفردة مرسلة مفردة مسبلة مفردة مجموعة رتقاء مرسلة رتقاء مجموعة

2- صفحة من وسط المخطوط

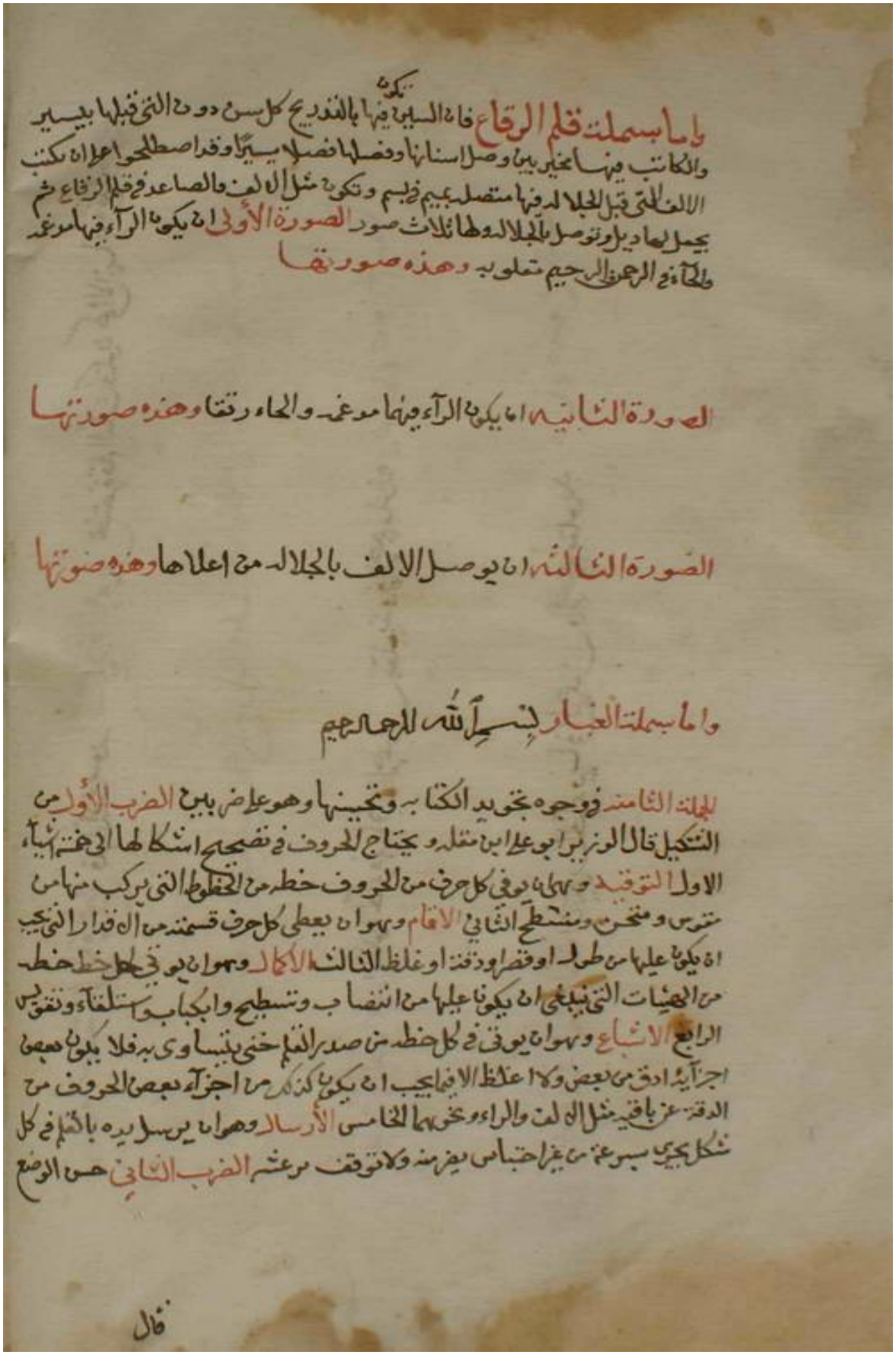



واما بسملة قلم الرقاع فان السين فيها تكون بالتدريج كل سن دون التي قبلها بيسير
والكاتب فيها مخير بين وصل اسنانها وفصلها انفصالا يسيرا وقد اصطلحوا على ان تكتب
الالف التي قبل الجلالة فيها متصلة بميم بسم وتكون مثل الالف والصاعد في قلم الرقاع ثم
يحمل لها ذيل او توصل بالجلالة ولها ثلاث صور الصورة الاولى ان يكون الراء فيها مع عمد
الحاء في الرحمن الرحيم تتعلق به وهذه صورتها

الصورة الثانية ان يكون الراء فيها مع عمد والحاء ريقا وهذه صورتها

الصورة الثالثة ان يوصل الالف بالجلالة من اعلاها وهذه صورتها

واما بسملة الغبار بسم الله الرحمن الرحيم

الجملة الثامنة في وجوه تجويد الكتابة وتحسينها وهو على ضربين الضرب الاول من
التكميل قال الوزير ابو علي ابن مقلة ويحتاج الحروف في تصحيحها اشكالها الى خمسة اشياء
الاول التوفية وهو ان يوفى كل حرف من الحروف حظه من الخطوط التي يركب منها من
مقوس ومنحن ومنسطح الثاني الاتمام وهو ان يعطى كل حرف قسمته من الاقدار التي يجب
ان يكون عليها من طول او قصر او دقة او غلظ الثالث الاكمال وهو ان يوفى كل خط حظه
من الهيئات التي ينبغي ان يكون عليها من انتصاب وتسطيح وانكباب واستلقاء وتقويس
الرابع الاشباع وهو ان يوفى كل خط حظه من صدر القلم حتى يتساوى به فلا يكون بعض
اجزايه ادق من بعض ولا اغلظ الا فيما يجب ان يكون كذلك من اجزاء بعض الحروف من
الدقة عن باقيه مثل الالف والراء ونحوهما الخامس الارسال وهو ان يرسل يده بالقلم في كل
شكل يجري بسرعة من غير احتباس يفسده ولا توقف يرعشه الضرب الثاني حسن الوضع

قال

3- صفحة من وسط الكتاب

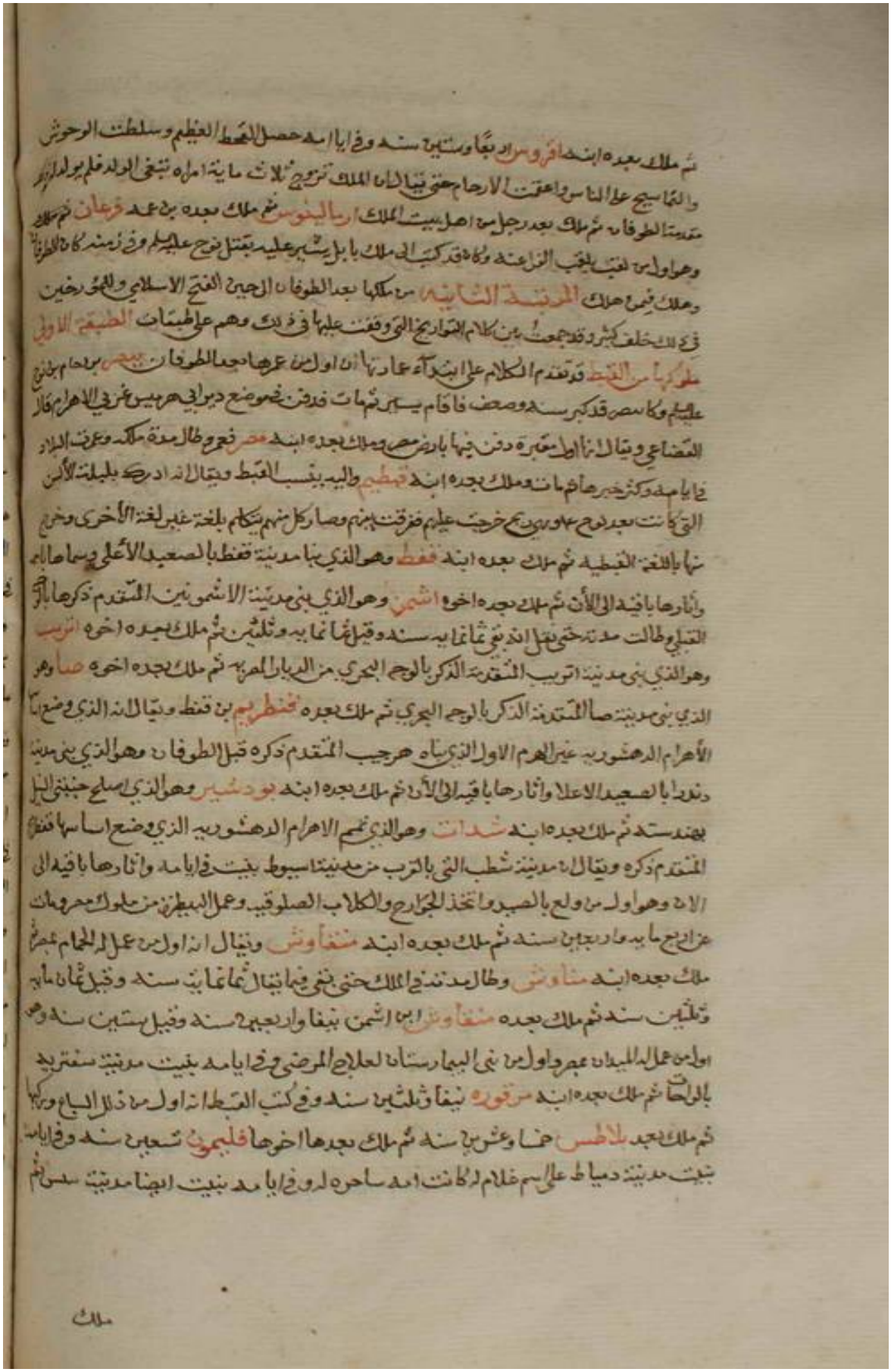



ثم ملك بعده ابنه افروس اربعا وستين سنة وفي ايامه حصل القحط العظيم وسلطت الوحوش
والتماسيح على الناس واعقمت الارحام حتى يقال ان الملك تزوج ثلاث مائة امراة تبتغي الولد فلم يولد له
ثم ملك بعده ابن عمه فرعان ثم ملك بعده رجل من اهل بيت الملك اربالبوس ثم ملك بعده رجل من اهل بيت الملك
مقدمة الطوفان ثم ملك بعده رجل من اهل بيت الملك وكان قد كتب الى ملك بابل يشير عليه بقتل نوح عليه السلام وفي زمنه كان الطوفان
وهو اول من لقب بلقب الفراعنة
وملك فيوم هلك المرتبة الثانية من ملكها بعد الطوفان الى حين الفتح الاسلامي والقبط وغيرهم
في ذلك خلف كثير وقد جمعت بين كلام التواريخ التي وقفت عليها في ذلك وهم على طبقات الطبقة الاولى
ملوكها من القبط قد تقدم الكلام على ابتداء عمارتها ان اول من عمرها بعد الطوفان بيصر بن حام بن نوح
عليه السلام وكان بيصر قد كبر سنه وضعف فاقام يسيرا ثم مات فدفن في موضع دير ابي هرميس غربي الاهرام فكان
القضاعي ويقال انها اول مقبرة دفن فيها بارض مصر وملك بعده ابنه مصر فعمر وطال مدة ملكه وعرف البلاد
في ايامه وكثر خيرها ثم مات وملك بعده ابنه قبطيم واليه ينسب القبط ويقال انه ادرك بلبلة الالسن
التي كانت بعد نوح عليه السلام حين خرجت عليهم ففرقت بينهم وصار كل منهم يتكلم بلغة غير لغة الاخرى وخرج
منها باللغة القبطية ثم ملك بعده ابنه قفط وهو الذي بنى مدينة قفط بالصعيد الاعلى وسماها باسمه
وآثارها باقية الى الآن ثم ملك بعده اخوه اشمن وهو الذي بنى مدينة الاشمونين المتقدم ذكرها بالوجه
القبلي وطالت مدته حتى يقال انه بقي ثمانمائة سنة وقيل ثمانمائة وثلاثين ثم ملك بعده اخوه اتريب
وهو الذي بنى مدينة اتريب المتقدمة الذكر بالوجه البحري من الديار المصرية ثم ملك بعده اخوه صا وهو
الذي بنى مدينة صا المتقدمة الذكر بالوجه البحري ثم ملك بعده تدراس بن قفط ويقال انه الذي وضع
الاهرام الدهشورية غير الهرم الاول الذي بناه هرجيب المتقدم ذكره قبل الطوفان وهو الذي بنى مدينة
دندرا بالصعيد الاعلى وآثارها باقية الى الآن ثم ملك بعده ابنه بودشير وهو الذي اصلح جبلي النيل
بهندسته ثم ملك بعده ابنه شدات وهو الذي تمم الاهرام الدهشورية التي وضع اساسها تدراس
المتقدم ذكره ويقال ان مدينة شطب التي بالقرب من مدينة اسيوط بنيت في ايامه وآثارها باقية الى
الآن وهو اول من ولع بالصيد واتخذ الجوارح والكلاب السلوقية وعمل البيطرة من ملوكهم وملك
نحو اربعمائة واربعين سنة ثم ملك بعده ابنه منقاوش ويقال انه اول من عمل له الحمام ثم
ملك بعده ابنه مناوش وطال مدته في الملك حتى يقال انه بقي ثمانمائة سنة وقيل ثمانمائة
وثلاثين سنة ثم ملك بعده منقاوش ابن اشمن نيفا واربعين سنة وقيل ستين سنة وهو
اول من عمل له الميدان وهو اول من بنى البيمارستان لعلاج المرضى وفي ايامه بنيت مدينة سمنود
بالواحات ثم ملك بعده ابنه مرقوره نيفا وثلاثين سنة وفي كتب القبط انه اول من ذلل السباع وركبها
ثم ملك بعده بلاطس خمسا وعشرين سنة ثم ملك بعدها اخوها فليمون سبعين سنة وفي ايامه
بنيت مدينة دمياط على اسم غلام له كانت امه ساحرة له وفي ايامه بنيت ايضا مدينة سمنود ثم

ملك

4- الصفحة الأخيرة

**ملخّص الأطروحة باللّغة الفرنسية:**

**Titre de la thèse :** les dimensions pragmatiques de subh Al-Aasha dans l'écriture d'Al- Aansha de : El- Qalquachandi.

Cette étude tente d'exploiter la pragmatique dans cet ancien ouvrage encyclopédique : Subh- AL- Aacha de : El- Qalquachandi.

Certes, la pragmatique est une forme de compréhension et outil analytique qui s'appuie sur la conception des actes de parole, l'argumentation et l'implication conversationnelle ... etc.

De fait, la pragmatique surmonte la description formelle de la langue étudiant sa réalisation concrète dans le cadre d'un ensemble de règles communicatives et conversationnelles.

D'ailleurs, cet ouvrage reflète plusieurs concepts :

- (La religion, la culture, la géographie, la philosophie, société de l'ère Mamaliq...).

- El- Qualquachandi dans l'ancien discours linguistique orale.

**ملخّص الأطروحة باللّغة العربية:**

تحاول هذه الدراسة استثمار الدرس التداولي في هذا الأثر الأدبي الموسوعي القديم الموسوم بـ:" الأبعاد التداولية في صبح الأعشى في كتابة الإنشا" للقلقشندي.

من الثابت، أنّ التداولية هي شكل من أشكال الفهم ووسيلة تحليلية للخطاب والتي تعتمد على بعض المفاهيم والآليات مثل: نظرية أفعال الكلام، الاستلزام الحواري والحجاج... الخ.

والواقع، أنّ التداولية تتجاوز الوصف الشكلي للغة لتدرس تحققها المادي المحسوس في إطار مجموع القواعد التواصلية والحوارية.

من جهة أخرى، يعكس هذا المؤلف عدة مفاهيم من قبيل:( الدين، الثقافة، الجغرافيا، الفلسفة، ومجتمع العهد المملوكي...). وكذلك صورة القلقشندي في الخطاب اللساني العربي التراثي.